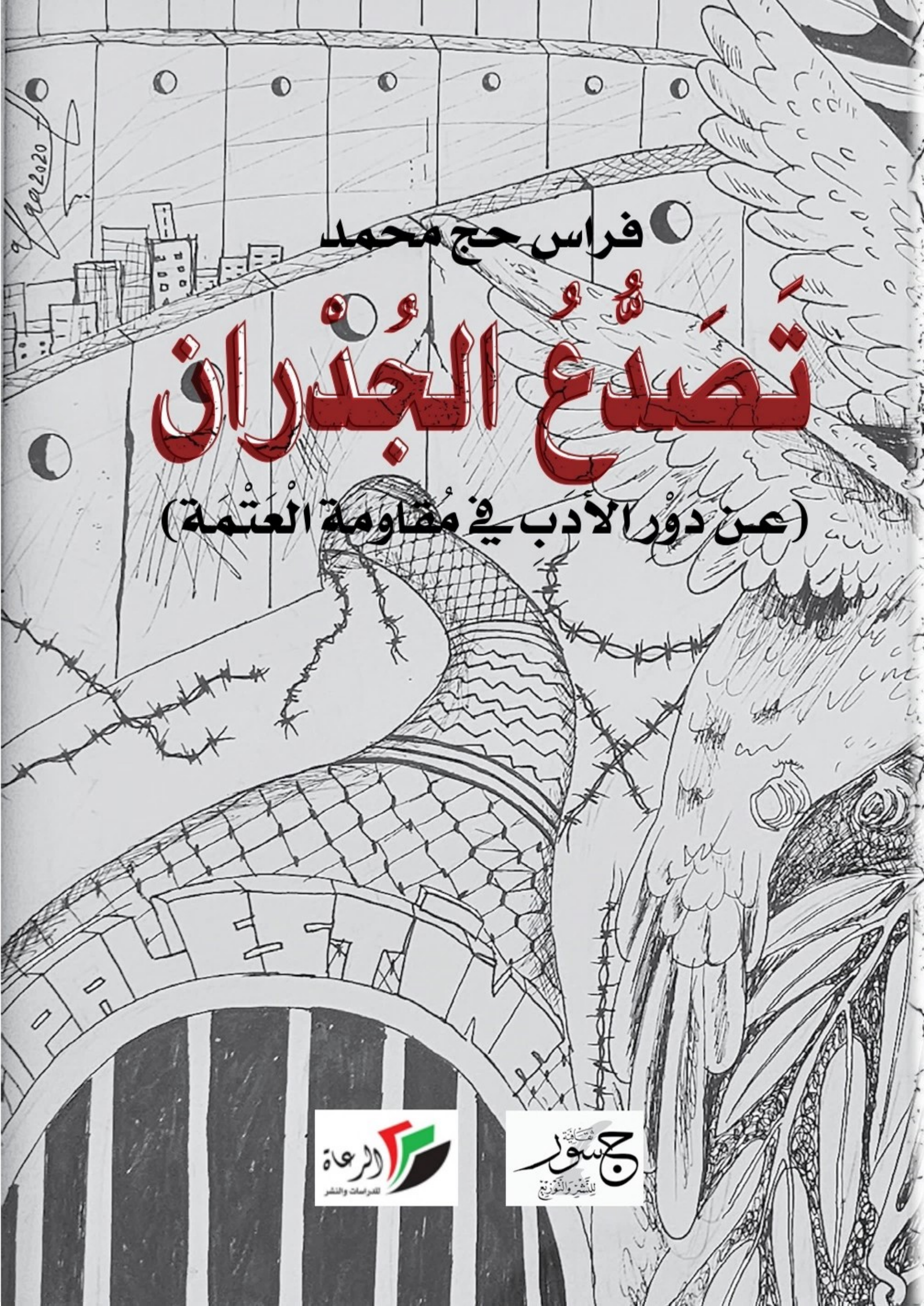

فراس حج محمد

تَصَدُّعُ الجُدْرانْ

(عن دوْرِ الأدبِ في مُقاومةِ العَتْمَة)

الرعاة للدراسات والنشر

جسور ثقافية للنشر والتوزيع

فراس حج محمد

تَصَدُّعُ الجُدْران

(عن دَوْرِ الأَدَبِ فِي مُقاوَمَةِ الْعَتْمَةِ)

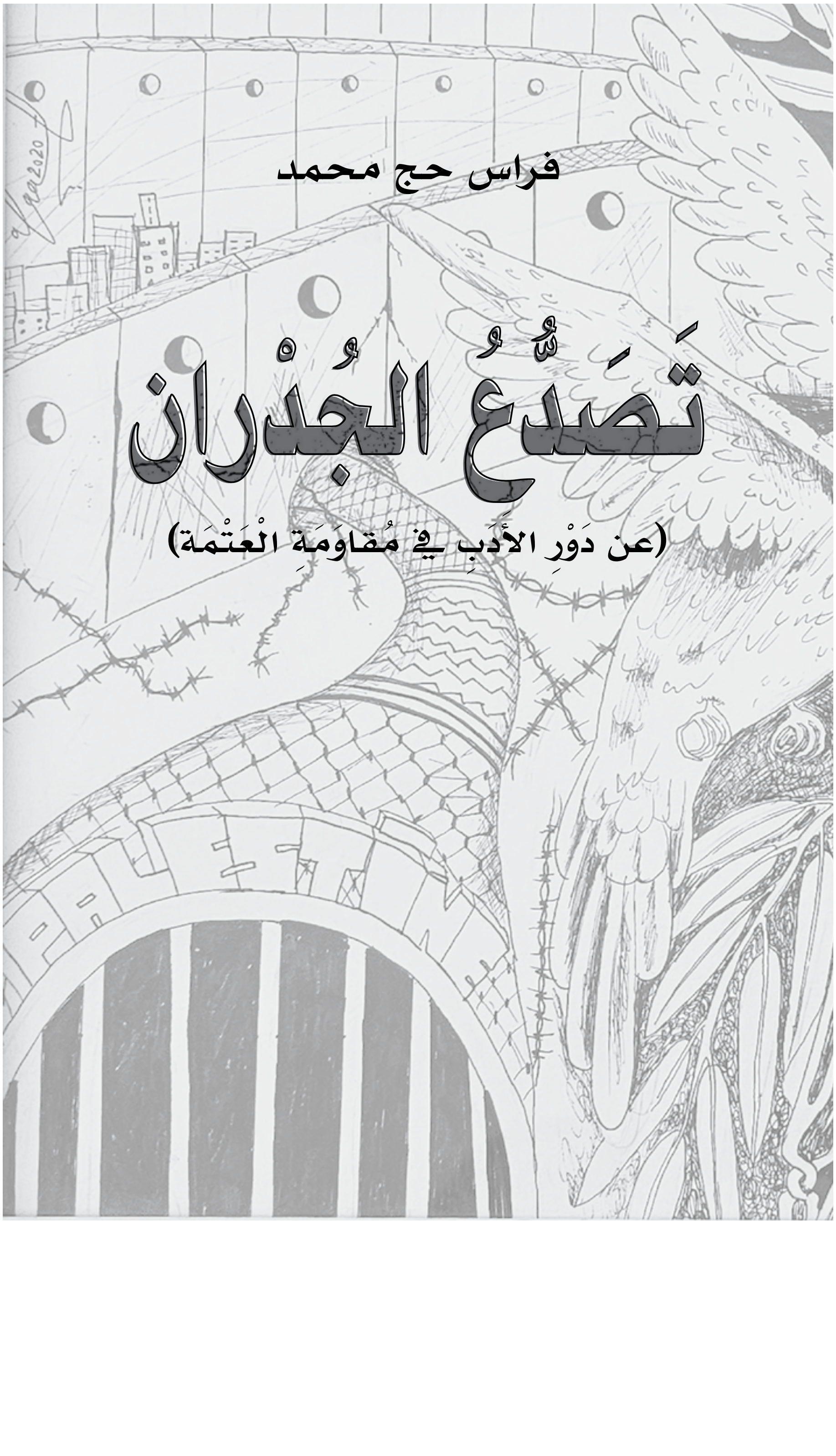

فراس حج محمد

تَصَدُّعُ الجُدْران

(عن دَوْرِ الأَدَبِ في مُقاوَمَةِ الْعَتْمَة)

جسور ثقافية للنشر والتوزيع
الرعاة للدراسات والنشر

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2023/10/5861)

رقم الصادر: م أ/5861/1/ 2023
حج محمد، فراس عمر
تصدع الجدران – عن دور الأدب في مقاومة العتمة/ حج محمد فراس عمر. – عمان: جسور ثقافية للنشر والتوزيع. 2023

( ) ص.346
ر.ا.: 810.90554
الواصفات: /النقد الأدبي//الأدب العربي//العصر الحديث/فلسطين
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

ISBN 978-9923-802-37-3 (ردمك)

الرعاة للدراسات والنشر | **جسور** ثقافية للنشر والتوزيع

هاتف: 00962795637217
بريد الكتروني: josoor2021@gmail.com
عمان–المملكة الأردنية الهاشمية

هاتف: 0097022961613
جوال: 00970599259874
رام الله–الشارع الرئيسي

لوحة الغلاف | الفنان علاء حوشية
تصميم | «**مجد**» للتصميم والفنون، حيفا

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any from or by any means without prior permission in writing of the writer

جميع الحقوق محفوظة. يمنع ترجمة أو نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيّة وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيّةوسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، لأغراض تجارية بدون إذن خطّي من المؤلف.

فراس حج محمد

تَصَدُّعُ الجُدْران

(عن دَوْرِ الأَدَبِ في مُقاوَمَةِ الْعَتْمَة)

2023

الإهداء

إلى تلـك اللحظـة مـن الزمـن القـادم، حيـث إذابة كل مفاتيـح وأقفـال السـجون لصنـع تمثـال حريـة، كمـا يـتراءى لصديـقيّ حسـن عبـادي وجميـل عمريّة.

تلخيص مفيد

وطني... يعلّمني حديد سلاسلي
عنف النسور ورقة المتفائل
ما كنت أعرف أن تحت جلودنا
ميلاد عاصفة وعرس جداول
سدّوا عليّ النور في زنزانة
فتوهّجت في القلب شمس مشاعل
كتبوا على الجدران رقم بطاقتي
فنما على الجدران مرج سنابل
رسموا على الجدران صورة قاتلي
فمحت ملامحَها ظلالُ جدائل
وحفرت بالأسنان رسمك داميا
وكتبت أغنية العذاب الراحل
أغمدت في لحم الظلام هزيمتي
وغرزت في شعر الشموس أناملي
والفاتحون على سطوح منازلي
لم يفتحوا إلا وعود زلازلي
لن يبصروا إلاّ توهّج جبهتي
لن يسمعوا إلّا صرير سلاسلي
فإذا احترقت على صليب عبادتي
أصبحت قديسا بزيّ مقاتل

قصيدة «ردة فعل»– محمود درويش

مقدمة: وعي الأسئلة وحصن الإجابة

صفاء أبو خضرة[1]

كثيراً ما قرأنا عن الاحتلال عبر قرون، قرأنا عن التعذيب والاعتقال والقتل والموت وانتهاك معايير الإنسانية بشتى الطرق والوسائل، وقد يختلف الأمر ما بين احتلال وآخر، من حيث الأسلوب والمنهجية، لكننا اليوم في مواجهة محتل لا يقصّر بدراسة واستحداث وسائل تعذيب مختلفة ليست على مستوى التعذيب الجسدي فقط، إنما النفسي والفكري، فهل نحنُ أمام محتلّ ذكي؟ إن جازَ القول، أم نحن أمام محتل أكثر تسلّطاً وعنجهية، وأضيف نرجسية؟

في كتابه، (تَصَدُّعُ الْجُدْران- عن دَوْرِ الأَدَبِ في مُقاوَمَةِ الْعَتْمَة)، يطرح الشاعر والناقد «فراس حج محمد» الكثير من الأسئلة التي ربما في خضمّ المعمعة والضوضاء العالمية ما بين الحروب والعواصف والأمراض الوبائية والانقلابات السياسية لم تخطر لنا ببال وسأدرج بعض هذه الأسئلة فيما بعد؛ في مقدمتي.

لقد كانت الثورة الأدبية، ولن أطلق عليها غير ذلك من منطلق التدفق الذي يصلنا من الأسرى الذي كانوا كتاباً من الأساس قبل الأسر، ومن أسرى صاروا ما بعد الأسر كتاباً، أدرجوا معاناتهم ومذكراتهم ورسائلهم وسيرهم فصارت كتباً تخرج إلينا من سراديب العتمة، فنعرف ما يحدث هناك، خلف القضبان الحديدية وفي زواريب الاحتلال التي يقضي فيها الأسرى سنين طويلة من أعمارهم، وربما يقضون أعمارهم كلها، لنعرف تماماً أننا أمام جيل بأكمله غير قابل للهزيمة، حتى إذا ما مات ماتَ منتصراً، ولستُ هنا أجرّدُ الأسير من طينته المعقودة كإنسان، فالإنسان كائن يشعر، ويتألم، ويغضب ويشعر بالخوف، كائنٌ قد تهزمهُ ذكرى، ويعصف به شوق، قد تمزّقه حسرة وقد يفتنهُ خيال، أجل، كلّ ذلك، ولا يهزمهُ احتلال ينكفئ على شدّ الوثاق على عنق الأسير، لا ليقتله مرةً، إنما يقتله في كلّ مرة مراتٍ كثيرة، ليرضي نرجسيتهُ ويعزز نفسهُ بفكرة الاكتمال والقوة الأولى.

---

1. كاتبة فلسطينية، تقيم في الأردن، صدر لها عدة إصدارات شعرية وسردية.

فكيف تهزم احتلالاً كبيراً، بكلّ عتادهِ وجنوده، وكلّ المطبعين الذين دعموه بشتى وسائل الدعم والاعتراف به كصاحب حق لا محتل وغاصب فكرة.

قد يعتقد البعض إنني أهذي، وربما عاطفية أكثر من اللازم، نعم أنا كذلك، لكنيّ في خضمّ ما قرأت من كتب الأسرى وأعمالهم الأدبية؛ الروائية والشعر والقصة والسرد، ما هي إلا نتاج ما ذكرت، ففي كثير من أوقات هزيمة المرء بينه وبين نفسه يعجز عن البكاء، لكن الأسير في زنزانته المعتمة والموصدة على كل متع الحياة ويدخل منها الضوء خجولاً وخائفاً، لأنّ السياج متربص به من كلّ صوب، يمسك بالقلم والورقة ويقاوم ليقول لنا: أنا موجود... أنا حي... أنا مكتمل اليوم مثل بدر في سمائه... ليقول لنا أنا أتألم أنا أشتاق أنا أخاف... أجل يقول كل ذلك؛ لأن الاعتراف بالشيء مواجهة صارمة وتحدٍ كبير، فإذا ما اعترفنا بمخاوفنا ستخرج متدحرجة بعيداً عنا، تلك التي كانت تقتحمُ أحلامنا ككوابيس تقضّ مهجع الأمل فينا والحب والحياة.

لقد طرحَ فراس حج محمد أسئلة في غاية الأهمية في هذا الكتاب فيما يتصل بكتابة الأسرى: لماذا يكتبون؟ فهل الكتابة ترفٌ، كيفَ تكون ترفاً لمن هم خارج السجن وسط الفوضى العارمة والضوضاء والتشظي خلف لقمة العيش؟ وكيف تكون ترفاً للأسير وهو ينتظر إما حكماً مؤبداً وإما سنوات طويلة تجرفهُ معها كسيلٍ يجرف الماء والكلأ والحياة.

نعم، الكتابة قد تكونُ كلّ شيء إلا ترفاً، فهي كينونة، وعجينة تشكلُ صاحبَها وتدبّ فيه الروح، في الكتابة وحدها يخرج الأسير من زنزانته، يتحول إلى ما يشاء، إلى عصفور، إلى بحر، إلى نهر، إلى غيمة، إلى وردة على خد الحبيبة. وفي الكتابة وحدها لن يشعر بالظمأ من هو على أهبة الأمل دوماً، ولذلك فقد أحصى الكاتب مجموعة كبيرة من الأسرى الكتّاب- ما زلوا في السجون الصهيونية- ختم بها كتابه تجاوز عددهم (130) أسيرا كاتباً.

وفي سؤال آخر، لا يقلّ أهمية عما قبلهُ: لماذا تصرّ إسرائيل أن يكون لديها أسرى؟

قد تكون الإجابة ساذجة جداً لو اكتفينا بالقول إنّ من أهمّ وسائل الهجوم التي يتبعها أيّ احتلال هي الاعتقال، أبداً غير صحيح... أما أن يكون الاعتقال ممنهجاً ولهُ قواعد وأيديولوجيات ومفاهيم وأبعاد، هنا وجبَ علينا الوقوف

عند السؤال والتأمل في الإجابة، فكما سبق وسألت فيما إذا كنا أمام احتلال ذكي، قد تكون إجابتي «نعم»، والاعتراف بذلك لا يعيب، رغم رفضي القطعي وصفه بتلك الصفة التي لا أقصد أبداً فيها المديح، بقدر ما أقصد فيها التسلط والتجبّر.

فأي جريمة مهما كانت مكتملة لا بدّ أن يكون لها منفذ لكشف الستارة عنها، وجريمة الاحتلال مكشوفة رغم التغطية السميكة والمعتمة عليها، فأسرى تستفيد منهم دولة الاحتلال في عمليات تفاوض، وقد يحدث في أي وقت، وأسرى تفرج عنهم لتجمّل صورتها أمام العالم إعلامياً، وأسرى تقمع بهم عائلاتهم وأصدقاءهم، وتستعملهم وسائل ضغط لأسباب كثيرة، وأسرى قد تجندهم جواسيس لصالحها، وتستعملهم أيضاً كوسيلة ترويع لمن هم خارج السجن بإشاعة أساليب التنكيل والتعذيب فتخلق رعباً في النفوس لتحبسهم في بيوتهم ومحالّهم وخوفهم فلا يثورون ضدها ولا يقومون بأي شكل من أشكال المقاومة. إذاً، هذه منهجية ذكية، لأنها لا تستطيع حسبما ذكر الكاتب «لا يستطيعون اعتقال شعب بأكمله».

وتحت بند الاتفاقيات الدولية لحقوق الإنسان والمواثيق الدولية يسأل الكاتب: الأسرى الفلسطينيون أين موقعهم؟ ولا أعتقد هنا أن الإجابة صعبة، لكنها قاسية، وقد أديرُ عجلة الزمن لنرى بوضوح الربيع العربي مع اصفراره واسودادهِ جراء الخراب الذي جرّه إلى كثير من الدول، فأغلب تلك المواثيق ما هي إلا جواز سفر لتكون تدخلاً في شؤون البلدان لا من أجل إصلاحها إنما من أجل السيطرة غير البريئة عليها وهدم ما تستطيع؛ لنهب ما تستطيع من خيرات تلك البلاد، والسيادة عليها بشكل أو بآخر، فتتشكل لها كمستعمرات ومحميات.

أين هو القانون الدولي من أسرانا المضربين عن الطعام، منهم من جاوز إضرابه المائة يوم، ومنهم من لقي حتفه دون أي تدخل أو شفقة أو محاسبة المتسبب؟ أين هو القانون الدولي من نعت ثوارنا ومجاهدينا ضد الاحتلال بالإرهابيين والسكوت ونعت المجازر والقمع والتنكيل بحق شعبنا الفلسطيني سواء خارج السجون أو داخلها؟ أين هو من الأسرى المصابين بأمراض مزمنة دون علاج أو رعاية أو تأمين احتياجات المريض؛ من الدواء وأشياء أخرى؟ أين هو هذا

القانون من القتل أمام عدسات الفضائيات؟ فالعالم بأجمعه يرى قتل الأطفال والنساء والصحافيين من مسافة صفر.

لقد نجح الكاتب في هذا الكتاب بالدوران مع «دولاب الأسرى» الذي يدور دون توقّف، مرّ من محطات كثيرةٍ دون الدوس على فرامل قضية معينة، فثمة قضايا كثيرة، وأمر إحصائها لنْ يكون مستحيلاً بالقدر الذي يكون متعباً ومرهقاً على كلّ الأصعدة، ابتداء من الأسئلة الكثيرة، وصولاً إلى الأسير ذاته، بصفته كائناً بشرياً ولد على الأرض، ولم يكن نتاج كوكب فضائي لا يتعب ولا يتألم كما ذكرت في بداية هذه المقدمة. لكننا في الجهة الأخرى لدينا القدرة على إنجاح الأسير والتعاطي مع حيثيات معينة تعينه على زنزانته المعتمة، على الأقل أن يصله إحساس وملموس في آن أنهُ ليس نسياً منسياً، وليس رقماً، وأن له حقوقاً من الواجب ومن الحق أن يحصل عليها بصفته إنساناً انتهك الاحتلال كل معايير إنسانيته.

كما ألقى الكاتب الضوء على مشروع «لكل أسير كتاب ومن كل أسير كتاب» الذي أسس له ورعاه المحامي حسن عبادي، فكان مشروعاً وصل الكاتب الأسير نفسه بالعالم الخارجي من خلال كتبه ووصل الخارج به من خلال إيصال الكتب اليه، ومن جهتي رأيت أن هذا المشروع لا يقلّ أهمية عن أي مطالبة مشروعة للأسير، لا تقل أهمية عن وجبة شهية له أو رداءً نظيفاً أو مقابلة ظريفة مع عائلته ومحبيه، لقد قرع- فعلاً- حسن عبادي الخزان قرعاً قوياً حتى سمع الكثيرون منا هذا القرع، ووصلنا صداه وتفاعلنا معه، وصلتنا مشاعر الأسرى أفكارهم، مذكراتهم، ورسائلهم، وتأوهاتهم، وأوجاعهم، وأحلامهم الكبيرة والصغيرة، ولم يكن كل ذلك بهيّن.

إن هذا المشروع من وجهة نظري من أهم المشاريع التي تحتاج دعماً أكثر، والفضل لصاحبه الذي أطلق شرارة المبادرة، وسعى إليها جاهداً دون كلل أو ملل، وكل من استطاع أن ينمي بذرة هذا المشروع وزرع فيه حبةً لا بدّ أنهُ ساهم في فرش درب الأمل لأسرانا ورسم ضحكة جميلة ولو حزينة على وجوههم.

في الجزء الثاني من الكتاب ألقى الكاتب الضوء على علاقته الشخصية بالأسرى من خلال أعمالهم، ومن ثم تحولت الصداقة من المجاز إلى الحقيقة عبر الاتصالات الهاتفية التي ربطت بينهُ وبينهم علاقة وطيدة، كانَ رباطها

المقدس قائماً من وإلى الأسير، وكان المحامي حسن عبادي الجندي القائم على المهمات الصعبة، فكتب فراس حج محمد الكثير من المقالات عن الأعمال الأدبية، ولم يكن مواربا ً بل دارساً لها وناقداً، وحرّر فيما بعد الكثير منها، ليكون الحبّ مشتركاً بين الجميع.

لقد تحوّلت الكتابة الجسر الذي يصل الروح بالجسد، على الصعيدين، فالأسير يشعر بأنهُ حيّ، لأن آخرَ في العالم الآخر يقرأ حروفه ويحلل كلماته، وأصبح هذا الجسر طويلاً جداً ليصل الأسرى أكثر عبر صداقات خارج السجن، فنحن في الخارج كلّ ما نعرفه عن الأسير أنه يعاني ويتألم ويتعذب، لكننا أبداً لن نعرف جوانب أخرى لولا تلك الكتابات التي خرجت الى النور لتكون انتفاضة وثورة بوجه الظلم، وهذا ما حصل بالفعل؛ فقد كوّن الكاتب صداقات تبادل فيها النقاش مع الأسرى في أعمالهم وكتبهم الأدبية.

كل الشكر للناقد والشاعر فراس حج محمد على جهده الواضح في هذا الكتاب وإضاءاته على مؤلفات الأسرى والرسائل المتبادلة بينه وبينهم، وقد نجح الكاتب بتشبيه أعمال الأسرى بالنطف المهربة، لأنها فعلاً هي امتداد لهم وصلة الوصل مع الحياة، وليبقى الأمل معقوداً مع كل ولادة.

وأخيرا، لقد توقفت بمرارة في هذا الكتاب عند أم يوسف، عند وسادتها التي غرقت بدمعة اشتياقها لابنها التي انتظرت بشغف ملامسة وجنتيه، نامت أم يوسف وأسئلة كثيرة تغزو رأسها وتخز قلبها حتى توقف. لم يستطع دماغها البريء أن يحتمل فكرة أن ابنها- قرة عينها- يشتهي لقمة من يدها ولن يطالها، وربما دمعت عينهُ الوقورة قائلاً: آخ يا يمه.

7/9/2023

الفصل الأول:

الأسرى بين حرفين

التجربة الاعتقالية الفلسطينية في بعدها التوثيقي

مقدّمة:

يشكّل التوثيق بأنواعه المختلفة علامة من علامات الشعب الحيّ الذي يستشعر عظمة ما يقوم به حالياً من فعل حضاريّ، وما قام به- سابقاً- أسلافه الذين خلّفوا له إرثاً عظيما، وصله كاملا متكاملا، في شتى العلوم والمعارف، وبشتى الأشكال الفنية والتعبيرية، لذلك لا أمة عظيمة دون أن يكون لها تاريخ موثق، صحيح، متواصل من الأجداد إلى الأحفاد، وكلما كان هذا التراث متنوعا وعميقا وصالحا للإشعاع المستمر يكون أكثر دلالة على حيوية هذه الأمة أو تلك الحضارة.

ولو أردت استعراض تجارب الشعوب الحية ذات الحضارات العريقة وأثر التدوين التاريخي التوثيقي في حياتها لَلَزمني الكثير من الوقت والصفحات المتعددة، ولكن تكفي الإشارة إلى هذا التراث الذي ما زلنا نعتاش على جزء كبير منه، نحن المنتمين إلى الأمة العربية الإسلامية على سبيل المثال، هذا الإرث الثقافي الشامل لكل مكونات الحضارة؛ من عربية، وفارسية، وكردية، وبلغات متعددة، وشملت كل مناحي الحياة العقلية والاجتماعية والسياسية، ما يشير إلى حيوية هذه الحضارة وتنوعها وخصب منابعها وتعدد أعراقها وثقافات أبنائها.

يجب ألا يغيب عن البال أن كثيرا من الباحثين كتبوا في ذلك واستوفوه حقه، فيكاد لا تشكل أية كتابة جديدة في هذا الموضوع أية إضافة جديدة، لكن ثمة ما هو لافت للنظر من أجل الإضاءة عليه فيما يخص التوثيق التاريخي للمعتقلات الصهيونية في فلسطين المحتلة، وما تقدمه الحركة الأسيرة الفلسطينية في هذا الجانب. وعلى الرغم من أن الموضوع له الكثير من التشعبات، إلا أنني سأحاول أن أضيء على أهمها فيما يأتي.

السجون الصهيونية في فلسطين:

منذ احتلال فلسطين عام 1948 والإعلان عن ولادة الكيان الغاصب، ولدت ظاهرة المعتقلين الفلسطينيين الذي أودعوا في السجون الصهيونية التي ورثتها

العصابات الصهيونية عن سلطة الانتداب، لأنها حلت محلها، وكانت بدورها قد ورثت تلك السجون عن فترة الحكم التركي العثماني لفلسطين، فالسجون في فلسطين المحتلة هي في الحقيقة أربعة أنواع: سجون تركية، وسجون إنجليزية، وسجون صهيونية، وسجون عربية (أردنية في الضفة الغربية، ومصرية في قطاع غزة) قبل عام 1967، وكلها أصبحت بعد إتمام احتلال كامل فلسطين تحت إمرة سلطة الاحتلال الصهيوني التي كانت تعامل السكان الأصليين بعد تهجير القسم الأكبر منهم بالحديد والنار، فوضعتهم تحت الحكم العسكري المباشر، فاعتقل الكثيرون على كتابة قصيدة، أو على مقال أو بسبب مشاركته في مهرجان، أو على كلمة قالها أحدهم في غرفة صف أو اجتماع أو في مسجد أو في سيارة أو في أي مكان، فقد كانت، وما زالت- العيون مبثوثة لرصد حركة كل الذين يشكلون لسلطة الاحتلال شبهة. فكان من المعتقلين الإنسانُ البسيط العادي، كما كان المثقف، والشاعر، والفنان، والمرأة، والطفل، وكبير السن، ويصدق على الشعب الفلسطيني أنه بلد المليون الأسير منذ عام 1948 وحتى اليوم، فنادرا ما تجد بيتا أو أسرة لم يعتقل أحد أبنائها. فالجميع معرضون للاعتقال في أية لحظة، وأحيانا دون أن يكون هناك لائحة اتهام، تحت بند ما يعرف بالحبس الاحترازي، أو «الاعتقال الإداري» الذي يظل فيه السجين تابعا لرحمة الشرطة أو (الشابك) أو القاضي في تمديد حكمه كلما أوشك على الانتهاء، بحجة أن هذا الشخص يمثل خطرا أمنيا محتملاً، بناء على حدس ضابط المخابرات المكلف بمتابعة القضية، أو المشرف على المنطقة ضمن نطاق مسؤوليته الأمنية المباشرة.

لقد ازدادت عدد السجون زيادة ملحوظة في فلسطين، وانتشرت بعد اكتمال احتلال كامل فلسطين بعد عام 1967 في كامل الأرض الفلسطينية من النقب جنوبا، حيث معتقل أنصار 3 الصحراوي القاسي، مرورا بسجون الرملة وريمون وعسقلان والدامون، وبلغ عدد السجون ومراكز التوقيف حوالي (27) سجنا ومركز توقيف، وذلك حسب إحصائيات وكالة وفا الرسمية (وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينية). عدا عدد من السجون التي أغلقت، أو تلك التي أصبحت تحت سيطرة السلطة الفلسطينية بعد عام 1994.

هذه السجون ابتلعت في داخلها كل أطياف الشعب الفلسطيني ولفترات تتراوح بين عدة شهور وبين المؤبدات الطويلة التي قد تصل إلى عشرات المؤبدات، فمن

الطبيعي والحالة هذه أن ترى أسرى كثيرين قد مكثوا أربعين سنة متواصلة في السجن، كالمناضلين كريم يونس وماهر يونس، ولك أن تتخيل شخصا أبعد عن الحياة الطبيعية كل هذه المدة.

أفرزت التجربة الاعتقالية الفلسطينية ظاهرة «عمداء الأسرى»، ويشمل هذا المصطلح كل أسير أتم عشرين عاما في السجن، وما زال قابعا فيه، وقد قارب عددهم (300) أسير، وذلك في إحصائية نهاية عام 2022، عدا ظاهرة المعتقلين الإداريين الذين ناف عددهم في آخر إحصائية رسمية فلسطينية عن الألف أسير فلسطيني، وظاهرة الأسرى الأطفال، والأسرى المرضى بالأمراض المزمنة كالسرطان والسكري وأمراض القلب والضغط وغيرها، إضافة إلى ظاهرة الأسرى الشهداء، وهم مجموعة من الأسرى استشهدوا في السجون، إما نتيجة التعذيب أو نتيجة الإهمال الطبي أو أي أسباب أخرى عارضة، وهؤلاء غالبا ما كانوا محكومين أحكاما عالية، ولم يتموا محكوميتهم، وموتهم ليس كفيلا بإنهاء مدة محكوميتهم فسيظللون أسرى. ويشمل كذلك الشهداء الذين يستولي جنود الاحتلال على جثثهم، وقد قتلوا خلال العمليات المسلحة والاشتباك المباشر مع الجنود، فتقوم باعتقالهم أيضا، وتدفنهم في مقابر يطلق عليها «مقابر الأرقام» أو في ثلاجات الموتى. وتجعلهم ورقة ضاغطة في أي عملية تفاوض مع الفلسطينيين، وخاصة في صفقات التبادل، واستطاع الكيان الغاصب أن يحرز مكاسب سياسية نتيجة ذلك.

هذه هي الخطوط العريضة لحال المعتقلين الفلسطينيين في السجون، ولا يتم التعامل معهم كأسرى حرب، كما تنص عليه الاتفاقيات الدولية ذات العلاقة (اتفاقية جنيف الثالثة بشأن معاملة أسرى الحرب المؤرخة في 12 آب/ أغسطس عام 1949)، بل تتعامل مع الفلسطينيين كإرهابيين، وتطبق عليهم قوانين «محاربة الإرهاب»، ولذلك فهم محرمون من حقوقهم الإنسانية عدا ما يمارس عليهم من تعذيب نفسي وجسدي أفضى بالكثير من المعتقلين إلى الموت أو التسبب بإصابات جسمية بليغة؛ إلى الحد الذي فقد فيه بعض الأسرى النظر في إحدى العينين أو كلاهما، أو التسبب بالصمم، أو بتر بعض الأطراف، أو الإصابة بالجنون والاختلال العقلي، وغير ذلك الكثير من العاهات الدائمة.

لكن الحركة الأسيرة لم تستسلم لهذا الوضع الكارثي، وناضلت من أجل أن

تحسـن ظـروف المعتقلـين داخـل السـجون، فحققـوا إنجـازات مهمـة، ظلـت محـل تهديد بسـحبها وخاضعـة لمزاجيـة السـجان ومرهونـة بالحكومـات المتعاقبـة، إن مـا حققـوه منهـا حققـوه عبـر مسـيرة طويلـة مـن النضـال داخـل المعتقـلات بالأسـاليب والوسـائل المتاحـة وأهمهـا الإضـراب عـن الطعـام، أو إجـراءات أخـرى إداريـة داخـل المعتقـل، مـن مثـل القيـام بأعمـال الاحتجـاج الجماعـي داخـل المعتقـلات بالطـرْق علـى الأبـواب أو إرجـاع وجبـة مـن وجبـات الطعـام، أو رفـض الخـروج إلـى «الفـورة» أو مقاطعـة المحاكـم الصهيونيـة.

مظاهر التوثيق اليومي في حياة الأسرى:

لقـد نجـح الأسـرى في حقيقـة الأمـر عبـر سلسـلة مـن الإجـراءات في بنـاء التجربـة الاعتقاليـة والاسـتفادة مـن تراكـم تلـك الخبـرات التـي تمتـد إلـى مـا يقـارب المائـة عـام إذا مـا أخذنـا بالاعتبـار أن الفلسـطيني كان دائـم التعـرض للاعتقـال منـذ العهـد التركـي، هـذا جعـل التجربـة غنيـة أولا بتنوعهـا الزمانـي وتنوعهـا المكانـي؛ حسـب السـجن وظروفـه، وتنوعهـا السياسـي الـذي يحكـم السـجناء الفلسـطينيين الذيـن يمثلـون أحزابهـم وفصائلهـم التـي انتقلـت معهـم إلـى المعتقـلات، فصـارت مجتمعـات السـجن صـورة عـن المجتمـع الفلسـطيني بتنوعاتهـا الأيديولوجيـة والسياسـية، وشـكل كل فريق وحدة سياسـية كان لهـا برنامجهـا التثقيفـي الصـارم، برنامـج يشـمل الناحيـة السياسـية وقـراءة الأحـداث ومتطلباتهـا، ليتخـذ الأسـرى حيالهـا موقفـا معينـاً يدعمـون فيـه موقـف فصيلهـم السياسـي في الخـارج، ولذلـك ظـل المعتقلـون الفلسـطينيون ركنـا أساسـيا في أي اتفـاق أو خطـوة نضاليـة تجـاه المحتـل، وكانـت هـذه القـراءات السياسـية والتحليـلات الإخباريـة توثـق في كراريـس خاصـة، وتـوزع علـى الأسـرى كافـة في السـجن الواحـد، وأحيانـا يقومـون بتوصيلهـا بطريقتهـم الخاصـة إلـى السـجون الأخـرى. فـكان التوثيـق السياسـي أهـم أشـكال التوثيـق التاريخـي داخـل السـجن.

ومـن أجـل الضبـط الإداري لعناصـر التنظيـم الواحـد كان لا بـد مـن أن يكـون هنـاك «تعليمـات إداريـة» تصـدر في تعاميـم إداريـة، تشـمل تنظيـم العمـل اليومـي للمعتقلـين وكيفيـة التعامـل فيمـا بينهـم، وحـل الخلافـات والنزاعـات إن نشـبت، وغيـر ذلـك مـن تراتبيـة العمـل التنظيمـي والحزبـي وإجـراء الانتخابـات داخـل المعتقـلات، وكان كل هـذا يصـدر أيضـا في كراريـس إداريـة، ملزمـة، وتتضمـن معهـا حزمـة مـن العقوبـات

لأحد أفراد التنظيم لو خالف تلك القواعد المقررة. لقد شكلت هذه التعاميم الإدارية أيضا شكلا آخر من أشكال توثيق يوميات الحركة الأسيرة.

عدا هذين الشكلين من التوثيق التاريخي، كانت الحركة الأسيرة تعقد الجلسات التثقيفية العامة، الأدبية والدينية والتعليمية، وكانت توثق كل هذه الجلسات في محاضر خاصة، لأنها كانت تتم ضمن برنامج محدد خاص بكل فصيل فلسطيني، وتحكمه التوجهات العقدية والأيديولوجية، وكنتُ قد تحدثت عن هذه الجلسات التوثيقية في كتابي «ملامح من السرد المعاصر- قراءات في متنوع السرد» في الفصل الخامس منه المعنون بـ «في داخل السجن»[1].

لقد شاءت الظروف أن ينتقل جزء من هذه الوثائق إلى المكتبات الفلسطينية بعد انسحاب الاحتلال الجزئي من المدن الفلسطينية، فاستولى الفلسطينيون مثلا على وثائق سجن الجنيد في مدينة نابلس، وكانت وثائق غاية في الأهمية التي ترصد هذه الجوانب، وهي مكتوبة بخط اليد، ومبوبة بطريقة عملية؛ يسهل الرجوع إليها ودراستها، وهي الآن مودعة في قسم أطلق عليه «مكتبة الأسير» في مكتبة بلدية نابلس العامة، ويوجد نسخ مصورة منها أيضا في مركز أبو جهاد لشؤون الحركة الأسيرة التابع لجامعة القدس أبو ديس[2]، ويشمل هذا المركز كل ما أنتجه الأسرى من وثائق مكتوبة في المجالين السابقين أو أي كتابات أخرى ورسائل إضافة إلى أنه يحوي في زواياه كثيرا من مشغولات الأسرى اليدوية من مجسمات أو رسومات وما شاكل ذلك. وتعد هاتان المكتبتان مصدرا مهما لدراسة أعمال الأسرى الفكرية واليدوية والفنية، لما تشتمل عليه من تنوع، يصل إلى آلاف المواد التوثيقية، علاوة على أن لمركز أبو جهاد جهدا بحثيا مهمّا فيما يخص قضايا الأسرى، فقد عقد مؤتمره السنوي السادس، عام 2016، لمناقشة «أهمية توثيق تجربة الحركة الأسيرة الفلسطينية داخل المعتقلات الإسرائيلية».

الكتابة الأدبية وأهميتها التوثيقية:

رافقت الكتابة الأدبية في السجون كل السجناء الكتاب، قديما وحديثا، عندنا نحن الفلسطينيين أو عند غيرنا من الأسرى حول العالم، وسبق أن قُدّمت في هذا الجانب دراسات وكتب، لكن ما يميز التجربة الأدبية في السجون الصهيونية

1. ينظر الكتاب: طبعة مؤسسة أنصار الضاد، أم الفحم، 2019، ص143.
2 يكشف الحوار الذي أجريته مع رئيس المركز الدكتور فهد أبو الحاج الكثير من القضايا. ينظر هذا الكتاب في الصفحات الآتية.

هـي تحولها إلـى ظاهـرة ذات ملامـح تكاد تخصهـا وحدهـا، والمكابدات التـي يعانـي منهـا الأسـير خـلال الكتابـة أو مـا بعـد الكتابـة، وكنـت قـد أشـرت إلـى ذلـك مـع الزميـل المحامـي حسـن عبـادي في كتابنـا المشـتركة «الكتابـة علـى ضـوء شـمعة»[3]، حيث جمعنـا فيـه شـهادات مـن (36) أسـيرا كاتبـا. فتحدثـوا عـن عوالمهـم الخاصـة في الكتابـة، وكشـفت تلـك الشـهادات كـم هـو مهـم أن يكتـب الأسـير حكايتـه.

والملـح الثانـي الـذي يسـم تجربـة الكتابـة الأدبيـة داخـل السـجن هـو أن نسـبة كبيـرة مـن الكتـاب الفلسـطينيين قـد جربـوا السـجن وكتبـوا مـن داخلـه ومـن خارجـه، مـن أمثـال أبـي إقبـال اليعقوبـي ونـوح إبراهيـم ومحمـود درويـش وسـميح القاسـم وتوفيق زيـاد ومعـين بسيسـو وغيرهـم مـن جيـل النكبـة ومـا سـبقها، مـن الجيـل الأول، ثـم المتـوكل طـه، وعبـد الناصـر صالـح، وأسـامة المغربـي وعائشـة عـودة ووداد البرغوثـي مـن الجيـل الثانـي والثالـث مـن الكتـاب الفلسـطينيين، وصـولا إلـى جيـل جديـد مـن الكتـاب الفلسـطينيين الذيـن لـم يكتبـوا إلا داخـل السـجون الصهيونيـة لأنهـم قـد ولـدوا كتابـا فيهـا، وأصبحـوا يشـكلون ظاهـرة لافتـة، فهـم مـن ذوي الأحـكام العاليـة أولا، فهـم مـن عمـداء الأسـرى حاليـا، فقـد أمضـى كثيـر منهـم عشـرين عامـا في السـجون، وثانيـا، اتخـذوا مـن الكتابـة عمـلا توثيقيـا لتجاربهـم الشـخصية بأسـلوب أدبـي أو أسـلوب تسـجيلي يتصـف بالأدبيـة، فقـد أنتجـت هـذه الظاهـرة العشـرات مـن الكتـاب الذيـن مـا زالـوا يقبعـون في السـجون[4]، ويكتبـون مـن السـجون، وتنتشـر كتبهـم وتشـهر وهـم في السـجون[5].

تكتسـب هـذه الظاهـرة أهميتهـا التوثيقيـة في أنهـا تلتفـت إلـى أدق التفاصيـل في هـذا العالـم السـري خلـف القضبـان، فتناولـت تلـك الكتـب كل مـا يخطـر علـى البـال في هـذا العالـم المرعـب، بـدءا بالعلاقـة مـع الـذات، وكيـف يدبـر الأسـير أمـر نفسـه في مواجهتـه للمحققـين، وفي العـزل الانفـرادي إلـى تعاملاتـه اليوميـة مـع نـزلاء السـجن مـن أبنـاء الفصيـل السياسـي الـذي ينتمـي إليـه أو أبنـاء الفصائـل الأخـرى.

3. صـدر الكتـاب عـن دار الرعـاة وجسـور ثقافيـة، رام الله وعمـان، 2022، وسـيكون في هـذا الكتـاب في الفصـل الخامـس وقفـة خاصـة، وسـأورد مباشـرة الدراسـة التـي تناولـت فيهـا هـذه التجربـة وتحليلهـا وأهميتهـا.
4. أحصيت أكثـر مـن (125) كاتبـاً وكاتبـة يقبعـون داخـل السـجون، وأوردت أسـماءهم وسـيرة مختصـرة لـكل واحـد منهـم في الفصـل السـادس مـن هـذا الكتـاب.
5. ضمنـت هـذا الكتـاب في الفصـل الخامـس تقاريـر لاحتفاليـات متعـددة أقيمـت لكتـب الأسـرى المطبوعـة، وكتابهـا مـا زالـوا في السـجون.

كما وثقت تلك الكتب الحكاية الشخصية لكل أسير كاتب أتى بها معه من الخارج ليعيد صياغتها، متأنيا متأملا.

لقد كتب الأسرى الفلسطينيون في كل صنوف الكتابة الأدبية من شعر ورواية، ورسائل وجدانية وخواطر، وقصص قصيرة، وسير ذاتية ويوميات ومذكرات، كما كتبوا البحوث الأكاديمية والدراسات المحكمة، وكتبوا المقال السياسي والنقدي، والمراجعات الفكرية والسياسية، وكتبوا للأطفال، فأغنوا المكتبة الفلسطينية، وأحدثوا نوعا من التوازن الإبداعي بين الكتابة الذاتية الوجدانية أو البعيدة عن آفاق القضية الفلسطينية التي غلبت على الكتاب الشباب خارج السجن، بمن فيهم بعض الكتاب المكرسين من الجيل السابق إذ أخذوا يغوصون في كتاباتهم نحو المعالجات الاجتماعية وما في المجتمع الفلسطيني من أمراض وفساد في ظل السلطة الفلسطينية، فجاءت كتابات السجن لتضيف بمعمارها الفني والموضوعي الشيء الكثير والمميز في هذا الجانب، ليظل الأدب الفلسطيني بكل مراحله حاملا لشواهد إبداع الكتاب فيما عرف بأدب المقاومة، وهذا ما يكسب هذا الأدب نوعا من الأخلاقية الإبداعية تجاه الحركة الثقافية الفلسطينية بشكل عام، ولا يخلو هذا الأمر أيضا من أهمية توثيقية لازمة لرصد حركة الثقافة الفلسطينية وتوجهاتها بين ما هو داخل السجن وما هو خارجه، خاصة أن هناك فئة من الكتاب لم تجرب السجن، ولم تعرف هذا العالم، ولم تنخرط في العمل الوطني والسياسي لعدم قناعته به فلم تكتب فيه أو بأي أفكار تحمل طابع أدب المقاومة الفلسطيني في كلاسيكيته المعهودة.

تميل هذه الكتب في أغلبها، عدا حالات قليلة، إلى البعد التسجيلي المباشر، وتتمحور حول ذات الأسير وقضيته، فيشرح فيها قضيته بالتفصيل، كما فعل مثلا الأسير راتب حريبات فكتب كتابه «ما لي لا أرى الأبيض» حول الإهمال الطبي في السجون، وكما فعل الأسير حمزة يونس في كتابه «الهروب من سجن الرملة» الذي كتبه بعد نجاحه في الهروب من السجن، بعد عدة محاولات.

وثمة أعمال أخرى تناولت ظواهر عامة في التعامل مع السجّان كما هو الحال مع وليد الهودلي وكتابه «ستائر العتمة» الذي يحذر فيه من ظاهرة العصافير في السجن، وهم مجموعة من المتعاونين مع السجان داخل السجن، مكلفون بأساليب ناعمة بسحب اعترافات من الأسرى بعد أن يكون المحققون قد فشلوا

من الحصول على تلك الاعترافات تحت التعذيب.

أما الكاتبة عائشة عودة التي كتبت تجربتها المريرة في الاعتقال في كتابيها «أحلام بالحرية» و«ثمنا للشمس» فوثقت فيه تفاصيل التعامل مع الأسيرات الفلسطينيات على وجه التحديد، من خلال ما تعرضت له من تعذيب متعدد الأشكال والأحوال، ولأنها تضيء على عوالم مخفية لا يستطيع الكاتب الأسير أن يكتبها لأنه لم يعشها[6].

وأهم ما في تجربة المرأة الأسيرة بشكل عام هو تعرض الأسيرات الفلسطينيات للتهديد بالاغتصاب، من قبل المحققين أو ما يتعرضن له من تحرش جنسي من السجينات الجنائيات اليهوديات. لتظل كتابة الأسيرات في هذا الجانب ذات أهمية خاصة، لتصبح وثائق تاريخية على حقب زمنية تعرضت فيها الأسيرات لشتى أصناف التعذيب والقهر والابتزاز.

مجالات دراسة الحالة الاعتقالية الفلسطينية:

حرص مركز أبو جهاد لشؤون الحركة الأسيرة على عقد مؤتمره السنوي لمناقشة الحالة الاعتقالية الفلسطينية، ومن المحاور البحثية التي قدمها مؤتمراته السنوية التي يعقدها منذ عام 2011، فكانت كما يأتي:

إبداعات انتصرت على القيد، وتجربة الإضرابات المفتوحة عن الطعام، والصحافة والترجمة في تجربة الحركة الأسيرة، والتجربة الديمقراطية للحركة الأسيرة في المعتقلات الإسرائيلية، وأثر الرسالة في حياة الأسير الفلسطيني، ومعاناة الأسيرات الفلسطينيات والعربيات داخل المعتقلات الإسرائيلية، والأسير إنسان، واللوائح الداخلية والأنظمة في المعتقلات الإسرائيلية حاجة وطنية، والنقد في نتاجات الأسرى الفلسطينيين والعرب في المعتقلات الإسرائيلية.

ونظرا لثراء التجربة الاعتقالية وانفتاحها على قضايا كثيرة، فإنه يمكن للباحثين أن يقدموا دراساتهم في هذه الحالة، في أبعادها الإنسانية والسياسية والأدبية، ويمكن أن تدرس المحاور الآتية ضمن هذا العنوان أيضا: «الأسرى وآفاق من الحرية- تجارب كتابية»، وتكون في القضايا الآتية:

- كيف يتغلب الأسرى وخاصة ذوي الأحكام العالية على الوقت؟

6. ينظر: كتاب «ملامح من السرد المعاصر- قراءات في متنوع السرد»، القراءة الخاصة بتجربة الكاتبة عائشة عودة، ص150.

- الحركة التثقيفية داخل المعتقلات، ودور المكتبات داخل المعتقل في تنمية الثقافة وصقل الشخصية.
- بناء علاقات متميزة مع الجانب المتعاطف من الإسرائيليين والأجانب، وقد تحدثت بشكل جيد عن هذا عائشة عودة في كتابيها ثمنا للشمس وأحلام بالحرية.
- الاهتمام بالأسرى ضمن مقرر دراسي في المدارس، وأن يكون هناك مقرر إلزامي في الجامعات الفلسطينية حول الأسرى. الآن يوجد مقرر في جامعة القدس المفتوحة وجامعة بير زيت حول الحركة الأسيرة، وتعميم التجربة على كل الجامعات الفلسطينية، وجعله إلزاميا، كمتطلب جامعة إجباريا.
- العمل على جمع كل الكتابات الفلسطينية والعربية والعالمية التي تحدثت عن الأسرى الفلسطينيين، وتكون جزءا من المكتبة الوطنية أو من أقسام مركز أبو جهاد للحركة الأسيرة، ويكون المؤتمر باحثا ومنقبا عن آليات ذلك، ومنح الجمهور فرصة للمناقشة بعد كل جلسة، لما لهذا النقاش من إثراء للموضوع.
- الأسرى الأطفال تحديدا، إحصائيات، سوء المعاملة، كيف يجب الدفاع عنهم وحمايتهم من الاحتلال ومن ممارسات الاحتلال داخل السجن، والتركيز على الجانب القانوني في ذلك.
- مفاهيم يجب أن تصحح حول الأسرى، هل يطلق عليه معتقل؟ أم أسير؟ أم سجين؟ وماذا يعني ذلك ومخاطر اللغة واستخداماتها، والحذر من وجود مفاهيم خاطئة حول التجربة الاعتقالية في المقررات الفلسطينية.

تكتسب هذه الكتابات أهميتها أيضا في عدة جوانب أخرى لها ارتباط بعملية التوثيق التاريخي بعموميتها، أشير إلى بعضها فيما يأتي:

1. توفر هذه الكتابات مجالات لدراسة وملاحظة أساليب الكتابة واختلافها بفعل ظروف الكتابة نفسها ما بين كتاب السجن، وكتاب خارج السجن؛ عملا بمقولات النقد الاجتماعي التي تنظر إلى المؤثرات البيئية والاجتماعية والسياسية فيما ينتج من أدب، فلكي تفهمه كاتباً عليك أن تعرفه إنساناً، إذ لا تكفي النظرة الجمالية النصية لفهم تلك النصوص فهما عميقاً، لاسيما

أنه أدب كتبه مبدعوه من أجل غايات اجتماعية ونضالية، لا من أجل غايات الكتابة الخالصة المعتمدة على الفنية وحدها، فهذه الكتابات لا تعترف بنظرة الفن للفن، بل هي كتابة محملة بالأهداف والرسائل. فلذلك من ينظر إليها نظرة جمالية لن تشفي غليله، لأن تركيز أدبائه- بحكم تجاربهم الكتابية التي كانت تجارب أولى- ستكون منصبة على المضمون أولا وأخيرا، مع تحقيقها بطبيعة الحال للشروط الأولية التي تجعلها داخلة في باب الأدب، ويستطيع الباحث أن يجملها في ثلاثة أمور: الصحة اللغوية والتركيبية، ووضوح التعبير عن المضمون، وتماسك البنية الكلية للعمل وترابط عناصره الشكلية معاً.

2. يرفد هذا الأدب مقولات السياسة الفلسطينية في ثوابتها التاريخية، ويعززها في الصراع مع المحتل، ويؤكد أنه لا تنازل عن تلك الثوابت التي تشكل إجماعا وطنيا عند كل الفصائل الفلسطينية، سواء منها العلمانية أم الدينية أم اليسارية، وسيظل هذا عاملا نفسيا محصنا للذات الوطنية في طموحاتها السياسية، خاصة لدى الأسرى الذين أكسبتهم التجربة الاعتقالية قناعات راسخة بضرورة التمسك بهذه الثوابت.

3. يسعى منتجو هذا الأدب إلى الحرية بكل الوسائل المتاحة، فالكتابة في السجن- كما جاء عند الكثيرين منهم في شهاداتهم المشار إليها أعلاه- تتخذ معادلا فنيا وموضوعيا- يكاد يكون حقيقيا- للحرية ذاتها، وهذا ما يمنح كتاب السجن طاقة شخصية وذاتية وقدرة استثنائية على التحدي ومقاومة ظروف الاعتقال، وإجراءات السجن والسجّان.

4. يعد هذا الأدب مصدرا مهما لدراسة «المعجم التاريخي للغة في فلسطين» من خلال رصد ما شاع فيه من مصطلحات خاصة وتتبعها، بوصفها ظاهرة لغوية وتاريخية في آن واحد، تابعة للتجربة الاعتقالية بكل أبجدياتها ودوائرها، وما قد يتسلل إلى هذا الأدب من ألفاظ اللغة العبرية، بحكم التجربة وخصوصيتها، إذ يتعامل معها هذا الأدب تعاملا طبيعيا، فيكثر من إيرادها، وأشير هنا إلى الجهد البحثي المهم الذي قام به الباحث ناصر دمج؛ ودرس فيه «المُصطلحات التي يستخدمها الأسرى الفلسطينيون داخل المعتقلات الإسرائيلية»[7]. إذ تحكم هذا النوع من الدراسة العودة إلى ما كتبه

7. بحث مخطوط، اطلعتُ عليه لتدقيقه، قبل تقديمه لمؤتمر خاصّ بالأسرى.

الأسرى، في سياقاته التاريخية المختلفة وفي مصادره كافة المشار إليها فيما سبق من وثائق وكتب وأدبيات متنوعة.

5. يعرّف هذا الأدب بصورة أو بأخرى على الآخر، وتفكيره، وكيف يمكن التعامل معه، ويزيد من تحصين المجتمع الفلسطيني ضد مؤامرات الاحتلال، داخل السجن وداخله، لذلك تكتسب هذه الكتب أهميتها في المحافظة على الوعي النضالي متوهجاً، ويساهم في توعية الجيل الجديد من المناضلين على أساليب الاحتلال، فيصبحون أقدر على المواجهة لأن عنصر المفاجأة أو المباغتة أو الجهل بهذه الأساليب لم يعد قائماً، ما يسهل على المعتقلين خوض التجربة الاعتقالية بأقل التكاليف.

6. تشكل هذه الكتابات مجالا لدراسة الأدب على أسس نفسية، تشير إلى حقبة تاريخية في عمر الشعب والأدب نفسه، ففيها يظهر المزاج العام للشعب عامة، أو للأسرى خاصة، وما يعانونه من خيبات أمل، أو ما قد يتسلحون به من عزيمة، لاسيما وأن «المحتل النقيض» يحرص على قراءاته لهذا الأدب وهذه الوثائق ليخلص بناء عليها إلى استنتاجات قد تهمه في الميدان الحربي أو في الميدان السياسي وتعامله مع المفاوض الفلسطيني، ولذلك يجب ألا يحتوي هذا الأدب على بذور الهزائم النفسية لأنها مداخل طبيعية، يعمل عليها المحتل من أجل أن يهزم الشعب من الداخل، فيصبح شعبا خاضعاً، دون أيديولوجيا صلبة للمقاومة والنضال.

خاتمة:

هذه- بالإجمال- خطوط عريضة قد تساهم في تأطير عملية دراسة كتّاب السجن في فلسطين المحتلة وكتاباتهم من وجهة نظر تاريخية وإبداعية، هذه الكتابات التي ظلت تلعب على وترين مهمين، وهما: توثيق تجربة الاعتقال عبر توثيق الأسير الكاتب حكايته منذ لحظة أسره وحتى تاريخ الكتابة إن كتب وهو في السجن، أو كتابة تقويمية توثيقية على مجمل التجربة الاعتقالية، وذلك عندما يكتب الأسير قصته بعد الخروج من السجن، وفي كلتا الحالتين تخلف هذه الكتابات وثائق تاريخية شاهدة على المرحلة التي عاشها الكاتب الأسير، لا يمكن فهم الحركة الثقافية والحركة النضالية دون أن تكون هذه

الكتابات داخلة في صلب الدراسة التأريخية لتاريخ الأدب الفلسطيني في الحقب المتعاقبة، وتفريع دراستها على النحو الذي بينته سابقاً يجعلها أكثر فهما ضمن متغيرات تاريخية وسياسية، إذ كل عملية دراسة بحثية هي في نهاية المطاف عملية للكشف عن أبعاد تجربة إنسانية ذات صلة بالتاريخ السياسي والاجتماعي لمن عاشها.

إضاءات موغلة في الوضوح على الداخل السريّ

يعدّ كتاب «الكتابة على ضوء شمعة» مثالاً جيّداً على نوعٍ معيّن من أنواع كتابة المضطهدين، وهم المضطهدون سياسيّاً.

يُعرّف الاضطهاد بأنّه «تجاوز الحدّ في السلطة وإرهاق [آخرين] بتدابير عنيفة وجائرة»، ويحمل هذا المفهوم في طيّاته «إساءة المعاملة النظاميّة لفرد أو مجموعة من قِبل فرد أو مجموعة أخرى». ويختلف هؤلاء المضطهدون من مجتمع لآخر، ففي المجتمعات الشرقيّة العربيّة الإسلاميّة تحديداً قد تكون المرأة الكاتبة من ضمن المضطهدين[1]، عدا المضطهدين من الكتّاب سياسيّاً الذين يعانون من التنكيل والمطاردة والسجن والطرد في البلاد العربية وبعض الدول الإسلامية، أو المضطهدين اجتماعيّاً، أو المضطهدين بسبب العرق أو اللون أو الدين أو المهنة أو بسبب الوضع الاقتصادي، أو المضطهدين بسبب الحروب، كالمعاملة التي عامل بها الأوربيّون المواطنين الروسيّين على خلفيّة الحرب الأوكرانيّة الروسيّة الأخيرة، وكانت هذه المعاملة نهجاً عامّاً أوروبيّاً، وليس تصرّفاً فرديّاً، بل كانت مشمولة بقوانين دوليّة؛ على مستوى الدولة الواحدة أو مجموع دول القارّة الموصوفة بالقارّة «العجوز»، وشملت تلك المعاملة محاربة الأدب الروسي الكلاسيكي وأعلامه، ومنع تداول مؤلّفاتهم وتدريسها في الجامعات الأوروبيّة، ما شكّل حالة خاصّة من الاضطهاد الثقافي المعاصر الذي يندر أن يوجد بهذه الصورة في دول تدّعي الديمقراطية وتطبيق قواعد حقوق الإنسان، لولا هذه الحرب التي غيّرت- أو كادت تغيّر- كثيراً من القواعد والقوانين والأعراف الدوليّة.

كلّ أفراد تلك الفئات المضطهدة، الروس وغيرهم، يشتركون في أنّ «السلطة القائمة» أو «المسؤولة» لا تعاملهم معاملة طبيعيّة، ويفترض هذا المفهوم وجود مستويين من المعاملة، ونوعين من القوانين على أقلّ تقدير، ولها في المجتمع كثير من الظواهر والتجلّيات التي تشير إليها وتفضحها، كالزواج والتعليم، والممارسات السياسيّة العامّة، والحصول على الوظائف، والتنقل الداخلي أو

1. تناولت هذه المسألة في كتاب «الكتابة في الوجه والمواجهة»، دار الرعاة وجسور ثقافية، رام الله وعمّان، 2023.

الخارجـي (السـفر)، أو تقوقعهـم في مـكان معـيّن أو جغرافيـا خاصّـة منغلقـة، أو اقتصارهـم علـى مهـن محـدّدة.

يدخـل في مفهـوم «كتابـة المضطهديـن» كلّ مـن مـارس الكتابـة للتعبيـر عـن هـذا الاضطهـاد بشـتّى أشـكاله، أو كَتَـب خاضعـاً لشـروطه، أو أنّـه كتـب مـن أجـل التمـرّد عليـه، كالكتابـة النسـويّة، جندريّـة الطابـع والقضيّـة، وكُتـب المعتقلـين، وكتب المنفيّـين، والمهجّريـن قسـراً عـن بلادهـم، وكتـب المهمّشـين، أو مـن يعانـون مـن عنصريّـة دائمـة أو مؤقّتـة، أو الواقعـين تحـت طائلـة التنمّـر بسـبب أوضـاع صحيّـة كـذوي الاحتياجـات الخاصّـة، أو اجتماعيّـة أو قوميـة أو جنسـية أو أفـكار معيّنـة، والذيـن يكتبـون تحـت أسـماء مسـتعارة بدافـع الخـوف علـى حياتهـم، أو مـن أجـل أن يحظَـوْا باهتمـام مـا؛ كنشـر مجموعـة مـن الكاتبـات كتبهـنّ بأسـماء رجـال[2].

يعـدّ الاعتقـال السياسـي شـكلاً مـن أشـكال ممارسـة الاضطهـاد، حيـث يجـرّد صاحـبُ السـلطة هـؤلاء المقهوريـن المضطهديـن مـن الحقـوق الإنسـانيّة الأساسـيّة؛ جميعهـا أو معظمهـا، ولذلـك فـإنّ هـذه الشـهادات التـي تضمّنهـا كتـاب «الكتابـة علـى ضـوء شـمعة» وأمثالهـا ذات قيمـة تاريخيّـة واجتماعيّـة وسياسـيّة غايـة في الأهمّيّـة في أنّهـا تفضـح أسـاليب المتسـلّطين (مصلحـة إدارة السـجون ومـن ورائهـا الدولـة بوصفهـا الكيـان الغاصـب) تجـاه مجموعـة مـن المعتقلـين المقهوريـن فيمـا يخـصّ موضـوع الكتابـة، ومـا يتّصـل بهـا مـن حرّيّـة التعبيـر.

وتكمـن أهمّيّـة هـذه الشـهادات في أنّهـا تضـيء علـى كتابـات الأسـرى، بوصفهـا نوعـاً مـن أنـواع كتابـة «المضطهَديـن» الذيـن ينتجـون كتاباتهـم وهـم خاضعـون لهـذه السـلطة خضوعـاً مباشـراً، وهـم داخـل السـجن، وواقـع عليهـم في كل آن فعـل الاضطهـاد، بأشـكاله كافّـة المعنويّـة والمادّيّـة، وهـي بهـذا تختلـف عـن الأنـواع الأخـرى مـن كتابـة الكتّـاب المضطهديـن الذيـن يتعرّضـون للاضطهـاد بشـكل غيـر مباشـر، ولا يشـكّل المسئولون لديهـم همّـاً مرهقـاً محسوسـاً في أيّـة لحظـة مـن يومهـم في المكان الـذي هـم فيـه.

كمـا أنّ لهـذه الشـهادات قيمـة أدبيّـة عاليـة؛ فضـلاً عـن قيمتهـا التوثيقيّـة السـابقة،

2. أورد موقع (The Guardian) أن هنـاك 24 كاتبـة كتـبن تحـت أسـماء مسـتعارة (أسـماء رجـال في الغالـب)، وتعـود المسـألة إلـى القـرن التاسـع عشـر واسـتمرت؛ فهنـاك كاتبـات كثيـرات مـا زلـن يكتـبن بأسـماء مسـتعارة. فلمـاذا يسـتمر الأمـر إلـى الآن؟ يبـدو أن المسـألة ذات أبعـاد اجتماعيـة ودينيـة وثقافيـة.

إذ تعمل على توضيح عمل الكاتب السجين. إذاً، ثمّة مواضعات وظروف نحن لا نستطيع أن ندركها تمام الإدراك، ولو قرأنا عنها، فليس الخبر كالمعاينة، لقد جاءت هذه الشهادات لتقول لنا الكثير عنها، خاصّة لمن لم يجرّب حياة السجن، وظلّت هذه الحياة غائمة عنه في تصوّراتها، وما يُبنى عليها من اعتقادات واجتهادات ورؤى نقديّة وأدبيّة.

إنّ الأسرى يعيشون أوضاعَ قهر حقيقيّة، كفيلة بتحويلهم إلى مجرّد كائنات صامتة، نادمة، خائفة، خانعة، إلّا أنّ من يقرأ هذه الشهادات الإبداعيّة يخرج بصورة مختلفة تماماً عن هذا التصوّر، لنجد كتّاباً مناضلين، ومملوئين طاقة وحيويّة، وما زالوا محرّضين على العمل الثوري، وغير نادمين، بل إنّهم أكثر قوّة من قبل، كأنّ العيش في بؤرة الزلزال تجعل المرء حجارة ثائرة. هذا ما عرّض كثير من الكتّاب إلى الاعتقال مثلاً، أو إعادة الاعتقال، أو العزل أو الحرمان من بعض الحقوق على تواضعها في الأصل. يثبت الكتّاب في هذه الشهادات أنّ الكتابة أداة من أدوات الصراع، حقيقة لا مجازاً.

تبيّن هذه الشهادات الخطوط العريضة والعامّة لعالم الكتابة في ظروف الاعتقال، ببعديها العامّ والخاصّ، وتحاول أن تجيب عن أسئلة الصنعة الكتابيّة، تلك الأسئلة التي لا يكفّ الكتّاب عن طرحها في العالم كلّه، سواء أكانوا أسرى أم لم يكونوا، أسئلة من قبيل: ما الذي يجعل الكاتب كاتباً؟ وكيف؟ ولماذا يكتب؟ ولمن يكتب؟ وما هي الظروف اللازمة لصنعة الكتابة؟ وما هي الأدوات اللازمة لهذه الصنعة؟ ومتى يكتب؟ وأين؟

كما أنّ هذه الشهادات تجري خلف الكشف عن أثر الكتابة في نفس الكاتب أوّلاً، لاسيّما وأنّ كثيراً من هؤلاء الأسرى من ذوي الأحكام العالية، المؤبّدة، واكتشفوا أنفسهم على ضوء تجربة السجن، فصاروا كتّاباً بفضلها- إن كان لهذه التجربة فضل ما. لقد منحتهم هذه التجربة أيضاً شيئاً من التأقلم القسري مع هذه الجدران التي تحيط بهم، فغدت تمثل عوالمهم جميعها حتى في أحلامهم لم يستطيعوا إلا تصوّر هذه العوالم، إنّهم كمن ولد وعاش في هذه الحدود المغلقة، ولهذا كان في بعض تلك الشهادات الحديث عن عالم السجن والغوص فيه، وتأمّل الكتابة من خلاله، كأنّ أصحاب تلك الشهادات- وهم قلّة- يبحثون عن تحسين أوضاع الكتابة داخل السجن، كما يبحثون عن تحسين أوضاعهم

المعيشية الإنسانيّة، إذ اقترنت الكتابة بوجودهم هذا المشخّص المحصور، وصارت نشاطاً ذهنيّاً وروحيّاً واجتماعيّاً، إضافة إلى أنّه نشاط ثقافي أدبي، يصوّر هذه الأوضاع وهذا الوجود، ويبحث عن التأقلم معه.

ولا يعني التأقلم البحث عن الرضا الواقعي بالمكوث داخل الأسوار، وإنّما البحث عن صيغة حقيقيّة أو متوهّمة ليستطيع الأسير أن يعيش وهو يتمتّع بشيء من القدرة، على أن يعيش ويشعر أنّه حيّ، ويتصرّف كإنسان طبيعي جدّاً، كأنّه ليس سجيناً، ويقاوم عوامل نسيانه من العالم الخارجي، ويذكّر سجّانيه أنّه يعمل، ويحبّ، ويتزوج، وينجب أطفالاً (ولو بالنطف المهرّبة)، ويكتب، وتنشر له الكتب، وتشارك في معارض الكتب الدولية، وتقرأ من القرّاء والنقّاد، وتعقد لها الندوات، فتتوسّع بفضل ذلك كله سلطة هؤلاء الكتّاب المعرفيّة، فلا يظلّون محصورين محاصرين منسيّين خلف القضبان. وهم- مع كلّ ما يتّصل بما يكتبونه- يحقّقون مكاسب معنويّة، تجعلهم أقدر على التعايش بأقلّ الخسائر مع هذه التجربة المريرة، وغير الإنسانيّة.

وبالمجمل، فإنّ طول مكوث الأسير الكاتب في السجن جعلته يفكّر على نحو مختلف عن الكاتب المحكوم بضعة أشهر أو حتّى بضع سنوات، وهو يرى أنّ الزمن الذي سيتحرّر فيه قادم، أمّا الآخرون من الأسرى المؤبّدين، فلم يعودوا يرون غير السجن وعوالمه، فبحثوا عن مثل هذا التأقلم، وقلّت لديهم نبرة الأمل في الخروج، ولم يعودوا يحلمون به، فلن يتمّ هذا الخروج إلّا بمعجزة، أو عمل عسكري كبير، أو اتّفاق منصف، وكلّ هذه الخيارات لا شيء منها في الأفق المنظور، فارتدّوا إلى الذات والأحلام فكتبوا عن هذا المتخيّل الذي يحميهم من الجنون، ولعلّ الأسير كميل أبو حنيش بحسّه النقدي التأمّلي العميق أدرك هذه المعادلة، فانعكست في أعماله، شعراً، وسرداً، وفي شهاداته المتنوّعة على الكتابة ذاتها، وقد خصّص لها كتاباً، غير هذه الشهادة المودعة في كتاب «الكتابة على ضوء شمعة»، وأقصد بذلك كتابه «الكتابة والسجن- عالم الكتابة في السجن»[3]، وشرح فيه كيف كتب أعماله في المعتقل خلال هذه السنوات الطويلة، وأضاء بشكل جيّد على شتّى أشكال المعاناة التي عاناها في كلّ مرحلة من مراحل الكتابة مع كلّ كتاب ألّفه، فتحدث في (27) حلقة عن طقوس الكتابة في السجن،

3. صدر الكتاب عن دار طباق للنشر والتوزيع، رام الله، ط1، 2023، ويقع في (161) صفحة من القطع المتوسط.

وما صاحبها من صعوبات؛ سواء في الكتابة ذاتها، أو في إخراج المسودات من السجن وصولا لطباعتها، ونشرها والاحتفاء بها.

كما أنّ هذه الشهادات تسعى لبيان علاقة الكاتب الأسير بالمتلقّي ثانياً، وطبيعة هذا المتلقّي، سواء أكان متلّقياً مع أو ضدّ، لذلك حضر- كثيراً في هذه الشهادات- «المتلقّي العدوّ»، النقيض، الغريب، الذي يحاول بشتّى الطرق القضاء على نزعة التحرّر، ولو كانت حلماً عبر ممرّ الكتابة. لتخرج بسؤال حادّ وصعب للغاية: لماذا يحاول السجّان دائماً محاربة الكتابة لدى الأسرى؟

في هذه الشهادات يجيب الكتّاب عن هذا السؤال إجابات مطوّلة، لكنّها تتمركز حول قضية الإمعان في السيطرة والإذلال والمهانة، وإفراغ الوقت، وقت الأسر، من القيمة الحقيقيّة. فالكتابة مرتبطة في هذا العالم الضيّق بالوعي الوطني والإنساني، والتمرّد على كلّ من يحاول حرفه أو السيطرة عليه، ومن الطبيعي- إذاً- أن تشملها أفعال الاضطهاد المقصودة التي يمارس السجّانون عن إصرار ووعي كاملين.

ذهبتْ بعض هذه الشهادات كذلك، من باب آخر، نحو تقديس عمليّة الكتابة، لتكون أشبه بالطقوس الدينيّة، كالعبادة تماماً، وعلى الطرف المقابل، ثمّة من أضفى عليها ظلالاً من السرّيّة الشبيهة بممارسة العمليّة الحميمة، فاستعار الكتّاب أفعالَ التقبيل والملامسة وفضّ البكارة والاستلقاء، والعري، كأفعال مقابلة لفعل الكتابة نفسه. وهذه الفكرة على طرافتها وأهمّيّتها ودلالتها النفسيّة في الردّ على إجراءات الاضطهاد كأنّها غير موجودة، وهذا بحدّ ذاته إمعان في مقاومة تلك السلطة المتجبّرة، ليست من ابتكار هؤلاء الكتّاب، بل هي قديمة، وكثيرون من أشاروا إليها، خاصّة في الشعر، كما عند أبي تمّام في قوله على سبيل المثال: «الشعر فرج ليست خصيصته طول الليالي إلّا لمفترعه».

ومع أنّ هذه العمليّة تحتاج إلى السرّيّة التامّة، وهنا تبدو المفارقة، إذ لا سرّيّة في السجون، فكلّ ما يحدثُ سيحدث تحت أعين الجميع، وعمليات التحايل في الانعزال وإيهام العزلة ما هي إلّا توظيف لقدرات التخييل للانفصال عن هذا الواقع الضيّق الفاضح، المليء بالضوء.

لذلك ربّما وجد القارئ المتفحّص لهذه الشهادات بعض التحدّي، تحدّي الواقع الموجود، وتحدّي النفس في القفز على هذه الرغبة المطلوبة. كلّ هذا يحيل الدارسين إلى تمعّن «سيكولوجيّة» الأسير الكاتب، أو الكاتب الأسير الذي يقع تحت تأثير المفاضلة بين الصمت وبين الكتابة ضمن معايير وشروط غير كتابيّة، بمعنى الرضا «بطقوس اللّاطقوس» في الكتابة، لأنّ الكتابة- باختصار- فعل مقاومة بالدرجة الأولى. وهي طقوس كما جاء في واحدة من الشهادات «طقوس تحكمها الضرورة لا الاختيار». وعليه فهذه الشهادات تطيح بأهمّ شرط من شروط الكتابة المتوهّمة لدى الكتّاب خارج السجن، وهو: هل فعلاً يحتاج الكاتب- وهو يكتب- إلى العزلة والانفراد، وألّا يراه أحد؟ هنا سنجد كتّاباً يكتبون دون عزلة، فعالم السجين عالم منتهك في خصوصيّته الفرديّة.

هذه الظروف بهذا الجوّ الممعن في القتامة والبعد عن كلّ شرط موضوعي لتحقّقها، يفتح المسألة على موضوع آخر مهمّ، وهو موضوع الإلهام، والوحي، إذ تنهار هذه المسألة في هذه الشهادات، ففعل الكتابة في السجن ليس خاضعاً لهذا الوهم المستقرّ في نفوس المبدعين قديماً وحديثاً، إذ لا ينتظر الأسرى الإلهام والوحي ليكتبوا، بل يقتنصون اللحظة المناسبة- مهما كانت- ليكتبوا، فالكتابة هنا بأنواعها كافّة متعالية على هذا الوهم، وهي قصديّة، تُعلي من شأن الموهبة، وليس من شأن الإلهام الخارجي، وتركّز على الاستعداد الذهني والنفسي للكاتب ليكتب في أيّ ظرف، وفي أيّ مكان متاح له، وبأيّة أدوات كتابيّة متوفّرة، إنّها بالفعل تشير إلى عمليّة موازية للكتابة التي قد تجد لها نقيضاً متوهّماً عند الكتّاب خارج السجن. فالكاتب داخل السجن مجهّز لمواجهة كلّ شيء قد يحبطه، فيواجهه قبل أن يحدث، كالمداهمات والمصادرات، والعقوبات، والعزل، والتنقّلات بين السجون، وضياع المخطوطات ونسخها، كلّ هذه الإجراءات لا تجدها في عالم الكتابة خارج هذه الظروف.

لعلّ من يعمل في مجال الكتابة ودراستها من حيث هي عمليّة إبداعيّة، سيجد في هذا الكتاب ثروة لغويّة ومعجميّة مرتبطة بحقل دلالي مفتوح على مصطلحات جديدة لها علاقة بالكتابة داخل السجن غير موجودة عند من كتب عن الكتابة من الكتّاب الآخرين؛ من يكتبون خارج السجن، وهذه المصطلحات- باعتقادي- تشكّل رافداً حقيقيّاً لمن يعمل على جمع تلك المصطلحات وتبويبها ودراسة

ظروف نشأتها، ولن يكتمل تصوّر عالم الكتابة إلّا أن تكون حاضرة مع غيرها في هذه المعاجم التي تكون بطبيعة عملها استقصائيّة، وتبحث قدر الإمكان عن الشمول والإحاطة.

ينظر الأسرى الكتاب إلى عالم الكتابة خارج السجن أنّه عالم وردي، رومانسي، حافل بكلّ ما هو جميل ومشجّع على الكتابة، ربّما كان ما هو خارج السجن أرحمَ قليلاً من داخله، لكنّ ثمّة مشاكل حقيقيّة وبنيويّة تواجه الكاتب خارج السجن، لم يلتفت إليها الكتّاب، باعتقادي لأنّ أغلبهم أصبح كاتباً داخل السجون، فلم يرَوْا الكاتب وهو يبحث عن الهدوء في بيته، والهموم التي تلاحقه من متطلّبات الحياة القاصمة للظهر التي قد تصرف ذهن الكاتب عن الإبداع والاستمرار فيه، إنّها مشاكل حقيقيّة يغرق فيها الكتّاب الآخرون، فثمّة كتّاب لا يجدون وظيفة يعتاشون منها، ولا يجدون بيتاً آمناً واسعاً ملائماً للكتابة، ويجدون من حولهم يثبّط من عزائمهم بالتندّر عليهم والحطّ من شأنهم، وإن وجدوا من يشجّعهم لا يشجّعهم على الكتابة إلّا لأنّها عمل مناسب لتزجية وقت الفراغ، فهي عمل لا جدوى منه، وقد أضاء على هذه المعاناة القاصّ اليمني عبد الله سالم باوزير في قصّة له بعنوان «الفقيد» المنشورة في مجموعته القصصيّة «الحذاء». وممّا جاء فيها هذا السطر الدالّ: «للأديب ظروفٌ كثيرة قد تَحولُ بينه وبين الكتابة، وأحياناً تحول دون مواصلة الحياة نفسِها». لقد تشابه الفريقان في صلب المعاناة وروحها، وإن اختلف السبب وتباينت الظروف.

في هذه النقطة الأخيرة سيجد القارئ أنّ كتّاب السجن، ككتّاب الخارج، لا يكتبون من أجل المتعة، أو من أجل تمضية وقت الفراغ، وليست الكتابة- إذاً- نوعاً من الترف، بل تكتسب الكتابة لديهم أهمّيّة وجوديّة توازي أهمّيّة الحرّيّة ذاتها أو الحياة نفسها في مقاومة مظاهر الاضطهاد والتعالي- ما أمكن- على «السلطة» وعلى تلك الظروف التي وضعوا فيها جبراً عنهم، وكلّ كتابة لا يُنظر إليها على أنّها مسألة وجوديّة لا يُعوّل عليها، وليس في باطنها ثمار صالحة لتعيش طويلاً.

وتأسيساً على هذا، فإنّ هذه الشهادات، وما أشارت إليه من موضوع الكتابة عن الذات، يفسّر على أنّ هذا النوع من الكتابة ذاته يرسّخ مفهوم مقاومة

الاضطهاد، مقاومة فرديّة إبداعيّة لها آثارها في نفوس الكتّاب أنفسهم، «فأنا أكتب إذاً أنا موجود»، ليس مجرّد شعار رفعه أحد الأسرى الكتّاب في هذا الكتاب، بل هو عينه ما أراد الكتّاب أن يقولوه ليس في شهاداتهم وحسب، بل أيضاً في كلّ ما أنتجوه من شعر وقصّة وبحث وكتابة رسائل، وليس فقط هؤلاء، إنّما هذا ما يطمح إليه الكتّاب جميعاً، لكنّه بالنسبة للأسرى يأخذ معنىً أكثر حضوراً ودلالة على تحقيق هذا المبدأ في تصوّر الشغف بمهنة الكتابة والإصرار على فاعليّتها داخل المعتقلات، كما هو عند الكتّاب الذين يعانون من الاضطهاد، وسخّروا ما يكتبون لإثبات الذات في مواجهة الظلم والتعسّف، كما لاحظت هذا الشغف عند الكاتبات اللواتي تعرضنَ للاضطهاد، إذ يزيد لديهنّ الولع بالكتابة أكثر من غيرهنّ، وينظرن إلى مسألة الكتابة أنّها مسألة توازي الحياة ذاتها أو هي أن تعيش الحياة بحرّيّة وكرامة، فيكثرن من الحديث عن الكتابة ذاتها والغوص في فلسفتها ومنافعها المعنوية؛ كأنّها أصبحت لديهنّ ملجأ أو حارساً أو متنفّساً، وقد وُجد شيء من ذلك عند الكاتبات الأسيرات في شهاداتهنّ حول الكتابة.

بدا هؤلاء الأسرى الكتّاب أيضاً يتمتّعون بسمات شخصيّة جدير أن أشير إليها بعجالة، وتتلخّص هذه السمات في أنّ الكتابة أكسبتهم مزيداً من العناد والصبر والتحمّل في مواجهة الآخر العدوّ، وفي مواجهة الناقد المتربّص بهذه الكتابات. هذا الناقد الذي يعاني من الوهم أيضاً الذي لا يرى ما يجب أن يُرى، فأتت هذه الكتابات لتزيد هذا العالم وضوحاً، لتقول للناقد «الفذّ» عليك أن ترى المسألة من جميع جوانبها، هذا لا يعني بحال من الأحوال أن يغضّ النقّاد الطرف عن الكتابة الضعيفة الميّتة، إنّما على الأقلّ هناك ظروف موضوعيّة تؤثّر في صنعة الكتابة على الناقد أن يكون حصيفاً وذكيّاً وهو يقارب تلك الإبداعات التي هي بكلّ تأكيد انتصرت على القيد، فرفرفت بجناحين من لغة ومقاومة؛ لتحطّ على أغصان شجرتنا الكبيرة الوارفة الظلال، لتكون الصورة أوضح وأشمل، وأفردتُ لهذه المسألة نقاشاً خاصّاً موسّعاً في كتابي «نظرات في الكتابة النقديّة»؛ فلكلّ تجربة إبداعيّة مقاييسها النقديّة المتولّدة من التجربة الإبداعية ذاتها.

ربّما دفعت هذه الشهادات النقّاد، أصحاب نظريّة «موت المؤلّف» إلى مراجعة

هـذه النظريّـة التـي سـتكون قاصـرة، والنقّـاد يقاربـون مسـائل الأدب الاعتقالـي بنـاء عليهـا، فثمّـة امتـدادات خـارج النـصّ لهـا علاقـة بنيويّـة داخلـه، لا يُفهـمُ النـصّ الاعتقالـي فهمـاً صحيحـاً دونهـا. لقـد أثبتـت كتابـة الأسـرى أهمّيّـة النقـد الاجتماعـي، وآلياتـه، فلكـي تفهمـه كاتبـاً عليـك أن تعرفـه إنسـاناً، علـى الرغـم مـن صلاحيـة نظريّـة «مـوت المؤلّـف» فيمـا تصلـح لـه مـن نصـوص، لاسـيّما إذا كانـت تلـك النصـوص ذات قـدرة علـى أن تسـتقلّ بظروفهـا التـي أنشـأتها، وكان الأديـب قـادراً علـى إخراجهـا بصـورة تجعلهـا مسـتقلّة عـن ظروفهـا المحيطـة بهـا. وهـذا الشـرط باعتقـادي فيمـا اطّلعـت عليـه مـن شـهادات في هـذا الكتـاب، أو مـا أنتجـه الكتّـاب الأسـرى مـن كتـب لـن تكـون مؤهّلـة لهـذا البعـد النقـدي أو للدراسـة ضمـن هـذا المجـال مـن التحليـل إلّا إذا كان فهـم الناقـد مقصـوراً علـى مفهـوم النظريّـة علـى ألّا يتدخّـل الكاتـب نفسـه في تفسـير النـصّ، وهـذا مـا بـتّ مقتنعـاً فيـه شـخصيّاً في فهـم هـذه النظريّـة دون اسـتبعاد كامـل للظـروف الموضوعيّـة التـي سـاهمت في ولادة النـصّ. وسـبق لـي أن فصّلـت فيـه القـول في مقالـين منفصلـين منشـورين سـابقاً[4].

إنّ الأدب الفلسـطيني لا يُفهـم حق الفهـم- مـن وجهـة نظـري- دون أن يكـون الأدب الاعتقالـي في بـؤرة النقـاش الأدبـي الفلسـطيني، وحتّـى تـؤدّي الصـورة فاعليّتهـا الصحيحـة «غيـر المقلوبـة» جـاءت هـذه الشـهادات لتقـول مـا قالـت، ولنبنـي عليهـا الكثيـر مـن الأسـس النقديّـة والمنطلقـات الأدبيّـة في هـذا النقـاش الدائـر حـول الكتابـة وجدواهـا أوّلاً، وحـول الأسـلوب والطريقـة واللغـة التـي صيـغ بهـا هـذا الأدب ثانيـاً، وأخيـراً حـول الموضـوع وكيفيّـة تناولـه، كلّ هـذه هـي عوامـل الإبـداع ومحدّداتـه، كشـفت عنهـا بوضـوح كبيـر هـذه الشـهادات لهـؤلاء الأسـرى الكتّـاب.

---

4. يُنظر: مقـال: «لمـاذا يجب أن يصمت الكاتب؟»، أمد للإعـلام 30/8/2022، ومقـال: «لمـاذا يجب أن يمـوت المؤلّـف؟»، الـرأي الأردنيّـة، 7/12/2019.

لماذا يصرّ الأعداء على أن يكون لديهم أسرى؟

أظن أنّ هذا السؤال مهمّ، ومن خلال استعراض حركة المعارك والعلاقة بين أطراف النزاع، يتبين أن الأسرى هم دائماً نقطة ضعف الطرف الآخر، فلا يأسر العدو إلا لمصلحة، وفي سبيل هذه المصلحة سيحتمل كل الأعباء الاقتصادية والأمنية والاجتماعية.

كان للأسرى في بعض الدول أهمية، فكانوا يستخدمونهم إما في الزراعة أو في الأعمال الشاقة أو في المصانع كأيدٍ عاملة مجانية، هكذا فعلت ألمانيا النازية مع اليهود، وبعد أن استنفدت طاقاتهم الجسمية كانت تتخلص منهم بالحرق في أفران الغاز. أما بعض الشعوب فقد كانت تستعبد الأسرى، فيباعون ويشترون في سوق النخاسة، رجالا ونساء وأطفالاً، متجنبين أسر كبار السن لأنه لا حاجة لهم، فقد يضطرون لقتلهم حتى لا يشكلوا عبئا عليهم دون أية منفعة أو تحقيق هدف.

إن مسألة الاعتقال تومئ حتما إلى مسألة «التحكم بالجسد»، هذا التحكم المعروف منذ القدم، ففي اليونان القديمة على سبيل المثال كان التحكم بجسد العبد باعتباره أداة «يخضع للأوامر الطغيانية»[1]، لكنه يختلف من وجهة نظر الاحتلال الصهيوني، ففي الوقت الذي كان جسد العبد ذا دلالة عمل وآلة، ارتبط مفهوم الجسد الفلسطيني في الفكر الصهيوني بمفهوم التدمير الكلي بطرق مختلفة: الإبعاد، والاعتقال، والاغتيال أو التحييد السلبي ليصبح جسدا غير فاعل كإصابته إصابات بالغة، ليفقد هذا الجسد القدرة على المقاومة، ووسيلة ضغط للإخضاع الكامل، لا لشيء، سوى الامتثال لأوامر الاحتلال التي لا تؤشر إلا إلى الخضوع والإذلال، لا العمل والإنتاج. وبالتالي فإن «هذا الكائن رغم كونه إنساناً إلا أنه مقصى من الإنسانية أي من الحياة السياسية»[2]. هذه هي المحصلة الأخيرة في تعامل الاحتلال مع الفلسطيني، لكنه في المقابل يريد أن يحقق مطالب أخرى يومية وعملية وهو يسعى إلى هدفه الاستراتيجي هذا. فماذا يريد «الكيان الغاصب» من الأسرى الفلسطينيين والعرب والإكثار منهم في معتقلاتهم؟

1. عالم الفكر، عدد 190، (أبريل- يونيو 2023)، بحث «مفهوم الجسد في فلسفة ميشيل فوكو ودوره في الفلسفة الاجتماعية المعاصرة»، أ. د. الزواوي بغوره، ص56.
2. السابق، ص58..

يلاحظ أن هذا الكيان يحافظ دوما على أن يكون عنده عدد كبير من الأسرى، وكلما شعر أن العدد يتقلص، يقوم بتنفيذ اعتقالات عشوائية من أجل ألا يقل المنسوب البشري في السجون عن حد ما، يتحكم فيه، وله في ذلك أهداف متعددة؛ فقد يستخدمهم في عمليات تفاوض قادمة، ويدلّس بعدد منهم «غير خطير» ليفرج عنهم كبادرة حسن نية، فسيستفيد من ذلك إعلامياً.

لكن قبل أن يستثمر هذا المخزون البشري في أي عملية تفاوض، فإن «إسرائيل» وأجهزتها الأمنية تستغل هؤلاء الأسرى كوسيلة ضغط وتعذيب نفسي بالغة الأهمية، تطال فيه معنويات أهالي الأسرى وأصدقائهم، وكل من يفكّر أن «يرتكب أعمالاً عدائية» ضدها، حسب وصفها، على قاعدة «اضرب المربوط ليخاف الفالت»، أو بلغة مستعارة من القرآن الكريم «فشرّد بهم من خلفهم». إنها تحاول أن تصدّع الجبهة الداخلية للشعب الفلسطيني ومعنوياته، وتدفعه عبر إشاعة التعذيب والتنكيل والمعاملة السيئة إلى أن «يتوجس» الناس خوفاً ولا يُقبلوا على ارتكاب أية أفعال تمس الأمن الإسرائيلي. وبذلك فإن المستهدف الثاني بعد الأسرى هم الآخرون غير المعتقلين، فهي لا تستطيع اعتقال شعب كامل، فتذلهم وتمارس عليهم أنواعا متعددة من الإجراءات، فلا يثورون ولا يعترضون، وبذلك تكون «إسرائيل» قد أحكمت سيطرتها على الشعب بطريقة لا تكلف كثيراً.

لقد أدركت المقاومة الفلسطينية أهمية موضوع الأسرى منذ العمليات الفدائية الأولى، فكان من مطالبات المقاومة هو تحرير الأسرى من السجون الإسرائيلية، حدث هذا في عمليات تبادل الأسرى عام 1973، وفي الثمانينيات، وعمليات التبادل مع حزب الله، ومع المقاومة في غزة. ولأهمية هذا الموضوع وحساسيته حرصت المقاومة أن يكون لديها أسرى من «جنود الاحتلال» لتستطيع أن تحسّن شروط التفاوض وإحراز إنجازات مهمة، فلا شيء يضغط على إسرائيل كما يضغط عليها موضوع أسر الجنود أكثر من قتلهم، ولذلك صارت تحرص على أن يموت جنودها في المعارك مع الفلسطينيين والعرب، لا أن يقعوا أسرى بيد المقاومة، وصارت تتجنب المواجهة المباشرة، خوفا من هذا السيناريو الذي يذلها أمام العالم وأمام المقاومة وأمام شعبها.

لقد نجحت المقاومة في غزة في أن يكون لها أسرى، على الرغم من أن المقاومة

في الضفة الغربية حاولت ذلك قبل أن تتركز أعمال المقاومة في القطاع المحاصر، فعملت من خلال خلاياها السرية على أسر جنود إسرائيليين أو قتلهم وإخفاء جثثهم، كما فعلت بجثة الجندي نحشون فاكسمان، وكما حاولت خلية أطلقت على نفسها الوحدة (101)، وقد أسسها الأسير محمود عيسى لتكون مهمتها فقط أسر جنود إسرائيليين لتبادل بهم أسرى فلسطينيين.

إنه لحريّ بنا أن ندرك أن إسرائيل تتعمّد إذلال الأسرى، وهم داخل المعتقلات، ولا توفر لهم إلا الحد الأدنى من الخدمات الذي يبقيهم أحياء، وهي عادة متبعة عند الجميع، فالسجن ليس مكانا للترفيه.

لا تريد إسرائيل- باختصار شديد- أن تصبح كيانا محتلا دون أسرى، فهذا يجعلها دولة دون دروع بشرية، فمهمة هذه «الدروع البشرية» في هذا المقام أن تكون حامية للدولة العبرية عن أن تضطر لتقديم تنازلات مؤلمة لأعدائها، ولذلك دائما تفسر لدينا نحن الفلسطينيين عمليات تبادل الأسرى أنها نصر مؤزر ضد المحتل، وتوظف هذه العمليات لرفع شعبية السياسيين العرب والفلسطينيين، على عكس الإسرائيليين الذين لا يحتفلون بأسراهم المحررين كما نحن نفعل. هل لأنهم اضطروا لفعل ذلك وتقديم ثمن لحرية أسراهم؟ ربما، وربما أيضا يؤلمها أن تتكسر تجاه شعب تحتله، وتفرض عليها مجموعة منه شروطها، فتذلها ذلاً لا تستطيع أن تفسره أنه إحراز إنجاز كبير في تحرير أسراهم. ولأنها بوصفها قوة غاشمة لا تتوقع أن يكون لها أسرى لدى من تحتل أراضيهم، فهل يعقل أن يعتقل المحتل جنود محتليه؟ إنه شيء بالغ الدلالة لدى قادة الاحتلال، يجعلها حريصة على ألا يقع أي من جنودها في هذه المصيدة.

وإمعاناً وإيغالاً في مسألة الأسرى، تطورت النظرة الصهيونية في تعاملها مع الأسرى، وصارت تستمر في احتجاز جثامين الشهداء، إما من يقضي نحبه داخل المعتقلات، وما زال لم يمض محكوميته، وإما من تقتله على الحواجز وعمليات المداهمة والاغتيالات، وكأنها تريد أن تذهب بعيدا إلى آخر الشوط في توظيف فكرة الأسر وما تجرّه من ويلات وانكسار في نفوس أهالي الشهداء، فلا تريد إسرائيل لأحزان الناس أن تندمل، بل تريد أن تخلق لهم مشكلة تنزف كل يوم وجعا مضاعفا، فوجع الشهيد الأسير على نفوس ذويه أصعب آلاف المرات من أسير حيّ أو شهيد دفن خارج السجن وتقبل أهله به التعازي،

واقتنعوا بطيٍ الصفحة، متابعين أحلامهم وأيامهم على أمل الخلاص من الاحتلال يوماً.

لقد خلقت «إسرائيل» مشكلة أخرى على هامش المشكلة الأصلية، لتصبح مع مرور الوقت قضية مستقلة، كأنها متن جديد في سفر الاحتلال المليء بالمآسي. فأوجدت عبقريتها الاحتلالية الانتقامية ظاهرة «مقابر الأرقام»، وتجريد المعتقلين من أسمائهم ليتحولوا إلى مجرد رقم في سجلات الأقبية الصهيونية، كظاهرة موازية لظاهرة الاعتقال للأحياء وتعذيبهم أو اضطهاد ذويهم، وهدم بيوتهم، أو إبعاد البعض منهم لو أجبرت على أن تفرج عن بعضهم، ممن تسميهم «معتقلين بالغي الخطورة»، مع أنهم لن يسلموا من شرها، وستقوم بتصفيتهم جسديا أو تعيد اعتقالهم بذريعة أو بغير ذريعة. إن «إسرائيل» في نهاية المطاف «دولة مارقة» و«كيان استعماري» عسكري، لا تعترف بأعراف دولية، أو بقواعد إنسانية، أو بقوانين دولية غير قوانين قادتها المشبّعين حقدا وإصرارا على إفناء الشعب الفلسطيني والتخلص منه بأي وسيلة ممكنة، فقد أثبت هؤلاء أن «الغاية عندهم تبرر الوسيلة»، فما بالكم إذا كانت الغاية قذرة فإن الوسيلة ستكون أكثر قذارة؟ فليس غريباً- إذاً- أن نجد قادتهم لا يصبحون قادة سياسيين إلا بقدر ما يَلِغُون في دمائنا ويصادرون حريتنا، بل ويتفننون بتعذيبنا. وتاريخ كل واحد منهم أكبر شاهد عليهم. ولكن عجلة التاريخ تدور ولا بد من أن يأتي يوم، ويدفعون تلك الفاتورة من دمائهم وأعمارهم. «ويسألونك متى هو، قل عسى أن يكون قريباً».

الأسرى الفلسطينيون، أين موقعهم؟

لا بد من أن نسأل أنفسنا من أين انطلقت الأسس التي وضعت على أساسها اتفاقيات حقوق الإنسان وبنودها ومواثيق وعهود القوانين الدولية؟ وما هي الفلسفة التي تقوم عليها؟ ليس رغبة في النقض والمعارضة، ولكن لبيان الحقيقة التي يماري فيها بعض الناس، والذين قد يقفون موقف المتشكك في تلك الاتفاقيات وتلك الأعراف الدولية المستقرة في السياسة الدولية المعاصرة.

لا شك بأن الإجابة عن هذين السؤالين لا تعجز أي أحد له خبرة ولو قليلة في هذا الموضوع، بل إنني أزعم أن هذا الموضوع وغيره يشكلٍ ركنا من أركان الثقافة السياسة السائدة في المجتمعات، والتي قد يدلي برأيه فيها كل شخص امتلك قدرا معقولا من الثقافة السياسية، وكأنها أضحت من المعلوم من السياسة بالضرورة، فقد كانت مُشَكِّلَةً لوعي جماهير المثقفين والمتعلمين، ناهيك عن المفكرين والسياسيين.

ولعله من نافلة القول المعاد والمكرور أن نذكر بأن هذه الحقوق قد استندت إلى مجموعة من الأعراف والقيم الأخلاقية العامة الإنسانية التي يشترك فيها الناس جميعا، وهدفت فلسفتها إلى تحقيق المساواة والعدالة في التعامل بين الناس، تاركة وراء ظهرها كل تمييز عنصري أو ظلم أو محاباة لأي كان قويا أو ضعيفا. ولكن لو بحثنا في حقيقة هذه المسألة، سيكون واضحا أن تلك المواثيق لها جانبان؛ نظري جميل برّاق يستهويك ويُمَنّيك الأماني في الحرية والعدالة وعدم التمييز، وتمنحك الحقوق الإنسانية كاملة بغض النظر عن دينك وموطنك وعرقك ولونك؛ أسودَ كنت أم أبيض، عربيا أم أمريكيا، مواطنا أم لاجئا سياسيا أو زائرا غير مقيم، ولا شك بأن هذه الصورة البراقة موجودة ومطبقة في بلدان كثيرة، وخاصة في تلك الدول التي نجحت في تذويب العرقيات والاختلافات الثقافية في بوتقة المواطنة الواحدة، وتواضع الناس بعقدهم الاجتماعي الضمني أو المكتوب أن يلتزموا بالقانون العام ليطبق عليهم النظام بالتساوي وبالعدالة البشرية الممكنة.

ولكنه، ومن جانب آخر، فإن معايير تلك المواثيق، ومنها اتفاقيات حقوق

الإنسان واتفاقيات القانون الدولي الإنساني، استخدمت ذريعة للتدخل في الشؤون السياسية والاجتماعية وحتى الثقافية للدول الضعيفة، وقد جرّت على العالم أجمع، وليس العربي والإسلامي وحسب مصاعب وعراقيل جمة، فالدول الاستعمارية الكبرى وعلى رأسها أمريكا وبريطانيا، ما زالتا تستخدمان هذه المواثيق من أجل السيطرة والتدخل، فالعيب ليس بتلك المعايير والحقوق بصفة عامة، ولكن العيب كل العيب فيمن نصّب نفسه راعيا لها، وهو أول من ينتهكها.

وشبيه بذلك ما تدعيه الدول الكبرى من رعايتها لحقوق المدنيين وقت الحرب ضمن ما عُرف بالقانون الدولي الإنساني (القانون الدولي الخاص)، فإننا ما زلنا نرى ونسمع ازدواجية المعايير عند سياسيي تلك الدول، وانتهاكاتها في هذا المجال لا تحصى، بل على العكس من ذلك فإن بعض تلك الدول تعربد من أجل أن تنفذ سياساتها وتحمي مصالحها الاقتصادية والسيادية السياسية، ولتبتلع الحرب الناس جميعا، شاهدنا ذلك في فلسطين والعراق واقعا حيا أحدث أزمة فكرية عند من نادى بتلك المواثيق ونصب نفسه حارسا أمينا عليها.

فما الذي يمنع الدول الكبرى راعية تلك الأبجديات من الحقوق الدولية والاستحقاقات الإنسانية أن تحمي المدنيين وحقوقهم والفقراء ومتطلباتهم في شرق العالم وغربه؟ إنها أشبه بمقولة الحق التي أرادوا بها باطلا، فكم من مظلوم ظهرت براءته وظل حبيسا في سجنه، وكم من مجرم جرمه كعين الشمس في رابعة النهار ظل طليقا حرا يسبح في نعماء تلك الدول لا يمسه مكروه، ويلغ في الدماء صباح مساء والعالم يغض عنه الطرف، بل إنهم يشجعونهم في الخفاء وفي العلن.

وتشكل فلسطين واحدة من تلك القضايا التي برزت فيها ازدواجية المعايير، فلمصلحة من يتم السكوت عن فظائع إسرائيل في تعاملها المقيت في التضييق علينا في كل أمر من أمور حياتنا اليومية؟ ولمصلحة من لا تتم ملاحقة من يهين أسرانا في سجون الاحتلال، ويمنع عنهم أبسط تلك الحقوق التي نادى بها القانون الدولي الإنساني؟

لقد وصل حال الأسرى في سجون الاحتلال إلى وضع حرج جدا، وخاصة هؤلاء المضربين عن الطعام، وقد وصل الأمر حده، وبلغ السيل الزبى، فهل بعد أن يموت كل الأسرى سيتحرك حراس القانون الدولي الإنساني؟ بالأمس

القريب استشهد الأسير عرفات جرادات مع سبق الإصرار والترصد، وها هو الأسير ميسرة أبو حمدية يلتحق بأخيه، كما التحقا بكوكبة الشهداء الأسرى[1]، والقائمة مرشحة للازدياد في ككل لحظة إذا لم يكن هناك تحرك جدي لوقف تلك العربدة الإسرائيلية؛ إذ إن أوضاع الأسرى في تدهور مستمر، فأين موقع هؤلاء الأسرى في معادلة القانون الدولي العام والخاص؟ أم أن القانون لم يوضع لحمايتهم ونصرة قضيتهم الإنسانية؟

أي عالم مجرم هذا العالم؟ فأي قانون وأي ميثاق هذا الذي لم تفلح كل بنوده بحماية امرأة أو مواطن من القتل أمام عدسات الكاميرا، ولم تساهم برسم بسمة على وجه طفل مات أبوه ظلما في سجون الطغاة أو سحلا على غير ما جريمة سوى أنه قال: لا للظلم والاستعباد والديكتاتورية؟ وأي حقوق إنسان وما زالت شعوب بكاملها خاضعة لإرادة الغير لا يحق لها تقرير مصيرها في فلسطين وغير فلسطين؟

فلا يخدعنكم بهرج القول وزينته، ولكن انظروا ماذا فعل أصحاب تلك المواثيق.

1. بلغ عدد شهداء الحركة الأسيرة 233 شهيداً حتى العشرين من شهر كانون الأول عام 2022، كما أعلنت مؤسسة الضمير لرعاية الأسير وحقوق الإنسان.

استراتيجيات الخروج من النفق الكبير

تثير حادثة خروج ستة أسرى من نفق حفروه بأيديهم في سجن جلبوع بتاريخ: (6 سبتمبر 2021م) معضلة القضية الفلسطينية، والمآزق التي وقعت فيها هذه القضية، حتى صارت أكثر قضية معقّدة على مستوى العالم، وبدت للوهلة الأولى أنها بلا حلّ، فكل ما يطرح من حلول لإنهاء الصراع الفلسطيني الإسرائيلي ما هو إلا وصفات دواء لداء ليس له، إذ لم يكن ليغامر هؤلاء النفر بحياتهم بهذه الطريقة لو كان ثمة حلّ آخر. لقد انطفأت الحادثة، وعاد السكون إلى سابق عهده، فالسياسة الفلسطينية الرسمية متكلسة لا إبداع فيها، ولا تبحث عن استغلال فرص لإثارة القضايا على مستوى دولي أو إقليمي. وزاد التغول الاحتلالي، فانقضّ على الأسرى وعاقبهم جماعياً، وأذاقهم صنوفا من الإذلال والعذاب، ولم يحرّك أحدٌ ساكناً، عدا ما يلوحون به من سياسات عقابية مع «الحكومة الجديدة» التي امتلأت حقداً، ولم تنس أن تكون أول إجراءاتها التشديد على الأسرى، ومحاولة سن قانون إعدام الأسرى الفلسطينيين.

بداية أقول: «الحل للسرطان الاحتلالي معروف وثمنه باهظ لكن لا أحد يريد أن يتغير الحال أو يغيّره»، فإذا ما وجد هذا الحلّ، فإن قضية الأسرى الفلسطينيين وغيرها من المسائل ستحل تلقائياً، فليس عندنا الكثير من القضايا لتحلّ، إنما هي قضية واحدة فحسب. فأم القضايا وجود هذا الكيان من حيث هو، وما يزيد من تعقيد الوضع إعطاء هذا الكيان شرعية في وجوده، في خطابات الزعماء والقادة العرب والفلسطينيين. إن تغيير خطابنا السياسي في تسويق السلام والمفاوضات والتعامل مع الجرائم الإسرائيلية كانتهاكات قانونية، نكون قد شرعنّا وجود هذا الكيان الغاصب الدخيل، ونحاكمه على تلك الانتهاكات. إن دوران السياسية الفلسطينية حول محور التفاوض والسلام هو الذي يرسخ في الفكر الشعبي والوعي أن «إسرائيل» كيان يمكن أن يكون «كيانا إنسانياً» إذا ما توقف عن تلك الانتهاكات أو تغيّر قادته أو صعد «اليسار» إلى سدّة الحكم، وإنّ تفكيك منظومة العدوّ بهذه الصورة للبحث عن محبّي السلام بين صفوفه، كل ذلك بعد عن لبّ القضية وتضليل للرأي العام، وعملية غسيل دماغ ممنهجة

ومقصودة للشعب والأمة والأجيال القادمة. فلم يضيعنا سوى غصن الزيتون والحمامة البيضاء، وإذا كانت قناعة البعض عدم جدوى السلاح فقناعتي التي لا تزول تكمن في قول الشاعر:

لا عدل إلا إن تعادلت القوى
وتصادم الإرهابُ بالإرهابِ
لا رأي للحقّ الضعيفِ ولا صدى
والرأي رأي القاهر الغلّابِ

ولذا لا بد من الطائرات ولهيب الطائرات الكفيلة بإنهاء مهزلة عمرها أكثر من سبعين عاما. لم يطلْ عمر اللقطاء ودولتهم سوانا وعمدا وقصدا، فليس من المنطق أن يكون للقادة والمثقفين الفلسطينيين أصدقاء من قادة الإجرام الصهيوني، مهما ادعى هؤلاء الوسطية والاعتدال واليسارية، إذ ما يفرق بيننا وبينهم هو أنهم ليسوا سوى تابعين لكيان مغتصب، فكيف نقيم بيننا وبينهم علاقة صداقة وحوار؟ ولذلك من الغرابة المفضية إلى حد السذاجة المطلقة أن نهنئهم بأعيادهم الدينية وبرأس السنة العبرية، ونقول لهم سنوياً: «شنا توفا»، وكأن ما بيننا خلاف على بعض المسائل العابرة التي لا تفسد الود بيننا وبينهم. إن هذه التصرفات ضرب من الغباء والخيانة والجنون، والضرب بالمصالح العليا الفلسطينية عرض الحائط.

علينا أن نعود إلى خطابنا الصلب المبدئي القائم على رفض هذا الكيان الاحتلالي المجرم جملة وتفصيلاً وكل ما يمتّ إليه بصلة، واعتبار كل ما ومن ينتمي إليه كتلة واحدة دون تصنيف إلى غلاة ومعتدلين، أو صقور وحمائم، ورفضه كله من حيث هو كيان ليس شرعيا في وجوده ابتداء، فلا ننشغل بأفعاله الشنعاء عن جريمة وجوده الأولى، بل نركز في الخطاب على أنه كيان لا شرعي، وأن نكف عن مخاطبة قادته السياسيين باعتبارهم «وزراء» و«رؤساء»، بل صهيونيون، زعماء عصابات إجرامية، أيديهم ملطخة بدمائنا منذ أكثر من قرن، ينتمون إلى فكر لا يمكن أن يكون بأي حال من الأحوال فكرا إنسانيا مقبولا للتصالح معه أو حتى الاختلاف معه على قاعدة «حرية الرأي والتعبير»، فهم قتلة ومحتلون. فقط؛ قتلة ومحتلون، وليسوا عنصريين أو لا إنسانيين، فاستخدامنا لمثل هذه المصطلحات يدفعنا للتفكير كيف نعالج عنصريتهم، ولا

إنسـانيتهم وننسـى أصـل وجودهـم غيـر الشـرعي.

لا أظن أن قادة السلطة الفلسـطينية وفصائلها المشتركة معها بحكم الفلسـطينيين حكمـا أمنيـا تابعـاً لسـلطة الاحتـلال، تابعيّـة قسـريّة حتمـاً، يريـدون هـذا الخطـاب بـل إنهـم يحاربونـه، بـكل مـا أوتـوا مـن عـزم وقـوة، بـل يعتبرونـه إرهابـا يجـب أن يحاصـر ويقضـى عليـه، ويقـف مـع السـلطة وقادتهـا كل الأنظمـة العربيـة التـي لا تكتفـي بتسـويق الخطـاب المعـزز لوجـود كيـان الاحتـلال، بـل أيضـا تضيّـق علـى الفلسـطينيين وتحاربهـم بشـتى الوسـائل والطـرق. لقـد أفصـح عـن شـيء مـن ذلـك المخـرج الفلسـطيني محمـد بكـري الـذي رفـض دعـوة مهرجـان الجونـة المصـري للسـينما الـذي انطلقـت فعالياتـه يـوم الخميـس، 14 تشـرين الأول 2021، محتجـا علـى تعامـل الأنظمـة العربيـة مـع الفلسـطينيين، فقـد قـال في تصريـح لـه حـول ذلـك: «قـررتُ عـدم المشـاركة في مهرجـان الجونـة السـينمائي، كـردّ فعـلٍ مبـدأيّ لجهـة وقـف «مهـازل» إهانـة الفنـان الفلسـطيني أيّـاً كان، وأيّـاً كان جـوازُ السـفر الـذي يحملـه، فقـد آن الأوان أن تتعامـل الـدول العربيـة مثـل بقيـة العالـم مـع الفلسـطيني كإنسـانٍ لـه كامـل الحقـوق كغيـره مـن البشـر. الأمـر لا يقتصـر علـى الفنـان الفلسـطينيِ فحسـب، بـل علـى آلاف الفلسـطينيين، ممـن شـاهدتُ الكثيـرَ منهـم بـأمّ عينـي في ظـروف مهينـة ولا إنسـانية بقاعـات مطـارات العالـم، وخاصـةً في المطـارات العربيـة. هـي رسـالة لسـلطات العالـم والـدول العربيـة بـأنْ بَلَـغَ السـيلُ الزُبَـى». (نقـلاً عـن موقـع منصـة الاسـتقلال الثقافيـة).

إن أنظمـة تتعامـل مـع الفلسـطيني بهـذه الطريقـة لـن تكـون أنظمـة عاملـة مـن أجـل الحـق الفلسـطيني الـذي هـو حـق عربـي وإسـلامي، وحـق إنسـاني بالضـرورة أيضـاً. كمـا لـم تعمـل «الدبلوماسـية» الفلسـطينيّة المتكلسـة علـى تغييـر هـذه الصـورة ورفـع الضـرر عـن الفلسـطيني المواطـن العـادي، فـكل همّهـا أن يعيـش مسـؤولوها متعتهـم ورفاهيتهـم في الداخـل وفي الخـارج وفي فنـادق العالـم ذات الخمـس نجـوم، هـذه الرفاهيـة التـي تأتـي علـى حسـاب قـوت الفلسـطيني وأرضـه ومسـتقبله وحقوقـه المشـروعة.

باعتقـادي ليـس المهـم توصيـف دولـة الاحتـلال وأفكارهـا، فـكل مـا تقـوم بـه واضـح للصغيـر والكبيـر، وللمثقـف وغيـر المثقـف. المهـم مـاذا سـنفعل لنفـكك هـذه العقليـة، ومـا الـذي يرغـم الاحتـلال وقادتـه المجرمـين علـى الرضـوخ لأقـل المطالـب

الفلسطينية إلحاحا على الأقل. وهنا ثمة حقائق يجب ألا تغيب عن ذهن الفلسطينيين من الضروري تجليتها كمبادئ أساسية في النظر إلى هذه المسألة:

أوّلاً: لقد أثبت التاريخ المعاصر والقديم أن الاحتلال- كأي احتلال في العالم- لا يفهم غير لغة القوة، وكيف له أن يفهم لغة أخرى، وهو أقام كيانه على العنف والتطهير العرقي والكذب والتدليس والتهجير وسلب الأراضي واختراع القوانين الجائرة، ولم يترك فظاعة عند المحتلين الآخرين إلا واستخدمها. فكان احتلالا جامعا لكل بشاعات الاحتلالات التي سبقته، فما أخذ بالقوّة لا يستردّ إلا بالقوّة.

ثانياً: إشاعة التمسك بالحق الكامل بين الأجيال القادمة، وهذا أمر مرعب بالنسبة لهذا الكيان الغاصب، وأن بقاء المخيمات كفيل بالتذكير بمحنة اللاجئين، وتفكيكها بفعل الزمن وهجرانها هو حلّ لأيقونة الإجرام الصهيوني، فلا بد من أن تظل تلك المخيمات شاهدة في وجه التاريخ المزوّر ليقول للعالم أن هؤلاء هم من تشردوا يوما و«أخرجوا من ديارهم بغير حق»، ولا بد من أن يعودوا إلى ديارهم التي هجروا منها، طال الزمان أم قصر. وعلى ذلك فلا يصحّ أن يقبل أحد من الفلسطينيين أو العرب بفكرة «الوطن البديل» أو «التوطين»، ومحاربة هاتين الفكرتين لا تعني أن تعامل الأنظمة العربية الفلسطيني بأقل مما تعامل العربي من جنسيات أخرى أو السائح الأجنبي، فتسلبه كثير من حقوق العمل والتعليم والتطبيب والمشاركة في الحياة العامة في الدولة الموجود فيها، وحشره في «غيتو» كأنه وباء، تمارس عليه كل أنواع الحجر السياسي والإنساني والثقافي والرياضي والاجتماعي.

ثالثاً: الأنظمة العربية والشرعية الدولية والقوى الاستعمارية القديمة والحديثة كلهم يعملون ضد الفلسطينيين، وضد أبسط حقوقهم حتى على قواعد تلك الشرعية. ولم يكتفوا بذلك بل جندوا فلسطينيين سياسيين ومثقفين مطبعين ليستمر الحل المرحلي كحل دائم. وأن أدوات الضغط السياسي والمالي هي علينا وحدنا نحن أبناء الشعب الفلسطيني، وأنه يتم إسكات كل صوت معارض للسياسة العامة الفلسطينية والعربية، فيعاقب بالسجن أو التشريد أو الطرد من الوظيفة أو الإحالة على التقاعد، أو بالقتل كل صوت يعارض الإرادة الدولية، كما حدث مع ناجي العلي ونزار بنات، ومع غيرهما مما تخفيه دوائر الأمن

والمخابرات العربية والفلسطينية على حدّ سواء، فقد شكلت هذه كلها منظومة مغلقة وغير قابلة للكسر من أجل إنكار إنسانية الفلسطيني، وتعمل بكل الطرق على أن يظل هامشياً، وهنديا أحمر آخر، وتجد تجاوبا وتماهيا لها من السلطة الفلسطينية والأنظمة العربية.

رابعاً: ما يجري اليوم من مسألة التعامل مع الكيان الغاصب هو مهزلة كبرى، لأننا جعلنا الواقع هو الذي يسيرنا وخوفنا على مصالحنا هو الذي يدفعنا لتبني آراء مواربة ولا نقول الحق ونصدح فيه، فالاتفاقيات مع العدو مهما كانت لن تتم إلا بعد أن نستفرغ الوسع والطاقة في الحرب والقتال، فإن غلبنا على أمرنا نلجأ إلى المعاهدة حفظا للدماء، ولحين أن يتم تدارك الضعف، فلذلك لا تجوز المعاهدات الدائمة وخاصة فيما يخص الأرض المغتصبة لا في شرعنا، ولا في شرع الدول، فالمنطق لا أحد يستطيع تحطيمه باتفاقيات، إنما هي لعبة سياسية، ولا بد من إرجاع الأرض عاجلا أم آجلا ولا مندوحة عن ذلك، أما ما يحدث اليوم فهو التهافت على إرضاء الكيان الغاصب بمجانية سياسية غبية وغير مفهومة إلا في سياق التعامل مع الاحتلال والتطبيع معه، وترك الفلسطيني وحيدا في حلبة الصراع، فهذه الاتفاقيات الجديدة (اتفاقيات أبراهام) ما هي إلا شكل من أشكال الحرب على الشعب الفلسطيني، فبعد أن كانت حربا بالسلاح في السبعينيات والثمانينيات من بعض الأنظمة العربية، تتخذ اليوم هذا الشكل الخبيث الناعم غير المدرك الأبعاد إلا لمن تدبر الأمر جيدا. ولذا فإن احتفاظ السلطة الفلسطينية ورموزها بعلاقات كاملة مع تلك الأنظمة المطبعة يجعلها شريكة بالإثم والعدوان على الشعب الفلسطيني.

خامسا: زيارة فلسطين من قبل الحكام والمثقفين العرب والأجانب هو تطبيع ورضى بالمحتل، هذه هي الحقيقة الساطعة التي يشهد بها الواقع، فإذا لم نستطع التحرير- ونحن لن نجربه- فبأي منطق ندخل بتطبيع مع الاحتلال، ومن قال أصلا إن حكامنا اليوم يريدون إرجاع فلسطين، رحمك الله يا نزار قباني، وأستشهد فيه هنا لأنه وعى الحقيقة عندما قاس الأمور بمنهج العقل الصرف، فقد هاجم الحكام في قصيدته بلقيس، وبيّن عجزهم وفجورهم وتخاذلهم، وبعدهم عن حرصهم على أوطانهم وأبناء وطنهم، فالحكام ليسوا معنيين إلا بشهوتي الفرج والبطن، وشهوة حكم مجنونة، وليذهب الشعب إلى الجحيم، هذا موقف الحكام، وهذه هي سيرتهم العفنة، فقد بلغ جنونهم

حدودا لا أحد يتوقعها عدا عن تبذيرهم ثروات الشعوب في مجونهم الذي فاق كل التوقعات والخيال، فلن يتورع أحدهم بإنفاق الملايين من الدولارات في ليلة عهر مع إحدى الفنانات الغربيّات أو العربيات.

سادساً: إن الاستثمار في الأفكار والوعي الشامل هو أهم معارك الفلسطيني المخلص لقضية شعبه وأمته، فمعركة الأفكار لا تقل أهمية عن معارك السلاح والنار، بل لن تنجح معارك النار إن لم تكن مبنية على الأفكار الصلبة التي ترسخ عقيدة عسكرية وإيمانية في حق الفلسطيني بأرضه ووطنه غير منقوص من البحر إلى النهر. وعليه من المهم أن يتم إحياء ذكرى كل المجازر الصهيونية، وتخليد ذكرى الشهداء، والأسرى، وكل العذابات على امتداد التاريخ الطويل، وأن تصبح المدارس والجامعات معاقل وعي حقيقية تضع فيها النقاط على الحروف لإعادة بناء اللغة المناضلة القوية التي لا ترضخ للغة الاستسلام والسلام والعيش المشترك، وإعادة بناء استراتيجية مقاومة في الوعي وعلى الأرض، تحرم التعاطي مع الاحتلال بأي شكل من الأشكال، وأن يتعاضد هذا مع خطة وطنية يبنيها المخلصون والوطنيون الحقيقيون من أجل التخلص من سيطرة الاحتلال على حياة الفلسطيني، كمقدمة لعزله ومحاصرته في كيانه وجعله مجرد «غيتو» مغلق ليس له أية فاعلية في حياتنا، وأن نسيّر حياتنا بعيدا عنه، وتفعيل المقاطعة بكل أشكالها خارجيّا وداخليّا؛ تمهيدا لتحجيمه والقضاء عليه قضاء مبرماً.

إن من يقول إن الفلسطيني لا يستطيع تحرير نفسه وأرضه، واهم بالتأكيد، بل أثبتت التجارب أنه قادر على أن يفعل أكثر من ذلك، ولكن بشرط أن يَجد له قادة وطنيين عاملين بجد دون أن يخدعوه، وأن تكفّ الأنظمة العربية شرها عنه، على الأقل، وأن تقف على الحياد، ساعتئذ سيحرر الشعب ذاته وينتصر، أو على أقل تقدير يفرض احترامه وهيبته ويحقق شيئا من آماله. إن من ينتظر من قاتله أن يرويه أو يعطيه مسكنا ليس غبيا فقط، بل هو فعلا مختلّ عقلياً، فالقاتل ليس له إلا القتل، والعين بالعين والسن بالسن، والبادئ أظلم، وليس محاورته والوصول معه إلى حلول وسطية قاتلة.

ليس هذا تطرفاً، ولا إرهاباً إنه الحقّ، فالحق لا يقبل أن يقسّم، ولا يمكن لأي منطق سليم أن يطالب الضحية بأن تسالم قاتلها، وعليها أن تظل مناضلة

ومقاتلة وبشراسة وبكل الوسائل المتاحة، وأن تصرّ على هزيمة عدوها، وإلحاق الأذى به وطرده شر طردة من أرضها، فلا يمكن أن يطالبنا أحد- ولا يحق له أن يطالبنا- بأن نرأف بمن احتلنا وسرق أعمارنا ومستقبلنا. فالكيان الغاصب لا حل معه إلا أن يزول، وأي خطاب لا يتعامل مع هذه الفكرة بوضوحها التام هذا، هو خطاب عبثي غبي تضليلي استسلامي خائن، بغض النظر عن قائليه ومصرّفيه.

إننا بالفعل نريد استراتيجيات للخروج من النفق الكبير الذي وضعنا فيه الساسة الوطنيون والعرب والدوليون، لا أن نظل نعجن بالعجين، وندور في الحلقات المفرغة ذاتها، لقد مللنا كل تلك الأفكار التي لم يكن مآلها إلا المزيد من القهر والإذلال. فلسنا عاجزين إلى هذا الحدّ الذي يسوقه لنا العالم أجمع. ويريد أن يقنعنا أننا كائنات عليها أن تأكل وتشرب وتنام، وتكتب الروايات وأشعار الغزل. إن أمة مثل هذه ترضى بهذا الوضع لهي «شر أمة أخرجت للناس»، وإن وجد فيها حفظة القرآن وعلماء الدين والدنيا والمثقفون والكتاب، فما هم إلا ضغث على إبّالة إذا لم يكونوا مشاعل تحرير وفي المقدمة لإحداث التغيير، فإذا لم يكن هؤلاء هم الطليعة المناضلة فلن تجد عامة الشعب إلا في سبات كبير.

المسكوت عنه في الكتابة عن الأسرى

ثمة أمور مسكوت عنها في الكتابة بشكل عام، وأصبحت تلك التابوهات الثلاثة معروفة (الجنس والدين والسياسة)، وكل من يحاول الاقتراب من هذه الثلاثة أو واحد منها فإنه يوصم بالعهر أو الزندقة أو الخروج عن الصف الوطني والانحياز لأجندة خارجية. تابوهات أصبحت مملة، وممجوجة لكثرة ما تحدث عنها وفيها الكتاب والنقاد والقراء. لكنّ ثمة تابوهاتٍ أشد حساسية من تلك التابوهات السابقة فيما يتعلق بأدب الأسرى والحديث عنهم، فالكشف عن ضعف الأسير وانهزاميته أمام نفسه وفقدانه القدرة على المقاومة، والشعور بالملل وهو يعيش في جلباب البطولة الفضفاض، ومساءلة القدرة الوطنية والإلهية عما يحدث له، كل تلك القضايا ليست أمراً هينا بالنسبة للأسير أو أهله أو الاتجاه الوطني العام، ربما لهذا السبب يتجنب الأسرى الحديث عن أوجاعهم الإنسانية بحرية، بل دائما يتحدثون عنها فرعيا ضمن سياق عام، فيبدو خجولا ومواربا، ويصاحبه التبرير ضمن شروط الفن والحالة الإبداعية.

خلال قراءاتي لكثير من أعمال الأسرى مؤخرا والكتابة عنها وتأمل حالة الكتابة فيها، صرت ألاحظ هذا الجانب، ولم يعد خافيا، بل إنه يطفو على سطح الكتابة عاريا، مع انغماس الكاتب في الكتابة ينفلت منه هذا «الشعور المحّرم»، ويصبح مكشوفا، وقد تجنبت في مرات عديدة الحديث عنه أو الإشارة إليه إلا بشكل بسيط، خوفا من شعور الأديب الأسير بانكشافه أمام نفسه، وتعريته من قناع البطولة الذي يتستر خلفه، حفاظا على تماسكه ومقاومته لتكون أطول عمرا.

هذه الحالة التي وصل إليها الأسرى، نحن سببها، وأقصد بهذه الـ «نحن» كل فرد من أفراد الشعب، والحكومة بكل أجهزتها ووزاراتها، والإعلام بكل مؤسساته وبرامجه، والثقافة بكل إمكانياتها، والفصائل بكل اتجاهاتها اليسارية والوطنية والإسلامية، فكلنا «نحن» في واد والأسرى في واد، مما خلق شعورا مضادا لدى الأسرى أنهم تركوا وحدهم لمصيرهم، فهم ليسوا عزلا فقط، بل إنهم كذلك مقيدون وعاجزون عجزا من بعد عجز في حواجز ثلاث تنهش

أرواحهـم: البعـد، والتهميـش، والمـرض.

لقد رأوا الأسـرى مـآلات الحالـة السياسية وتوقف خض قضيتهم في قربة الإعلام المحلـي والقومـي والعالمـي، فاتجهـوا إلـى أنفسـهم وإلـى أنفسـهم فقـط في تجليـين اثنـين، أولهمـا المقاومـة البدائيـة لتحسـين الظـروف المعيشـية علـى الأقـل داخـل السـجن عبـر خوضهـم إضرابـات طويلـة عـن الطعـام، ولعـل الأسـرى الفلسـطينيين وحدهـم هـم مـن قـام بأطـول عمليـة إضـراب عـن الطعـام في التاريـخ، سـواء جماعيـة أو فرديـة، ووصولهـم إلـى هـذه الحالـة يعـود إلـى تلـك الـ «نحـن» التـي أهملتهـم إهمـالا تامـا، وأدى إلـى تمـادي الاحتـلال في إهمـال قضاياهـم وعـدم الاسـتجابة لمطالبهـم، وليس أمـرا كبيـرا لـدى قادتـه المجرمـين لـو مـات الأسـرى جوعـا وإهمـالا طبيـا، بـل إن البعـض استشـهد نتيجـة ذلـك، ولـم يـرفّ لهـذا «الوحـش» المسـتولي علـى ديارنـا جفـن، لأنـه أمـن العقـاب فأسـاء الأدب والتعامـل أيضـا.

ويتضـح التجلـي الثانـي في عمليـة الكتابـة، ومـا تسـتدعيها مـن تفاعـل خـارج السـجن وداخلـه، ونتيجـة لحالـة الأسـرى التـي بينتهـا سـابقا، فقـد لجـأ كثيـر منهـم للكتابـة، فبـرزت خـلال السـنوات الخمـس الأخيـرة مجموعـة مـن الأسـماء التـي تكتـب داخـل السـجن وتصـرّ علـى الكتابـة، وبمـا أن أولئـك الأسـرى مـن ذوي الأحـكام العاليـة فإنهـم لـم يقفـوا عنـد إنتـاج كتـاب واحـد، بـل أصبـح كثيـر منهـم ذوي مشـاريع كتابيـة يـأوون إليهـا ويعملـون عليهـا جاهديـن، وينفقـون كل الوقـت مـن أجـل ذلـك، دارسـين ومحللـين وكاتبـين، وناشـرين لهـا، وراجـين مـن الآخريـن التعـرف إليهـا والتفاعـل معهـا.

هـذه العمليـة مـن الكتابـة بالنسـبة للأسـير لـم تعـد ترفـا وتزجيـة للوقـت، ريثمـا تنتهـي عـدة السـنوات التـي يقضيهـا داخـل الأسـوار العاليـة، بـل أصبحـت هـي «المتنفـس» الـذي يتنفـس فيهـا الكتّـاب الأسـرى هـواء الحريـة بكلماتهـم وكتبهـم.

ضمـن هـذه المعادلـة مـن التفاعـل ولـد مشـروع المحامـي والكاتـب الفلسـطيني حسـن عبّـادي (لـكل أسـير كتـاب ومـن كل أسـير كتـاب)، مشـروع ذو اتجاهـين مـن الأسـير إلـى الخـارج، ومـن الخـارج إلـى الأسـير، بحيـث يوظـف هـذا المشـروع أثـر الكتابـة وأهميتهـا في المسـاهمة في جعـل قضايـا الأسـرى حيـة، ومـن خـلال هـذا المشـروع، دخـل المعتقـلات الإسـرائيلية مئـات الكتـب، ووصـل القـراء أيضـا العديـد مـن كتـب الأسـرى وتمّ التعريـف بهـا وقامـت دور النشـر بنشـرها، وهـذه العمليـة التبادليـة أنتجـت بـكل

تأكيد تفاعلا حيا في الاتجاهين، فالأسرى يكتبون عن تلك الأعمال التي يقرؤونها، والكتاب خارج المعتقلات يكتبون في أعمال الأسرى ويتفاعلون معها.

ربما نرى أن أثر هذا المشروع «العبّاديّ» بسيطا، أو محدود الأثر، بل إنه مع استمراره يدق جدران الخزان، دقا لطيفا لا يخلو من قرع أسماع هذه الـ «نحن» اللاهية غير المصغية. ويشكّل عملا عظيما وأثره يشبه كثيرا «أثر الفراشة»، فلا بد من أن له أثراً على المدى البعيد، ولذا تجب رعايته وتطويره، والتعامل معه بشكل أكبر، لأننا كلما وسّعنا الدائرة اتسع التأثير وعظم شأن الثقافة، ألم نرفع شعار «الثقافة مقاومة»؟ فكل قراءة لكتاب أسير هو إحياء له، واستحضاره بيننا، وكل كتابة عن كتاب أسير هو مساهمة في حريته وانطلاق كلماته ومعانيه لتغرّد في فضاءات رحيبة، فإنك لا تدري مع أي كاتب أو دارس ستلامس الكلمة سمع قدر ما، فيكون ما لم نتوقع حدوثه، ويتحقق المأمول.

لعل عملية الكتابة والقراءة لدى الأسرى تشبه إلى حد بعيد «تهريب النطف»، لما فيها من إصرار على الحياة والتواصل والوجود، وعدم الاستسلام للظرف الحالي، فالكتابة شرطها الحرية وهي نابعة من داخل الأسير نفسه، وإن شعر أحيانا بأن كل ما في هذا الكون يتآمر عليه، حتى ظن أن العناية الإلهية قد نسيته. وحتى لا يغرق الكاتب الأسير في تابوهات الأسر والاستسلام والانهزامية ويواجه نفسه بها في الكتابة، علينا أن نواصل مشوار التفاعل معه بكل وسيلة متاحة، فلنبعث للأسرى كتبا فيها الفرح والحب والغزل والتفاؤل والأمل، ولنستقبل كتبهم ونعيش معها ونصادقهم من خلالها، فقد شعرنا نحن القراء بشيء من هذا الأثر في رسائل الأسرى التي ولدتها هذه الحركة من التفاعل معهم على المستوى الثقافي كتابة وقراءة ونشرا ومتابعة. فلنستمر، لعل القادم أبهى وأجمل.

اختلاف المعايير النقدية تبعا لاختلاف التجربة الإنسانية

لكي تفهمه كاتبا عليك أن تتعرف إليه إنساناً، هذه مقولة نقدية مهمة في سياق البحث عن «أدبية» بعض الكتابات و«شعريتها»، وخاصة تلك القادمة من عتمة السجون أو القادمة من المناطق المهمشة أو أبناء الطبقات الفقيرة المعدمة.

ليس صوابا نقديا وليست موضوعية مطلوبة أن يتغاضى الناقد عن خصوصية التجربة الإنسانية التي صنعت أدبا معينا، أو كاتبا معيناً يعيش تلك الظروف القاسية، حتى لو انحزتُ شخصيا إلى نظرية موت المؤلف.

ثمة كتابات لا بد من أن تتعرف على الظروف التي أنشأتها وشكلتها، ولا يصح بأي حال من الأحوال أن أحاكم نقديا كاتبا يكتب فوق «البرش» وبأدوات بسيطة ويقتنص اللحظات، ويتحدى الإجراءات التعسفية بكاتب يكتب في مكتب فخم وعلى حاسوب متطور، ويطل من مكتبه على حديقة مليئة بالورود، ولديه سكرتيرة جميلة تقطر شهدا، أو امرأة تمده بالحب بين الفينة والفينة، عدا ما لديه من فاخر المشروبات الروحية والقهوة والسجائر. أي عالمين مختلفين بين هذا وذاك؟ أيعقل أن ينتجا أدبا واحداً بلغة واحدة وأسلوب واحد؟ كاتب يعيش في كبت وتعسف وإذلال ويقاوم بروحه وبريشته، وشخص غارق في البهجة حتى أنه لا يكاد يشعر بمن حوله من فقراء ومعذبين.

أعتقد أن النقد الذي لا يرى هذين العالمين وما بينهما من افتراق عند الكتابة النقدية هو نقد بائس عديم الجدوى، فلا بد من كل كتابة إبداعية أن تحمل أعصاب الظروف التي شكلتها، إن رفاهية فرفاهية وإن بؤسا فبؤس. عالم الكتابة يقول هذا وتجارب الكتاب المختلفة تفصح عن هذا أيضاً.

ثمة خلل كبير في نفسية الكاتب المرفّه الذي ينظر بدونية إلى مثل تلك الكتابات المصنوعة في العتمة والشقاء، بل إن هذا النوع من الكتاب يتصف بعنجهية لا حد لها، وهو يتبجح ليقيس هذه الكتابات بكتابة أولئك. مقاربة ظالمة ولا تحمل أي نوع من العدالة، ومجردة من الإنسانية.

لذلك من العدالة النقدية أن يكون هناك تدخل موضوعي ما للحكم على تلك

الكتابات، فليس من العدل وصفها بالركيكة والتافهة والمتواضعة، بل هي مهمة وأكثر في الدلالة على العوالم الداخلية التي يرسمها الكاتب لنفسه من خلال لغة لها فعل حيوي في مدّه بالقوة والتحدي والجبروت، ألا يكفي أنه يكتب ويحاول جهده وطاقته وما فوقهما في ظل ذلك الظرف الذي وضع فيه، وهو ظرف لا إنساني بكل ما يعنيه تعبير «لا إنساني» من معنى.

في قراءاتي النقدية لكتب الأسرى ولتجاربهم الإبداعية أهتم بهذا الجانب، وأفصّل لها ما وسعني ذلك معايير خاصة؛ لأقيس كتاباتهم بهذه المعايير، فهم يصنعون من لغتهم المحاصرة عصافير تفر من بقع ضوء الزنزانة إلى فضاءات لا محدودة من الانطلاق والحريّة.

عليّ أن أرى كناقد أو قارئ أن هؤلاء يصنعون عالما موازيا لعوالهم التي يرزحون تحتها، لهذا أفهم جيدا ردة فعلهم المبالغ فيها؛ احتفال أحدهم بصدور كتاب له وهو داخل السجن، أفهم كيف يقيم له زملاؤه السجناء حفلة تهنئة تشبه حفلات الزواج أو حفلة قدوم مولود، أفهم جيدا انفعالاتهم خلال اتصالاتهم بمن يحبون وهو مرتبكون من شدة الفرحة وهم يحاولون السيطرة على مشاعرهم في حديثهم عن تلك الفرحات المقتنصة اقتناصا. أفهم قول أحد هؤلاء الكتاب الأسرى أنه من خلال الكتابة والنشر وقراءة الآخرين له خارج السجن يعيش الفرحة كأنه خارج الأسوار، أفهم قول أحد الكتاب أن اليوم هو عيد ميلاده لأن أحدا ما في ذلك اليوم تذكره كاتباً فكتب عنه مقالة أو بعث إليه رسالة بعد طول صمت، وإهمال ونسيان.

هذه الأجواء وردات الفعل الصادقة على كل عمل أدبي يصدر من عمق الأسر وعتمة الزنازين هي التي تدفعني لأرى ما لا يراه المترفون من النقاد والكتاب في هذه الكتابات. أدخل إلى هذه الكتابات وأنا بكامل الاستعداد النفسي لأراها كتابات جيدة تستحق القراءة والمناقشة والاهتمام بها وتحريرها ورعايتها وكتابة مقدمات حولها أو تقديمها في الندوات الأدبية، وأكون سعيدا والبصيرة النقدية تخدمني لأرى فيها ما هو مائز وحقيقي ومختلف عن كل ما عداها من الكتابات. فعلى سبيل المثال فإن هذه الكتابات في مجملها تحفل بالتفاصيل غير المهتمّ بها خارج السجن، فلم يلتفت للحمامة التي تهدل إلا أسير شاعر عندما خاطبها قائلاً[1]:

1. الأبيات للشاعر العباسي أبي فراس الحمداني، وقالها وهو أسير لدى الروم، وذكر الحمامة على أية حال ورد عند أسرى عرب وفلسطينيين آخرين.

أَقـولُ وَقَـد نـاحَـت بِقُربـي حَمامَـةٌ
أَيـا جارَتـا هَـل تَشـعُرينَ بِحالـي
مَعـاذَ الهَـوى ماذُقـتِ طارِقَـةَ النَـوى
وَلا خَطَـرَت مِنـكِ الهُمـومُ بِبـالِ

وليس فقط الحمامة، وإنما العصافير المغرّدة، وبقع الضوء الهاربة من فتحات الزنازين، ونبتة خارجة من خلَلِ التراب أو الصخر، وملاحقة نملة على الجدران، كل هذه الهامشيات وغيرها، قد يجد لها القارئ محلاً واسعا في السرد والشعر، وذلك لأن هذه «المهملات» العابرة، بالنسبة لنا نحن المسرعين إلى أعمالنا تشكل نقاط تأمل للأسير الذي يجد نفسه بمواجهتها بحكم ظروفه القاهرة التي وضعته في سياق تأمل كل شيء والإطالة في تمعن كل شيء، فلا ذلك لا بد من الوقوف عند هذه التفاصيل.

في هذا السياق، وبهذه الآفاق المنفتحة على الفهم المغاير للعوامل المُفْضِية إلى تكوّن هذا الأدب، ينبغي على الناقد أن يحترم هذه التجارب، ولا يتعامل معها بحرّفية نقدية تفقدها معناها، ولذلك فإن هذه المعايير الخاصة التي أدعو أن يجترحها الناقد ستظل صالحة لكل كتابة نقدية تقارب أدب الأسرى حتى تلك الكتابات التي كتبها الأسرى بعد تحررهم من المعتقلات. ثمة شيء غائر في النفس تتركه تجربة الاعتقال يخص الروح وتهشيمها، فليس من المقبول نقديا وموضوعيا أن أتجاوز عن هذا «الجرح» الإنساني لأتباهي بكتابة نقدية انتقادية تجمع عيوب الكتابة الإبداعية وآثامها. ثمة أخلاقيات خاصة للكتابة عن أدب الأسرى ملتزم بها عن قناعة وأنا أكتب عن كتبهم وأتابع ما ينتجون، فأحرص على أن أسجل في هوامش متونهم ملحوظاتي الداعمة ليظلوا في توهج ومستمرين في المقاومة إلى أبعد مدى مستطاع، وأما ما ينتقدني به الآخرون من تدني الذائقة الأدبية لديّ فلا بأس به، فلهم ما يعتقدون، ولي أنا أيضا ما أومن به.

للكتابة النقدية مسؤولية أخلاقية وإنسانية ووطنية أيضا، وليكن الزمن وحده كفيل بالمحاكمة ليظل مقروءا ما يستحق القراءة والمتعة، علما أن تلك الكتابات لا تخلو من الجماليات العامة والخاصة، إضافة إلى ما فيها من بعد توثيقي يشير إلى مرحلة من مراحل الأدب وصورة من صوره، تظلّ مهمة في ذاتها حتى

بعد حين لأنها علامة على مرحلة، تخدم النقاد ودارسي تاريخ الأدب وتطوره وموضوعاته وأدبائه، فثمة عوالم لا نستطيع دراستها بشكل منهجي وسليم وبمعايير علمية للوصول إلى استنتاجات صحيحة أو قريبة من الصحيحة إلا من خلال هذه الكتب. فلا أعتقد أن دورها سيكون متواضعا أو هامشيا في حركة النقد والتحليل والمناقشة لأجيال قادمة، هذه الأجيال التي من حقها أن تعرف كيف كانت تنشأ هذه الكتابات، وما هي ظروفها، لعلها تكون دافعا قويا لوقود الحيوية والنضال حتى ما بعد التحرير والخلاص.

شيء عن أصدقائي الأسرى من الكتّاب

كثيرا ما تشدني معرفة الكاتب الأسير، أجد نفسي مسوقاً للتعرف إليه، بقراءة كتبه ومتابعة أخباره الثقافية على وجه الخصوص، الأسير باسم خندقجي كان أول كاتب أسير، يربض خلف القضبان تعرّفت عليه عن طريق أخيه يوسف، فقد كنت كثيرا ما أتردد على المكتبة الشعبية للحصول على ما يستجدّ من الكتب، فتوطدت علاقة بيننا، وإن فترت بعد ذلك، إلا أنني ما زلت شغوفا بعالم الأسير باسم خندقجي فقرأت ديوانيه: «طقوس المرة الأولى»، و«أنفاس قصيدة ليلية»، وكتبت عن الديوان الأول مقالة تحليلية، نشرت في حينه في كثير من الصحف، أما الديوان الثاني فلم أتشجع للكتابة عنه، ربما، لأنني وجدته أقل مستوى من الناحية الفنية. ثم قرأت لباسم روايته «مسك الكفاية- سيرة سيدة الظلال الحرة»، وتشجعت لها كثيرا، وكتبت عنها مقالين، نشرتهما في كتابي «ملامح من السرد المعاصر- قراءات في الرواية»[1]، وشاركتُ في الندوة التي عقدت في مكتبة البلدية عام 2016 بحضور والده[2]، الحاج صالح، رحمه الله. ثم قرأت روايته «نرجس العزلة» وكتبت عنها أيضا مقالا[3]، واطلعت منذ ثلاث سنوات على مسودة رواية لباسم تأخر نشرها بعنوان «كأنها أمي»[4]، وحصلت على روايته «خسوف بدر الدين»، وبذلك أكون قد قرأت كل ما كتب باسم عدا روايته الأخيرة[5]، «خسوف بدر الدين». ومن خلال هذا الاقتراب من عالم باسم الإبداعي يتبين لي أن عالم باسم الأدبي مختلف، وفيه من العبقرية ما يؤهله ليكون كاتبا ذا بصمة خاصة في مسيرة الأدب الفلسطيني وأدب الأسرى بشكل خاص.

تقودنا الصدف الجميلة للتعرف إلى المحامي حسن عبادي وهو صديق الكتّاب الأسرى جميعا، يبحث عنهم ويزورهم، ويهتم لشأنهم ويكتب عنهم ويزودهم بما

1. صدر الكتاب عن مكتبة كل شيء، حيفا، 2017. يُنظر المقالان: ص86-74.
2. ينظر حول اللقاء التقرير الصحفي على موقع دوز: https://www.dooz.ps/p/85717
3. يُنظر كتاب «ملامح من السرد المعاصر- قراءات في الرواية»، مرجع سابق، ص91-87.
4. طبعت الرواية تحت عنوان «أنفاس امرأة مخذولة»، دار الأهلية للنشر والتوزيع، 2020.
5. صدر له رواية أخرى عام 2023 بعنوان «قناع بلون السماء»، عن دار الآداب، بيروت، لم أتمكن من الحصول عليها وقراءتها.

يطلبونه من كتب، فيوصل العالمين، برباط الثقافة المقدس، ويكون أول لقاء بيني وبين الأستاذ حسن في المكتبة الشعبية. يشارك الأستاذ حسن بندوة حول أدب الكتاب الأسرى في معرض الكتاب الذي أقيم في نابلس في شهر تشرين الثاني من عام 2019، ويخص بالحديث الكاتب الأسير باسم خندقجي.

تتوالى الصدف الجميلة مع الأستاذ حسن فأتعرف على الكاتب الأسير كميل أبو حنيش، فأقرأ روايته «مريم/ مريام»، وأكتب عنها أربع مقالات، وقد وفر لي أخوه كمال كل مؤلفاته المطبوعة كذلك، وعندما أقيم مهرجان الشعر العالمي وتولى صديقنا الطليعي الكاتب رائد الحواري التنسيق له في محافظة نابلس، كنت مصرّا على مشاركة الأسير كميل أبو حنيش بقصيدة ألقاها نيابة عنه أخوه كمال. ومن خلال الصديق المحامي حسن عبادي نصبح أنا وكميل أصدقاء يتصل بي كثيرا من داخل المعتقل، أسبوعيا وبشكل دوري، ولم ينقطع عن موعده ولو مرة واحدة منذ أول اتصال وحتى 2021، يدور الحديث بيننا حول ما يكتبه من مقالات، وما يقرؤه من كتب، ويطلب مني أن أعرفه على كتاب وكاتبات كان قد قرأ لهم كتبا داخل المعتقل أو سمع عنهم وأحب التعرف إليهم، فأزوده بأرقام تلفوناتهم، وبالفعل لقد تواصل مع مجموعة من الكتاب خارج السجن. كأننا كنا نفتح له كوّة من أمل- ونحن لا ندري- عندما كان يوثق صلاته بالأدباء خارج المعتقل.

الكاتب الأسير الثالث الذي كان بيني وبينه علاقة ما، هو سامر المحروم، وقصة هذا الكاتب الأسير مختلفة تماما، إذ أتعرف عليه من خلال دار طباق للنشر والتوزيع، عندما طلب مني الكاتب طارق عسراوي أن أكتب عن رواية سامر «ليس حلما»، وهي من إصدارات الدار، لم تكن الكتابة على قدر ما يشتهي الكاتب طارق عسراوي، ما جعله يفسر الأمر تفسيرا مختلفا، وكأنني أكتب ضد الأسير سامر أو ضد دار النشر التي هي دار نشر تخصني بمعنى من المعاني على رأي أ. طارق عسراوي، إذ نشرت لي ديوان «ما يشبه الرثاء». كان للأستاذ طارق موقفه مني ومن الكتابة، وانتهى الأمر، ولكن لم ينته المشهد عند هذا الحد، وإنما استفسرت من صديقنا المحامي حسن عن وجهة نظر سامر المحروم فيما كتبته عن روايته، وتمت مناقشة الأمر بينهما، وإن لم يطلعني الصديق حسن على كل التفاصيل إلا أنني فهمت أن سامر لم يكن غاضبا مني ومن كتابتي عنه بالطريقة التي كتبت فيها. وكما صورها لي أ.

عسـراوي في مكالمـة هاتفيـة طويلـة.

لقـد أفادتنـي زيـارات الأسـتاذ حسـن لـلأسـرى الكتـاب كثيـرا، فيوصلنـي إلـى الكاتـب هيثـم جابـر، فيتحـدث معـي هاتفيـا، ويخبرنـي أنـه كان يقـرأ لـي في جريـدة القـدس، وأنـه مـا زال معجبـا بمـا أكتـب مـا دفعـه للتعـرف علـيّ. سـعدت باتصـال هيثـم كثيـرا، وشـكرت أ. حسـن علـى حُسْـن صنيعـه بـأن أوصلنـي لكاتـب جديـد مـن كتّابنـا الأسـرى. يعدنـي هيثـم أن تصلنـي مجموعـة مؤلفاتـه الخمسـة، ومـا هـي إلا أيـام معـدودة وتصلنـي خمسـة كتـب وهـي: مجموعتـه القصصيـة «العـرس الأبيـض»، وروايتـاه «الشـهيدة» و«الأسـير 1572»، وديوانـاه «زفـرات في الحـرب والحـب» بجزئيـه الأول والثانـي.

لقـد شـكل هـؤلاء الأسـرى، وخاصـة باسـم وكميـل وهيثـم، حالـة ذات خصوصيـة في الأدب الفلسـطيني، إذ يبـدو انغراسـهم في هـمّ الكتابـة بشـكل كبيـر جـدا، وكأنهـم يقاومـون السـجان بفعـل الكتابـة، ولـذا تجدهـم غزيـري الإنتـاج، وخاصـة كميـل الـذي يصـرّ علـى الكتابـة يوميـا والاشـتغال علـى مشـروعه الروائـي يوميـا، ويصـر علـى أن يتخطـى السـجن وأسـواره كلمـا سـنحت لـه الفرصـة.

كمـا أن هـؤلاء الأسـرى الكتـاب يصـرّون علـى أن يقدمـوا جديـدا فيمـا يكتبـون مـن أدب، ويحرصـون علـى الجـودة الفنيـة، فلـم يتكئـوا علـى كونهـم أسـرى ليعوضـوا التقنيـات الفنيـة، بـل تجدهـم متخطـين مـا يقـع فيـه الكتـاب المناضلـون عـادة مـن مباشـرة وارتفـاع صـوت القضيـة. إنهـم لا يضحـون بالجماليـات في سـبيل التعبيـر عـن الموضـوع؛ فقـد وجـدت باسـما يبتعـد كليـا عـن منـاخ الاعتقـال، وكذلـك كميـل الـذي كتـب المقـال السياسـي والنقـدي والقصيـدة الشـعرية التـي تنحـو منحـى الفلسـفة.

أمـا هيثـم وسـامر فيبـدو أن موضـوع السـجن يأخـذ حيـزا مـن كتاباتهمـا، وحيـزا كبيـرا، كمـا يبـدو مـن عناويـن كتـب هيثـم الخمسـة وروايـة سـامر، علـى الرغـم مـن أن هيثـم يعبـر عـن رغبتـه في التعـرف علـى الكتـب التـي تتحـدث عـن فـن الروايـة ونقدهـا، ويرغـب في تعلـم أسـاليب الروايـة الحديثـة. ويسـأل عـن مجموعـة منهـا لتوفيرهـا لـه مـع ذويـه في مواعيـد الزيـارات.

لـم يكـن ذلـك كل مـا كتبتـه عـن الكتـاب الأسـرى، ولكننـي أحببـت أن أتحـدث عـن علاقتـي بهـؤلاء الأربعـة؛ لأن علاقتـي بهـم نشـأت وهـم داخـل المعتقـلات، وقـرأت

كتبهم وكتبت عنهم، عدا هيثم الذي وصلتني كتبه يوم الاثنين (17-2-2020)[6]، لذلك فهم بالنسبة لي كتاب أصدقاء، تكتسب علاقتي معهم مذاقا خاصا، تجعلني معتزا ومفتخرا بهم كمناضلين أولا، وثانيا كأسرى يخضعون للأحكام العالية المؤبدة، وثالثا ككتاب يصرون على فعل الكتابة رغما عن قسوة الظروف.

وربما دون ترتيب أولا وثانيا وثالثا، فهم كتاب صنعتهم التجربة، فكانوا حالة خاصة لها حضورها المميز في المشهد الثقافي الفلسطيني، ويجب على المستوى الرسمي تكريمهم والاهتمام بهم والتعريف بأدبهم على نطاق واسع إعلاميا وتربويا وثقافيا، وعلى مستوى مجتمعي بعقد ندوات ومؤتمرات وإقامة مهرجانات للتعريف بهم، وجعلهم يتخطون عتمة السجن لتعانق كلماتهم فضاءات الحرية، ولو بالمعنى المجازي الذي يؤسس لوجود الحرية وتحققها بالفعل، وليس بالقوة فقط. إنها مهمة كل القطاعات الثقافية والحزبية والسياسية الفلسطينية، فلتتمحور إستراتيجية وزارة الثقافة واتحاد الكتاب والمنتديات والمراكز الثقافية، لتكون مصممة للإضاءة على ما كتب هؤلاء الأربعة، وغيرهم بلا شك، ضمن خطة عمل واضحة ومدروسة.

6. كتبت عن هيثم الشاعر مقالتين، يجدهما القارئ في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

الفصل الثاني:

في العلاقة مع الأسرى

في رحاب مدينة الخليل

يومي السبت والأحد: 17و 18 نيسان 2021

بدأت نهار السبت 17 نيسان بنشاط، إنه يوم الأسير الفلسطيني، تشجّعت وكتبت الرسالة الأربعين، واحدة من رسائلَ كثيرة، أكتبها للفراغ، تجاوز عددها المئة كما يشير مجلد الرسائل على الحاسوب، إنما «أربعون» هو عدد الرسائل المنشورة.

على موعد هذا اليوم مع المحامي الصديق القادم من حيفا حسن عبادي، للمشاركة في الفعاليات الخاصة بيوم الأسير الفلسطيني. ينبغي أولا أن أكون في مقر تلفزيون «هوانا TV» لتستضيفني المذيعة والإعلامية قمر عبد الرحمن من قلب الاستديو على الهواء مباشرة للحديث عن إبداعات الأسرى، ثم لنذهب في جولة في البلدة القديمة، والإفطار الجماعي، والندوة الخاصة بيوم الأسير، وأخيرا حضور مسرحية «رحم الخليل». إنه سيكون حافلاً بلا شكّ.

في الرسالة الصباحية ثمة هاجس مخفيّ أنني ربما سأتأخر عن الموعد المضروب بيننا؛ الساعة الواحدة ظهرا، المخاوف تزداد، ويتأخر وصول السيارة التي ستقلني إلى رام الله. اليوم السبت، والحركة ضعيفة، والدنيا رمضان، ودرجة الحرارة عالية، والجو غير مطمئن. كعادتي متوتر جداً، أخشى أن أصل متأخراً.

أصل مجمع السيارات في مدينة رام الله في حدود الساعة الحادية عشرة والنصف، السيارة التي ستقلني إلى الخليل يلزمها بعد وصولي راكبان آخران، ننتظر قليلا، ثم ننطلق. تخفّ حدة القلق قليلا، ما زال لديّ متسع من الوقت حتى لا أتأخر، لكننا شعب لا يسلم من المفاجآت الضارة، هكذا أعيش إحساس القلق كلما أبطأت السيارة في المسير، لا أكفّ عن التحديق في ساعة الهاتف، أراقب المناطق، يهاتفني حسن عدة مرات، الطريق طويلة، ومن حسن الحظ أن السائق نشيط، على الرغم من أنه ربما قطع من العمر ستين عاما أو يزيد إلا أن روح الشباب وحيويته ما زالت تسكنه، السيارة مسرعة وتلتهم الطريق، تنفرج أساريري وأهدأ. أقطع المسافة بحديث لم ينقطع مع رفيق سفر، كنا متجاورَيْن في المقعد الخلفي.

وصلت إلى مقر التلفزيون أخيراً، قبل الواحدة بدقيقتين، مشهد حقيقي، كأنه مشهد درامي من تلك المشاهد السينمائية التي كنت ألتفت إليها، حيث يصل الشخص إلى مبتغاه في اللحظة الأخيرة. أنا بالفعل وصلت في اللحظة الأخيرة، أدلف إلى مقر التلفزيون، أسلم على السكرتيرة، يراني حسن أول أن دخلت، يبادرني بتحيته المعهودة «أهلاً فراس». مع حسن في بهو الانتظار تجلس الحاجة أم نضال، أم الأسيرين نضال ومنذر مفلح. ومعها ثلاث من الفتيات، إحداهما سلافة حنايشة ابنة أخت الأسيرين وطفلتان أخريان يبدو أنهما ابنتا الأسير نضال. تحدثنا حول الفعاليات واللقاء. تأكد حسن من وجود كتب الأسرى في حقيبتي، وخاصة ديوان «أنانهم» للأسير أحمد العارضة، وكتاب «جدلية الزمان والمكان» للأسير كميل أبو حنيش. سلمت على رفاق دربه الأصدقاء مصطفى نفاع أبو فراس، وجميل عمرية، وعلي رافع.

أجرينا المقابلات، حسن عبادي أولا ثم أم نضال ودخلت ثالثهم. تحدثتُ في الجانب الإبداعي لكتب الأسرى، وركز حسن كثيرا على أهمية الاهتمام بالأسرى متحدثا عن مبادراته الإبداعية، وأهدى البرنامج لوحة «المليون أسير» للفنان العكّاويّ وليد قشّاش. وكشفت أم نضال عن الجانب الإنساني والاجتماعي والنضالي لابنيها نضال ومنذر.

ما زلت قلقا على الدكتورة لينا الشخشير، رئيسة «منتدى المنارة للثقافة والإبداع» التي استجابت لطلبي لتكون معنا في الخليل وتشاركنا في حضور الفعاليات. أهاتفها مرتين أو ثلاثاً، تخبرني أنها أصبحت قريبة جدا من «برج العرب»، حيث نحن موجودون، أصف لها المكان، وهبطتُ من الطابق الرابع حيث مقر التلفزيون لأستقبلها، لحظات، وتترجل من سيارة بيضاء فارهة. حسن عبادي ورفاقه الثلاثة ينضمون إلينا، ونستقلّ سيارتين، أنا ولينا وعلي رافع نستقلّ السيارة مع حسن، أما جميل ومصطفى وشخص آخر من الخليل لم أعرفه، يستقلّون سيارة أجرة.

نتوجه جميعاً إلى قلب المدينة، نترجل من السيارتين يستقبلنا شابان نشيطان أحدهما يضع الكوفية الفلسطينية على كتفيه لم أعرف اسمه، والآخر يدعى مفيد الشرباتي، مفيد يتولى تعريفنا بالمكان، درجة الحرارة عالية، الطريق أخذت كثيرا من الطاقة، أشعر بالتعب من بداية المشوار، والحساسية تشتعل

في أنفي وحلقي، وتضطرني لاستخدام المنديل باستمرار، ولكن أتجالد وأسير مع الرفاق، ومفيد يشرح. إنه أحد الشباب النشيطين في مدينة الخليل وأظنه قال إنه من شباب مقاومة الاستيطان وهو أسير سابق.

نسير تحت شمس الله الحارقة، متوجهين نحو شارع الشهداء، الشارع المغلق منذ سنوات طويلة، نلتقي بأحد سكان حيّ الرميدة، بيته يقع بعد نقطة الحاجز التي تسدّ الشارع، لتنتهي منطقة H1، وتبدأ منطقة H2، حيث السيطرة الإسرائيلية الكاملة، دخلنا من البوابة الحديدية، فحص عادي على البطاقة الشخصية، نتوجه إلى بيت من بيوت المنطقة، كثير من الأماكن مغلقة ولا يُسمح للفلسطينيين أصحابها بفتحها، ومحالّ تجارية ما زالت بضاعتها على حالها لم يسمحوا لأصحابها بأخذها، قامت سلطات الاحتلال أيضا بإغلاق بعض البيوت بلحمها وسكانها في الداخل، إحدى العائلات حتى تستطيع الدخول والخروج إلى البيت، فتحوا الجدران الداخلية للمحلات الملاصقة للبيت، فصارت طريقهم كأنهم يتحركون داخل سجن كبير أو جُحر داخلي وضعوا فيه. الوضع مؤلم جدا في هذه المنطقة، تشعر فعلا بالاحتلال واختلال المنطق المتسم بالقسوة والجبروت والتحكم والإذلال، مشهد خال من الإنسانية، في هذه المنطقة بالذات تشاهد بأم عينك ماذا يعني أننا نعيش فعلا تحت الاحتلال.

نصل إلى بيت قديم، البيت قبل الأخير تقريبا المحاذي لنقطة عبور، هي في الحقيقة مغلقة، لا يسمح للفلسطينيين باجتيازها، جندي يقف على رأس الشارع، لا يعيرنا اهتماما، بمقابله نقطة تفتيش يقبع فيها جنود مسلحون. إغلاق الشارع منع الفلسطينيين من التنقل بحرية وبسرعة وباختصار للمناطق التي يريدون الذهاب إليها. عليهم أن يسلكوا طرقا أخرى التفافية. المعاناة في هذه المنطقة لا تطاق، ولكن من سكنوا هناك أصبحوا أقدر على التأقلم مع هذا الوضع المزري.

ندخل إلى بيت مفيد الشرباتي ابن عم الأسير الكاتب أيمن ربحي الشرباتي، ومفيد هذا ليس هو دليلنا الذي استقبلنا على دوار ابن رشد، ابن عمه أيضاً، لم يتفقا في الاسم الشخصي فقط بل في اسم الأم، وتوفي أبواهما في اليوم ذاته، وقد احتفى المستوطنون برحيلهما، فقد تخلصوا من مقاومَيْن عنيدين، هذا الرجل أسير سابق، له تجربة مرة في الاعتقال يسردها علينا، حيث امتنع عن

الأكل والشرب ألبتة خلال اعتقاله لبضعة أيام، ولم يكن الموت بعيدا عنه جراء ذلك. يتعفّن جلده نتيجة الإضراب والعزل الانفرادي، يقرر الاحتلال الإفراج عنه حتى لا يموت داخل المعتقل، يصاب بفعل التعذيب الوحشي بظهره ويفقد خمسة من فقرات العمود الفقري، يستعيض عن ذلك بعد عملية جراحية ببراغي البلاتين ليستطيع التنقل وممارسة نشاطه الاعتيادي. أيام اعتقاله كان التعذيب في سجون الاحتلال وحشياً مجنوناً. أحد الأسرى- كما روى مفيد الشرباتي- فتح المحقق رأسه بالمقدح «الدرلّ»، يعترف هذا الأسير بأعمال قام بها ويحاكم مدة طويلة، أيمن الشرباتي لم يعترف إلا عن طريق العصافير. يتمتع أيمن بصلابة عجيبة، ومعنوياته عالية، و«راسه يابس»، كما وصفه ابن عمّه.

ونحن داخل البيت يروي لنا مفيد الشرباتي معاناتهم التي لا تنتهي مع المستوطنين المحتلين لبيوت «الخلايلة»، معاناة يومية، واعتداءات، تحرشات المستوطنين محمية من الاحتلال والرد عليها يعرّض الفلسطينيين للاعتقال ودفع الغرامات العالية، ظلم لا يوصف، واحتلال لا يعرف للعدالة معنى. يقصّ علينا الشرباتي رحلة صموده وصمود أبيه وجده أمام جبروت الاحتلال وإغراءاتهم بعشرات الملايين من الدولارات وبكثير من الامتيازات ليتركوا البيت، الشرباتي استعاد بيته وسكنه وتشبث به بعد معارك قضائية. يناضل يومياً ليظل في بيته، ولن يستطيع أحد أن يخرجه منه. يتحدث بطلاقة وبحرقة، يسرد أحداثا خيالية، تحدث في زمن انتهت فيه العبودية والسيطرة والتجبر، لكن على ما يبدو الإنسان هو الإنسان والاحتلال وحشي متى وقع وأينما حلّ، ليس معنيا بأي دين أو قانون أو حضارة، لا يعرف سوى القتل ديناً، والتجبر قانوناً، وسلب الناس سعادتهم حضارة. حدثنا الشرباتي كثيرا عن مبنى «الدبويا» وقصتها وعن المفاوضات ومهزلتها.

باعتقادي أن الأوضاع التي وصلنا إليها كانت بفعل المفاوض الفلسطيني والسياسي الفلسطيني اللذين لم يحسنا فعل أي شيء منذ وجدا إلى الآن. صدقت فيهم نبوءة إبراهيم طوقان:

في يديْنا بقية من بلاد
فاستريحوا كي لا تضيع البقية

لقد ضاعت كل البلاد نتيجة مراهقتهم السياسية.

لا نستطيع أن نكمل مشوارنا إلى البلدة القديمة والسوق من تلك النقطة، لو كان الأمر مسموحا به، لم نستغرق سوى دقائق أربع كما أخبر بذلك الشرباتي. نتجول في السوق الطويلة الغاصة بكل البضائع والأطعمة، نصل إلى الحرم الإبراهيمي مع صلاة العصر، بعد اجتياز الفحص الأمني، لم أدخل أولا إلى الداخل، جلست على كرسي أمام الباب الرئيسي للحرم، أتأمل المشهد، ثمة أناس صابرون مقاومون، يمارسون حياتهم رغما عن كل تلك الظروف السيئة. يصومون ويصلّون ويربّون أبناءهم، ويشترون بشغف حاجياتهم. في البلدة القديمة في الخليل هذا عمل أسطوريّ.

وأنا في هذه الحال، صديقان عزيزان يخرجان من الحرم، إنهما عودة صبارنة وأنور عوض، صديقاي القديمان من «بيت أمّر»، يتفاجأان كما أنا، تماماً. هل يعقل أن تحدث معي هذه المشاهد الدرامية، إن هذا اليوم شبيه جدا بالدراما التي تصنع اللقاءات بالصدف، إنها الآن صدفة حقيقية وواقعية، نتصافح ونتحدث ونستذكر الرفيق الشهيد هاشم أبو ماريا، برفقة الصديقين شخصان آخران، أحدهما يدعى «نبيل صبارنة» ابن اخت الرفيق هاشم وإبراهيم مطلق وهو رفيق درب وفكرة للشهيد هاشم. يتعرفان عليّ سريعا ويتذكرانني، تذكرنا هاشما- رحمه الله- يذكر نبيل صورتنا نحن الأربعة (هاشم، وأنور، وعودة، وأنا) تلك الصورة التي التقطناها في ساحة كنيسة المهد في بيت لحم، وكنت قد كتبت بعد استشهاد هاشم نصا بعنوان «أربعة ناقص واحد». يستذكر عودة القصة ويقول «ثلاثة ناقص واحد»، يا له من فأل! ينقبض قلبي قليلا، ثمة من سيرحل منا نحن الثلاثة قريباً. في زمن الوباء والاحتلال كل شيء جائز وقريب التحقق. نتبادل الأحاديث حول الأوضاع والتعليم والوظيفة، ونلتقط صورا للذكرى. من يدري من يرحل ومن يبقى؟

التقاط الصور في مكان مرور الناس محرج، لا تستطيع أن تمنع الناس من المرور ريثما يضبط المصور صوره. أناس تخرج وآخرون يدخلون ونحن نحتل الباب الرئيسي للتصوير! أيّ فساد ذوق هذا! حدث هذا أيضا معنا عندما التقطت لي الدكتورة لينا الشخشير صورة أمام المتحف القديم الواقع في الطريق إلى الحرم. المتحف مغلق بسبب جائحة كورونا، كنت زرته منذ سنوات بصحبة رشاد العرب أيام انعقاد ندوة الخليل الثقافية. المتحف خال من الناس، ولكن الشارع مكتظ، بيني وبين لينا يمر الناس ولا يتوقفون ولا يهتمون لشخصين يلتقطان

صـورة. ثمـة أمـور أكثـر أهميـة، نصطنـع قليـلا مـن الدعابـة، ونطلـب مـن النـاس التوقـف قليـلا. وهكـذا فعلنـا عندمـا التقطنـا الصـور أمـام الحـرم الإبراهيمـي.

اسـتهلكت الجولـة وقتـا طويـلا، الوقـت يقتـرب مـن موعـد الإفطـار، نتوجـه إلـى قاعـة المحافظـة في وسـط مدينـة الخليـل، حيـث مكتـب مسـاعد المحافـظ. بدأنـا نشـعر بالراحـة، نتعـرف في القاعـة ونلتقـي بأنـاس كثيريـن مـن معـارف الفيسـبوك، صـورة واحـدة فقـط التقطتهـا مـع أخـوي الأسـير أحمـد العارضـة، ونحـن نقـدم أنـا وحسـن عبـادي لهـم ديـوان «أنانهـم». بعـد الإفطـار الجماعـي وصـلاة المغـرب تبـدأ الفعاليـة الرئيسـية ليـوم الأسـير، ثمـة حضـور رسـمي وشـعبي، يشـارك فيـه قـدورة فـارس وقـدري أبـو بكـر وشـخص آخـر يمثـل المحافظـة (نسـيت اسـمه)، وأسـر شـهداء وعوائـل أسـرى.

في كلمـات المسـتوى السياسـي ثمـة كلام إنشـائي لـه أبعـاد انتخابيـة، تلفزيـون فلسـطين يركـز علـى كلمـات هـؤلاء، يسـتضيفهم للحديـث أمـام الكاميـرات. أنـا وحسـن عبـادي نقـدّم كتـب الأسـرى، ثمانيـة كتـب، لـم يهتـم التلفزيـون بنـا أنـا وحسـن ولا بالكتـب الثمانيـة، مـع أن الفعاليـة لـم تعقـد إلا مـن أجـل إبـراز هـذه الإبداعـات. تحـدث حسـن عـن أربعـة كتـب وأنـا تحدثـت عـن أربعـة. نُكـرم بـدروع عليهـا صورنـا ومليئـة بلوغوهـات الجهـات الرسـمية التـي حذفتنـا مـن المشـهد لتختصرنـا بـدرع!

نتوجـه بعـد ذلـك إلـى قاعـة في أحـد البيـوت القديمـة المرممـة، لنشـاهد عـرض مسـرحية «رحـم الخليـل» وهـي مـن كتابـة الأسـير أيمـن الشـرباتي، ومعالجـة مسـرحية وإخـراج رائـد الشـيوخي، وتمثيـل سـامح العملـة وعـلا أبـو سـنينة. مسـرحية مـن فصـل واحـد، فيهـا التقاطـات ذكيـة، نقـد سياسـي واجتماعـي هـادف، وتصـوّر الأوضـاع في الخليـل وخاصـة ضـرورة الثبـات في البلـدة القديمـة لأن الثبـات هـو مقاومـة في هـذه الحالـة الغريبـة. غصـت القاعـة بالحضـور، نسـاءٌ ورجـالٌ وأطفـال. كان عرضـا جيـدا بالمجمـل.

بمشـاهدة مسـرحية الشـرباتي أعـود إلـى حيـث يجـب أن أبيـت هـذه الليلـة، سـأذهب إلـى بيـت معـدّ خصيصـا لاسـتقبال المتضامنـين الأجانـب، بيـت صغيـر في محـاذاة بيـوت إحـدى المسـتوطنات، بـين البيـت وبيـوت المسـتوطنين شـيك مـن الأسـلاك. البيـت مكـون مـن غرفتـي نـوم، وغرفـة أخـرى فيهـا فُـرش وأغطيـة، ومطبـخ صغيـر، وحمـام.

ألتقي في ساحة البيت بمجموعة من الشباب منهم الناشط عضو اللجنة الشعبية لمقاومة الاستيطان أحمد عمرو، يضيفونني فنجاناً من القهوة، ونتبادل الأحاديث حول الانتخابات والتشرذم الحاصل في حركة فتح ومآلات ذلك، وأهداف المرشحين، وانعدام البرامج الانتخابية للقوائم المرشحة للانتخابات التشريعية، أستأذن الموجودين بعد انتهاء شرب القهوة، لأتعرف على المبيت، فيشرح لي أحمد كيفية التعامل مع البيت ومفتاحه وأين أضعه إذا تأخر أحد الشباب في الحضور غداً صباحا، ويشرح لي أيضا الطريق المختصر التي سأسلكها عند المغادرة. بدت الأمور سهلة وميسورة.

أقضي الليل سهران، لم أستطع النوم، فأنا لا أتأقلم مع الأمكنة سريعاً، أسترجع الفعاليات ليوم الأسير، لقد كانت هذه هي الفعالية الوحيدة في فلسطين بكاملها التي احتفت بيوم الأسير وكرمت أبناء الحركة الأسيرة وعوائل الشهداء والأسرى. ولكنها كانت ناقصة وفئوية ولم تشمل الحديث عن جميع الأسرى، لقد تمّ اختطاف الفعالية وتحويلها من كونها فعالية نضالية ثقافية تهتم بإبداعات الأسرى، إلى فعالية انتخابية ممجوجة وليست عادلة.

هنا تبرز أهمية المبادرات الشخصية التي تعتني بالأسرى، كل الأسرى، بغض النظر عن انتماءاتهم الفصائلية، كمبادرات الصديق حسن عبادي: «لكل أسير كتاب»، و«من كل أسير كتاب»، و«لكل أسير رسالة»، ومبادرة الإعلامية قمر عبد الرحمن وبرنامجها «وتر النصر»، ولقاءات «أسرى يكتبون» التي تعقدها رابطة الكتاب الأردنيين، والمسابقة الرمضانية التي يعمل عليها منتدى المنارة للثقافة والإبداع في نابلس، وتعدها وتقدمها الدكتورة لينا الشخشير. تشتمل المسابقة على ثلاثين حلقة تتناول ثلاثين كاتبا ما زالوا يقبعون داخل سجون الاحتلال، وهم من ذوي الأحكام العالية، حوكموا على أعمال نضالية وعسكرية متنوعة، فهم ليسوا فقط حملة أقلام بل أيضا – جلهم- حملة سلاح.

غادرت البيت بعد آذان الظهر، ومشيت الطريق التي وصفها أحمد عمرو، طريق وعرة، لكنها مختصرة، أسير بين أشجار الزيتون، الطريق ليست سهلة، إن تعثرت سأصاب بالأذى، ولن يعلم بي أحد فينقذني، وصلت نهاية هذه الطريق، الشارع الرئيسي؛ شارع الشهداء أمامي الآن، جنود في الشارع ومتضامنون أجانب وبطَرَف هذا الطريق بوابة حديدية بمفتاح إلكتروني والجندي محشور

في غرفته، يتحدث معي بكلام لم أفهمه. لحسن حظي أنه فتح الباب، شكرته بالإنجليزية، ولم أصدق أنه سمح لي بالمرور، لو لم يسمح لي بالمرور فإن عليّ العودة من حيث أتيت، الطريق الجبلية الوعرة، والبيت الذي كنت فيه مغلق الآن، ولن أستطيع المرور إلى الطرف الآخر؛ فالبوابة مقفلة أيضاً، وسأحتاج وقتاً إضافيا كبيرا حتى يحضر أحد هؤلاء الشباب لينقذني من هذا المأزق. هذه الإنسانية العابرة للجندي هي التي جعلتني أقدم له الشكر.

ذهبت في جولة إلى السوق، تزودت ببعض بضاعة الخليل، ذرعت السوق كلها تقريبا، السوق التي مشيتها مع الفريق أمس، حتى وصلت إلى محل لبيع الحلويات التي ظلت في البال عند مرورنا أمس من أمامها، أخذت حاجتي وقفلت راجعاً حيث مجمع السيارات، أحدهم يصيح: «رام الله.. رام الله»، أجبته: «نعم». السيارة لحسن الحظ أيضا تحتاج إلى راكب واحد، كأنني والسائق على موعد، وصدفة أخرى تضاف إلى مثيلاتها. جلست في المقعد الخلفي، وانطلقت عائداً، هذه الصدفة ذاتها تتكرر عندما وصلت إلى موقف السيارات، السيارة بحاجة إلى راكب واحد.

عشت بالفعل دراما حقيقية في هذين اليومين، وكانت رحلة ممتعة على الرغم مما فيها من تعب ومشقة، ومنغصات لما يحدث على أرض الواقع من ظلم يعيشه أبناء الخليل كل لحظة، ليلا ونهاراً. وشعرت بالرضا عن نفسي إذ إنني قدّمت جهدي وبذلت ما بوسعي للمشاركة في عمل وطنيّ، متيقناً أن هذا العمل لم يكن ليساوي ساعة واحدة يقضيها أسير خلف القضبان، وإنه لَعملٌ خجول بمقابل دمعة أم أسير أو قلق أب أو اشتياق زوجة، ولكن «فليسعد القولُ إن لم يسعد الحال».

ليس بعد الأسرِ إلا فجر مجدٍ يتسامى

كم كنت مسرورا وشاعرا بالارتياح عندما أبلغني الصديق حسن عبادي أن ما كتبته تحت عنوان «شيء عن أصدقائي الأسرى من الكتاب»، قد أخذ صدى واسعا سواء عند الأسرى عموما والأسرى الكتاب منهم، وعند الكتاب الذي تحدثت عنهم تحديدا باسم خندقجي وكميل أبو حنيش، وسامر المحروم وهيثم جابر. لقد دفعت تلك المقالة الكثير من الكتاب خارج السجن أن يتواصلوا مع الصديق حسن عبادي (صديق الأسرى) وأن يقدموا للأسرى كتبهم. كنت أشعر بأهمية الكتابة والاستمرار فيها، وكنت أرى الفرحة في حديث أصدقائي المعنيين؛ حسن والأسرى الذين كتبت عنهم.

يعتاد صديقي حسن عبادي كل يوم خميس منذ 30 تموز 2019 وحتى اليوم أن ينشر تدوينة عن الأسرى ضمن مشروعه العبقري «لكل أسير كتاب»، وكتبت تعليقا على إحدى تدويناته فرحا بهذا الجهد: «صرت أتشوّق كل خميس لقراءة هذه التدوينة (لكل أسير كتاب) لمعرفة ما هي الكتب التي ستكون من حظ إخواننا الأسرى، لأكتشف في ظل «كورونا» أننا نحن أيضا أسرى بمعنى ما نحتاج الجديد من الكتب، ونحتاج فضاء الحرية. عدا أن هذه الكتب المنتقاة في كل مرة هي كتب مهمة تفتقر إليها مكتبتي كذلك، فأشتاق للتدوينة هذه لأتزود بالعناوين، على الأقل، إلى حين الانطلاق إلى حيث هي للحصول عليها واقتنائها».

يؤكّد مشروع الصديق حسن أنه لا انفصال بين الأدب الفلسطيني والحركة الأسيرة، وخاصة الأدباء الذين شهدوا ولادة المشروع الصهيوني، وشاركوا في ثورات الشعب الفلسطيني، فكثير من الأدباء الفلسطينيين إما أنهم قد اعتقلوا أو تم نفيهم أو استشهدوا في المعارك، أو تم اغتيالهم.

هذا المشروع بالاتجاهين؛ من الأسرى، وإلى الأسرى شجعني على أن أنبش في أرشيفي القديم، حيث ذلك الوقت الذي كنت أصادف فيه الكاتب حسن عبادي في المواقع والصحف، لست أعرف ذلك الكاتب حينها، كنت شغوفا بالتعرف عليه، وتشاء الأقدار أن نلتقي، وليس فقط نلتقي بل نصبح أصدقاء، وأكثر.

تـزداد حماسـتي لمشـروعه، فتعـود بـي الذاكـرة إلـى سـنين خلـت، عندمـا أرسـلت للصديـق قتيبـة مسـلم ديوانـي «أميـرة الوجـد»، وسـعدت جـدا برسـالته التـي بعـث بهـا إلـيّ مـن داخـل السـجن فرحـا بذلـك الكتـاب، فكتـب:

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ الوفي والصابر فراس حج محمد

حفظك الله ورعاك

تحيـة إسـلامنا العظيـم وإيماننـا الراسـخ وثورتنـا الأبيـة، أطيرهـا لـك مـع ريـح المسـاء تقتحـم الحواجـز والجـدران، لتصـل لـك، وأنـت رسـول الأرض والحـب والفقـراء والصـدق، داعيـا الله عـز وجـل أن يبقـى صوتـك وكلماتـك تنسـج الأمـل والتمـرد والعطـاء والعشـق، فقـد أخذتنـي برحلـة، رغـم السـجن والألـم والجـوع وسـنوات المعانـاة الطويلـة، بـلا نصيـر، إلـى عالـم الحـب والنقـاء والتألـق والإبـداع، وكلمـا قـرأت أعـود مـن جديـد، لأقـرأ، لا أرتـوي، وأشـعر بروحـك تحلـق أكبـر مـن كل الحـدود والعائـلات والنكبـات، فنحـن أبنـاء الجـرح والألـم، ننتمـي للحـق، ولا نخشـى سـوى الله.

أخي الحر فراس

هنيئـا لـك هـذه اللغـة، وهـذا الإبـداع، وقـد حولـت أشـعارك إلـى صديـق يقتحـم الزنزانـة، ويرسـم البسـمة علـى شـفاه المعذبـين بالحصـار.

اكتـب يـا أخـي، لا تكتئـب، فالحـر لا يمـوت وإن ماتـت كل الضمائـر، والحـق لـن يغيـب، وإن غابـت القلـوب الحيـة، فجـر بقلمـك الصمـت، وازرع بالحـب والعشـق والانتمـاء كل الصحـاري القاحلـة، عيوننـا وقلوبنـا بانتظـار كل مـا هـو جديـد..

أخي العزيز فراس..

أسـأل الله أن نلتقـي علـى أرض تلفيـت الواحـدة الموحـدة أرضـا وبشـرا وأن نـرى رايـات الحريـة والنصـر عمـا قريـب.

لـك تحيـات كل الأسـرى الذيـن عشـقوا شـعرك.. وسـلامات خاصـة مـن قاسـم مسـلم أبـو رأفـت

تحياتي لأسرتك الطيبة... لوالدك وذويك جميعا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

سلامي للأخت سحر عكوب وللأخ محمد عواد[1*]

أخوك / قتيبة مسلم أبو حمدي

سجن جلبوع/ قسم 1

26/8/2015

لم يسرني شيء كما سررت بهذه الرسالة من الصديق الكريم قتيبة مسلم (أبو حمدي)، متحديا بنبضه وبنصه السجن وقضبانه والسجان وقوانينه! فكتبت في الرد على الرسالة السابقة هذه الرسالة:

كم سررت يا صديقي أن أشعاري حازت شرف ضوء عيونكم ودفق قلوبكم ودفء مشاعركم حيث البرد والصقيع والصحراء القاحلة، إن ما فاضت به رسالتك التي لم أكن أتوقعها قد جعلتني أكثر إيمانا بأهمية الكتابة في الحب قبل السياسة، لملامسة منطقة التوجس الإنساني الفطرية، فلعلها تكون ذلك الكأس النابضة حياة وأملا وفرحا وفرجاً قريبا.

صديقي العزيز أبا حمدي، صبركم وجلالة وقوفكم في معتقلات الظلم وصلابتكم متحدين المؤبدات والسنين المتطاولات يجعلنا أكثر صلابة وحبا ومقاومة، فالحب مقاومة يا صديقي، وهنا أستذكر ما كتبه الأستاذ المتوكل طه حول السجن في كتابه «رمل الأفعى»، خاصة تلك المواقف التي كانوا يتذكرون فيها الحبيبة والزوجة حتى التفكير غير البريء بالأنثى السّجّان!

أعدك يا صديقي أن تظل جذوة الحب مشتعلة تقبس من وهج أرواحكم النور والعزم، فإنني ما زلت مؤمنا بأن الحياة تستحق أن نعيشها وأن نردد ما قاله الشاعر يوما:

ولا تري للأعادي قطُّ ذلاً
فإن شماتة الأعدا بلاءُ

تحياتي للجميع، ولكل من قرأ تلك القصائد من ديوان «أميرة الوجد»، من أعرفهم ومن لا أعرفهم، تحياتي للجميل الصديق أبي رأفت، وسلامي لكل زاوية وحجر تمردت على قدر السجن القاسي فاستمتعت لصوت فرحكم

1.[*] مديرا تربية وتعليم في تلك الفترة حيث أعمل (مديرية جنوب نابلس).

مهللين مع الشعر غصبا عن معتقلات الظلم الصهيونية.

مع أمل اللقاء قريبا تحت ظل الحرية والعدالة والنور والإنسانية نتفيأ ظلال الحب والغزل ونعانق الشمس في حارات تلفيت الأبية صانعة الرجال الأفذاذ والشهداء العظام.

دمتم بعزيمة لا تلين وصبر لا يوهن.

صديقك

فراس حج محمد

20/12/2015

في الحقيقة، وفي أعماقي فرحت جدا بهذه الرسالة، فرحا لا يوصف، فكيف أدخلت هذه القصائد الغزلية الفرحة في قلوب الأسرى، أتذكر أن عينيّ قد فاضتا بالدمع وأنا أقرأ وأنا أكتب رسالتي ردا على رسالة الصديق «أبو حمدي». وتأكدت أن أعظم الأعمال «سرور تدخله على قلب إنسان».

لم يكن كتاب «أميرة الوجد» هو الكتاب الوحيد الذي يدخل إلى الأسرى، ولذلك ومن خلال مشروع الصديق حسن عبادي حرصت أن تدخل كتبي إلى المعتقلات[2]، فلعلها تفرح محزونا، وتبهج خاطر مهموم، فقد بعثت مجموعة من الكتب لكل من كميل أبو حنيش وباسم خندقجي وهيثم جابر، فصارت كتبي (في ذكرى محمود درويش، وملامح من السرد المعاصر، وشهرزاد ما زالت تروي، واستعادة غسان كنفاني)، بالإضافة إلى الدواوين (وأنت وحدك أغنية، وما يشبه الرثاء، ومزاج غزة العاصف) بين أيدي الأصدقاء الأسرى.

وإلى حين أن يتحقق المنشود القادم والأمل الموعود في تحرير الأسرى من محنتهم، سنظل أوفياء لقضيتهم نناضل من أجلهم بكل ما نستطيع. وإن هذا لأقلُّ الواجب حتما ولازماً. الحريّة لأسرى الحريّة، فليس بعد الليل إلا مجد فجر يتسامى.

---

2. أحرص أن يصل كل إصدار جديد إلى الأسرى من خلال إرسالها مع ذويهم أو من خلال مشروع الصديق حسن عبّادي.

قصيدة تلفيت منزلنا:

مهداة إلى أسرى القرية وشهدائها ومناضليها وكتّابها:

تلفيتُ في القلب إذ لا غيرها تجدُ
بالحبّ يكتبها في سِفْره الأبدُ
أللّه يحرسها كم أنبت شجراً
يهدي إلى الكلّ ما جادت به الصعدُ
تلفيت منزلنا طاب الجمال به
وأينع الزهر في تلك الربا يَرِدُ
تلفيت نغمتنا في لحن قافية
يشدو لها الفجر والأحلام تتّقدُ
ماذا أحدّث عن طيب اللقاء بها؟
من بعد عمر جناه البعد والكمدُ
عقد من الهمّ والأنفاسُ باردةٌ
يضنى لها القلب والأشواق تجتهدُ
والريح تعبث بالأرواح ما عصفت
فيسرح الفكر في تلفيت يتّحِدُ
ويشرق النور في أنحاء دوحتها
لا الليل يعمى، وهذا السهل والنجَدُ
إن غابت الشمس هلّت ألفُ طالعة
تطالع الزُهرَ من أبنائها تلدُ
والبدر يطلع لم يشعر به أحد
فكيف نرجو ضياء والبها بلدُ
ذاك الشباب حمى ألحان آيتنا
فرتّل المجد، واعتاد الهوى غردُ
والشعر ينبت في وحي ومعتقد
والكلّ ينهل ما قد قال معتقِدُ
أنت الهوى والمنى، يا وردنا عطراً
فاح الشذى عبقاً، في الكون يضطردُ
يا أسعد اللّه أوقاتا أكون بها
فالحب مشتعل والسحر معتمدُ
حبّي إليها كحبٍّ في الهوى ثمل
لكنّه العشق، يا حسّادنًا ابتعدوا

من واقع الأسرى الإنساني

وداعا يا أم يوسف:

هـي امـرأة ككثيـرات في فلسـطين، ممـن يعانـين مـن فـراق فلـذات الأكبـاد، وقـد غيبت المعتقـلات الأحبـة خلف القضبـان، حكايـة أم يوسـف ليسـت لهـا وحدهـا، وهـي ليسـت بطلتهـا الوحيـدة، بل كل نسـاء فلسـطين مرشـحات لمثل مـا كانـت عليه.

أم يوسف امـرأة قروية بسيطة، تغـازل أحلامهـا المتواضعـة في العيش مـع أسـرتها، ليسـت معنيـة بالثـراء ولا بالجـاه، معنيـة فقـط أن يتحلـق أبناؤهـا حولهـا عنـد المسـاء، ليتسـامروا سـاعة مـن ليـل، لتضمهـم سـاعات أطـول في ليـل هـادئ يحلمـون فيهـا بأحـلام لا تتجـاوز كيفيـة تدبيـر قـوت الغـد، وكيـف سيسـيرون نحـو أعمالهـم، لتعـد أم يوسـف لهـم «زوادة الطعـام البلـدي»، فليس بوسـعهم أن يشـتروا فطروهـم حيـث هـم يعملـون.

تسـير أيامهـا علـى هـذا المنـوال، حتـى يأتـي ذلـك اليـوم، ليصبـح ابنهـا أسـيرا بتهمـة باطلة باعتـراف كاذب أو وشـاية مجنونـة، فقـد حـاول ابنهـا أن يقطـع بعـض أشـجار المسـتوطنة، وأن يتلـف آلـة تصويـر، وأن يحـرق بعـض أعمـدة الكهربـاء، ولـم يكـن يـدري ذلـك المجـرم الـذي اغتـال حلمهـا وحلـم ابنهـا، أن ابنهـا يقضـي نهـاره كلـه مـن «طلعـة الشـمس حتـى مغيبهـا» في أعمـال البنـاء، لا يـرى أحـدا، ولا يخـرج حتـى في الزيـارات العائليـة إلا مـا نـدر، تأتـي الوشـاية، فيكـون الاعتقـال، وتبـدأ المعانـاة، لتنضـم أم يوسـف لركـب الباحثـين عـن مواعيـد الزيـارات، واسـتصدار التصاريـح اللازمـة، وانتظـار المحاكمـات الجائـرة.

لـم تنتظـر أم يوسـف طويـلا، ولـم تـزر ابنهـا كثيـرا، ولـم تسـتصدر مزيـدا مـن التصاريـح، هـي مـرة أو مرتـين، وترتـاح مـن كل هـذا العنـاء المـرّ، فقـد كان القـدر أرحـم بهـا مـن كل تلـك الطقـوس التـي تعذبهـا وتشـقيها هـي وزوجهـا وأبناؤهـا.

تلبـي أم يوسـف نـداء ربهـا في صبيحـة يـوم زيـارة ابنهـا، لقـد اسـتعدت ليـلا لتلـك

الزيارة، تنام مبكرا، تداعبها أحلام رؤية ذلك الشاب الأسمر المبتلى والمغلوب على أمره، «يا ترى كيف هو؟ هل يأكل جيدا؟ هل ينام جيدا؟ كيف أصبح الآن هل ما زال يطلق نكاته وتعليقاته الساخرة؟ لعله الآن يسخر ممن احتجزه». أفكار تداعت لأم يوسف وهي تأمل أن ترى ابنها وقرة عينها.

يستعدون صباحا للزيارة، يطمئن الأب أن كل شيء جاهز، وما عليه إلا أن ينبه زوجته، ليكونوا هناك حيث المعتقل المتربص بأحلامهم، ينبهها مرة واثنتين، ثلاثاً، لا مجيب، يحاول أن يعرف ما بها، يكتشف أن زوجته بلا نبض وبلا حياة، لا يستطيع السيطرة على نفسه، يصرخ بأعلى صوته يبكي، ينادي، يترك نفسه لتقول: «ابننا في انتظارك ليراك، قومي يا أم يوسف، لا تخيبي رجاء من يتشوق لرؤيتك».

لا أحد يجيبه غير الصدى، يتجمع الأهل والأقارب، ويجهزون أم يوسف إلى مثواها الأخير، ولكنهم جميعا ربما لا يعرفون أن روحها قد رفرفت ملاكا طاهرا لتعانق ابنها قبل موعد الزيارة. وتودعه قبل الجميع وتستأذنه قبل الرحيل الأخير، فوداعا يا أم يوسف، وسلام عليك حين أنجبتِ وربيّتِ، وصنعتِ الرجالَ، وودعت الجميع وأنتِ الأمّ، أمّا لكل أسير يقبع في سجون الظالمين.

تحية شعرية:

للأسير باسم خندقجي المضرب عن الطعام تحقيقا للانتصار على المحتل بمعركة الأمعاء الخاوية.

كتبت الأبيات بتاريخ: 25 يونيو 2016

أقوى من السجن هذي الروح يا بطلُ
يا شامخا في ذراه الحب والأملُ
يا باسماً في صدى الآلام مبتهجاً
يهواك كلُّ يراع سرّه المُثُلُ
اضرب بروحك يا أقوى بما حملت
واهطل عذابا وفتَّ الصخر يا جبلُ
وكن خصيما لليل طال هائلهُ
وشعّ نورا سرى في الدرب كي تصلوا

كان قبل اليوم ملحاً[3]

إلى الأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال الذين يخوضون إضرابا عن الطعام منذ 17 إبريل 2017.

ما بين العتمةِ والنّورْ
تطلعُ في الظِّلال الشّمسْ
يسكبني الحنين على أبوابكم ظلّا
يبوحُ بياسمينْ
****
الماءُ يغذّي لسعة الملح على خواء المترفينَ
الآكلينَ
الشّاربينَ
السّاهرينَ مَعَ الكؤوسِ بوردتينْ
النّائمين على مهود من «جنونْ"
****
هناكَ حيثُ الملحُ دلالةٌ أخرى
غنيّة التّأويل
مترفةٌ وكائنةٌ وكينونةْ
كالخيلِ تصهُلُ في الدِّماءِ
عاليةَ الجبينْ
****
كلّما التفتَ الصّباحُ الحرّ وجها باسما
تُعلَّقُ خوذةُ الجنديِّ في السّاحةْ
وتُشنقُ بالقيودْ
تستردّ الأمّ معطفَها الليليَّ

3. نشرت في صحيفة الاتحاد الاشتراكي، المغرب، بتاريخ: 26/4/2017.

ترسم ضحكة فجريّة الإيقاعِ
تُعلي م المهابةِ نجمتينِ
كرامةً دنيا ودينْ
****
المجدُ...
كلّ الكأس ماءٌ... ملحْ
يحيا الجوع...
سلاسلُ السّجان باردة على الجدرانْ
تتلوّى لقهر كأسٍ
كان قبل اليوم ماءً... ملحْ
كان طعماً... كان جرحْ
صار بعد اليوم لغزاً أبيضَ الأسرار فرحْ
صار فتحاً أيّ فتحْ
بالمطلق الأبديّ يكتب سطره
ورداً وحياة ويقينْ...

24/4/2017

كالصباحات ابتساما[4]

شـيء مـن الشـعر نهديـه لنسـائنا المبجـلات في سـجون الاحتـلال الغاشـم، لنقـول مـن خـلال هـذه الأبيـات الخجولـة: إنكـن أيتهـا الفلسـطينيات الماجدات، تصنعـن بـكل فخـار وعـزة نفس وجـلال وكبريـاء عـزة شـعب كامـل، متعانقـات علـى أرض فلسـطين الحبيبـة مـع إخوانكـن الأسـرى، فأنـتن وهـم عنـوان المرحلـة، والقلـب إليكـم يتطلـع ويرقـب يـوم التحـرر مـن قيـود الإجـرام الصهيونـي لتتابعـن بـكل اقتـدار وفي كل ميـدان صناعـة الأمـل والحيـاة. كل عـام وأنـتن وفلسـطين المـرأة والحبيبـة بـكل خيـر وألـق، والتحريـر قـادم والعـزة كائنـة، شـاء مـن شـاء وأبـى مـن أبـى.

يـا أيهـا النجـم الـذي قـد وطـد الأحلامـا
وبـه تفجـرُ نـار ثورتنـا اشـتدادا واحتدامـا
ولـه تنظّـمُ كون مجـد مـن حكايات القدامـى
من ليله، من سـحره ، طابت به سـحَرا كلاما
وتغنـت الأيـام قـد نشـدت لـه الأنغامـا
تلك الأديبـة تنظم النثر اعتـزازا واحتكاما
أو شئت فانظر ذلك الشعر المحلى قد أهاما
أو شئت فانظر في الميادين العراض تر احتداما
أنثى تهز صقيل سيف عاد فجرا قد تنامى
أو شئت فانظر للردى فاحت به ريح الخزامى
مـن كل أنثى عابق مسحت بـه دمـع اليتامـى
هي كل أرض الله بل هي كل أحلام النشامى
تلك النسـاء بواهر مجد البطولة قد تسـامى
في السجن تنمو زهرة لا يطفئ السجن الهياما
تـزداد شـوقا كلمـا زاد النضـال فلـن ترامـى
هي أمنا كالأرض تبقى كالصباحات ابتساما

4. نشرت في ملحق صوت الأسير الفلسطيني، الجزائر، بتاريخ: 14/3/2013

حتّى أعانقكم والأرض مسرحنا[5]

السجنُ طال وأضناني به السهرُ
والقلب يخشع من ذكراك يا قمرُ
والنفس تبكي دماء من تولهها
والروح تندب في الآهات تستعرُ
والفرح ودّعني والغمة اشتعلتْ
والحزن يبرح والأسقام تُبْتَكرُ
والريح تعصف والأمواج في صخب
والبحر مضطرب والورد منكسرُ
والنور مات بعيني والغناء صدى
واهتاج لحن غريب عاصف ضجِرُ
والكل يشمت في قلب تعانده
آمال فرح بدت في الغيب تستترُ
من ذا سيرحمني يا غمة كبرت
ألله يا مهجةً في الهجر تنفطرُ
أشتاق ضحكتها فحوى الحديث بها
كالعطر تسكبه ليلا فيزدهرُ
أين المفرّ وذاك الهجر أتعبني؟
في كل يوم مع الذكرى لها سفرُ
أرواني الظلمُ كأسا طافحا ثملا
واعتادني الهم والأحلام تعتكرُ
والنار تكتبني في حرها لهبا
يقتات منها دخان حارق كَدِرُ
لن يطفئ الشوق غير الوصلِ يا أملي
أو بسمة سنحت في العين تُقتصرُ
لن تستعيد حكاياتي تفردها
إلا بجملتها في الحب تنصهرُ
لن يشفيَ الروح غير الروح مبتهلاً
أنت الأمانُ وأنتِ الفجر والزهَرُ
إن طال سجني فإن الفجر موعدنا
والقيد منكسر والحقّ منتصرُ

---

5. نشرت في ملحق صوت الأسير، الخميس: 2013-05-9، الجزائر، العدد (91).

حتـى أعانقكـم والأرض مـسـرحنا
والقـدس عازفـة واللحـن مبتكـرُ
والحـزن يرحـلُ والأفـراحُ غايتنـاً
والهـمّ منكـسـر بالعيـد نفتخـرُ

الفصل الثالث:

إطلالات على نماذج من شعر الأسرى

إطلالة على التجربة الشعرية للأسير أحمد التلفيتي

الأسير الشاعر أحمد عبد الرحمن حج محمد المعروف باسم أحمد التلفيتي، من قرية تلفيت، جنوب نابلس، ولد عام 1987، يحمل شهادة البكالوريوس في تخصص هندسة اتصالات، متزوج وله طفلتان. يقبع حاليا في سجون الاحتلال منذ عام 2016، ومحكوم سبع سنوات ونصف، وسبق أن اعتقلته قوات الأمن الفلسطينية عام 2015، بعد مطاردته (22) يوماً.

كتب الشاعر المقالات والقصائد الفصيحة الكلاسيكية، كما كتب الأغاني الوطنية باللغة العامة، وينشر عادة إنتاجاته الأدبية والفكرية في منابر متعددة إلكترونية وورقية، منها مجلة حريتنا، وموقع حضارات للدراسات السياسية والاستراتيجية.

صدر للأسير ديوان شعر بعنوان: «ألفية حماس المسير والمصير»، عن وزارة الثقافة الفلسطينية في غزة، عام 2022، وجاء في ما يقارب (300) صفحة، وبدأ في نظم أول أبياته عام 2019 في سجن جلبوع، وفضلا عن المقدمات الاحتفالية في أول الديوان، فقد بدأه الشاعر بفصل تمهيدي شعري عن النكبة الفلسطينية عام 1948، ثم يتتبع القضية الفلسطينية تاريخيا حتى يصل إلى تأسيس حركة حماس وأعلامها الأوائل، ليرصد الشاعر في هذا الديوان مسيرة حركة المقاومة الإسلامية حماس، منذ النشأة وحتى آخر حدث يوثق له الأسير عام 2019 وأحداث إضرابات الحركة الأسيرة وانتخاب الهيأة في المعتقل، ولم ينسَ بطبيعة الحال شهداءها وقادتها، فجاء الديوان سجلا حافلا بالإنجاز الجهادي لأبناء الحركة، من وجهة نظر الشاعر بتحيّز كامل لا مواربة فيه، ولا تقية، ولا تورية، ولعلّ هذا الديوان بهذه الكيفية متفرد؛ فلم يسبق لأسير- حسب علمي- أن وثّق لحركته شعريا بهذا التفصيل البلاغي القائم على الإشادة والتمجيد وإعلاء الشأن.

يقوم هذا المؤلف الشعري على البناء المنطقي؛ من تمهيد شعري وعرض أفكار متسلسل وخاتمة، ويتبع في بنائه أسلوبا شعريا لافتا للنظر، إذ يعيد إلى الأذهان مفهوم الألفيات الشعرية التراثية التي كان ينظمها العلماء من أجل توثيق العلوم

والمعارف، لتصبحَ أسهل في الحفظ والمدارسة، وكان الشعراء يتبعون في تلك الألفيات- غالباً- بحر الرجز المزدوج، وفيه تتم المحافظة على الوزن واختلاف القافية في كل بيت شعري، مثل ألفية ابن مالك. ويمكن للباحث أن يحيل القارئ إلى «الألفية الفقهية على مذهب السادة المالكية»، وأراجيز العلماء في الطب أو في الفلسفة، وإن لم تصل هذه الأراجيز إلى ألف بيت، ويدخل في هذا النوع من الشعر ما شاع من القصائد المقصورة، ويقف على رأسها مقصورة ابن دريد في اللغة. وتشير كل هذه النماذج إلى القدرة الشعرية، وتمكن أصحابها من النظم وإتقان شروط الصنعة الشعرية الأساسية القائمة على التوافق بين المعنى والبنى توافقا يجعلها موحدة في الأسلوب والفكرة، مع ملاحظة القدرة على تفريع الأفكار ضمن الخط العام للفكرة الرئيسية.

يعد هذا الشعر- في جانب كبير منه- من الشعر التعليمي؛ إذ كانت الغاية منه نظم قواعد اللغة أو أحكام الشرع الفقهية، أو أحكام التجويد، أو الفلسفة، وأحداث التاريخ والحكايات القصصية شعرا، ليسهل على المريدين حفظها، وترديدها واستدعاؤها كلما عنّت لهم واحتاجوا لشيء منها.

واستمرت هذه القصائد في الشعر العربي بعد ذلك، ووجد لها مبدعون في كل العصور، فوجدت في عصور متأخرة- على سبيل المثال- الألفيات الصوفية، كالألفية الوفية للسادة الصوفية، وصولا إلى العصر الحديث وتأليف الشاعر أحمد محرم ملحمته الإسلامية، ديوان «مجد الإسلام» المكون من أكثر من خمسة آلاف بيت متنوعة في الوزن والقافية، ونحا فيها منحى التأريخ. يتناول في هذه الملحمة سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ليختمها بمجموعة أبيات حول سرية أسامة بن زيد بن حارثة، حيث توفي الرسول الكريم ولم يتم بعثها وإرسالها، إلا بعد استلام أبي بكر الصدّيق- رضي الله عنه- الخلافة. فجاءت هذه الملحمة حول موضوع واحد. وأغلب الظن أن الشاعر أحمد التلفيتي كان على اطلاع على هذه الملحمة، وهذا التراث الغني المشبع بهذا النوع من التأليف العلمي التعليمي القائم على توظيف الشعر لأهداف غير فنية في الدرجة الأولى، إذ لم يقل هؤلاء الشعراء تلك القصائد من أجل الشعر، وإنما من أجل خدمة المضمون والفكرة، وبهذا تدخل هذه الألفية في باب المطولات الشعرية، إذ لا حدّ للمطولات، فيمكن للشاعر أن يطيل بها لتصل مئات الأبيات، ويعدّ «التطويل» أحد المقاييس النقدية في الحكم على جودة الشعر عند النقاد،

فقد «مثلت المطولات الحيز التجريبي الذي حاول فيه الشعراء إظهار مقدرتهم الإبداعية مستثمرين أقصى ما وهبتهم اللغة من إمكانيات أسلوبية في المستويات كافة»[1].

وقد شاعت هذه المطولات في الشعر الحديث بصور مختلفة، مبتعدة عن الهدف التعليمي، متوخية أهدافا إبداعية وتوثيقية، كأن يكتب شاعر القصيدة الديوان كما فعل درويش في جداريته، والمتوكل طه في ديوانه «فضاء الأغنيات»، ومعين بسيسو في ديوانه الأخير «القصيدة»، كما يدخل في هذه المطولات المسرحيات الشعرية، والسير الشعرية كما فعل الشاعر إبراهيم نصر الله في ديوان «مرايا الملائكة» الذي يتناول فيه سيرة الشهيدة الطفلة «إيمان حجو».

ومن بين هذه المطولات والأعمال الشعرية جميعا، يبرز ديوان «مجد الإسلام»- كما سبق وذكرت- كأقرب عمل شعري يتقاطع معه أحمد التلفيتي في الفكرة العامة والهدف، وبعض جوانب الأسلوب، فما بين العملين بعض الوشائج، إذ يتناول أحمد سيرة حركة حماس وقيادييها، وشهدائها في هذا العمل، كما وظهر في العملين النزعة التأريخية، وما فيها من اعتزاز وفخر، ممتزجا بالعاطفة الدينية التي سيطرت على كلا العملين، عدا أن كلا الديوانين، ينطلق من فكرة سياسية؛ سياسة دولة الرسول الكريم في «مجد الإسلام»، والسياسة المعاصرة الفلسطينية «في ألفية حماس»، لذلك حفلت الأبيات عند الشاعرين بالمواقف السياسية تجاه الأحداث، وتخللتها أيضا بعض الاستنتاجات التي حاولت أن تصوغها على شكل حكم سياسية أو فكرية ذات بعد عقدي أو فلسفي، كأسس سياسية دينية عامة في حياة الرسول الكريم وصحابته عند محرّم، وفي حياة الحركة ورجالها عند التلفيتي.

جاءت ألفية أحمد الحمساوية في ألفين وأربعمائة وخمسة وأربعين بيتاً من الشعر الموزون والمقفى، وينتظم هذه الأبيات قافية النون المكسورة، ويركب فيها الشاعر بحر الكامل التام (أخو الرجز). وهنا يختلف أحمد الجديد عن أحمد محرم، ففي الوقت الذي جاءت ملحمة محرم متنوعة القافية والوزن جاءت ألفية أحمد التلفيتي موحدة في الوزن والقافية والموضوع.

يمتاز البحر الكامل بالغنائية والانسيابية والمطاوعة، بل إنه- كما ألاحظه في

1. البنى الأسلوبية- دراسة في الشعر العربي الحديث، د. كمال عبد الرزاق العجيلي، ص291.

نماذج شعرية معاصرة كثيرة لشعراء شباب- أنه «حمار الشعراء» المعاصرين، وليس بحر الرجز الذي كان مطية الشاعر المبتدئ وحماره، كما تقول المدونة الثقافية العربية القديمة. وقد ساعد الشاعر على إطالة النفَس في الشعر عامل آخر؛ غير البحر الشعري، وهو هذه القافية التي تتزاحم المفردات فيها بكثافة لتكون قافية مستدعاة بفنية عالية، غير مجتلبة، فالنون لا تعد في عرف الشعراء حرف روي صعباً، بالإضافة إلى أن الردف (حرف الألف الذي يسبق النون) مكّن الشاعر من خلق المفردات المشاة التي يمكن لها أن تنقذ الشاعر في كثير من الأبيات.

حرص الشاعر في هذه الألفية على ضبط الأبيات، ضبطا صرفيا ونحويا كاملاً، وفي هذا الأمر عدة إشارات، منها: أن الشاعر حريص على نصه وتجويده، ومراجعته وإتقانه، فعندما يقوم الشاعر بضبط النص بكل حرف فيه، يعني أنه يطيل التأمل فيه، وبذلك تكون أخطاؤه أقل، فهو ليس عملا عابراً، فالشاعر كتبه في السجن، وعرضه على إخوته الأسرى أيضاً، ما أتاح له فرصة مراجعة هذا العمل غير مرّة، ليخرج بهذه السوية اللغوية الخالية من الأخطاء أو تكاد.

إضافة إلى أن شعراء الاتجاهات الدينية والسياسية الإسلامية يحرصون- غالباً- على ضبط النص متأثرين بالنصوص الدينية، وخاصة القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وكأن في هذا الأمر أيضا حماية للنص من سوء القراءة، ومن ثَمّ من سوء التأويل، ما يعني أن ضبط النص كاملا بهذه الطريقة يحمي القارئ من الوقوع في زلل القراءة، ما يتوجب عليه أنه سيقرأ هذا الشعر بالكيفية المطبوع فيها، أي أنه لن يخطئ أبدا، وليس مسموحا له أن يخطئ في القراءة أو يلحن فيها، فلا مبرر لسوء المآل القرائي للنص، ما يمنحه إمكانية جمالية أولية ناشئة عن حسن القراءة، وحسن القراءة للنص الشعري أول عتبة لجودته، إذ تتطلب قراءة الشعر مهارات وانتباهات مضاعفة، فأي خلل في الحركة، صرفيا أو نحويا ستؤدي إلى خلل في جمالية القراءة وسلاستها الإيقاعية عدا ما ينشأ عن ذلك في أحيان كثيرة من انتقاص في المعنى أو تغييره أو اضطرابه.

يحقق هذا الديوان الحماسي الحمساوي بامتياز نواحيَ كثيرة من الشعرية الإسلامية المعاصرة، هذه الشعرية التي اعتمدها شعراء الحركة الإسلامية

المعاصرين من أمثال سيد قطب وهاشم الرفاعي ويوسف القرضاوي وعبد الرحمن العشماوي وآخرين، وتتجلى في هذا الشعر المصوغ بصحة لغوية عالية، فلا يعتمد على الانزياحات والاستعارات الغريبة، بل إنه ينحاز إلى المثل العليا والأهداف السامية، مع وضوح في المعاني، وسلاسة في التراكيب، والبعد عن الرمزية والغموض، واجتراح الحكمة أو تمثلها، وينطلقون من فكرة مؤداها أنه «من خلال اللغة يستطيع أن يحدث [الأديب] علاقات جديدة بين الألفاظ ويولد الصور ويحدث التأثير الموسيقي ويأتي بعوالم متعددة من الطرافة والبناء»[2].

وترسم هذه الأشعار لأصحابها الشعراء- على مرّ العصور- صورة مثلى، تقارب صورة الأنبياء والقديسين والصحابة، وهي نفسها الصورة التي يرسمونها لأبطالهم الذين يتحدثون عنهم، وهي بالأصل مقتبسة عن أصل تاريخي سلفيّ النزعة، ينتسب إلى تلك الصورة التاريخية للصحابة- رضوان الله عليهم- والتابعين وكل الصالحين، هذه الصورة التي يراها القارئ في شعر علي بن أبي طالب وشعر الشافعي، والبوصيري، ويراها في شعر أحمد محرم، وكل من سار على هذا النهج من الشعرية الإسلامية، بالإضافة إلى ما ترسّخ من صورة للشاعر الفذّ، حيث تتجلى في هذا النوع من الشعر أيضاً مقدرة الشاعر على النظم بسلاسة وتمكن من الأدوات الفنية الأساسية التي تؤهله إلى دخول نادي الشعراء الكبار.

لا شك في أن هذا الديوان بهذه الكيفية التي أشرت إليها، والتقاطعات الفنية مع الشعرية العربية قديما وحديثا، تؤشر إلى شاعرية ثرية ومتدفقة يتمتع بها الشاعر أحمد عبد الرحمن حج محمد التلفيتي، ملتزما بشعرية مغايرة متفقة مع منهجه الفكري الإسلامي العام، والسياسي الحمساوي، ويرسم لمبدعه صورة الشاعر المقاوم الملتزم والمنغمس في تاريخ الحركة ومفاصلها التاريخية ومنهجها السياسي، متبنيا دون نقاش كل متبنيات حركة حماس السياسية والفكرية، فالديوان بمجموعه يمثل نوعا من الشعر السياسي الفئوي الذي يدور حول فصيل سياسي، محاولا تمجيده بطريقة شعرية، كما هو الحال- مثلاً- عند الشاعر قطريّ بن الفجاءة أو دعبل الخزاعي، وغيرهما من شعراء الأحزاب الإسلامية في التراث الشعري العربي، وبذلك يكوّن صورة أخرى للشاعر الأيديولوجي المؤطر في إطار تجعل شعره يسير في هذا المسار

2. الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي، د. شلتاغ عبّود، دار المعرفة، ط1، 1992، ص180.

الضيّق، وتجعله خادما للسياسة ووجهة نظر معينة، وغير قادر على التحليق في فضاءات الإبداع كما ينبغي للشاعر أن يكون.

وهذا لا يعني بحال من الأحوال ألّا يكون الشاعر ذا موقف سياسي وأيديولوجي معين صلب، يدافع عنه بكل ما أوتي من إمكانيات إبداعية وفكرية، لكن عليه ألّا ينسى نفسه وإمكانياته الجبارة في كتابة القصيدة التي عليها أن تفلت من إسار السياسة المغلق بأفكارها ومعجمها اللفظي، ولغتها الفقيرة بصورها الفنية، والمحدودة في شعريتها وشاعريتها إلى شساعة الإبداع المتحرر من كل شيء سوى الفن، فلو وصل إلى هذا الفلك العالي لارتفع بشعره وأفكاره السياسية والأيديولوجية عندما يلبسها لبوس الفن الخالص، فلا تعارض- كما أرى- بين الفن الرفيع والشعر الصافي البلاغي الصافي الشفاف وبين الموضوع الأيديولوجي أو الديني العقدي أو السياسي الواقعي اليومي.

ثمة إنسانية عظيمة في حركة الإسلام سياسيا واجتماعيا وثقافيا أرحب من فصائله السياسية، تدعو أحمد وأتباعه إلى تجربة ذلك شعريا، والقفز على كل تلك المسلمات التي تضج بالشعر فتلجمه بلجامها القاسي، بل ربما عليه أن يفكر بالكيفية التي تمكنه من التحرر من ثوبها الذي يضيق مع الزمن على شاعريته الفذّة المثبتة الزاخرة، فيتقلص، ويتضاءل شعريا إن لم يخرج من هذا السجن اللغوي الفكري الذي هو- بلا ريب- لا يقل خطورة على الشعر والشاعر من سجن المكان وقضبانه التي لا ترحم، فليكن هذا الديوان مرتكزا إبداعيا، ومنصّة فكرية قوية وصلبة للانطلاق لما هو أعظم وأدوم عُمراً. فمن حق هذه الشاعرية الممتدة طولا وعرضاً أن تُخلّد بالنصوص العظيمة التي لا تموت.

قراءة في ديوان «أنانهم»[1] للشاعر الأسير أحمد عارضة

الشاعر أحمد العارضة بالنسبة لي هو مفاجأة الحركة الأسيرة التي أهدت الوسط الثقافي الفلسطيني صوتا شعريا مختلفاً. قال لي أحد الأسرى- ممن أتواصل معهم هاتفياً: «أحمد العارضة أفضلنا شعراً».

إن مؤلفه «أنانهم» أنضج ديوان شعري خارج من المعتقل، لما يحتويه من رؤى، وشاعرية، وإيقاع متناسق، والانزياح في توظيف المفردات، وإخراجها عن سياقاتها المعهودة المعجمية إلى آفاق رحبة من التثوير اللغوي والمعنوي. إنه باختصار يعرف ماذا تعني كلمة «شاعر». اطلعت على ديوانين آخرين لأحمد العارضة ولا يقلان جودة عن هذا الديوان، وقدم أحدهما الكاتب إبراهيم نصر الله.

إن هذا الشعر الذي أضاء من عتمة السجن لكفيل بإحداث التوازن بين هذه الخريطة الإبداعية التي تركز كثيرا على السرد، رواية وسيرة ذاتية وحكايات ونصوصا ذاتية البوح، وتعدل به إلى شيء مختلف، فالشعر كما قال الحطيأة، وصدق فيما قال:

الشعر صعب بل طويل سلمه
إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه

وأحمد العارضة شاعرٌ ارتقى فيه ببراعة لافتة، فهنيئا للحركة الأسيرة به، شاعرا ومناضلا، وهنيئا لنا نحن القراء أيضاً حين نقرأ سطوره الشعرية فنشعر باللذة العارمة والفارهة الجمال.

تعود أصول الشاعر أحمد تيسير العارضة إلى فلسطين المحتلة عام 1948، وتحديداً قرية اليازور التابعة لمدينة يافا، ولد الشاعر العارضة في نابلس عام 1983، وهو من سكّان مخيم عسكر سابقاً، قبل أن تنتقل أسرته للعيش في مدينة نابلس، اعتُقل بتاريخ 2/11/2004، وحكم عليه بالسجن المؤبد ثلاث مرّات، وله ثلاثة دواوين: «وشم على قارعة العدم» 2012، و«أنانهم»2021

1. صدر الديوان عن دار طباق للنشر والتوزيع، يقع الكتاب في 117 صفحة من القطع المتوسط، وقدم له الأستاذ حسن عبادي.

وديوان «خلل طفيف في السفرجل» 2023، وما زال ديوان «وشم على قارعة العدم» مخطوطاً[2].

استطاع الشاعر المنافسة بديوان «خلل طفيف في السفرجل» والوصول إلى مرحلة أفضل اثني عشر ديواناً في جائزة الشاعر الشاب ضمن جائزة عبد الرحيم محمود للإبداع عام 2013. وقد أشادت لجنة التحكيم بالديوان وبتميّز «اللغة الشعرية الثرة والصورة الفريدة والتأمل العميق»[3]، كما وصف الروائي إبراهيم نصر الله قصائد الديوان بأنها «نموذج رائع لصورة شعب يصر على التمسك بجمال روحه بالأدب والفن، كما يتمسك بتراب أرضه». ويضيف نصر الله «أن هذا الشاعر استطاع أن يتطوّر أكثر مما تطورت أقلام شعرية كثيرة، تنعم بالهواء خارج قضبان السجن وحلكة لياليه»[4]. أما ديوان «أنانهم» فإنه يثير شهيّة الحديث منذ عنوانه حتى آخر جملة فيه، فكلما تأملت صنيعه في هذه البنية اللغوية غير المألوفة تفتقت في الذهن معانٍ تلو أخرى.

يشكّل العنوان بؤرة تأويل معنوية غنيّة في هذا الديوان، فهو مكوّن من تركيب اسميّ مأخوذ من توليف إيقاعي لثلاثة ضمائر مبثوثة في ثنايا القصائد أو عناوينها: أنا ونحن وهم، فأصبحت **«أنانهم»**، موظفا ما تتيحه اللغة وقوانينها من قواعد للنحت، المسمّى في عرف بعض اللغويين «الاشتقاق الكبّار»، فقد نحت الاسم- أيّ صاغه- من ثلاث كلمات، وقد وزع تلك العناوين على ثلاثة أقسام في الديوان، فضم القسم الأول «أنا» تسع قصائد، واحدة منها بعنوان «أ ن ا»، في حين جاء القسم الثاني «ن» مكونا من سبع قصائد، وأما القسم الثالث «هم» فضمّ ستة قصائد، وبذلك يتكون الديوان من اثنتين وعشرين قصيدة، التزم فيها الشاعر التفعيلة، وجاءت متنوعة على خمسة بحور شعرية، وهي (الكامل، والمتقارب، والوافر، والمتدارك، والهزج)، ولا يخفى ما في هذه البحور الشعرية من غنائية واضحة.

تذكّر هذه اللعبة الشعرية من توظيف الضمائر بلعبة مقاربة نوعا ما لما فعله

2. أورد موقع وكالة وفا الفلسطينية أن الديوان «صدر في تشرين الثاني 2012، واحتوى على 37 قصيدة». لكن في الحقيقة لم يصدر عن أي دار نشر.
3. موقع تلفزيون الفجر الجديد: https://alfajertv.com/news/88143.html
4. موقع جريدة الوسيط المغاربي: https://cutt.us/87eFG، ورأي الشاعر إبراهيم نصر الله جاء ضمن مقدمة الديوان.

محمود درويش، فكان هناك أربعة ضمائر جاءت عنواناً لأربع مجموعات من قصائد ديوان «كزهر اللوز أو أبعد»، فكل ضمير من هذه الضمائر (أنت، هو، أنا، هي) تندرج تحتها مجموعة من القصائد. ويعيد إلى الأذهان كذلك ما فعلته الشاعرة نداء يونس في مجموعتها الشعرية «أنائيل»، فكان صنيع العارضة شبيهاً في تقنية التسمية بما فعلته نداء، مع الاختلاف في عناصر النحت وتأويلاته الشعريّة بكلّ تأكيد. وبما فعله محمود درويش من الاستفادة من اللعب بالضمائر وتفجير ما فيها من إمكانيّات شعريّة داخل النصوص ذاتها. فلكل تجربة إبداعية خصوصيتها وإن التقت في بعض الخيوط مع تجارب الآخرين.

لعلّ اللافت للنظر، ولا أدري هل كان الأمر مقصودا أم محض صدفة إبداعيّة غير واعية ولم تخطر على بال الشاعر، أن يكون هناك علاقة بين «أ ن ا» المكتوبة بهذا الشكل المتقطع وبين المعنى المبثوث في القصائد أولا، وثانياً بين الحرف «ن» الذي يومئ إلى الضمير «نحن»، ويُكتفى به مثلا في أول الفعل المضارع المسند إلى هذا الضمير ليدلّ على جماعة المتكلمين، وبين «نا» الذي يأتي في ذيل الأسماء والأفعال الماضية للدلالة على مجموعة الفاعلين مرة، ومفعولا بهم مرة أخرى عند الاتصال بالأفعال، ويكون هذا الضمير «نا» سببا في تعريف الأسماء إذا اتصلت بها. كأن هذا الحرف (ن) قد ارتقى ليكون اسماً ليس مجرّد ضمير يدل على الاسم ضمناً، بل له مآرب آخرى.

وتتوالى الدلالة لتذهب حيث القرآن الكريم، وقوله تعالى «نون، والقلم وما يسطرون»، أو إطلاق النون على الحوت في القرآن الكريم كذلك في وصف سيدنا يونس عليه السلام كما في قوله تعالى «وذا النون إذ ذهب مغاضباً، فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات». كأنه يستعير في اللاوعي تجربة سيدنا يونس في بطن الحوت وهو في بين جدران السجن، فثمة ما هو متشابه جدا بين التجربتين الإنسانيتين وتلتقيان عند الوحدة والانعزال القسري.

وصولا إلى معنى النون الصوفي بوصفه حرفا تتجلى فيه معانيَ شتى، أفاض في شرحها الصوفيون، كأمثال ابن عربي والسهروردي الذي قال في أن هذا الحرف يدلّ على: «نزوع إلى المطالب لأجل ثمرات المأرب».

عليّ أن أقتنع أن الشاعر قد تأمّل كل ذلك؛ فخرج بهذه الصيغة من العنونة الأساسية، عنوان الديوان، والعنونة الداخلية؛ عنوان الأقسام وعنوان واحدة من

القصائد. فثمة رابط لغوي- إذاً- يجمع بين الأقسام الثلاثة، ويصبح النحت في الضمائر لتشكيل بنية اسمية جديدة، دالّاً على نحت كليّ من مجموع القصائد لتُشكّل ديواناً واحداً ذا عنوان مشتق من العناصر المكونة له بوصفه كتاباً.

هذه الكيفية المتوهمة- ربّما- لهذا الدالّ بصيغته المشار إليها أعلاه، قد تحمل- كما ألمحت في مقالات أخرى- إلى شيء من المضمون، بمعنى أن طريقة الكتابة هي طريقة واعية ينحاز إليها الشاعر وهو مدرك لصنعته الشعرية، فالعلاقة اللغوية الحرّفية المتصلة بين أنا بطرق كتابتها المختلفة لها علاقةُ معنى بالحرف/ الضمير «ن»، فالأنا الفردية هي جزء من نحن، سواء على مستوى الخطاب الجمعي للشاعر، أو على مستوى الانتماء الفعلي القوميّ المكوّن للهويّة، فعلى ذلك فالأنا الفردية حاضرة على مستويين، المستوى الفردي الخاص بالشاعر والمعبر عنها بـ «أنا»، وكذلك فإن هذه الأنا هي جزء من هذه الـ «نحن». هذه قراءة محتملة خاصة بالعنوان. قد يعززها أو يعصفُ بها ويجعلها غير منطقية ألبتة طريقة كتابة العنوان على الغلاف الخارجي بحيث كتبت «أنانهم» بلونين مختلفين، فبرز في الشق الأول من العنوان «أنا» باللون الأحمر وجعل «نَهُمّ» باللون الأسود. ماذا يعني كل هذا سيميائياً؟

لا بد من أن أذكّر أولا بالعلاقة التي تحكم الضميرين أنا ونحن، فهما واحد في حقيقة الأمر، فكلّ «نحن» مكونة من «أناوات» متعددة منصهرة في مكوّنٍ جديد، يكتسب هويته الجمعية من جميع صفات أفراده، لكنّ لهذا الطرف من العنوان مضادّاً يقف نقيضا له على الدوام، وهو «هم»، ولذلك يبدو لي أنّ هذه العنونة بهذه الطريقة مؤشر لقراءة العنوان ضمن ثنائية أنا- الآخر، وأنا هنا ستكتسب المعنيين الفردي والجماعي، الفردي الشاعر أو الأسير، كما تؤكد ذلك قصائدُ هذه المجموعة، لكن دون أن تقول ذلك صراحة، فعلى سبيل المثال يقول الشاعر في قصيدة «أ ن ا»:

أنا رأس الحرابِ

إذا أراد من تولوا سوقنا

إعلان خطتهم

لترسيم السحاب (ص23)

ففي هذا المقطع تحضر الضمائر الثلاثة (أنا، ونحن، وهم)، وتراوح القصيدة

بـين هـذه الضمائـر، مـع حضـور مركـزي لأنـا فيهـا، حيـث يبـدأ كل مقطـع مـن مقاطـع القصيـدة السـبعة والعشـرين بهـذا الضميـر «أنـا»، فمـرة يكـون مؤشـرا علـى أنـا الشـاعر، ومـرة علـى أنـا ضمـن الجماعـة «نحـن»، وهـو في كلتـا الحالتـين: الفرديـة والجماعيـة مضـاد ونقيـض لهـؤلاء المعبـر عنهـم بــ «هـم»، فثمـة صـراع يظهـر مـرة ويخفـى مـرات، ويشـتد حينـا، وحينـا يخفـت بـين هذيـن الطرفـين، ولأن الشـعر يومـئ ولا يقـرّر، ويصـوّر، ولا يقـدّم معلومـات جاهـزة، ويقـوم علـى القلـق والشـك، وليـس علـى اليقـين، جـاءت الصـور مخاتلـة في معانيهـا ومـا تبـدو عليـه، ولعـلّ هـذا القلـق الإبداعـي المسـيطر علـى الشـاعر في لا وعيـه جعلـه يكتـب أنـا بطريقـة مقطعـة (أ ن ا)، غيـر متصلـة، علـى مـا في ذلـك مـن لفـت انتبـاه القـارئ، ودفعـاً لـه ليتأمـل مـا وراء هـذه الصـورة الخطيـة مـن خطـاب مسـتتر، وكأنـه لا يريـد مـن قارئـه أن يأخـذ خطابـه المعلـن في القصائـد فقـط، فهنـاك معـانٍ أخـرى علـى القـارئ أن يبحـث عنهـا. فلعلّـه يشـير إلـى حالـة مـن التشـظي التـي تعيشـها الـذات الفرديـة بهـذا القلـق، وتشـظي الـذات الجماعيـة ومـا تعانيـه مـن انقسـام وضيـاع.

قصائـد هـذا الديـوان لا تعطـي القـارئ معناهـا مباشـرة، لكنهـا أيضـاً لا تجعلـه عاجـزاً، وأمـام أعتـاب القصائـد محتـارا يبحـث عـن ظـلال مـن المعانـي في طلاسـم دون مفاتيـح، فقصائـد هـذا الديـوان تحـثّ القـارئ وتسـتدرجه وتنبهـه، وتأخـذ بيـده نحـو دهليـز مضـاء بالصـورة الشـعرية الرائقـة، تدفعـه ليقـرأ فينسـى المعنـى ليجـري وراء هـذا الانسـياب الإيقاعـي الهـادئ في هـذه النصـوص، إذ تنـمّ هـذه الإيقاعيـة الهادئـة عـن شـاعر قـادر علـى اسـتدراج قارئـه، فثمـة شـعر تحـسّ معنـاه وتفهمـه في داخلـك، وترتـاح إليـه، ولكنـك إن شـرحته قاومـك المعنـى، وتفلّـت منـك، هـذا النـوع مـن القصائـد يصنـع شـاعريته ببنيتـه اللغويـة ومـن ترديـد هـذه البنيـة، فكأنهـا بنيـة قائمـة بذاتهـا، مسـتقلّة عـن غيرهـا تصنـع تأويلاتهـا مـن داخلهـا، ولا تسـتند علـى مـا هـو خـارج النـص لفهمـه. سـأختار فيمـا يلـي هـذا المقطـع مـن القسـم الثانـي مـن قصيـدة بعنـوان «عطـر مدينـة- أو أمّ الغريـب»:

من أين جاءوا
كيف يفترشون فيء العشق
في سحَر الطريق؟
وروائح السمك الذي ملّ الغيابَ

لعاشقين بشاطئٍ

سلبوا حصاه)

- يتذكر السمك الذين قضوا هنا بيد الغزاة-

في هذا النص عودة لحنين ما، لمدينة ساحلية فلسطينية هي «أم الغريب»، مدينة يافا- مدينة الشاعر المحلوم بالعودة إليها- وسيعود الشاعر إليها في قصيدة «خذي يافا» في القسم الثالث من الديوان (ص111). يرسم المقطع تلك العلاقة المشار إليها أعلاه بين نحن وهم، نحن العاشقون، ومعنا أشياؤنا ومتعلقاتنا وأخصّ ما يدلّ على مدينة ساحلية، الصيد والسمك ورائحته، وهم الذين فرضوا سيطرتهم على المكان، فصرنا نحن ضحايا-هم.

كما تبدو أنا الشاعر هنا بوصفه سارداً لملمح من ملامح المأساة الفلسطينية، وعليه، فقد تحولت الأنا المركزية شاهدا على هذه المأساة مرتين، مرة بالسرد الشعري، ومرة أخرى كونه أحد أفراد العاشقين الذين ينتمون لأم الغريب (يافا)، ووقع عليه ما وقع على الآخرين، فالسارد للحكاية يتحمّل مسؤوليتين، مسؤولية السرد وتبنّي رواية ما، ومسؤولية الحكم القدري بحكم أنه ضحية أيضاً فعليه أن يقاوم، فيتلمّس عطر هذه المدينة في كل أشيائها، ومحيلا أيضا إلى ذاك الصراع الذي ما زال محتدما بين نحن وهم، أو بين الأنا والآخر.

ربما يلحظ القارئ لقصائد القسم الثالث معنى آخر للضمير هم، إنهم ليسوا فقط المضادّ والنقيض/ الغزاة، إنهم ليسوا ذلك الآخر الذي دخلنا معه في صراع طويل الأمد. إنّ «هم» تعني كذلك نحن بصيغة ما، تعني جزءنا الراحل عنا أو البعيد الذي لا نستطيع رؤيته، ويثير في الشاعر الحسرة والألم إنهم: «الأمّ» كما في قصيدة «شتاء» (ص91)، و«الأب» كما في قصيدة «عليكَ السلام» (ص101)، و«أنتِ» المرأة المعشوقة كما في قصيدة «إليك وقد نضج النخيل» (ص107) وقصيدة «سلام هي» (ص115)، و«أنتنّ» في قصيدة «أنتنّ أجمل». (ص87) فما المقصود بهذا الضمير «أنتنّ»؟ ربما جاء مدلول الضمير غائماً؛ إذ قد يؤولها البعض بالنساء الجميلات؛ فأنتنّ تستخدم لمخاطبة جمع المؤنث العاقل، وربما تفسّر بالمدن الفلسطينية، أو بالقصائد. يقول في أحد المقاطع:

أنتنَّ شمسُ أناملي،

في الليل تمنحن الأراجيح الطفولةَ

والخرافة والنعاسّ (ص87)

أظن أن الشاعر يتغزل بقصائده التي افتتن بها، ورأى فيها أجمل من النساء ومن النجمات ومن كل شيء عداها، فقد وصفها بأجمل ما يصف عاشق محبوبته بلغة شعرية عالية ومكثفة وصور طريفة، تدعو للتأمل والتحليل، مانحاً تلك القصائد الحياة والعقل أيضاً عندما عدل عن الضمير «هي» في مخاطبتها ليخاطبها بأنتنّ. ويختم قصيدته مؤكداً هذه المنزلة لتلك القصائد- إن صحّ فهمي- بقوله:

أنتنّ أرخمُ من ترنّم جدولٍ

صافٍ

يحاور صورة الله البهيّةَ

بالخريرّ (ص89)

يا للّه! ما أبدع هذه الصورة! بكل صور هذه القصيدة التي تدعو إلى التأمل وتشير إلى علاقة الشاعر بشعره، ولشدة تعلقه الوجداني بهذا الشعر، فقد جعل القصيدة مجموعة من المقاطع، وكل مقطع يبدأ بالضمير «أنتنّ» متبوعاً باسم التفضيل، عدا مقطعين اثنين، واللافت للنظر في بناء هذه القصيدة تكرار «أنتنّ أجمل» أربع مرات، من المقاطع الثمانية المتبقية. ثمة هندسة -إذاً- يقوم عليها بناء هذه القصيدة التي تُعلي من شأن الشعر وبنات أفكاره المسماة «القصائد».

هذه بشكل عام تجلّيات حضور الضمير في ديوان «أنانهم» للشاعر الأسير أحمد العارضة، وقد كان للضمير المنفصل حضور واضح في القصائد، (أنا ونحن وهم وأنت وأنتن وهي)، فقد جعل من تلك الضمائر مركزية في النص الشعري من خلال التكرار الذي صاحب حضور هذه الضمائر، الأمر الذي يعلي من شعريتها، أو محاولة تثويرها شعرياً للاستفادة من إمكانياتها الإيقاعية والمعنوية.

ومن خلال ما بينه الناقد وين بوث[5] فإن الديوان يظهر صورة ضمنية لكاتبه، وتتجلى هذه الصورة في كون المؤلف شاعراً ينحاز إلى القصيدة بكل متطلباتها الفنية؛ من مجاز، ولغة وصورة أدبية مبتكرة، شاعر منحاز إلى شعر التفعيلة

5. يُنظر كتاب «بلاغة الفنّ القصصي»، ترجمة: أحمد خليل عردات، وعلي بن أحمد الغامدي، جامعة الملك سعود، 1415هـ ص91-80.

الموزون، وبذلك فهو يحقق التجريد المطلق كونه «كائناً لغوياً»[6] كما سبق للشاعر محمود درويش أن وصف نفسه. وهذا أهم ما يميّز الشاعر- أي شاعر. عدا هذا أيضاً، فالعارضة يعيد إلى الذهن ملامح الشعر المقاوم بأسلوب شعري رصين، مفتوح على المأساة الخاصة التي أحذت منحى جماعياً، وأما الملمح الثالث في صورة الشاعر الضمنية في ديوان أنانهم فبدت في تأكيده الانتماء إلى بلدته، اليازور، من أعمال مدينة يافا أم الغريب، بكل ما يتصل بيافا أيضا وبحرها، وخاصة الصيد، كأننا أمام صيّاد سمك فلسطيني، يتنزه على شواطئ يافا ويستمتع بهوايته المحببة لديه.

وبعيداً عن أحكام القيمة التي لا يحبّذها النقد المعاصر، أكتفي بالقول إن ديوان «أنانهم» ينبئ عن ولادة شاعر «يجري ولا يجرى معه»[7]، على الأقل بين أبناء جيله من الكتّاب الأسرى، بل وأن تقرأه وتتأمل ما فيه من جماليات وصور وتعابير تبعث على الدهشة المكتنزة بالمعنى، فولادة شاعر بهذه الكيفية من قلب السجن، استطاع أن يروّض اللغة لتصبح جداول ماء هادئة، ولم تجرفه عواصف النضال لقرقعة اللغة المباشرة والصوت العالي، ليستحقّ أن يوصف بأنه «شاعر»، وشاعر مقاومة أيضاً بحسّ إنسانيّ مرهف، عذب وحسّاس، يضيف إلى مدونة الشعر الفلسطيني نصوصاً قادرة على البقاء، مفتوحة على التأويل، وأن يحقّق نوعاً من التعويض في مواجهة «الفيضان السردي»- بأنواعه كافة- المتدفق شلالا عذبا منبجساً من عتمة الزنازين، فإذا ما كان السرد مصباحا بيد الساردين الروائيين يضيء الطريق، فإن الشعر هو الشمس التي تطلّ من عليائها، تكشف عن بهاء جمالها، لتضيء الروح والوجدان والطريق كذلك، فإن لم تُضأ الطريقُ والأرواحُ واللغةُ بمثل هذا الشعر، فلا شيء يمكنه أن يفعل شيئاً إذاً. ولذا، وجرياً على عادة العرب القدماء الذين لم يكونوا يحتفلون إلا بفرس تنتجُ أو بغلام يولد أو شاعر ينبغُ، فإنه لمن الجدير بأحمد الاحتفال به، فقد نبغ شاعراً، أسس لشاعريّة مميّزة في دواوينه الثلاث، وخاصة ديوان «أنانهم». وآمل أن يستمرّ شاعراً وألا تجرفه سيول السرد، فيضيع صوته، وتتبخّر شاعريته في الغابة المزحمة.

---

6. يُنظر ديوان «لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي»، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ولندن، 2009، ص66.

7. من مقطوعة يصنّف صاحبها الشعراء إلى أربع مراتب، وهذه هي أعلاها.

الشعريّة في ديوان «خلل طفيف في السفرجل»

«خلل طفيف في السفرجل»، ديوان جديد للأسير الشاعر أحمد عارضة. في الديوان قصائد لافتة، وتعبيرات جمالية عالية الشعرية، وصور أدبية تكاد تكون غير مطروقة، واستخدام لغوي خاصّ لبعض المفردات، وعمل على اجتراح أساليب لغوية تركيبية غير معهودة في الاستخدام اللغوي، ما جعل العبارات محلّاً للتأمّل، مثيرة للدهشة.

جاءت قصائد الديوان في مجموعتين؛ الأولى تحت عنوان: «ليال»، وتتكوّن من (14) قصيدة، في حين جاءت المجموعة الثانية تحت عنوان «إغفاءات»، وتتكون من (13) قصيدة. واتخذ الديوان عنوانه من الجملة الشعرية الأولى في قصيدة بعنوان «خلل طفيف»، وهي القصيدة الرابعة من قصائد المجموعة الثانية.

ولم يقتصر ذكر السفرجل على هذه القصيدة، فقد كان هناك قصيدة أخرى بعنوان «سيّدة السفرجل»، عدا أن مفردة (سفرجل)، نكرة ومعرفة ومضافة إلى ياء المتكلم، وإلى الاسم الظاهر، مذكرة ومؤنّثة، قد ذكرت في الديوان أربعين مرة، بما في ذلك الإهداء، والعناوين السابقة، وتكرار جملة «خلل طفيف في السفرجل» في القصيدة التي جاءت فيها، هذا الحضور الكثيف لهذه المفردة التي توزعت بهذا الشكل جعل منها مفردة شعرية، وحمّلها دلالات جمالية وأنثوية وحيوية، مرتبطة بالمعنى المحيل إلى الحياة وإلى العلاقة ما بين المرأة والرجل.

واتخذ الشاعر من «السفرجلة» رمزاً للمرأة التي يتغزل بها، وبذلك قد يصبح الخلل الطفيف في السفرجل هو ما حدث من أمر الاعتقال الذي صار حائلا بينهما، وهذا ما أشار إليها في الإهداء: « .... سفرجلتي البرية المفعمة بالغياب».

ولكن لم تكن السفرجلة هي المرأة وحدها، بل إن هذه العلاقة حدث فيها خلل طفيف أيضا فيما يتعلق بفلسطين وقراها المهجّرة منذ النكبة عام 1948، وبأرضه، بما فيها مدينة يافا؛ مدينته الأصلية:

خلل طفيف في السفرجل لافتٌ

حاكى قرى قلبي المهجرة الشريدةْ
وانحاز للأصل العتيق
مزاولاً وجعاً حنينْ
وجعٌ حزين.

لقد عمل الشاعر على تفجير ما في هذه المفردة من طاقة جمالية وإشعاع شعري، من خلال اللعب بهذه المفردة، وما يبثه من خلالها من معاني الاحتياج الإنساني لحبيبة قريبة، يقرنها بثنائية حواء وآدم، وما اتصل بهما من الخطيئة الأولى.

هذا الديوان يؤسس جمالياته الشعرية على الاستناد إلى الإيقاع الثري المتكون من التزام الشاعر بشعر التفعيلة، فيعيد الألق لهذا الشعر بعد أن هرسته قصائد النثر البائسة والمتكلسة والفضولية، وعلى ما سيبدو بعد قليل أن الشاعر يكتب بوعي نقدي كامل هذا النوع من الشعر، إذ يشير إلى ذلك صراحة في واحد من مقاطع إحدى قصائد الديوان، وبدت شعرية الإيقاع واضحة في كل القصائد، وعلى نحو لافت كانت قصيدته «صفر البلاغة» مثالاً على اتكاء الشاعر على شعرية السؤال والحوار، وما تتطلبه هاتان التقنيتان من جمل قصيرة، يرتفع فيها الإحساس بالإيقاع، وعلى الرغم من أن الحوار تقنية سرديّة، إلا أنّ النص لم يقع في فخّ النثر الذي يقلل من شعريته ومن تدفقه الإيقاعي، ومن ذلك قوله:

هو لَيْسَهُ،
لا نَفْهَمُهْ
لا نَعْقِلُهْ
لا نَفْقَهُهْ
لا يُنْبِئُ الإحساس بالأشْياء
عن كُنهٍ لَهُ...
تبدي المشاعر جهلها في كُنْهِهِ
مُذْ تَقْطُنُهْ.

وبذلك تشكل القصيدة حالة من التضاد الظاهري مع عنوانها الذي يجرّدها

من البلاغة، ليكتشف الدارس أن للبلاغة حضوراً مهيمناً. فهل قصد الشاعر الإمعان في لفت انتباه الدارس لهذه القصيدة ليقرأ ما فيها من بلاغات شعرية؟ أم أن كل هذه الوجوه البلاغية في النص لا تستطيع التعبير عن حالته؟ يبدو أن القصيدة في نهايتها تومئ إلى الخيار الثاني وليس الأول:

ما الحُبُّ قالت...
ثُمَّ ماتت جُمْلتي في مهدِها
قبلَ الصِّياغَةْ.
خالِ الوِفاضِ رجعتُ للشِّعْرِ الفقيرْ،
وأخَذْتُ (صفراً) من يديها
في البلاغةْ...
فوصفتُها (محبوبتي)
ومَنَحْتُها سِفراً جديداً للعبادَةْ...
قد تُؤمِنهْ.

يلفت النظر في هذا الديوان النظرة الذاتية إلى الأشياء، وإلى المدن، وإلى يافا تحديدا، موطنه الأصلي، وإلى الحبيبة ذات الحضور الإنساني البشري الأيروسي متكئا على عدة استعارات جمالية أهمها النهر ومقابله النهد.

كما لا يفوت الشاعر فرصة التلاعب بالضمائر، لعبته التي أتقنها في ديوانه السابق «أنانهم»، على الرغم من أن ديوان «خلل طفيف في السفرجل» (2009) أسبق من «أنانهم» في الكتابة (2020)، فكثافة الضمائر وجمالياتها الشعرية أوضح من «خلل طفيف في السفرجل».

يعزز هذا الديوان لديّ نظرتي إلى الشعر ولغته وصوره، هذه النظرة التي شرحتها في كتاب «بلاغة الصنعة الشعرية»، وقد عبر عنها الشاعر أحمد عارضة في هذا المقطع:

يؤرقني
بأن لا ضفة للشعر
إلا أغرقوا إيقاعها بالنثر

والإبهام والهذر

وسريالية العيّ، أو القصرِ

أعادني هذا المقطع إلى ما كتبتُه سابقا حول، «الخيال الشّعريّ والعبارة الجميلة الفاضحة»، ومنشور في الكتاب، وتعيد كذلك إلى الأذهان سؤال الحداثة، وما اتُّهمت به من غموض وإبهام، وكان الناقد الدكتور عبد الرحمن محمد القعود قد خصص لبحثها بتوسع كتابه «الإبهام في شعر الحداثة»، كما يحيل الدارس إلى ذلك النقاش المحتدم حول قصيدة النثر، وكسر حدة الإيقاع بالنثر، وما إلى ذلك من قضايا تخصّ الشعر الحديث.

كما أفادني هذا الديوان في موقعين، يؤكدان ما أعمل عليه من تقنية الكتابة الشعرية بالجملة الاسمية، وخصصت لهذا مشروعا تأليفيا، مكوّناً من كتابين؛ الأول تنظيري، والآخر تطبيقي، معدّ للنشر. جاء المثال الأول في الديوان في قصيدة «الوردة البيضاء». هذه القصيدة التي بدأها بجمل شعرية لا اسم فيها، واستغرقت هذه التقنية الصفحة الأولى منها التي تتكون من (12) سطرا:

للوردة البيضاء

جنديّ غريب

عن ديار الورد والليلك

ولها من الحزن

الكثير من النمو

لها القليل من المياه المعدنية

ولها افتقار النازحينَ

لبندقيةٍ

ولها الإلهُ...

لها الدعاءُ

لها الرثاءُ

ومزهريّةٌ.

وأما الموضع الثاني فجاء في ثنايا قصيدة «أعلنكِ صديقة»:

كل البلاد سجينةٌ
أنت الطليقة...
أما الحقيقة طفلتي:
(للحلم في أوطاننا
وقع الحداد المفترض...
للحزن في أوطاننا
أيدٍ طليقةٌ...)

ويبرهن الموقعان أهمية الجملة الاسمية في التعبير عن الحالة الشعرية، فجاء الموقعان عفويين، دون أن ينتبه- فيما أظنّ- لذلك الشاعر نفسه، شأنه في ذلك شأن كثير من الشعراء قبله، أشرت إلى كثير من أشعارهم في هذا الكتاب «تقنية الكتابة بالجملة الاسمية».

كما يبرهن المقطع الثاني ما توصلت إليه من أن الشعر يذهب نحو الحقائق المطلقة التي لا شكّ فيها، فهي مبنية على اليقين، لذلك جاءت منحازة تماما إلى الاسم. وما يؤكد ذلك أيضا الجملة التي سبقت هذا المقطع «إنني يا غربتي استخلصتُ/ أوجاعاً عميقة»، هذه الأوجاع التي كانت حقائق ثابتة، فجاء التعبير عنها بهذا الأسلوب الخالي من الفعل.

يقف الشاعر عند حياة السجن في قصيدة مؤلمة، حزينة الإيقاع، ذاتية، تشعر بالوحدة الشديدة لشاعرها يبدأها بقوله:

يؤرقني
مضي العمر في كهف
توقف عمري الزمني عند بابه
وفاضت فيه أحلامي
كما كانت قبيل (العتمّ)

ولهذا الإحساس سيطرته على الشاعر فيؤدي به ذلك إلى تكرار جملة يؤرقني تسع عشرة مرة، هذا الأرق الذي تحول إلى «يفتتني» بعد المرة الخامسة عشرة.

أما مدينته يافا التي رصّع اسمها في كثير من المواقع في الديوان يخصها

بقصيدة بعنوان «حبيبتي» فيقدم لها صورة أنثوية مقدسة ظهرت في كثير من الجمل الشعرية التي أعلنت عن انحيازها الوجداني منذ العنوان وحتى قفلتها الأخيرة:

لسْتُني إلاّ مُهاجِرْ
غَرَّبوهُ
وشَرَّدُوه
وشَيَّدُوا بِدِيارِهِ
كلّ المَقابِرْ...
لَسْتُ شاعِرْ
أنتِ يافا

وعدا كل هذا، فإن الديوان يكشف عن شخصية شاعره المثقفة التي تحيل إلى كثير من الرموز التاريخية والثقافية عربية وإسلامية وعالمية، لاسيما تلك الإشارات النصيّة القديمة، يوظفها للتعبير عن أفكاره، فحضرت الحكمة الشعرية «فإنّ غدا لناظره قريب» في مستهلّ الديوان، كما حضر كل من عروة بن الورد، والقوط، وداود بن ايشار بن عابر، والفاتحين، ويوسع بن نون، سومر، وإنانا، وليليت، والخلافة، وغيرها، ليمرّر من خلال هذه الشخصيات وهذه المفاهيم أفكاره التي أعلنها شعرياً في هذا الديوان.

بهذه الملامح الشعرية يرسّخ الشاعر أحمد عارضة صوته الشعريّ، لعله يشكّل علامة فارقة ليس في أدب السجون وحده، بل في الأدب المقاوم والأدب الفلسطيني بشكل عام، فقد تفوق على اللحظة الراهنة، واستطاع أن يتخلص من الغرق في ذلك اللحظي لهذا الظرف، فنجح في الإفلات من المباشرة والتقليدية إلى أفق من الشعرية الباذخة، فقدّم نصوصاً مقطّرة صافية، ممتعة في شعريتها، ومرهفة في إحساسها، وبلاغية في تراكيبها، وانزياحاتها الفنية.

صورة الكاتب الضمنية في كتاب «العزيمة تربّي الأمل»[1]

تساهم الكتب جميعها برسم صورة ضمنية للكاتب، مأخوذة من عمله الأدبي أو مجموع أعماله الأدبية، وربما كان للكاتب غير صورة حسب تلك الأعمال والصورة التي يسوقها الكاتب لنفسها فيها. فمثلا لغسان كنفاني صورة مرسومة في أذهان القراء شكلتها قراءة أعماله الأدبية، وربما اختلفت هذه الصورة أو اتفقت عن صورته في الواقع، ليس غسان فقط بل كل المؤلفين، ولهذا فإن ما قامت به غادة السمان من نشر رسائل غسان على الملأ شوّش تلك الصورة الضمنية للكاتب الثوري المقاوم والمناضل الذي كرس حياته للثورة وللأدب المقاوم، وراح ضحية الإرهاب الصهيوني، ليحمل صفة الشهيد أيضاً، فكيف لشخصية لها هذا العمق في أذهان القراء أن تتوافق مع ما هو منشور في الرسائل من صورة مغايرة، تدور حول صورة غسان العاشق الذي يعشق امرأة متزوجة، وكان مدلّها وموِلّها بها إلى درجة قد تصل إلى صورة «العاشق المغروم».

غسان كنفاني هو حالة، ولها أمثلتها التي تنطبق على كل الكتاب جميعا، وربما اهتم النقد الاجتماعي بهذا الجانب، وهو معنيّ به أكثر من المناهج النقدية التي تعنى بالنص وتحليله، في عقد مقارنة بين صورة الكاتب في الواقع وصورته في أعماله، إذ نادرا ما توافقت الصورتان، لأن الكاتب وهو يمارس عملية الكتابة يجنح نحو المثاليات العليا ويفارق ما يعيشه من مآس أو عيوب، كأنه يلجأ إلى ردم الهوة بين الصورتين ليرسم له صورة أكثر قبولا لدى القارئ، وخاصة الكاتب العربي، إذ نادرا ما تطابقت الصورتان، ربما كانت صورة محمد شكري في «الخبز الحافي» أقرب إلى صورته الواقعية، كما فعل جان جاك روسو في «اعترافات فتى العصر» الذي أراد أن يكتب ذاته كما هي بكل ما فيها، عيوبا وحسنات.

وتنبغي الإشارة إلى أن هذه الصورة الضمنية للكاتب على شاكلتين، الأولى الصورة التي يفكر فيها الكاتب عمدا وقصدا لتكون ظاهرة للقراء، وصورة

---

1. نشر الكتاب في حيفا، عام 2022، حررته وأشرفتُ عليه، وكتب مقدمته المحامي الحيفاوي حسن عبادي. هو الكتاب الأول للأسيرة أماني حشيم،. صمم غلاف الكتاب الفنان الفلسطيني ظافر شوربجي، والكاتبة من مواليد مدينة القدس، اعتقلت عام 2016، وحكم عليها بالسجن 10 سنوات، حاصلة على درجة البكالوريوس في العلوم السياسية والدراسات الدبلوماسية.

أخرى يستطيع القارئ استخلصها من العمل الأدبي، وقد يحدث ألا تكون الصورتان متوافقتين تماما (صورة الكاتب عن نفسه، وصورة الكاتب في عيون القراء)، بمعنى قد لا ينجح الكاتب بتسويق صورته التي أراد لها الحضور في العمل الأدبي، فتتمركز في ذهن القارئ صورة مغايرة. علما أن هذه الصورة الضمنية للكاتب في أذهان القراء قد تتعدد بتعدد القراء وذهنياتهم وكيفية تلقيهم للعمل الأدبي بشكل عام.

لقد سعى كُتّاب «الأدب الشخصي» إلى أن يكتبوا ذاتهم كما هي، دون أن يبتعدوا كثيرا عن حقيقة واقعهم، فجاءت كتاباتهم أكثر غنى وأكثر قربا للقراء، ولعل كتابات كتاب السجن التي ولدت أعمالهم الأولى بين جدران السجن وعتمته، وهم يعبرون عن أنفسهم، يحاولون تقديم صورة إيجابية حقيقية لهم، ليتواصلوا من خلالها مع قرائهم. ويؤكدوا تلك الصورة التي يحبون أن يشكلها القراء عنهم. هذا حدث مع كثير من كتاب السجن وكاتباته من أمثال هيثم جابر وكميل أبو حنيش وباسم خندقجي، ومي الغصين، وأخيرا وليس آخرا أماني الحشيم صاحبة كتاب «العزيمة تربي الأمل».

هذا الكتاب صغير الحجم، لا يتعدى الخمسين صفحة من صفحة الإهداء وحتى نهاية الفهرس، بما فيها المقدمة، ويتكون من مجموعة نصوص ذاتية وجدانية كتبتها الأسيرة أماني الحشيم داخل سجن الدامون. في هذا الكتاب ثمة صورة مشرقة للأسيرة أكدتها وأصرت على حضورها داخل النصوص، وتدور هذه الصورة حول ثيمتين أساسيتين هما: التحدي والأمل.

بدت الكاتبة في هذه النصوص امرأة قوية، ومثقفة، مؤمنة بالمستقبل، وتتطلع إليه بشوق، لا تأبه بحياة السجن وما فيه من مصاعب، كأنها تركل السنين العشر التي عاشت أكثر من نصفها داخل القضبان لتتجاوز هذا الواقع إلى ما تحلم به وتتأمل، وتراه قريب التحقق، ليس مجرد حلم أو وهم سجين يعتاش على أمل لا واقع له.

بدت الكاتبة أولا متفائلة وذات روح معنوية عالية، بثت الأمل في كل صفحة من صفحات هذا الكتاب، بدا ذلك في العنوان: «العزيمة تربي الأمل»، وفي الفكرة التي يقوم عليها الكتاب في مجموع نصوصه الخمسة والعشرين. يغلب على ظني أن الكاتبة حاولت أن تتناص مع قول لمحمود درويش ورد في المقطع الأول من

مطولته الشعرية «حالة حصار»، ويثبت مصمّم الغلاف الفنان الفلسطيني ظافر شوربجي هذا المقطع على الغلاف الأخير للكتاب، وربما كان هذا «التطهير» بتوصية من الكاتبة ذاتها. يقول درويش:

«نفعلُ ما يفعلُ السجناءُ،

وما يفعل العاطلون عن العمل:

نُرَبّي الأملْ».

بدا درويش في المقطع غير متفائل، وله شروطه الموضوعية التي تحكمه وهو يكتب النص خلال حصار رام الله عام 2002، فما مهنة العاطلين عن العمل سوى أن يربوا الأمل. في هذا المقطع ظلال من اليأس، لاسيما وهو يربط الأمر بما يفعله السجناء، فتأتي الكاتبة لترد على درويش يأسه، وتقول له «العزيمة تربي الأمل»، فتقلب المعنى من مجرد التصالح مع الذات والرضا بهذا الواقع فنكذب على أنفسنا بالأمل كما قد يفهم القارئ من قول درويش، إلى معنى آخر للأمل الذي هو دافع للحياة ويعين السجين والمرء بشكل عام على مصاعب الحياة، فتربية الأمل ليس أمنية دون هدف إنما لتتزود بالوقود المعنوي الكافي لقطع سنوات السجن والانطلاق نحو الحرية.

إذاً، فالكاتبة تؤكد أهمية الأمل الذي تعمل في السجن على رعايته لتغذيه وتربيه وترعرعه، وتجعل من التحدي طعاما للأمل، فالغاية البعيدة هي هذا الأمل، والوسيلة هي العزيمة والتحدي، وكأنها تعيد إلى الأذهان الحكمة الشعبية: «لولا الأمل بطُل العمل». فالأمل وحده هو الذي يجعل للحياة طعما، ويجعلنا- نحن البشر- ذوي قدرة أكبر على مواجهة الصعاب، فقد قالوا: «كل مُرّ سيمُرّ»، وهذا الوقت- مهما كان سيئاً- سيمضي حتماً.

لقد تغلغل الأمل في كل نص من نصوص الكتاب، فغير العنوان الذي كان مركزيا محيلا على الثيمتين المركزيتين؛ التحدي والأمل، وجد الأمل في الإهداء الذي جاء مرتبطا مع الصمود حيث الإشارة إلى الأب والأم، منتهية بالأمل المتمثل في ابنيها أحمد وآدم وهما مستقبلها وأملها ثم في صفحة «شكر وتقدير». بهذه الاستراتيجية من الكتابة تُجدل الثيمتان معا، بوحدة نصية تشير إليهما، ومن يعود إلى نصوص الكتاب سيرى سيطرة مفردات الأمل والصمود وما لف لفيفهما من معنى حاضرة في كل نص، وهذا يشير إلى عمق الكتابة وصدقها

وسيطرة الفكرة على «لا وعي» الكاتبة، وانطلاقها المسبق والقصدي لتكتب عن هاتين الثيمتين معا. وهذا أيضا يؤشر إلى نجاح عملية الكتابة التي يحكمها عصب واحد وروح واحدة.

هذا الملمح من صورة الكاتبة التي تتشكل في ذهن القارئ الذي سيجدها امرأة صلبة قوية، هازئة بالسجان، محبة للوطن ولأهلها، وتنتمي بكل كيانها إلى عالم ما خلف القضبان، لم تترك للسجن أن يكسر من عزيمتها. إذاً، نحن القراء، نرى صورة المرأة الفلسطينية في كامل تجلياتها وفي أعلى مستوياتها من النضال والتحدي تعيد إلى الأذهان صورة فاطمة عند ناجي العلي وصورة أم سعد عند غسان كنفاني، وصورة كل امرأة تناضل بكل ما أوتيت من قوة في ميادين النضال المختلفة.

هذا جانب من شخصية أماني الحشيم، أضافت إليها ملمحا آخر مهمّاً من شخصيتها، وبدا واضحا جدا في هذه النصوص، في أنها مثقفة، وأعني هنا بالمثقفة ليست قارئة الكتب، إنما ذلك المعنى الذي يشير إلى امتلاك المثقف رؤيا خلال كتاباته، وهي صورة حرصت أن تقول من خلالها الأسيرة أماني إننا أصحاب حق، فلندافع عنه بالكتابة والنضال الفعلي على أرض الواقع، ولا نسمح للآخر- العدو- أن يدخلنا في نَفَقِه المظلم، فنتوه عن هذه البوصلة، هنا تأخذ الكتابة طابع المقاومة الذي لا بد من أن تكون- أي الكتابة- إحدى وسائل المثقف المشتبك أو العضوي أو المثقف الواقعي، هذا ما فعلته أماني عندما مجّدت قيمة النضال والشهادة في نص «شهيد عانق الحرية» وتهديه «إلى شهداء الحركة الأسيرة».

الكتابة إذاً ليست مجانية- خالية من الأهداف السامية- بل إنها ذات هدف كبير، وهذا الهدف هو ما يعمل عليه، ومن أجله كل المثقفين في هذا العالم، بلا استثناء، ودون أن ألجأ إلى إعطاء أمثلة إضافية، يكفي مثالاً الأسيرة أماني الحشيم لنعرف ذلك ونستجليه بوضوح تام.

تستدعي الصورة السابقة- صورة المثقف العضوي أو المشتبك أو المثقف العامل العملي الواقعي أن يكون هذا المثقف قارئا ومطلعا على ما كُتب، ولولا هذا الاطلاع على أفكار الآخرين، ستكون الكتابة بلا شك ناقصة وغير عميقة، فالكتابة الجيدة هي الكتابة التي تبنى على كتابة سابقة وتتجاوزها، ولا تقع أسيرة لها فتعيد إنتاجها. في هذا الكتاب بدت صورة أماني الحشيم القارئة

والمطلعة على الأدب المقاوم والإنساني وعلى نماذج منه من أشعار محمود درويش كما أسلفت، ليس في العنوان فقط، بل في النصوص أيضا فأوردت على سبيل المثل سطر درويش الشعري «سأصير يوما ما أريد» في مقدمة الكتاب ليكون سطرا تأسيسا للكتابة التي تنوي أماني بناءها. يبدو أن محمود درويش كان أساسيا في مشروع أماني الحشيم في أكثر من جانب، منذ العنوان وفكرة الاهتمام بالذات، وتجاوز درويش ومحاورته والاقتباس من أشعاره، فتعود إليه مرة أخرى في استعارتها لسطره المشهور «على هذه الأرض ما يستحق الحياة». هذا الحضور لدرويش في نصوص الكتاب يؤكد أن الكاتبة مولعة بدرويش وأشعاره، وأنه يشكل جانبا مهمّاً ودالّاً من مصادرها المعرفية التي تتقوّى عليها في كتاباتها.

بالإضافة لدرويش كان هناك حضور للشاعرة فدوى طوقان، وللشاعر اللبناني جبران خليل جبران، واطلاعها على القرآن الكريم والاقتباس من آياته، إذاً، فالشاعرة مطلعة على كثير من المصادر المعرفية التي تجعل منها مادة لغذاء عقلها ووجدانها، وهذا جانب أيضا مهمّ من جوانب شخصيتها، وقد تنبئ هذه المصادر عن مصادر ثقافة الكاتبة، وأي الكتب هي التي تستحوذ على اهتمامها، وهذا بلا شك جانب من جوانب شخصيتها المعرفية.

إذا ما اجتمعت هذه الجوانب الثلاثة للأسيرة أماني الحشيم، وهي: المرأة القوية المتحدية، والمثقفة العاملة الواقعية، والقارئة النهمة، مع صورتها ككاتبة تتقن عمل الكتابة وصنعتها، بحيث استطاعت أن تقدم عملا فيه من «الأدبية» ما فيه، محققا «شعريّته» المطلوبة لينتسب إلى عالم الكتب الإبداعية، تكون بذلك قد اكتملت هذه الصورة بجزأيها؛ صورة الكاتبة عن نفسها، وصورتها في أذهان القراء للأسيرة الكاتبة أماني الحشيم المتشكلة من كتابها «العزيمة تربي الأمل»، وأبرزت أهم ملامح شخصيتها. وأظن أن هذه الصورة الذهنية الضمنية للكاتبة صورة أقرب إلى حقيقة ما هي عليه في الواقع، إذا ما نظر القارئ إلى طبيعة النصوص وظروف كتابتها والهدف منها، إذ لا تسعى الكاتبة إلى تحسين صورتها عبر الكتابة، لأن صورتها حسنة في ذاتها بفعل النضال والالتزام به، وتقبلها برضا تام تجربة السجن في سبيل ما تؤمن فيه من أفكار ومعتقدات وطنية.

ملامح أسلوبية وموضوعية في ديوان «طقوس المرة الأولى»

يعدّ شعر المعتقلات ابنا شرعيا لشعر المقاومة في كل بلد ابتلي بالاحتلال والهيمنة، وفُرِض على أهله مقاومة المحتلين، بل إن هذا الشعر نبت أصيل من منابت الحرية في كل فكر يتوق أن يعانق شمس الحرية، ضمن هذه المعادلة الإنسانية المرهفة في إنسانيتها يبرز ديوان الأسير «باسم خندقجي» طقوس المرة الأولى، الصادر عام 2009 بطبعة أنيقة عن منشورات الاختلاف في الجزائر ودار العربية للعلوم ناشرون، ويقع الديوان في (156) صفحة من القطع المتوسط، يضم واحدة وثلاثين قصيدة، موزعة على أربعة منشورات.

يتصدر الديوان كلمة لرئيس دولة فلسطين محمود عباس في تحيته للأسير باسم وتأكيده بأن قضية الأسرى «هي قضيتنا الأولى وستظل كما كانت دوما في صلب اهتمامتنا وعلى رأس سلم أولوياتنا»، ومن ثّمَّ تقديم للإعلامي المشهور زاهي وهبي معترفا بتميز هذا الشعر الذي نجا من براثن المباشرة والخطابية، فتقرأ له قوله: «ويتقدم كشعر خالص نقّاه صاحبه من الخطابية والمباشرة والكليشيهات المألوفة في مثل هذه الحالات»/ ص9، لتجد صدى ما قاله وهبي صحيحا، فكأنك لا تقرأ لأسير يعاني من قبضة السجان، فالمفردات والجمل والتراكيب لها مزاج شعري خاص منفتح على كل ما هو إنساني مبتعدا عن التعلق الفظّ بقضية السجن واستدرار عطف القارئ.

يختار الشاعر للديوان اسم القصيدة الأولى من المنشور الأوّل الذي جاء بعنوان: «أزمة أرضية في جسد السماء»، ويضم هذا المنشور سبع قصائد أخرى، وتتوزع القصائد الأخرى على بقية المنشورات، وأما المنشور الثاني «في ظلال شجرة تمرد»، والثالث «محاولة للتعرف على إما و أو» والخامس وهو المنشور الأخير «من بقايا الأرجوحة والحياة»، فيضم كل منها ست قصائد ويشتمل المنشور الرابع «دروس في رسم، الآن» على خمس قصائد، ليحافظ الديوان بشكله وطبعته ومحتواه على نوع من التآلف في الشكل والمضمون.

يسيطر على الديوان بشكل عام سمات أسلوبية تطبع القصائد بطابعها لتعطيها دلالة مهمة، فقد اعتمدت القصائد في صياغتها على الأسلوب الهادئ الرزين

غير المباشر المغلف بالغموض أحيانا في طرح المضامين الشعرية، متوسلا من أجل ذلك ضمير المخاطب في أحايين كثيرة، مع استحضار تقنية السرد بتوظيف الأفعال المستقبلية المبتعدة عن الدوران في أفق الماضي، فالشاعر ليس ماضويا متحسرا عن مجد تليد «عدّى وفات»، بل إنه متطلع بشوق لمعانقة أفق آخر للحرية بأنوار شمس هي بالتأكيد عنوان أمل قادم يطمح له كل إنسان فضلا عن كونه أسيرا على خلفية سياسية أو عسكرية تكسبه قناعة خاصة، وربما فخرا يتيه فيه مجدا، وربما كانت قصيدة «المهد والتمرد» واضحة في الدلالة على ذلك، إذ يبدؤها ساردا ومخاطبا الريح كي تروض عنفوانها، ليصل به النص الشعري إلى قوله:

أُشغل نيران التدفق الثائر

من لهب ذاتية الظلام العملاق

الذي يحاصر أجواء مصيره

انفجارا على مدى نور النقاء

وأصافح تمردي... / ص31

ما على القارئ سوى أن يتأمل هذه اللوحة الشعرية المرسومة بكلمات ثائر ووجع إنسان، ليشعر كم كانت قوية ومتحدية حتى الظلام نفسه!

وعلى الرغم من هذه القوة إلا أن قصائد الديوان لم تخلُ من نزعة حزن شجي ناعم غير عنيف، من خلال موسيقى داخلية لألفاظ الغربة والشوق والحب والعناق، بلغة معجونة «بصلصال السماء» وصلصال الشعر الحيّ، ليظل محافظا على تلك المسافة الواعية بين الشعري واللاشعري، ولذلك تجد المعنى شفافا تحاول أن تلمسه، فتظن نفسك أنك قد اقتربت واستطعت أن تدخل عوالم المعنى، فإذا به يفرّ من جديد، فيربك فصاحتك ونشوتك العابرة لأفق النص، فينقلك بسلاسة عصيّة على التفسير نحو أفق آخر، لتتآلف الآفاق عبر فضاء لغوي وشعري سلس، فبعد أن قال: «ألمٌ يحيط بكلمتي... كلمتك»/ ص49، يقول:

عانقيني ... عانقيني

وافتحي باب الاندثار

يا ثمرة الابتعاد عن وطأة الثبات

وشرف النار... / ص50

فبعد أن «يستحم بعرق الورد» لا بد له من أن يلبس ثوب الأرض ليعلن الثورة ضد سكون المصير، فيكون العناق وصالا طبيعيا لطقس ما، فيحوز شرف النار، وشرف الابتعاد عن وطأة ثباته، هذا الثبات الذي هو قرين الموت، لا صنو السكون فقط.

وفي قصيدة «لملمة طفل من أجل العيد» يتوقف الشاعر عند ذلك الحدث الطفولي، إذ تتعلق فيه طائرة الطفل الورقية بأغصان الزيتون، ولكن الشاعر سرعان ما يترك هذا الحدث البسيط، ليسرح مع مخيلته نحو أفق آخر مختلف في الظاهر لكنه متصل بوشائج النفس الباحثة عن المختلف والمؤتلف في لحظة الشعر، فيتحدث عن دخول الطفل عوالم الكتابة وأخطار المقاومة، فيقول عن كلماته:

هي...

وطن

يقول لي:

«أنا أنثاك

روحك أنا

بي الأفق يمتد إلى اللامنتهي»/ ص66

وبالتقنية الشعرية ذاتها يتحدث في قصيدة «خدوش المجهول» عن الأرجوحة المنصوبة بغصن زيتونة، فيرتفع بتلك الأرجوحة عاليا ليصل إلى خلف الغيمة الأخيرة، فيخاطب نفسه قائلا:

وتمارس هوايتك الوحيدة...

تلقين الأقحوان حروف وطنك/ ص140

وتتميز الجملة الشعرية في ديوان «طقوس المرة الأولى» باكتنازها المعرفي، إذ تتحول الثقافة بمفهومها الإنساني الشامل إلى عجينة معرفية ولغوية يحسن تشكيلها في جسد القصيدة الناضر، فترى النصوص الدينية وقد تجاورت مع نصوص أدبية، وتعانقت وتعالقت مع نصوص الأدب العربي قديمه وحديثه،

والأدب الغربي كذلك، فكما يتجلى محمود درويش تبزغ صوفية الحلاج، فتتناغم مع موسيقى سمفونية تتأتلق في غوايتها مع روميو وآيات من القرآن والإنجيل، ليصنع بذلك لغة هي شعر باسم خندقجي ليس إلا معلنا عن ولادة شعرية فريدة مفتوحة على أفق ثقافي إنساني غير محدد في زمان أو مكان.

هذه بعض ملامح من ديوان الشاعر «باسم خندقجي» بعيدا عن صفة الأسير، إلا أنه تجاوز الأسر بالشعر فكان كما قرر زاهي وهبي «يستطيع قارئ باسم الخندقجي القول إن الشاعر هزم السجان، والشعر هزم الشعار الآني»

وبعد،

هل كان باسم يكتب في طقوسه لحبيبة من لحم ودم وهو يخاطب المؤنث المفرد؟ وهل يجب عليّ أسوة بقراءة النقد المتعارف عليها فلسطينيا وربما عربيا أن أرى فلسطين بكل امرأةٍ يخاطبها الشاعر الفلسطيني، فتتطابق الصورتان؟ نعم لقد كتب باسم عن فلسطين، ولكن ألم يكتب عن المرأة المجردة من وَهْم وهَمٍّ الوطن؟ فماذا على الشاعر المقاوم النبيل لو التفت لشؤون قلبه في إنسانيته ورهافته؟ أليس الشاعر كتلة متحركة من مشاعر متحفزة؟ أليست تلك المشاعر هي التي جعلته مقاوما فأسيرا أو شهيدا خالدا؟ وماذا عليه لو جمع مع كل تلك الصفات صفة العاشق؟ فهل سيضيره ذلك؟

وليس بعيدا عن ذلك أن تكون كل هذه الصفات في الشاعر باسم خندقجي في ديوان «طقوس المرة الأولى».

«حروف من ذهب» في الميزان الوجداني والإبداعي

هذا الكتاب هو الكتاب الثاني للكاتب الأسير قتيبة مسلم، هذا الأسير المولود كاتباً في المعتقل، ولعلّه بهذه الصفة التي يشترك فيها مع آخرين، تشكل حالة خاصة من حالات الأدب الفلسطيني المقاوم. ويكتسب الحدث رمزيته العالية على أكثر من صعيد، وتثير في السؤال الجدليّ: هل قتيبة مسلم أسير كاتب أم أنه كاتبٌ أسير؟ يبدو أنني سأرجح الخيار الأول، فهو أسير كاتب، لعدة اعتبارات أراها منطقية وقوية في دلالتها؛ وأول تلك الحجج، أن قتيبة لم يُعرف كاتباً قبل السجن، وتمتدّ تجربته في الاعتقالات المتكررة لأكثر من ثلاثين عاماً منذ 1984 وحتى اليوم، فقد قضى أكثر من نصف عمره البالغ (53) عاماً في المعتقلات الإسرائيلية.

لقد كان قتيبة نشيطاً سياسياً، أيام الدراسة في جامعة النجاح الوطنية في أوائل التسعينيات، وكنت مطلعاً على نشاطه الطلابي حينها في حركة الشبيبة بحكم الزمالة. وليس له أي مشاركات حسبما أعرف في مجال الكتابة خارج السجن قبل الاعتقال، وعليه، فهو كاتب ولد في السجن بفعل تجربة السجن، وما تجرّه عليه من أثر. فالاعتقال هو شرطها الموضوعي الأساسي.

هذا أمر مهم حقيقة ومدخل ضروري لقراءة أدب الأسير قتيبة وغيره من الكتّاب الذين أولدهم السجن، فصاروا فيه وبفعله كتّاباً، ولعلّه من الضروري الالتفات إلى هذه الظاهرة وتوسيع البحث فيها، ودراستها جيدا، لعلها تساعد الدارسين في اكتشاف خصائص ومميزات لما أنتجته هذه الفئة من الكتاب.

أمر آخر يجعلني أقدّم صفة الأسير على الكاتب لاعتبارات الموضوع الذي يكتب فيه قتيبة، إذ يظهر أنه منغرس بكليته، فكرا وشعوراً في تجربة الاعتقال، فحسب ما اطلعت على ما كتب الأسير قتيبة يتبيّن ما يأتي:

لقد نشر أول كتاب له، وهو بعنوان «آخر قبلة في السجن» صدر عام 2011، ثم كتاب «حروف من ذهب»، ليليه رواية «زنزانة وأكثر من حبيبة» الصادران في 2021 خلال أسبوع واحد، وكذلك كتاب «بقايا زنزانة»؛ يتناول فيه التجربة

الاعتقالية من ناحية تنظيمية، وكتاب آخر مخطوط بعنوان «لأني أسير»، وهذه الكتب كما هو واضح من عناوينها ما عدا «حروف من ذهب» كلها تتخذ من الاعتقال ثيمة رئيسية، بل إن المعتقل/ المكان مكوّن أساسي من أساسيات العنوان، فقد تجلى المكان في ثلاثة منها (السجن مرّة، والزنزانة مرّتين)، وصفة الأسير بارزة في كتاب «لأني أسير».

ماذا تقول هذه الخريطة الإبداعية؟ وما علاقتها بالأسير الكاتب، وهو الوصف الذي أنحاز إليه في التعريف بقتيبة مسلم؟ إن الدالّ الأصلي في تلك العناوين الذي ينحلّ في مدلولات ودوالّ كثيرةٍ داخل النص الإبداعي نفسه تشي بمركزية التجربة الاعتقالية وسيطرتها على ذهن الكاتب، وليس هذا غريبا أو اكتشافا مذهلا بالمناسبة، هو فقط مجرد لفت نظر؛ تحقيقا لمسألة نقدية مهمة تقول إن الكاتب ابن وفيٌّ لبيئته وظروفه حسب ما يقوله أتباع النقد الاجتماعي، وهذا ما تحقق في تلك الكتابات جميعها، فلم يخرج قتيبة عن عوالم السجن والاعتقال، وبثّ في كتبه تلك مفردات الأدب الاعتقالي والتجربة الاعتقالية اللغوية بشكل مكثف، ما يجعل هذه الكتابات ومثيلاتها مصادر حقيقة لدراسة اللغة ومفرداتها، وأهميتها في تدشين معجم لغوي اعتقالي أدبي وفكري وتنظيمي مهمّ. فأدب الأسرى الكتاب فيه هذا النسغ الحيّ للغة في تربتها الأصلية، فقد نبتت في أرض المعتقل، وعاشت وترعرعت في فضاء المعتقلات، ولهذا فإن تلك الكتابات تكتسب أهمية خاصة فيما يعرف «بالصدق الفني» المتصل اتصالا كبيرا بالصدق الواقعي، بل ومعتمدا عليه باندماج كامل، ففي مثل هذه الكتابات لا شيء خارج التجربة، بل إن الأسرى يمررون كل شيء بنهر تجاربهم، فيذوّتونه، ويخرجونه على طريقتهم المثلى.

لذلك؛ وبناء على هذا التأسيس النقدي الضروري، يجد القارئ في نصوص «حروف من ذهب» التجربة الاعتقالية ببعدها الوطني المنبثق من التجربة الذاتية نفسها، فكأن الكاتب- وهذه مسألة تولد طبيعياً- يذوّت التجربة العامة، ويراها من منظاره الخاصّ، وبلغته هو، وبصوره وأحاسيسه، لأنه ببساطة ليس مؤرخاً. بل يصح أن يصف الدارس أدب المعتقلات بأنه رؤيا شخصية لأحداث التاريخ الخاصّ والجمعي على حدّ سواء.

وفي نصوص الكتاب الأقرب إلى الشعر «حروف من ذهب» البالغة الثمانية

والستين نصاً يرى القارئ حضور الذات دائما، عبر الحالة النفسية للكاتب، أو من خلال علاقتها بالآخرين من شهداء ومناضلين وأسرى زملاء وأحداث داخلية وخارجية، عائلية وغير عائلية، ولولا هذا البعد الشخصيّ الذاتي جداً لن يكون هناك فرادة وتميز للأسرى في كتاباتهم، فعلى الرغم من أنهم جميعا ينهلون من البئر ذاتها، إلا أن البعد الشخصي الذاتي يجعل كل تجربة ذات مذاق مختلف، ودلالة تمتاز عن غيرها بما فيها من هذا البعد، وبالتالي يُكسبون تجاربهم أهمية مضاعفة، فكل أسير يروي الحكاية ذاتها بلغته التي ينسلها من عقله ووجدانه، ويجدلها بأسلوبه، فكأنه يمنحها حياة أخرى على هيأة ما. هذا ما يحدث في كل كتابات الأسرى، فعلى كثرة تلك الكتابات في الآونة الأخيرة إلا أن البعد الذاتي يجعلها غير مملة في الأعم الأغلب.

لقد منح قتيبة لنفسه فرصة أن يتأمل ذاته في فضاء المعتقل، ليساعد الذات على التخلص من الأسر الحسي إلى فضاءات محلّقة خارج الأسوار والقضبان، لذلك تراه يرتد في «حروف من ذهب» إلى الذكريات، فثمة حنين طاغ في كثير من النصوص، ليمتح الكاتب من ذكرياته ليؤثث نصوصه ويبنها من لَحم التجربة الحي، لتنبض بالحياة وتكاد تتخيلها ماثلة أمامك.

وعلى صعيد آخر لغويّ أيضاً، فإن اللغة التي اتكأ عليها الكاتب في العنوان يستلّ من مخزونها هذه الحروف الموصوفة بأنها من ذهب. لعل هذا العنوان ليس بعيدا عن القول الشائع في لغتنا وكلامنا نحن الفلسطينيين عندما نريد وصف الكلام ونعلي من شأنه فنقول إن فلانا كلامه من ذهب، والحروف بنات اللغة، فمن كانت حروفه من الذهب فكلامه قطعا من الذهب، فالفرع يتبع أصله ويسايره ويأخذ منه صفاته. وكما يقول النحاة في توصيف حرف الجرّ في العنوان فإن «من» هنا بيانيّة؛ أي أنها تبيّن نوع هذه الحروف، عدا عن سيميائية الذهب ومكانته في حياة الفلسطينيين، فكل شيء ممتاز عندنا، نصفه بأنه «ذهب»، إنه لفظ يغني عن كثير من الكلام. فكأنها الكلمة الفصل.

لعلّ الأسير الكاتب هو أكثر من غيره احتياجا للغة، ففيها يحيا، ويريد أن يُدخل الآخرين إلى عالمه باللغة، إنها ليست مجرد ناقل للفكرة عند الأسير الكاتب؛ إن للغة مفعولا أشد من كونها أداة تواصل أيضاً، لذلك ترى الأسرى الكتاب- ومنهم قتيبة- يهتمون بتفاصيل الكلام والعبارات، واللغة عندهم ذات مدلول

نفسي عميق الدلالة على حالتهم النفسية الوجدانية التي يطمحون أن تصل إلى القارئ بهذه الحرارة التي كتبت فيها، إضافة إلى ما تحمله هذه النصوص أيضاً من بعد اجتماعي ضروري انسجاما مع قول المتنبي: «فليسعد القول إن لم يسعد الحال»، فالأسرى عموما حاضرون بحروفهم مع ذويهم في مناسباتهم الحزينة والسعيدة، وعلى ذلك يمكن للدرس النقدي أن يفسر النصوص التي قيلت في الشهداء على هذا النحو؛ لتكون أكثر من نصوص مناسباتية، فترتقي لتكون نصوص مشاركة وجدانية حقيقية، تغني عن الحضور الفيزيائي للأسير الكاتب. وكذلك يفعلون عندما يرسلون رسائلهم إلى الأصدقاء والأحباب.

في «حروف من ذهب» يحسّ القارئ أن النص عالم كاملٌ متكامل، بغض النظر أكان طويلا ممتدا أم كان قصيراً، فالنصوص معتمدة على ذاتها ومستقلة عن غيرها، لكنها بمجموعها تحدث انسجاما موضوعيا وإيقاعيا مهما، ما جعل الكتاب يبدو وحدة واحدة على الرغم من أن هناك أكثر من شكل لتلك النصوص. فالذي يوحد بين تلك النصوص؛ تعددها وشكلها هو لغتها الموحدة وإيقاعها المنساب المتسق ومحورية التجربة الذاتية.

لكل هذه الأسباب يبدو كتاب «حروف من ذهب» كتاب مشغولة نصوصه بأناة وتَؤُدة وتؤدي أغراضها الوجدانية النفسية في الإعلان عن حالة الأسير الذي يحيا بنشاط وتوهّج فكري وعاطفي خلف القضبان، بوصف ذلك أيضا بأنه فعل مقاومة؛ لا يقل أهمية عن أشكال المقاومة الأخرى، قبل أن تكون هذه النصوص مجرد نصوص أدبية، فالأسرى في اعتقادي- ومنهم أبو حمدي- لا يكتبون ترفاً، ولا قتْلاً للوقت، إنما يمارسون الممكن المتاح من وقتهم، ليعيشوا في لغاتهم ونصوصهم، وليقولوا للعالم أجمع إننا هنا باقون وأحياء، نفكر ونشعر ونكتب، بل نتفوق على الآخرين بالكتابة والإبداع، فمن يكتب لا يُنسى له ذكر. وها هو يصنع له حضوره الخاص بين أهله ومحبيه ومعارفه. فالكتابة في مثل هذه الحالة فعل وجود حقيقي، تعلن عن نفسها بتجدد كلما قرأنا شيئاً من تلك الكتابات.

أما بعد،

فقد شرّفني الصديق قتيبة أن أقدم له كتابه، فكتبتُ:

نعم من حقك أن تحلم يا أبا حمدي

ما زال يشغلني سؤال الكتابة، ولاسيما كتابة الأسرى داخل السجن، ومع كل عمل جديد أقرأه تترسخ قناعة لديّ أن هذا النوع من الكتابة له سمات خاصة، تجعله مختلفاً عمّا يُكتب خارجه. ويزداد هذا الأمر وضوحاً عندما يكون مدار العمل الأدبيّ البوح الذاتي للأسير الكاتب، هنا تبرز معاناته الإنسانية الشفيفة، ويتسرّب من بين اللغة وجع طازج حي مؤلم. إن للغة محمولات نفسية وفكرية لا شك في ذلك، فالأسير- عموماً- لا يكتب وهو شاعر بالترف الفكري، بل يكتب ليشعر بالحياة والتواصل مع الآخرين، فكل كتابة خارجة من رحم السجن تمد جسرا حيويا بين هذين العالمين، عالم مقفل مظلم، وعالم أرحب قليلا، مع أن الفارق بين العالمين لا يختلف كثيراً جدا في العمق، إلا أننا نحن الأحياء خارج السجن نستطيع رؤية الشمس، لكننا مهددون بالاعتقال في أي لحظة، لذلك ينتفي الفرق في أحايين كثيرة بين الخارج والداخل، بل ربما شعر الأسير أنه أكثر حرية من غيره، كما قال الشاعر[1]: «ليتني كنت طليقاً في سجون الناصرة».

في هذا العمل للأسير الكاتب قتيبة مسلم أبو حمدي الموسوم بـ «حروف من ذهب» تقرأ كل جوانب معاناة الأسرى بلغة واصفة غير ضعيفة، ولا تنم عن ضعف الكاتب أو مواقفه، لكنها تفتح جرحاً ذاتيا، ليدخل قراءه إلى هذه المساحة الشخصية من «البوح الشفيف»، فيلمسون أحلامه، وأفكاره، ومواقفه، وأشياءه الحميمة، وعائلته؛ زوجته وأبناءه، وأبوه وأمه وابن عمه وابنة عمه، ورفقاء دربه من الشهداء.

في هذه الحروف الذهبية ثمة صورة مثالية للأسير الكاتب، يصرّ قتيبة مسلم على أن تكون حاضرة وبقوة، على الرغم من البؤس والمعاناة والشوق إلا أنه ما زال قوياً وعلى استعداد أن يواصل درب الكفاح، فهو مؤمن بعمله والجدوى منه، ولم توهن عزيمته سنوات اعتقاله التي نافت على الثلاثين عاماً. مستمدا العزيمة من التاريخ ومواقف رجاله، ومن أصدقائه وأقاربه، ومن إيمانه الصلب بعدالة قضيته.

1. العبارة للشاعر راشد حسين.

لقد كان أيضا للمرأة حضورها البارز في هذه النصوص، كأنها هي المحرك الأساسي لجذوة الكتابة. ويستمدّ منها القوة والعزيمة والإصرار. ويعترف بفضلها في حياته، حيث ضربت أروع الأمثلة في الصبر وتربية الأبناء ورعايتهم. وحفظت عهده وحبه.

سيجد القارئ الكريم في هذا «السفر الإنساني» الأسير الإنسان بكامل هواجسه وتمنياته، فمن حقه أن يحلم بالغد، فيحضن أولاده، ويسامر زوجته، ويمارس حياته في جنينة صغيرة يحرثها ويزرعها ويحرسها من العابثين. فمن حقك أن تحلم يا أبا حمدي، ولن يستطيع أحد إجهاض تلك الأحلام.

الفرج القريب والفرح الكبير يا صديقي، وإننا لعلى العهد ماضون حتى يقضي اللّه أمراً كان مفعولا.

دراسة في ديوان المتوكل طه «فضاء الأغنيات»

ولد المتوكل طه في قلقيلية عام 1958، حاصل على الدكتوراه في الأدب والنقد. عمل صحفيا وما زال منذ سنوات، وكان يرأس اتحاد الكتاب الفلسطينيين، أصدر قبل الانتفاضة ديوانين هما: «الخروج إلى الصحراء» 1983 و«مواسم الموت والحياة»، وصدر له أثناء الانتفاضة ديوان «زمن الصعود» 1988، وقصيدة «فضاء الأغنيات – قصيدة من أنصار 3» (صدر الديوان عام 1989، عن دار النورس الفلسطينية للصحافة والنشر والتوزيع، ويقع في (63) صفحة من القطع المتوسط)، وهي مطوله شعرية. وله كذلك العديد من الدراسات في الأدب والنقد[1]. واتجه في السنوات الأخيرة إلى كتابة الرواية.

تقف هذه الدراسة عند لمحات من السخرية في شعر المتوكل طه، ذلك الفن الذي خصصت له دراسة كاملة في الشعر الفلسطيني[2] واستكمالا للبحث أقف عند الشاعر المتوكل طه لأتابع ما بدأته منذ سنوات في بحث هذه الظاهرة حيث يشكل هذا الديوان- ربما- مثالا لهذا الفن في شعر الانتفاضة، وخاصة شعر المعتقلات لأرصد من خلال هذه الوقفة تجليات السخرية في هذا الديوان، موضوعاتها وأشكالها.

تظهر السخرية في بعض مقاطع قصيدة «فضاء الأغنيات» إذ يتعدد المسخور منه في هذه القصيدة، فقد سخر من الجندي الإسرائيلي وأدواته القمعية، كما قد سخر من الأنظمة العربية التي لم تحرك ساكنا لنصرة الشعب الذي يقدم أطفاله ضحايا للحرية والتخلص من الاحتلال، ويجد الدارس كذلك السخرية من الحلول الجزئية التي كانت تنادي بها بعض الجهات.

كتب الشاعر قصيدته في فترة الاعتقال الإداري الثالث ما بين شباط وآب من عام 1989 في معسكر الاعتقال الصحراوي وأنصار «3» في النقب[3]، وهذا يعني

1. ينظر حول ترجمة الشاعر، طلعت سقيرق، ص 141. اتجه الشاعر في السنوات الأخيرة إلى كتابة الرواية والقصة القصيرة.
2. السخرية في الشعر الفلسطيني المقاوم، بين عامي (1993–1948). جامعة النجاح الوطنية، غير منشورة، عام 1999.
3. القصيدة، القدس، 1989، ص 103 .

أن الشاعر قد نظم القصيدة على فترات، فهل أثر ذلك في القصيدة وجوها النفسي؟

يبدو في القصيدة أن انفعال الشاعر كان يعلو مرة، وينخفض مرة، وتسيطر عليه أحيانا أجواء من الكآبة والحزن، وأحيانا تفعم روحه بالتفاؤل والأمل، إنها تحمل مشاعر إنسان عاش حياة لا تخلو من الشعور بالهوان في السجن، ومع ذلك كان يؤمن بحتمية النصر، لذا فقد وجد عنده مثل هذا الاضطراب في الحالة النفسية.

وقد تنوعت لذلك الموسيقى في هذا النص، فقد نظمه الشاعر على ثلاثة أبحر وهي: الكامل والوافر والرمل، وقد كان للبحر الكامل النصيب الأوفر، فقد غلب البحر على معظم مقاطع القصيدة، وتمتاز هذه الأبحر بالغنائية والانسيابية[4] وتحتمل توهج العاطفة وتكونها[5]، وتكسب النص خفة ومرونة في النظم.

تصلح هذه القصيدة أن تمثل نوعا جديداً من السخرية، وهي الشعر الساخر في المعتقلات الإسرائيلية في زمن الانتفاضة، وقد غلب على القصيدة طابع المباشرة وتسجيل الوقائع اليومية، ولا تخلو القصيدة أيضاً من تصوير حياة المعتقل، وما يعانيه المعتقلون من قمع وإرهاب.

تختلف النبرة الساخرة من مقطع إلى آخر؛ فقد امتزجت أحياناً بالحماس الثوري، وبعدم الاكتراث بالعدو عدةً وعدداً الذي قد تراجع أمام أعمال الانتفاضة البطولية، وأصبحت قوته شبيهة بالسراب، ومن هنا كانت السخرية قائمة على المفارقة:

يهد في صخور الكف بركان اللهيب
ويلهبون الأرض تحتك
لا مجال أمام رعبك
غير أن تمضي بعيداً
في الصحاري والسراب[6]

---

4. ينظر، د. عبد الرضا علي، موسيقى الشعر العربي قديمة وحديثة (دراسة وتطبيق في شعر الشعراء من الشعر الحر)، عمان، 1997. ص 24.
5. ينظر، السابق، ص 112.
6. القصيدة، ص 19

ويستنكر الشاعر أن يكون هناك سلام بين القاتل والقتيل، ما دام أن القاتل لا يكف عن سفك دماء الضحية، لذا فإنه يتساءل ساخراً:

هل فرقوا بين الحلال أو الحرام؟
أو انثنوا لما تضرّجت المشاية
من شظايا الانتقام
وهل يكون السلم ما بين القتيل
وبين قاتله الغصوب[7]

ويحاكم المتوكل طه بكل هدوء وروية أعمال الآخر رداً على الانتفاضة، فلا يرى فيها أعمالاً بطولية، فليس بطلاً أن ينتصر الجندي على المرأة فيغتصبها، وليس بطولة أن يسجن عجوزاً، وأن يقتل طفلاً، أو يهدم بيتاً، ويخاطب الشاعر الآخر راداً عليه رداً لا يخلو من سخرية مريرة وتهكم لاذع:

وتقول في فخر لأمك:
قد سجنت اليوم امرأة عجوزاً
أو تقول لأختك الكبرى:
اغتصبت مؤخراً بعض النساء
وأنني أغلقت مدرسة[8]

ويرى الشاعر أن كل هذا إلى زوال، لذا فإنه يتابع رده، فيعلم هذا المحتل حكمة، لا بد أن الشاعر قد آمن بها، فيقول :

تعلم في هدوء
كيف يورق غصن زيتون
بصحراء الخراب[9]

ويرتدّ المتوكل طه إلى الماضي، فيراه ماثلاً أمامه، فقد مارس اليهود على الشعب الفلسطيني كل أساليب التعذيب والمذابح والمجازر التي ارتكبتها النازية من قبل في حق اليهود، إنه أمر يدعو إلى المفارقة الساخرة، فيذكر الشاعر

7. السابق، ص 21
8. السابق، ص 57
9. نفسه.

مـن يخاطبـه مـن اليهـود بذلـك إن نسـي:

هل تنسى؟
فكيف تقيم لي أوشفتس في الصحراء؟
وكيف تشرد الأزواج؟
كيف تحّرق الأبناء؟

هل تنسى؟
أم الدنيا بعرفك دائماً للخلف؟[10]

وثمـة سـخرية أخرى في النص تتمثل في السـخرية مـن الحلـول التـي يراهـا هزيلـة، حيـث كانـت تنـادي بالانتخابـات البلديـة، فهـذه المجالـس – مـن وجهـة نظـره- لـم تعـد أكثـر مـن مجالـس للأنـس والتشـليح، فيتسـاءل بسـخرية قائـلاً:

وأين الحل غير رجوعنا للمسخ
في أثواب تبرير وتزويرٍ
توقعه انتخاباتٌ
وبعض مجالس للأنس والتشليح؟[11]

وتطـال سـخرية المتـوكل طـه العـرب، فيعيـب عليهـم هروبهـم، وقـد وصلنـا إلـى بـاب القـدس، لـذا فإنـه لا يؤمـن بهـم، فإنهـم قـد (خلـوا) اليهـود، ليحولوهـا إلـى (أورشـليم)، ومـن ثـم ليبنـوا هيكلهـم المزعـوم:

وكيف نقول: أنا عند باب القدس
والعربان قد هربت
وخلتها لتصبح أورشليم الهيكل المزعوم
لا تأمن لهم وهم سبايا العصر[12]

وتمتـزج السـخرية أحيانـا مـن العـرب بالهجـاء، وتعلـو النبـرة الخطابيـة، ويغـدو النـص أكثـر مباشـرة، فتظهـر ألفـاظ الهجـاء، فالمملـوك الأجيـر أصبـح ملـكاً علـى

10. السابق، ص 64.
11. السابق، ص 33
12. السابق، ص 31

العرش، وذاك ملك ممكيج، ويصف أصحاب العباءات من حكام الخليج وحكام الشام وكل الحكام، بأنهم كلاب، ولكنه أيضاً يعتذر عن هذا الوصف، وهنا تأخذ السخرية الهجائية غايتها:

هل أصدق عرش مملوك أجير

أو أباطرة الشام

وياقة الملك الممكيج

أو عباءات الخليج.. وكلهم كلب[13]

ولا يرى المتوكل طه في المتاجرين بالقضية الفلسطينية من العرب سوى:

نعل سنلبسه لنقطع بعض أوحال المراحل[14]

هكذا تبدو السخرية في شعر الانتفاضة وشعر الاعتقال خاصة، فتكون عند المتوكل طه أشبه بمناسبة للتفريغ النفسي والعاطفي المحتقن نتيجة تجربة إنسانية في معتقل لا يرحم سجانُه، ولا يرأف به الساسة المتحكمون، لا شك أنها ستحول الشعر عامة والسخرية بشكل خاص إلى ما يشبه عملية التطهير النفسي عبر سلسلة من الكلام العاطفي المشتعل الذي يبعده ـ ربما ـ عن فنية السخرية، أو لا يلتزم بمفردات هذا الفن وأبجدياته؛ فأبجدية الحجارة تفرض نفسها على سواها لتكون هي القصيدة والفعل معاً.

13. السابق، ص 88

14. السابق، ص 95.

هيثم جابر ورسالتاه في الحبّ والحرب

أصدر الأسير هيثم جابر عدة كتب؛ ديواناً شعرياً بعنوان «زفرات في الحب والحرب» في جزأين، وروايتين هما «الشهيدة» و«الأسير 1578»، ومجموعة قصصية بعنوان «العرس الأبيض»، وقد قدمها القاص الفلسطيني غريب عسقلاني، ويعدّ لإصدار ثالث من «زفرات في الحبّ والحرب». وهيثم من ذوي الأحكام العالية، فهو محكوم بالسجن 28 عاماً، أمضى منها تقريبا عشرين عاما، ويتهمه الاحتلال بالانتماء لحركة «الجهاد الإسلامي» وجناحها العسكري «سرايا القدس»، والقيام بعمليات مقاومة، فهو من أسرى انتفاضة الأقصى. هذا الجيل من الأسرى– إن صحت التسمية– ضمّ كتّاباً كثيرين تجاوز عددهم المائة أسير[1]، ما زالوا خلف القضبان، حتى ليخيّل إليّ أنهم شكّلوا ظاهرة في حركة الأدب الفلسطيني عامة وفي أدب السجون على وجه الخصوص، فهم يكتبون بمزاج وأسلوب خاصّين مختلفين عن أدب السجون الكلاسيكي الفلسطيني. بدا هذا واضحاً فيما كتبه هيثم جابر ورفقاؤه من الكتّاب.

لعلّ المعلومات السابقة المتعلقة بالأسير وانتمائه الفصائلي، بالإضافة إلى كونه ما زال عزباً، وقد تجاوز عمره الخمسة والأربعين عاماً، هذه المعلومات مفيدة بوصفها مفتاحاً لفهم أدب هيثم، وخاصة شعره الذي وزعه بين ثيمتين كبريين هما الحبّ والحرب، وحسب ما يقول بعض النقاد «لكي تتذوّقه فنّاناً عليك أن تعرفه إنساناً». لقد جاء أدب هيثم، ومنه شعره، تجسيدا وتعبيرا عن حياته في الأسر، والعمل السياسي، والانتماء الفصائلي. لقد كوّنت تلك العناصر الدينية والسياسية والمذهبية فكره فانعكس بلا شكّ على أدبه. فحاله في الكتابة كحال الكثير من الكتّاب الأسرى الذين يتموضعون في الكتابة حول تجاربهم الشخصية، ليكون كل ما أنتجوه معبّراً عن نضالاتهم وخبراتهم الشخصية.

تذكّر تجربة الشاعر هيثم جابر الشعرية أولاً بمشروع الشاعر الأمريكي (والت ويتمان Walt Whitman) (31 مايو 1819 – 26 مارس 1892) الذي لم يخلّف وراءه إلا ديواناً شعريّاً واحداً وسمه بـ «أوراق العشب»، وظل الشاعر يضيف إليه

1. أوردت في الفصل السادس من هذا الكتاب مسردا بهؤلاء الكتاب.

قصائد جديدة في كل مرة يعيد فيها طباعة الكتاب، ربما قارب عدد صفحات الديوان الألف صفحة، بأربعمائة قصيدة، وترجمها للعربية عدة مترجمين، كان من بينها ترجمة الشاعر الراحل رفعت سلام وصدرت عن الهيئة العامة للكتاب في مصر عام 2016. وها هو هيثم يلتزم بالعنوان «زفرات في الحب والحرب» في الأجزاء الثلاثة. إنها تجربة جيدة بالمجمل، وتشير إلى دوران الشعر كله حوله ثيمة محددة، وقابلة للملاحظة ورصد تطورها فنيّاً وموضوعيّاً في شعره، وهذا يلزمه دراسة خاصة ومتأنيّة.

يجد الدارس لشعر هيثم في ديوان «زفرات في الحب والحرب» بجزأيه، خير معبر عن معاناته على المستوى الشخصي، وعلى المستوى الوطني، وعلى المستوى القومي، وعلى المستوى الإنساني، وحتى المذهبي والديني والسياسي. ولذلك فهو كاتب أيديولوجي مباشر، صاحب موقف معلن، ويتمتع بالحرية التامة في التعبير عنه، هذه المواقف يتخذها ويدافع عنها داخل القصيدة وخارجها، ليس له وجهان، فهو واضح تماماً، ولذلك ربما جاء هذا الموقف حادا قوياً، عاريا صريحاً جداً، قد يؤدي إلى إصابة الشعر بالعطب أحياناً. ولكن من قال إن للشعر مقياساً واحدا ووحيداً لأقول مثل هذا القول؟

في شعر هيثم جابر «كوكتيل» معجون بلغة الشاعر وأحاسيسه التي يجدها القارئ في شعره السياسي المتعلق بالقضية الفلسطينية، بوصفها قضية مركزية، كما يراها فصيله السياسي، وما يتناسل من هذه القضية من موضوعات فرعية، كالأسر والشهادة والمعاناة اليومية من الاحتلال وهدم البيوت، كما تجد أن هذا الشعر معبأ بالمواقف السياسية الصريحة من الأنظمة العربية أو بعض الحكام العرب، كما تجد فيه تمجيد المدن العربية والإشادة بها وأمجادها التاريخية، كما يكتب ذلك عن دمشق وبغداد، وكما انتقد بعض الحكام مصرّحاً بأسمائهم؛ ليصل الحديث عنهم إلى الهجاء العلني المباشر معلناً موقفه من التطبيع وصفقة القرن، وقضايا الساعة والمستجدات أوّلا بأول. إن شعر هيثم يرجع القارئ إلى حقبة كان الشعر فيها حمّال سيوف، وخوّاض معارك، ومثير نواقع في أرض القتال.

ويعيد -كذلك- شعر هيثم جابر فيما كتبه من هجاء الأنظمة أو الحكام إلى الأذهان مفهوم «الهجاء السياسي» الذي كتبه العديد من الشعراء العرب قديما وحديثا، كما فعل مثلا شعراء الرسول الكريم في هجائهم لقريش وانتقادهم

لزعمائها والنيل من هيبتهم، وما كتبه الخوارج بعد ذلك ضد الأمويين، وما كتبه الشيعة أيضا، وما كتبه بعض الشعراء المعاصرين كنزار قباني الذي تفنن في شتم الأنظمة العربية والمنظومة كاملة وصولا إلى هجاء الأمة كاملة طارحا سؤاله الموجع في قصيدة «متى يعلنون وفاة العرب؟»، أو كما كتب أحمد مطر في لافتاته، ومظفر النواب في شتائمه الشعريّة للأنظمة العربيّة. فهيثم جابر لا يرى في المسألة حقاً فرديا، أو مشكلة شخصية ليهجو هذا الحاكم أو ذاك، وإنما هو هجاء للسياسة ولمواقف هؤلاء الحكام، مع أنهم أحيانا لم يسلموا من النيل الذاتي وهو يهجوهم من ناحية سياسية موقفية. وكأنه لا فاصل بين شخص الحاكم ومواقفه السياسية. إنها إحدى الإشكاليات المربكة فعلا؛ فهل ينفصل الإنسان- مهما كان موقعه- عن أفكاره واختياراته الفكرية ومواقفه السياسية؟

بالمقابل تجد الشاعر يعلي من شأن حزب الله، ويرى أن من مظاهر عظمة الخالق- سبحانه وتعالى- أنه خلق في هذه الأمة حزب الله، وصنع لها «نصر الله»، وربما مدح أيضا من طرف خفي- وهو يمدح دمشق- النظامَ السوري، لكنه لم يكن واضحا تماما هنا؛ لأن في المسألة التباساً أخلاقياً وسياسياً كبيراً سينال الشاعر، فكيف سيمدح نظاما له من الجرائم ما له؟ وكيف يعيد تبرير هذه الحرب على الشعب السوري، ليرى في دمشق «الحسم الأخير وصمام الأمان وشمس عروبتنا»؟

إن ما اتخذه الشاعر من موقف تجاه النظام السوري وتجاه حزب الله ليتوافق تماما مع كونه ابن فصيل سياسي ذي توجه أنظماتي سوري إيراني مع أن «الجهاد الإسلامي» ليس تنظيما شيعياً، إنما هو تنظيم مدعوم من النظامين الإيراني والسوري، ولذلك لم يستطع هيثم جابر إلا أن يكون مخلصا لأيدلوجيته السياسية المتماهية مع آراء الفصيل الذي ينتمي إليه، ولعلّه لم يراجع نفسه ومواقفه تلك، وليس على استعداد أن يراجعها ويبدّل فيها، فكأنّه يعيد قارئه بصورة أو بأخرى إلى قول الشاعر الجاهليّ:

وما أنا إلا من غزيّة إن غوت
غويتُ وإن ترشد غزيّةُ أرشُدِ

ومن غير المستبعد أن تكون هذه الأيديولوجيا السياسية هي الدافع وراء

الشاعر ليمجد الحسين بن علي- رضي الله عنه- ابن فاطمة الزهراء- رضي الله عنها- بقصيدة «مرثية الحسين»، وأسبغ عليه الكثير من صفات القديسين والأنبياء، ويعيد أيضا إنتاج المقولات الشيعية في القصيدة، فـ «كل يوم عاشوراء وكل شبر كربلاء»، وصولا إلى قوله الذي يقتبسه في النص متبنيا ما فيه، ولو كان تبنيا شعريا ووجدانيا «فنحن ورب البيت أولى بالنبي». فلا تشير «نحن» إلا على مجموعة خاصة من الناس تتبنى الحسين وتتخذ منه أيقونة مقدسة، وتأخذه إلى تخوم «الأسطورة» الدينية التي يعمل الشيعة على تدجيج تاريخ الحسين بن عليّ- رضي الله عنه- بها، ويدجّجون التاريخ المعاصر بهالة هذه الأسطورة.

هذه ليست كل القضايا السياسية التي تحدث عنها هيثم جابر في شعره، بل إنّه تحدث عن موضوعات كثيرة- كما أسلفت- من القاموس السياسي الفلسطيني، وقد شفّت مشاعره جدا وتألقت وتأنقت أيضا في قصيدة رائقة بعنوان «بلادي»، متحدثا بلغة جمالية عليا عن هذه البلاد مستعيرا من قاموس الغزل كثيرا من المفردات، مع ما يُشتمّ من هذه القصيدة من إيقاع قصيدة الشاعر فؤاد الخطيب «لمن المضاربُ في بطون الوادي» فالقصيدة أيضا- كقصيدة الخطيب- تتمتع بجودة السبك وحسن التعبير عن المعاني:

الله لو أبصرت سحر بلادي
ما من جمال فاق حسن الوادي
حسناء يَلبسها الربيع فيكتسي
بجمالها، وبصوت طير شادِ
تجري المياه بها، تسبّح ربّها
كالدمّ يجري في ربوع بلادي

وتجري القصيدة كلها المكونة من (19) بيتاً على هذا النسق من السلاسة والعذوبة، ليختمها بهذين البيتين:

عبق المساجد والكنائس شاهدٌ
وكأنها في النور بعض عبادِ
عهدا ستبتسم الحقول إلى المدى
لن ترتدي يوماً ثياب حدادِ

وأشير قبل أن أتحدث عن «الغزليات»، وهو الجانب الآخر في شعر هيثم إلى أن الشاعر في بعض نصوصه وظف الأسلوب الساخر في التعبير، فلم يكن مباشرا- كما أشرت سابقا في قصائد الهجاء السياسي- وإنما وجدته يعبر بطريقة ساخرة ولاذعة عن القضايا السياسية، كما في قصيدة «صاحب السيادة»، إذ ينتقد فيها الأوضاع العربية، ولم يترك شيئا لم يشر إليه، فنحن كما يقول الشاعر هيثم جابر:

لا يجرؤ عدو أن يمسنا
أبدا لم نتعرض للإبادة
لا في صبرة، ولا شاتيلا
لا في غزة، لا في الأقصى
لا في بحر البقر
ولا حتى في العامرية
كل ما في الأمر تنظيم للنسل
لأن عددنا كبير جدا... خطير جداً
في زيادة
ببساطة شديدة نعيش في سعادة
عاش صاحب السعادة
عاش صاحب السيادة

هذا النوع من الشعر ببساطته وسهولته وتأثيره، يختزن مرجلا كبيرا من الغضب والدعوة إلى الثورة بطريقة غير مباشرة، فالسخرية وسيلة من وسائل الثورة، وليست- كما قد يظن البعض- وسيلة تنفيس وينتهي أثرها، فثمة نصوص ساخرة أنتجها معين بسيسو وأحمد مطر وتوفيق زيّاد كان لها تأثيرها في وعي الجماهير، وقد اعتمد الشعر الفلسطيني المقاوم على السخرية، فشكل ظاهرة فيه، وكنتُ قد بحثتها باستفاضة ومنهجية في دراستي «السخرية في الشعر الفلسطيني المقاوم». عدا فن الكاريكاتير الساخر الذي يلتقي مع القصيدة الساخرة في الهدف. ولشدة تأثير فن السخرية في الجماهير تعرض ناجي العلي إلى الاغتيال وضاق به الأصدقاء والأعداء والمقربون ذرعاً، لأنه يمارس

بناء نص/ صورة مزعجة جدا بطريقة قوية لا تمحى بسهولة من وعي القارئ، وما زالت تُستعاد إلى الآن في كل مناسبة سياسية تدعو إلى السخرية والتهكم.

أما غزليات الشاعر «الثورية» فإنها قصائد لا تخلو من طرافة وجِدّة نوعا ما، وظلت لغته فيها سهلة ووجدانية وواضحة، ويبدو عليها التأثر بالمعجم اللغوي والتصويري والتركيبي المستند بشكل واضح إلى شعر نزار قباني، ليس فقط على صعيد الموضوع، بل وطريقة تناوله وألفاظه، ونظرته إلى المرأة، والأنا المركزية فيه، بحيث يظهر الشاعر أنه مركز أو معبد أو كعبة وما على المرأة إلا أن تطوف حوله وتقدّم له القرابين.

هذا الجانب في غزليات الشاعر ليس طريفاً أو جديدا، بل إنه أصبح تقليديا كلاسيكيا بعد أكثر من خمسين عاما من تداول هذا الشعر من القراء والشعراء والعشاق على حد سواء. إنما الطريف ما تخلل تلك القصائد أحيانا من ألفاظ الحرب العنيفة في التعبير عن المعنى، وفي بناء الصورة، وفي ذلك الانفجار الأيروسي في النصوص. وتثير تلك المفارقة التي وجد عليها الشعر في التعبير عن شخصية الشاعر الأيديولوجي المنتمي لفصيل سياسي راديكالي عقدي عدة تساؤلات؛ فهل للحرمان من المرأة أثر في مثل هذه الصورة وفي مثل هذه القصائد؟ فالشاعر وقد تخطى حاجز الخمسة وأربعين عاما لم يتزوج بعد، بمعنى أن يشتاق ويتوق إلى النساء. فهل كان الشعر متنفساً غريزيا ليأتي بهذا العنفوان؟ أم جاء هذا الشعر نوعا من التحرر من أيديولوجيا الفصيل العقدية؟ لقد جاء هذا التحرّر فنّياً على قاعدة أن الشاعر قوّال، وليس على الكلام حسابٌ أو عتاب، ولا ينقص من قدر قائله ولا يمسّ معتقداته الدينيّة والسياسية الراديكالية.

تبدو اللغة في أحيانٍ كثيرة كاشفة في ظلالها النفسية عن هذا البعد الوجداني، وهذا الاحتياج الإنساني للمرأة، وهذا التمرد في الكتابة إلى حد الرغبة في الثورة عبر الغزل عن شيء ما يزعج الشاعر أو يريد الخلاص منه، أو لعله الشوق الجارف لامرأة ما. ولكن كيف يشتاق إلى النساء–عموماً– ويشتهيهن بهذه الصورة من لم يجرب معاشرتهنّ؟ ثمة غرابة في هذه المسألة أيضاً. على المرء ليفهم هذا الجانب من شعر هيثم أن يعرفه إنساناً. فربما كان له «صاحبة» قبل الاعتقال.

على أي حال، لقد كانت قصائد هيثم الغزلية عامرة بالجسد وبتفاصيله، وكانت المرأة واضحة بكل معمارها الفني الذي رسمه هيثم من صدر ونهد وخد وفم وريق وشعر، وغير ذلك مما فصّله ووقف عنده في قصيدة «فسيفساء جسد»، فقد تتبع المرأة عضوا عضوا وأسبغ على كل عضو من تلك الأعضاء الصورة المتخيلة التي يتصورها فيها. ومن طريف التصوير في هذه القصيدة تشبيهه النهد بالقنبلة:

لا فرق بين قنبلة ونهدْ
كلاهما يكمل بعضهما البعضْ

ويعيد هذه الصورة في آخر سطرين من القصيدة ذاتها ليرى أنه:

لا فرق بين انتفاضة نهد
وانفجار رمانة ناسفةْ

بل إنه يرى كذلك تقاطعا بين الفخذ والبندقية، فكل منهما يمثل قضيّة. إنه هنا يحيل القارئ إلى نزار قباني الذي كان يرى أن المرأة هي قضيته، وأن التحرر العام للإنسان العربي يكون من خلال المرأة وثورتها وثوريّتها.

إن لهذه الصور التي تعتمد على أدوات الحرب، كالقنبلة والبندقية قد تشير إلى مأزق نفسي مشاعريّ لدى الشاعر، فهو يكتب المعنى عبر الصورة، ولا يبحث عن طرافة الصور أو غرابتها، بمعنى أن الصورة لم تأتِ مكمّلة للمعمار الجمالي للنص أو تزيينية في الغالب، بل كانت حاملة للمعنى، فكيف؟ ولماذا تصور الفخذ بندقية والنهد قنبلة؟ ثمة ما يحيل القارئ إلى معنى نفسيّ يحاول أن يتفلّت من «بطن الشاعر»، لعله يفرغ في تلك الصور كبتاً ما أو انتقاما دفينا تجاه نفسه أو تجاه المرأة ذاتها، عدا ما يشير إلى تشييء المرأة وأعضائها وعَسْكَرَتها ما يجعله لا يرى في المرأة غير أداة عابرة لمرحلة وظرفية طارئة كالبندقيّة والقنبلة.

لقد كان هيثم جابر يمزج بين الثورة والحبيبة بطريقة مختلفة مربكة، طريقة تدعو إلى الاستفسار، فهو، وإن أشار إلى امرأة من لحم ودم، وأورد في ثلاث قصائد ثلاثة أسماء: «نسب» و«زينة» و«بيان»، إلا أنه لم يقف عند حد التغزل بهنّ دون أن يحمّل النص أو النصوص الأخرى أبعاداً سياسية أو فكرية أو حتى عسكرية كما وجد في تشبيه النهد بالقنبلة، كما أسلفتُ آنفاً.

ومهما يكن من أمر، فطريقة هيثم جابر هذه في التغزل الممزوج بواقعيته السياسية واللغوية والفكرية جعلت أفكاره الغزلية واضحة وهدفه من الغزل

واضح، هذا الهدف الذي أعلنه منذ البداية؛ في إهداء الديوان في جزئه الثاني: «إلى الذين يمارسون العشق والثورة معاً، مرة يبكون على صدر الحبيبة، ومرة أخرى على صدر الوطن»، وسبق أن بينه في إهداء الجزء الأول: «إلى العاشق الثائر فكلاهما مرآة للآخر». ولذلك فإنه يعي تماماً أن الحبّ والحرب ذوا زفرات حارقة تتحد في تسلطها على الإنسان فتزيد من همومه وأعبائه ومعاناته، لاسيما إن كان أسيراً ذا مشاعر شفافة نقية كالشاعر هيثم جابر، ويتمتع بقدر عالٍ من الثقافة والانفتاح في القراءة على موضوعات متعددة، خارج نطاق الأيديولوجيا السياسية والفصائلية التي تحكمه في كثير مما كتب.

هيثم جابر لم يبرح أماكنه في الحبّ والحرب

يتكئ هيثم جابر على النصوص كثيرا ويستعيرها بكثرة، فلا تكاد قصيدة من قصائد ديوانه الجديد «**زفرات في الحب والحرب-** 3» (الرعاة وجسور ثقافية، رام الله وعمان، 2022) تخلو من نص قديم أو حادثة تاريخية أو بيت شعر لشاعر ما. هذه حالة لافتة للنظر في شعر هيثم جابر، وتكاد تشكل ظاهرة أساسية فيه، فما مردّ هذه الحالة من الكتابة التي وجدت كذلك في ديوانيه السابقين، لكنها تعمقت أكثر مع هذا الديوان، ويشترك معه فيها كتّاب أسرى آخرون؟

قبل محاولة التفسير، أوضح أنه لا جديد في هذا الديوان ليضيفه هيثم جابر على ديوانيه السابقين، سواء في المضامين أو في الناحية الفنية، وإن بدت بعض قصائده أكثر نضجاً وبعضها الآخر أكثر ضجيجا. لقد بقيت قصائده تدور في الفلك ذاته، ومشبعه بأصوات الشعراء الآخرين، أحمد مطر ومظفر النواب ونزار قباني، وتتسلل عبارتهم إلى عباراته، وإيقاعات جملهم الشعرية وصورهم، فتحتل إيقاعات قصائده وتستوطن صوره الشعرية، فتسرق منه صوته. وما كتبتُه سابقا عن شعره ما زال صالحا في توصيف ديوانه الجديد، فالسخرية والتناص حاضران بقوة هنا كما حضرا بقوة في الديوانين السابقين. فما بوسع الناقد أن يضيف إلا أن يأتي بأمثلة جديدة على تينك الظاهرتين وغيرهما ليس أكثر.

قد تؤشر هذه الحالة إلى فقر في الشاعرية، لكنها لا تشير إلى الفقر المعرفي لدى الشاعر، فثمة فرق بين الأمرين، فما يتطلبه الشعر أكبر من الثقافة والاطلاع، وإن كانا ضروريين، لكنهما ليسا هما الشعر ذاته؛ فالشعر الجيد هو ما أعاد صياغة الأشياء والأفكار وأخرجها خلقا جديدا، لا أن يجعل القصيدة غلافا لصور الآخرين ولغاتهم وأفكارهم.

تبدو هذه الحالة من الشاعرية ذات وجهين؛ أحدهما لا شك في أنه يؤكد وجهة نظر الشاعر كمثقف ومقاوم وأسير، يتبنى نهجاً يحشد له كل طاقته الفكرية والشعرية، فيغدو شاعرا واضحا، تستريح أفكاره للأفكار الجاهزة،

فما حاجته لأفكار جديدة إذا كانت الأفكار الشائعة التي يعرفها جمهور القراء تؤدي غرضه وتقوّي عزيمته وتعبّر عن آرائه؟

وأما الوجه الثاني فإنه لا يبحث عن الجديد، ولا عن الطريف، ولا عن المدهش بقدر ما يريد تأكيد وجهة نظره في الحب والسياسة والانحياز الفكري العامّ والخط المقاوم، وهذا ما يفكّر به الشاعر الذي على شاكلة هيثم جابر من شعراء المقاومة أو الشعراء السياسيين، فلا يبحثون عن الفن بقدر ما يريدون تأكيد أفكارهم. إنهم غير مشغولين بجماليات الجملة الشعرية، لكنهم مشغولون بالتغيير، عدا أن القصيدة لديهم- في غالب الأحيان- تنطلق من ردّات الفعل تجاه الأحداث السياسية أو الاجتماعية، فيخضعون لشروطها ولآلياتها ولألفاظها، فتولد القصائد المرتبطة بتلك الأحداث دون أن ترتفع بالحدث إلى منطقة من التأمل الذي يعطيها عمرا أطول من الحادثة الخارجية، يلمح الدارس شيئا من ذلك- مثلا- في القصائد الثلاثة التي خصصها لغزة أو في تلك القصائد التي رثى بها قاسم سليماني.

ربما هذا يستوعب شيئا من تفسير السؤال السابق أعلاه، عدا أن هيثم جابر، وقد مر عليه في السجن أكثر من عقدين من الزمن، صارت ثقافته مستقاة من الكتب ولا شيء غير الكتب، فما يتأثر به هو تلك الأفكار التي يقرأها، تعيش في ذهنه فقط، ولم يجرب غيرها، فتجربته الحياتية محدودة، وهذا أمر لا مفر منه فيمن هو مثل هيثم، ويظهر ذلك في صنعة الإبداع لديه في كل كتابة واقعة تحت تأثير تلك القراءات تأثيرا مباشراً، ويلاحظه الدارس عند الكتاب الذين أمضوا سنوات عديدة في المعتقلات، كباسم خندقجي الهارب إلى التاريخ ليمتح منه أفكاره ويبني رواياته، وكان شجاعا في التوقف عن كتابة الشعر، وله فيه تجربتان، وكميل أبو حنيش الذي ارتدّ إلى ذاكرته وتأملاته الشخصية ليجعلها مهربا من الوقوع في شرك استعمار الآخرين للغته وأفكاره، أما هيثم جابر فأخذ يردد ما قرأ، دون أن تخفى على أحد تلك القراءات، ودون أن تكون تلك القراءات مجالا من مجالات التفاخر والتثاقف الزائف، إنما كان يتوغل في المصادر ويستقي منها ما يتفق مع رؤاه أو ما يخالفه لينقضه ويبني بديلا عنه، فاتّفق مع أحمد فؤاد نجم، لكنه اختلف جزئيا في أحد النصوص مع نزار قباني وعارضه.

لعل التجربة الذاتية المتنوعة أكثر ما يحتاجه الشعر ليتجدد، وهذا غير متوفر في عالم السجن، فعوالم الأسرى محدودة مهما اتسعت أو حاولوا أن يروها متسعة، فهم يعيشون في برزخ- كما يقول كميل أبو حنيش- وكل ما يدخل إلى هذا البرزخ محدد والحياة فيه محددة، وأشياؤه محددة، ولا عوالم فيه متنوعة، كل ما فيه- على محدوديته- مشاع لكل من فيه، فكيف سيصنع الكاتب الأسير عوالمه وخيالاته ورؤاه الخاصة به، وأين سيبنيها؟ ومن أي أفكار غير تلك الأفكار التي أصبحت مشاعا ومستهلكة؟ ثمة مأزق إبداعي حقيقي لا بد من أن يتنبّه له الكتاب الأسرى؛ خوفا من أن تتآكل تلك الكتابات إبداعيا، ويخفت ألقها الفني.

لا يستطيع الانفلات من هذه الحالة إلا من أوتي قدرة كبيرة على التخيل، أو كان ذا ماضٍ مكتنز ومتنوع بتجربة زاخرة وكبيرة، وزاوج بين هذا الماضي وهذه القدرة الجامحة على التخيل العبقري، ساعتئذ سينتج نصا ينحو منحى مختلفاً وبعيدا عن المألوف، شريطة ألا يقع الكاتب في فخ الدعاية والأيديولوجيا والأفكار النمطية ووضع نصب عينيه تقديم الفني على الفكري. ونادرا ما ينجو الكتّاب الأسرى من هذا الفخّ، ولكن السؤال الأهم: إلى أي مدى يستطيع الكتّاب أن ينتجوا بهذه الطاقة الفكرية أعمالاً مميزة دون الوقوع في شرَك التكرار وإعادة إنتاج الذات وكتابتها؟

من يتفحّص كتابات الأسرى سيلاحظ ملاحظتين مهمتين: الأولى أنهم يستثمرون تجاربهم الشخصية، ويكتبونها، وخصوصا في العمل الأول لكل كاتب، كما في حالة منذر خلف في «الخرزة»، وثائر حنيني في «تحيا حين تفنى»، وهيثم جابر في «الشهيدة» و«الأسير 1578»، ثم تتجه الكتابات بعد ذلك نحو التكرار وإعادة ما كتب. ولا شيء يعوض نقص التجربة إلا الاتكاء على أفكار الآخرين المستقاة من الكتب وهذه هي الملاحظة الثانية، ومن هنا كانت عوالم الكتابة لدى الأسرى عوالم محدودة في الغالب وتعيد إنتاج ذاتها ولا تقدم جديدا، ولعل ديوان هيثم جابر الأخير «**زفرات في الحب والحرب**- 3» خير دليل على ذلك، وبسبب هذه القراءات كثرت في الديوان التناصات المختلفة التي لم تقف عند حدود التناص المقبول نقدياً، بل تعدتها أحيانا إلى «الاقتباس» أو «الانغماس» في النصوص السابقة أو الحوادث التاريخية التي يتكئ عليها ليوضح وجهة نظره السياسية على سبيل المثال، كما انسربت جمل إلى نصوصه هاربة من نصوص

الشعراء الآخرين، فكأن لغته غدت مستلبة بالكامل.

في هذا التوصيف لظاهرة الكتابة لدى الأسرى بهذا الشكل من خلال حالة الأسير الكاتب هيثم جابر، لا يعني أن يحبط الأسير أو يشعر بتواضع إنتاجه الأدبي، أو أن يكفّ عن الكتابة، إنما هو تعريف بملامح الكتابة داخل السجون، وأنها تصطبغ بأوصاف معينة، ومبنية على العالم المجرد غير الحسي وغير المعيش، سوى تجربة الأسر ذاتها التي يتفق بها الأسرى قاطبة. لكن تبقى هذه الكتابات مهمة على مستوى «التفريغ النفسي» للأسير، ورغبته في التعبير عن آرائه السياسية والفكرية وعواطفه الجياشة، فمن حق كل شخص أن يكتب وأن يعيد كتابة أية فكرة شاء مرة واثنتين وثلاثا، وإلى أي مدى مستطاع، ومن حق النقد أن يقول كلمته أيضاً على ضوء هذه التجارب، ولكلّ فريق عذره وحجته، وطاقته، ورسالته.

الفصل الرابع:

إطلالات على نماذج من نثر الأسرى

مع كتاب أحمد الشويكي على «بوابة مطحنة الأعمار»

أولاً: اعتبارات تقويمية للكتاب

الكاتب أحمد الشويكي ابن مدينة القدس، وهو الأسير الذي أنهى مدة محاكمته البالغة عشرين عاماً، فقد دخل السجن بتاريخ: 8 شباط/ فبراير 2002 وخرج منه في 8 شباط/ فبراير 2022، وتزامن صدور كتابه «على بوابة مطحنة الأعمار» مع خروجه من المعتقل. يتألف الكتاب من (160) صفحة من القطع المتوسط، وتصدر غلافه لوحة للفنان الفلسطيني محمد نصر الله، وقدّم له المحامي الحيفاوي حسن عبادي.

لعلّ هذا الكتاب من الكتب المهمة، وتكمن أهميته- من وجهة نظري- في الأمور الآتية:

1. يرصد الكتاب التحولات التي نشأت في تطور الوعي لدى الكاتب، فقد أسر وهو طفل (14) سنة، وحكم (20) عاما. فيبين الكتاب تطور الوعي والانتقال من الطفولة إلى سن الرشد، ومتابعة التعليم والانقطاع عنه، وتطور الوعي المسلكي التنظيمي وإدارة الذات في الأسر والاعتراف بالضعف البشري والاحتياج الإنساني واقتراف الأخطاء والاعتذار عنها.
2. الكتاب متنوع في تقنياته السردية ما بين الرمزية/ الصناديق التي رمز بها إلى السجن، فكان كل صندوق يفتحه مقدمة للحديث عن هذا السجن وما فيه من حكايات وأفكار ومضامين. كذلك وظف الكاتب تقنية الراوية الذي يقص حكاياته على الناس في المقهى، مازجا بين لغة الحكاية ولغة المقامة التراثية، فاعتمد السجع أحيانا في بناء الجملة، وما يقتضيه هذا الأسلوب أحيانا من ترادف أو إطناب. إضافة إلى أنه اعتمد ضمير «الأنا» في القصّ، محاولا الالتزام بالتتابع الزمني التاريخي في السرد.
3. من التقنيات السردية المهمة توظيف السخرية والفكاهة والمفارقة، ولم يكن هذا الأمر أسلوبا في الكتابة فقط بل كان تقنية سردية، ما يعني أن البنية السردية لا تفهم جيدا ولا تؤدي أغراضها الجمالية إلا ضمن هذه المواقف الساخرة.

4. يمزج الكاتب بين البعدين التراجيدي/ المأساوي والمضحك/ الكوميدي في بنية سردية واحدة بتآلف لا يشعر القارئ أنه ينتقل بين عالمين مختلفين، فكأنه بصورة أو بأخرى يوظف ما عرف في التراث العربي من «حسن التخلص»، فيخرج من أسلوب إلى آخر على نحو سلس لا يشعر القارئ بالتعثر أو بالصدمة.

5. الكتاب مكتوب داخل المعتقل، ويربط بين عالمين، عالم ما قبل الاعتقال مع عالم ما بعد الاعتقال، وقد تغيّرت أشياء كثيرة، لكن الأسير على ما يبدو ما زال واقفا عند عام 2000 قبل الأسر بعامين، حيث بدأ السرد من تلك النقطة الزمنية حيث كان طفلا لاهيا لا يفرق بين العلَم الفلسطيني وعلم الكيان الغاصب، وعام 2002 حيث كان طفلا لحظة الاعتقال، ليحنّ إلى طفولته التي سرقها الاحتلال كما سرق الأرض والمجد والتاريخ. ولذلك من الأهمية دراسة الكتاب حسب المنهج النفسي لبيان دراسة الأثر النفسي على الطفل الذي حرم من ممارسة طفولته كما ينبغي لها أن تكون.

6. يلمح الدارس في هذا الكتاب ملامح من المنهج «الأركولوجي» المستخدم عند ميشيل فوكو الذي يهتم بكشف المستور والمخفيّ، خاصة أنه يتحدث عن عوالم السجن ببعديه النفسي والمادي المغلف بالكثير من التعمية والتخفي والمحظورات، خاصة في قضية الهواتف والعلاقة مع بعض السجانين والرشاوى، والنطف المهرّبة، والصراع بين رؤوس التنظيم الواحد، وكسر إرادة المضربين عن الطعام لصالح المكاسب السياسية المحدودة لمن هم في السلطة أو بعضهم، ودراسة الأفكار والتعمّق فيها والحفر فيها عمودياً، على الرغم من أن الكتاب لم يكتب بطريقة البحث الفلسفي والصياغة الفلسفية.

7. يحافظ الكتاب على طزاجة السرد، وعفويته دون أن يتدخل الكاتب في التعليل والتحليل والسرد، إلا بمنطق محدود، لا يفقد السرد متعته، كأنه يقدم الحكاية بطبعتها الأولى المختزنة المكثفة والقابلة للتحليل والتأويل، ولذلك فإن (اللاوعي) الطفوليّ هو المتحكم بالسرد، وليس ما أصبح عليه أحمد بعد أن تطور الوعي لديه وأصبح أكثر قدرة على فهم ما يجري حوله.

ثانيا: مواجهة الواقع بالسخرية

يحفل الكتاب بالمواقف الطريفة التي تحمل بعدا ساخرا مرة، ومرة متفكهة، واللافت للنظر في الكتاب أن الكاتب يتعمد صنع هذه المواقف في المعتقل، ويحافظ على طزاجتها وإدهاشها عندما ينقلها سردا في الكتاب، بحيث تجبر القارئ- أو هكذا فعلت معي الأقل- على الضحك بصوت مرتفع، وإعادة قراءة الموقف مرتين أو ثلاثا. مواقف تنقلك من أجواء الحزن والكآبة إلى أجواء من المرح والدعابة.

اتسمت شخصية أحمد الشويكي في الكتاب بأنه ذو قدرة على مواجهة الواقع بسلاح الفكاهة والسخرية، ولا يعني هذا بحال من الأحوال أن الكتاب كتاب ضاحك، أو كتاب نكت وطرائف، بل على العكس تماما فإنه كتاب مليء بالمعاناة القاسية جدا التي يرويها عن نفسه أو عن زملاء الأسر، فمعاناته هو ذاته كانت معاناة مركبة، فعدا كونه طفلاً في الرابعة عشر من عمره، فهو أيضا اعتقل جريحا، وذاق الكثير من الألم حتى تخلص من تداعيات إصابته بأربع رصاصات بيده.

يعدّ الكتاب بناء على ذلك نموذجا للكتابة الجامعة بين البعدين المأساوي التراجيدي، والضاحك الكوميدي، ليتجاورا معا إما في المشهد الواحد، وإما أن ينشأ الموقف الساخر في سياق سردي شبه مستقل، يحرص الكاتب على بلورته، فيستطيع القارئ قراءته مستقلا، واقتباسه بتمامه، لكنّ هذه المواقف الساخرة الفكاهية كانت مندمجة تماما في بنيتها السردية العامة، ولم تكن مقحمة أو شاذة، فكان لها دور وظيفي تجاوز التوثيق إلى دور نضالي وإنساني كاشفا عن مدى حبّ الأسرى للحياة، واقتناصهم للمواقف التي تخفف عنهم نفسيا آلام السجن وتجبّر السجان.

يدرك المؤلف تمام الإدراك أنه يقوم بهذا العمل عن قصد، فقد أعلن صراحة عن ذلك في غير موقع في الكتاب، فيقول: «قطعتُ عهدا على نفسي أن أصنع من أصعب الظروف وأكثرها مرارة فرصة للضحك، سأغيّر مجرى الألم، سأمزجه بكمّ كبير من الفرح، بكثير من السعادة، ببالغ الحب، بذا تكون لنا الغَلَبة، قررتُ أنّه عندما نتجرّع العلقم قبل تذوّق مرارته سأحوّله لموقف نضحك منه وعليه، فيُبتلع دون تذكّر لمرارته، ونستمرّ وتستمرّ الحياة». عدا هذا فإنّ الفعل

«ضحك» ومشتاقاتها ورد في الكتاب ما يقارب الأربعين مرة. إذاً فإن لهذا قصدا ودلالة. ولم يكن السخرية في الكتاب أسلوبا في الكتابة فقط، بل كان تقنية سردية، ما يعني أن البنية السردية لا تُفهم جيدا ولا تؤدي أغراضها الجمالية إلا ضمن هذه المواقف الساخرة كما سبق وذكرت آنفاً، فقد حكمت السخرية تلك المشاهد وميّزتها لتكون أداة من أدوات رصد المشهد المسرود سواء في الحدث نفسه أو ارتباطه بالشخصيات المتحدث عنها.

يربط الدارسون الضحك والفكاهة والسخرية بأبعاد نفسية، فالضحك أحد مباحث علم النفس، وله كثير من المزايا النفسية التي تنعكس إيجابيا على «الضاحكين» أو صانعي الضحك، ولعلّ هذه المهمة هي أهم مهام الضحك، وتكاد تكون المهمة التقليدية التي ترتبط بشعور الارتياح والتسري عن النفس عقب الموقف الضاحك. عدا أن الفكاهة أو السخرية لهما القدرة على النيل من «الضحية» ويرافقهما شعور بالانتصار عليه، ولذلك تعد السخرية إحدى وسائل المقاومة، مقاومة الأعداء، بل إن تحويل المواقف التراجيدية المؤلمة إلى مواقف فكاهية أو ساخرة يعدّ تسامياً على الموقف ذاته واستهزاء به، وينطوي على قدر كبير من التهوين والتقليل من شأنه، ما يعني حكما التخفيف من آلامه على النفس.

يفرّق الدارسون بين الفكاهة والسخرية، وعادة ما تكون السخرية ذات أبعاد هجائية وأشد قسوة من الفكاهة، وترتبط بمواجهة الخصوم والنيل منهم وإزعاجهم، أما الفكاهة فهي نابعة من مواقف طريفة طارئة تحدث مع المرء تثير الضحك دون أن تحمل مشاعر سلبية تجاه الطرف الآخر.

هذا التوضيح بين الأسلوبين ضروري في حالة الأسير الكاتب أحمد الشويكي، فثمة مواقف ساخرة وأخرى فكاهية، وارتبطت السخرية بالاستهزاء والنيل من السجان كما في مواقف كثيرة، منها على سبيل المثال هذا الموقف الذي حدث بين أحمد والسجان، وأخذ أحمد يقارن بينه وبين السجان، ليغيظ السجان، ويصلان إلى الفرق بين راتبيهما، أحمد يتقاضى اثنتي عشرة ألف شيقل والسجان ستمائة شيقل، وتبرز السخرية الممزوجة بالضحك وبالتندر من السجان في هذا الحوار:

«أمّا أنا فآخذ اثني عشر ألفا.

صرخ قائلا: اثني عشر ألفا، ممن؟

فقسّمتهم قائلا: ثلاثة من السُّلطة، وثلاثة من نادي الأسير، وثلاثة من تنظيم فتح، ولم تسعفني ذاكرتي لجهة ممولة رابعة لأسكّر الاثني عشر، وسريعا قلت وثلاثة من الصليب الأحمر.

فصرخ: ولِمَ يعطيك الصليب الأحمر يا حبيبي؟

فقلتُ: لأنّ قضيتنا عادلة، وهم يقفون مع الحق، ولأزيد من غيظه وحتى لا أُمهله مزيدا من الوقت في التفكير بالصليب قلتُ: بالإضافة إلى أنّ السُّلطة علّمتنا في الجامعة على حسابها، أما أنتَ فهل علّمتك دولتك؟ طار الشّرر من عينيه وذهب مُنسحبا تاركا إيّاي أعيش نشوة بها تسليتُ وانتقمتُ».

اجتمعت في هذا المشهد كل مقومات السخرية والتندر، بما فيها الهدف والإفصاح عن الغاية في تعليق الكاتب في النهاية على المشهد برمته.

مثل هذا المشهد كثير، ولو أردت تتبعها للزمني أن أعيد المشاهد كاملة ليتبين القارئ كيف تنشأ المواقف الساخرة وكيف تنتهي، إذ لا يصلح بهذه المواقف تلخيص أو إعادة صياغة إذ تفقد شعريتها السردية التي جاءت عليها في هذا الكتاب.

انتهى المشهد السابق بالضحك، والشعور بالراحة النفسية والارتياح. وليس هذا ما يحدث دائما، إذ تكون- أحياناً- المفارقة المؤلمة هي خاتمة تلك المشاهد الساخرة أو حتى الضاحكة المتفكّهة، من ذلك أختار هذا المشهد الذي بدأ فكاهياً، وانتهى بمرارة غير متوقعة ومفاجئة، في محاولة تفسير حلم أحد الأسرى، فيتوقع أحدهم وقد كان يوم محاكمته. نقرأ المشهد الأخير من الموقف: «في الليلة التي سبقت يوم المحكمة، رأى بالمنام أنّه يشتري ست سيارات من نوع فيات، فاستيقظ متفائلا، جمع رفاق مجموعته راوِياً لهم الرؤية ومطمئنا إيّاهم بأنّ الحكم سيصبح ست سنوات، سُرّ الجميع بل وأدلى آخر بدلوه فقال: وربما ستة أشهر؛ لأن سيارة فيات صغيرة. نزلوا جميعا المحكمة ليضاف لحكم كلّ واحد منهم ست سنوات أخرى فوق أحكامهم، صدقت الرؤيا وفشل التفسير يا صديقي، احمد الله أنّك رأيتَ سيارة فيات، ولم ترَ مرسيدس أو بي أم». لعلّ القارئ سيلاحظ أن الفكاهة تكمن في آخر المشهد في التعليق الأخير عليه «احمد الله أنك رأيت سيارة فيات ولم تر مرسيدس أو بي أم».

عدا هذه المواقف الساخرة، ثمة مواقف طريفة لا تحمل إلا الفكاهة، ولا تتغيا إلا الإضحاك والتسلية، وهذه المواقف كانت بين المعتقلين أنفسهم، بل كثيرا ما كان يتعمد أحمد رسم مقالب لزملائه أو يرسمها آخرون لزملائهم، ليوقعوا في مواقف مضحكة، وهي كثيرة ومبثوثة بين المتن السردي. وتكشف هذه المواقف قدرة الأسرى على المواجهة، وقهر اللحظات القاتمة، ويؤكد الكاتب أهميتها في عالم السجن، إذ يقول: «فكنّا نحاول إسعاد أنفسنا بشتّى السبل، نختلق لحظات الفرح والضحك من رحم المعاناة، نُعيّش أنفسنا في خيالات لا صلة لها بالواقع الذي نعيش».

هكذا كانت تصنع المواقف داخل المعتقلات، ومن هذه المواقف أختار هذا الموقف عندما تم تغيير خطيب الجمعة ليكون واحدا من أفراد حركة فتح وليس من حركة حماس، ويكلف الشاب المعترض بمهمة الخطبة، فيجهز نفسه لذلك، ويكتب الخطبة، وتحدث الحادثة غير المتوقعة: «دخل الخطيب إلى الحمام ليُجهّز نفسه، وعيون الزملاء تراقبه، أخذ ملابسه التي يريد أن يرتدي تاركا المعطف وبه أوراق الخطبة خارج الحمام، فقام شاب باستبدال أوراق الخطبة بنفس نوعية الأوراق لكن بالطبع هي فارغة، خرج من الحمام لبس معطفه وتوجه إلى الخطبة. وقف وجميع العيون مشدودة للخطيب الجديد، قدّم مقدمة الخطبة المتعارف عليها عند كلّ خطباء العالم غيبا، وأثناء الإلقاء دسّ يده في جيبه ساحبا الأوراق، وأخذ يقلّب الأوراق ويكرر المقدمة، يشقلب ويقلّب مستغربا أين ذهب ما كتب، ومن فعلوا فعلتهم يضحكون ويتهامسون، لم يكونوا هم الضاحكين وحدهم، بل أصبح الضحك عدوى أصاب كلّ أسير».

ومن المواقف الطريفة الفكاهية المنشأ التي تنتهي بمفارقة محزنة مشهد رؤية الكاتب حماراً، وهو ذاهب إلى المحكمة، وعندما يسخر منه أحد المرافقين له من زملائه ويعلم سبب انبهاره برؤية الحمار ينقلب الموقف من سخرية إلى أسى ومرارة. في هذا المشهد ثمة شخصان ليس بينهما توافق على صنع الموقف، بل نشأ عفويا، ولأن الطرف المقابل أو السامع لم يفهم سبب ذلك الانبهار نشأت المفارقة المؤلمة. أختار من المشهد آخره لبيان التوتر العاطفي المأسوي الذي ختم به الموقف: «ارحمنا، أشعرتني أنّك أجنبيّ جاء من مجتمع أوروبيّ. انطلقت البوسطة التفتُّ إليه وقلت: ماذا كنت تقول؟ فأعاد ما قاله، فرددتُ عليه: لم أرَ حمارا منذ أربعة عشر عاما. فقال: لِمَ؟ ألا يوجد في مدينتكم حمير؟ فقلت:

لا بل لأنّي طوال هذه المدة وأنا أسير. ففتح عينيه وردّ: يا أخي صَغّر كذبتك قليلا لتُصدق، فشهد شاب يعرفني وقال: صدق، شعر الشاب بذنب لم يعرف كيف يكفّر عنه، فقال لي: انظر إليّ لأنّي أنا الحمار».

وثمة مواقف طريفة غير مقصودة، وإنما تصنعها الصدفة المحضة، لا تحمل بعدا تراجيديا ظاهراً، كما في قصة أحد الأسرى الذي رفض أن ينهض من نومه لإتمام عملية العد الصباحي، بحجة أنه عارٍ تماماً، وبعد سرد شائق يعتني فيه الكاتب برسم التفاصيل مصحوبة بالتوتّر والترقب، فإذ بالشاب يحلم أو غارق في عملية «احتلام»، وبعد أن يصحو من نومه، ويكتشف أنه لم يكن عاريا، انقلب الموقف إلى موقف ضاحك، لكنه لم ينقذ الشاب من الإحراج، ليكون محلا للتندر اللطيف به طوال النهار.

هذه المواقف الساخرة المُعتنى بتفاصيل مشهديتها السردية التي زخرت بها «سردية» أحمد أو سيرته الاعتقالية جعلت من كتاب «على بوابة مطحنة الأعمار» سردا مائزاً ومغايرا عن غيره من أدب الحركة الأسيرة، ونادرا ما لاحظت ذلك من خلال ما اطلعت عليه من أدب، شعرا ونثراً، وتتمّ هذه المواقف وطريقة صياغتها عن موهبة أدبية تمتلك المؤهلات اللازمة لكتابة أدب ساخر وفكاهي له القدرة على الإضحاك، وليس الإضحاك بل يحمل رسائل أخرى بليغة للقارئ، سواء أكانت رسائل نضالية أم رسائل إبداعية تخص صنعة الكتابة، إذ إن هذه المواقف كانت قادرة على جعل القارئ ينفعل بها ويتماهى معها بالضحك ويلتفت إلى ما فيها من مشهدية ومفارقة وضحك، وبذلك يكون هذا الكتاب قد أضاف إلى معمار أدب الحركة الأسيرة لبنة مهمة، وأقصد بذلك لبنة الكتابة الساخرة الهادفة، بهدفين مزدوجين، هدف مقاومة المتحلين، والآخر إسعاد النفس والقارئ وإضحاكه أيضا.

الأسئلة التي ما زالت بحاجة إلى إجابات

تقع رواية «العنّاب المرّ» للكاتب أسامة مغربي في ثلاثة فصول، وينقسم الفصل الواحد إلى مجموعة من المشاهد القصيرة، بلغة مكتنزة بالناحية العاطفية، ومحملة بالتوتر في مواضع كثيرة، وسعت عبر مشاهدها المتعددة أن تخلق كتلة لغوية سردية على قدر كبير من التماسك في عمل أدبي له أكثر من أهمّية في سياق السرد الروائي الفلسطيني.

تدور الأحداث الأساسية للرواية في قرية فلسطينية هي «الحميدية»، وقد استعار الكاتب اسمها من اسم قرية فلسطينية قضاء بيسان، كانت العصابات الصهيونية قد احتلتها ودمرتها عام 1948. وقد كانت هذه القرية مثالا للريف الفلسطيني بكل أبجدياته التي يعرفها الناس في تلك الفترة من عمر القضية الفلسطينية في الانتفاضة الأولى (1987)، بشقيه النضالي الوطني أو المضاد له الذي يدور في فلك العمالة والتعاون مع الاحتلال، وربّما من أجل ذلك اختار الكاتب اسم مكان متخيّل، ليكون أكثر بعداً عن المساءلة القانونية والاجتماعية إذا ما كانت قرية محددة معروفة بالاسم هي مكان الأحداث، ولذلك بدت كل الأماكن التي ذكر أسماءها الحقيقية هي أماكن عبور نضالي ولم تكن كالحميدية مستقر الفعل الشعبي للانتفاضة بطرفيه السابقين.

لقد امتلأ السرد بكثير من مفردات الحياة الريفية، بل إن القرية اكتسبت بعدا مهما في إشارة إلى أن هؤلاء الأبطال هم أبناء الحميدية، بمعنى آخر هم أبطال الريف الفلسطيني، هذا القطاع الذي كان له دور بارز في كل نضالات الشعب الفلسطيني على مر العصور، فالأبطال يولدون فيه، والأحداث تتخلق في فضائه أيضاً. ولم تؤثر الأماكن الأخرى التي تقاسمت الأحداث الهامشية مع الحميدية في أن تقلل من حضورها الكبير في بنية السرد وفي وعي الشخصيات المناضلة، لذلك كانت دائما بصفتها الرمزية وحضورها الواقعي مكاناً لكل الأحداث المهمة روائيّاً.

بالإضافة إلى ذلك، تكتسب رواية «العناب المر» للكاتب أسامة مغربي أهمية خاصة، وذلك لأنها تتحدث عن أحداث الانتفاضة الفلسطينية منذ نشأتها في

التاسع من كانون أول عام 1987 وحتى نهاية السرد المعلن عنه في نهاية الرواية (نيسان، 1990)، إنها فترة المدّ الجماهيري الفاعل للانتفاضة الأولى (انتفاضة الحجارة)، وكانت فيها الأحداث قد وصلت إلى ذروتها قبل أن يبدأ العالم بالبحث عن حل للقضية الفلسطينية، إسكاتاً للفلسطينيين وإرضاءهم بالوعود الكاذبة، وإنقاذا للإسرائيليين الذين يواجهون مدا جماهيريًا مشبعا بالحيوية والفتوة مدعوما برأي عام عالمي وعربي، يدعم حقوق الشعب الفلسطيني في الحرية والانعتاق من ربقة الاحتلال.

تصور الرواية بأحداثها أبرز مشاهد الانتفاضة؛ المواجهات اليومية مع الاحتلال بالحجارة والمولوتوف وإشعال إطارات السيارات، والكتابة على الجدران، وإعلان بيانات شباب الانتفاضة في المساجد، وتوديع الشهداء، وإعلان الإضراب الشامل، وظاهرة قتل العملاء وتصفيتهم، وبروز ظاهرة المطاردين، إضافة إلى مداهمات الجنود للمنازل، والاعتقالات، ونسف البيوت، والقتل، وتجنيد العملاء.

تجسد هذه الرواية كل تلك الأحداث عبر مجموعة من الأشخاص الفاعلين، وعلى الرغم من أن الرواية تحفل بالعدد الكبير من الأشخاص إلا أن لهم دورا واحدا، متعاضدا مع القضية الأساسية في الرواية، وهي «الانتفاضة» ذاتها، لذلك يبرز في الرواية نوعان من البطولة؛ بطولة فردية وبطولة جماعية. البطولة الفردية التي تجسدت في ثلاثة مناضلين ينتمون إلى حركة التحرير الوطني الفلسطيني فتح وهم: إبراهيم وحسان وأحمد. وفي هذا المستوى من البطولة تشهد الأحداث تحوّلات في تفكير الأفراد وأساليب عيشهم، وتغيير نمط حياتهم، ولعلّ حسّان هو النموذج الأبرز في هذا التحوّل، هذا الشاب اليافع الذي كان لصاً، وفي لحظة مصادفة ليس إلا تتاح له فيها سرقة بندقية من بيت المختار عندما كان لصّاً، وثباته في المعتقل وعدم تسليمها والإقرار بها، لقد ساهم هذا العمل بمراحله المختلفة لأن يتحول حسان من مجرّد لص إلى بطلٍ وفدائيّ، وأن يكون لهذه البندقية دور نضالي، فيستخدمها حسّان في الهجوم على مستوطنة «غوشيم»، لينتهيَ شهيداً. إنّ هذه الرحلة تكتسب رمزيّة خاصة في دلالة التأثير الذي تركته الانتفاضة في الأفراد وتطوير وعيهم نحو العمل الثوري، واستعدادهم ليدفعوا ثمن ذلك من أعمارهم.

وأما البطولة الجماعية فإني أفسرها أولا بالفعل الشعبي الجماهيري في

المقاومة والحشود الغاضبة المشاركة في أعمال الانتفاضة وفي تشييع الشهداء في قرية الحميدية، وثانيا في تلك النماذج الإنسانية من الشعب الفلسطيني الذين ساعدوا المناضلين الثلاثة (إبراهيم وحسان وأحمد) وشكلوا لهم حاضنة شعبية وأمانا في كل مراحل مطاردتهم، أناس لا يعرفونهم، لكنهم كانوا مستعدين أن يؤدوا دورا بطوليا متمثلا في رعاية هؤلاء الشباب وتقديم المأوى الآمن والرعاية لهم، وتضميد الجراح، وتأمين التنقل من منطقة إلى منطقة، وقد ظهر في هذه الحاضنة كل أفراد الشعب الفلسطيني وفئاته، الرجال والنساء، الشيوخ والشباب والأطفال.

هذه الحاضنة الشعبية المهمة هي التي أعطت لهؤلاء الثلاثة عمرا أطول، ونفسا مقاوما أصلب، وكانت تمدهم بالعزيمة والإرادة. بالمقابل بدت ظاهرة العملاء باهتة، ومعزولة ومكروهة من هذه الحاضنة الشعبية، واستطاعت الأحداث المتشعبة أن تعطي صورتين مقابلتين لهذين الواقعين المتعاكسين.

لعلّ الرواية تدفع القرّاء أو الباحثين الاجتماعيين إلى الموازنة بين حال المجتمع الفلسطيني في تلك الفترة واحتضانه للثوار المطاردين، فيوفر لهم الأمان حتى يتزوجوا ويقيموا حفلة العرس، وبين المجتمع الفلسطيني اليوم الذي أصبح مجتمعا منخورا، مضروبا في الناحية الأمنية، فلم يستطع المطارد في السنوات العشر الأخيرة أن يصمد كثيرا وأن يتخفى طويلاً؛ فسرعان ما تعتقله قوات الاحتلال أو تقتله، وهذا ناشئ بطبيعة الحال عن التطور الحاصل في العلاقة مع قوات الاحتلال وعمليات التنسيق الأمني الرسمية التي تقرها السلطة، فلم يعد يرى الفلسطيني بأسا أو جريمة في التبليغ عن المطاردين، بل والبحث عنهم وتسليمهم، وبذلك فقد المقاوم أهم عنصر من عناصر قوته، وهو الحاضنة الشعبية التي تحميه، فصار العملاء أو ما تسميهم إسرائيل بالمتعاونين عينها التي تراقب الأحداث وترصدها خطوة خطوة، ويدها التي تبطش بها بكل من فكّر في أن ينفذ عملا عسكريا، أو نفذ عملية بطولية واستطاع الإفلات والانسحاب من مكان الهجوم. إنهم بحق بالنسبة للكيان الصهيوني هم «جيش الظل» الذي وفّر عليها الكثير من الوقت، وجنب جنودها القتل والأسر أو التعرض للأذى.

هذا جانب مهم جدا في هذه الرواية؛ لما له من بُعد توثيقي للأحداث كيف

كانت، وقد أشار الكاتب نفسه إلى ذلك في مقدمة الرواية؛ فقد كتبها في نيسان 1994، ولكنه نشرها بعد (24) عاما أي في (نيسان 2018)، وقد كتبت داخل السجن، ما يعني أيضا أنها رواية تنتمي إلى أدب المعتقلات.

لم يغير الكاتب أو يبدل في أحداثها، ما يعني بلغة النقد أنه ليس لزمن النشر أي تأثير في الأحداث وفي سيرها، بل بقيت كما هي. لذلك مسألة الزمنين لم تشكل فارقا ذا بال إلا بالنسبة للمتلقي وخاصة من ولد بعد عام 1994، ولم يعرف الانتفاضة وإنما يسمع عنها، في هذه الرواية يشاهد كل أفعالها كأنها على أرض الواقع بالتفاصيل الكاملة.

تسلط الرواية الضوء على ظاهرة العملاء وتصفيتهم جسديا، كما تبين الأثر الكبير والخطير للعملاء (المتعاونين) مع المخابرات الإسرائيلية على الشعب الفلسطيني، وخاصة الشبان المشاركين في أعمال الانتفاضة، وإسقاط الفتيات وتجنيدهنّ، ولم تنس الرواية التعامل مع هذه الظاهرة بشيء من الإنسانية، فثمة أسئلة أخلاقية تثيرها هذه الظاهرة، وخاصة بعد تصفية العميل المتعاون مع المخابرات، وقد التصقت به كلمة «خائن» وما تجره على عائلته، خاصة أبناءه من عار، وانعكاس ذلك على كيفية تعامل المجتمع معهم، فهو مجتمع لا يرحم كما تقول الرواية.

لقد اضطلعت المرأة في الرواية بدور مهم، وحيوي في الأحداث، واكتسبت الأم البيولوجية أو الأم الوطنية أهمية خاصة، وقد رافقت المطاردين في كل موقع، بحيث كانوا يجدون لهم أمّاً في كل منطقة يختبئون فيها أو ينتقلون إليها، عدا الأم، وجدت المرأة الزوجة، والمرأة الحبيبة، والمرأة المناضلة، والمرأة الواعية التي تسأل عن دورها الحقيقي كامرأة في الحياة وفي الانتفاضة، إنه السؤال المشروع والمُشَرَع في وجه كل حركة تحرر، فليس للمرأة فقط ذلك الدور التقليدي المتمثل في إعداد الطعام والخدمة وتوديع الشهداء والانتحاب لذكرى المعتقلين والراحلين، ثمة دور تبحث عنه المرأة في الرواية من خلال تلك الهواجس التي كانت تحدّث سحر بها نفسها أو تحدث بها أخت زوجها «مي».

تكتسب تلك الأسئلة والهواجس أهمية لدلالتها المهمة على أن المرأة بدأت تبحث عن معنى آخر لوجودها خارج الدور التقليدي لها في المجتمع. تعترض سحر على هذا الدور قائلة: «لماذا نقبع دائما خلف العظماء؟ مَن يدفع أكثر في

التجربة الإنسانية؟ مِن فجر التاريخ وهي تربي وتحب وتودع زوجها وأولادها ليذبحوا في الحروب، لتذرف الدموع، أو تنتظر السبي أو الاغتصاب أو القتل، دور العاجز الممتهن».

إن هذا الوعي النسوي الذي تفتح في ذهن سحر، وهي شخصية لافتة في الرواية، إلا أن الرواية لم تعطها دورا قياديا، على الرغم من أنه قد تجسد فيها كل معاناة المرأة الفلسطينية، بدءا من محاولة الإسقاط، والتعرّض للاغتصاب، إلى مواجهة الزواج بعد هذا الفعل، إلى زواجها الثاني من إبراهيم، وعيشها على الانتظار، تحبل وتنجب الأطفال. بقيت شخصية نسائية تدور في فلك النظرة التقليدية التي كانت تسائلها وتريد تغييرها، لكنّها لم تقم على أرض الواقع بأي مبادرة تقلب تلك الصورة أو تدفع إلى تطور دور المرأة. فقد اختار الكاتب الالتزام بالواقع كما هو دون أن يوظّف الفن الروائي إلى رؤى استشرافية تساعد المرأة على تطوير دورها في الحياة على أبعد من هذا الواقع.

تثير الرواية أكثر من سؤال أيضا فيما يتعلق بمسألة العملاء، ما ذنب الأبناء؟ ولماذا يتحملون وزر أبيهم؟ ربما من أجل ذلك جعل الروائي أحد أبطال الانتفاضة (فؤاد أبو العينين) ابناً لمتعاون خطير، ليؤكد هذا الفصل الذي يجب أن يكون بين المتعاون وأسرته، فكونه عميلا لا يعني بالضرورة أن أبناءه وأسرته وعشيرته مثله، فلا بد من أن فيهم الشريف والمناضل، ولتبرز أيضا ظاهرة محاصرة العميل وجعله منفردا، كالبعير المعبّد، منبوذا مكروها، وحيداً.

المسألة الأخرى المهمة فهي أخلاقية القتل ذاته. تسائل الرواية هذا الجانب في عملية التصفيات الجسدية للعملاء، فيبررها إبراهيم، مبينا أخلاقيتها التي لا تخلو من وضع قلق يؤثر في المناضل، بمعنى أنه يؤثر في نظر الثورة لهذا الموضوع، باعتباره شخصية ثورية تمثل الثورة ووجهة نظرها روائيّاً. يحسم إبراهيم ذلك بقوله: «الخائن ليس إنساناً، ولا يستحق أن يعامل كإنسان، سأكون صريحا معك، أنا لا أشعر بالسعادة بل أشعر بالحزن، أولا على نفسي من هذا الواجب القاسي الذي يجب أن أنفذه، وثانيا على أسرة الخائن الذين سيتجرعون الحزن عليه، ويحملون عاره في مجتمع قد لا يفرق بين الخائن وابنه».

لا تقف أسئلة الرواية في المسألة الوطنية عند هذا الحدّ، بل تمتد إلى أسئلة

«الما بعد»، أي ماذا بعد كل هذا على المستوى الشخصي للفاعلين الثلاثة، وعلى المستوى الجماعي إلى أين ستنتهي الانتفاضة؟ وماذا حققت؟ وماذا ستحقق؟ إن ثمة نقاشا تجريه الرواية في هذا السياق، وبعد أن انتهت وجاء غيرها من الثورات والنضالات ما زالت أسئلة الرواية معلقة دون إجابة، فالأسئلة تطرح بعد كل ثورة لا يقتصر على سؤال الانتفاضة ذاتها. فـ «سؤال ماذا ستحقق لنا الانتفاضة؟ يطرحه الناس كل يوم. الكثيرون يفقدون الإيمان مع مرور الزمن. لماذا؟».

لم تجب الرواية على هذا السؤال لا روائيا ولا فكريا، وبقي مرسلا دون إجابة، وسيظل الشعب يبحث عن الجواب ما دام أن هنالك احتلالا يقضم الأرض ويعتقل الشباب ويقتل الناس ويغتال حياتهم وتقرير مصيرهم. ولعل نهاية الرواية المفتوحة على مواصلة الصراع تجعل من الإجابة بعيدة المنال. وهذا ما أكدته الأحداث بعد ذلك، وتداعيات الانتفاضة ومخرجاتها السياسية التي لم تكن تلبي الطموح الوطني الفلسطيني جعل هذا السؤال جارحا، محرجا، ويحمل بذور الإحباط في طياته، بعد أن انتهت الانتفاضة، ويعيش الشعب مرحلة الما بعد هذه.

بعد هذه الإضاءة على مضامين الرواية وأسئلتها المدببة يخلص الدارس إلى حاجة المجتمع إلى أفعال حقيقية على أرض الواقع للإجابة عنها، فهل تطور المجتمع الفلسطيني منذ 1994 وحتى اليوم ليكون قادرا في بنيتيه الفكرية والسياسية على الإجابة عن كل تلك الإشكاليات في الفعل السياسي الثوري والفعل الاجتماعي؟ يبدو لي أن الإجابة لا تدعو إلى التفاؤل ونحن نرى ما نراه من تردٍ وحالة مزرية سياسياً، وحالة التحديث الزائفة للمجتمع التي لم تمس أفكاره ومسلماته. فكأن الثورة تعلن فشلها ليس مرّة واحدة، بل مرات متعددة، فهذا الفشل لم يتوقف.

عموميات الالتزام المنهجي في كتاب «دراسات من الأسر» للأسير أمجد عواد

بوصف كتاب «دراسات من الأسر» بأنه كتاب بحثي. وتتكئ الأبحاث عادة على جهاز لغوي منضبط بأسلوب معين، مرصوف بجملة من المصطلحات المعرفية التخصصية، أظن أنها لازمة لمن يهتم بموضوعاتها من الباحثين والدارسين المتخصصين، إذ إن الأبحاث بشكل عام- وهذه هي طبيعتها- عند كل الباحثين الأكاديميين تكون خاصة، ولها طريقة خاصة في التعامل مع محتواها، فنادرا ما يُقرأ بحث أكاديمي للمتعة أو للتسلية، وإنما تقرأ الأبحاث للمعرفة المتخصصة من أجل معرفة تالية، لها بها صلة ما، لتتولد عنها أفكار وأبحاث أخرى.

وبناء عليه، فإنني سأتحدث في عموميات الكتابة البحثية الأكاديمية- أي الجانب البحثي المحض من ناحية شكلية- فيما يتصل بكتاب أمجد عواد «دراسات من الأسر». ولا تحمل هذه الكتابة أي نوع من أنواع التقويم لهذه الأبحاث، إذ التقويم له أهدافه، وله ظروفه.

إن الناظر إلى أبحاث هذا الكتاب الستة، يرى أنها كتبت بصرامة الباحث العارف المجهز بأدواته كاملة، البحثية والمنهجية واللغوية الاصطلاحية، وهذا ليس غريبا على الأسير أمجد، وإن كنت لا أعرفه، إلا أن حصوله على درجة الماجستير في الشؤون الإسرائيلية يؤهله لمثل هذا النوع من الكتابة. فماذا تعني هذه العبارة لي ولكل من اشتغل بالحقلين الأكاديمي والمعرفي؟

إنها تعني بالضبط الكفاءة والمهنية اللازمتين لكتابة تتوفر فيها كل شروط الكتابة المقبولة في عرف الأكاديميين بما يلزمها من إطارات سابقة، وأخرى لاحقة، يتم وضع الأفكار المراد بحثها في سياقها البحثي، وما يلزم ذلك من أدوات بحث ومناقشة وتسلسل أفكار وبنائها، واستخلاص النتائج. لقد كانت هذه الإطارات متوفرة عند الكاتب أمجد كما ينبغي لها أن تكون متوفرة، وأشرتُ إلى ذلك في كتابة سابقة[1].

1. يُنظر مقال: «هنات بحثيّة جدير أن يتخلى عنها النقاد»، موقع ديوان العرب:
https//:cutt.us9/lEzE

ومـن وجهـة نظـر بحثيـة أخـرى، فـإن الأبحـاث السـتة تحمـل وجهـة نظـر كاتبهـا، وكل كتابـة شـئنا أم أبينـا هـي معبـرة عـن وجهـة نظـر مـن يكتبهـا، بغـض النظـر عـن نـوع هـذه الكتابـة، إذ لا يمكـن أن يتصـور أحـد أن يخلـو كتـاب مـن وجهـة نظـر كاتبـه مهمـا ادعـى مـن موضوعيـة وحياديـة، فالحياديـة في السياسـة والفكـر والثقافـة والديـن غيـر موجـودة إطلاقـا، لا عندنـا وفي تراثنـا، ولا عنـد غيرنـا وفي تراثهـم، إذ تصبـح الكتابـة عندئـذ ضربـا مـن المجانيـة، فـكل مجـال مـن هـذه المجـالات لا بـد مـن أن يكـون مفخخـا بوجهـة نظـر. لكـن الفـرق يكمـن في عـرض وجهـة النظـر، فكاتـب المقـال علـى سـبيل المثـال يقـول وجهـة نظـره دون أن يكـون ملزمـا بدقـة الدليـل وانطباقـه، بـل ربمـا خلـت المقـالات مـن الدليـل، لتكتسـب المقـالات وأفكارهـا أهميتهـا مـن وضوحهـا الشـفاف المباشـر اعتمـادا علـى الثقـة بكتابهـا، خاصـة إن كان الكاتـب مشـهودا لـه ومتمرسـا في الكتابـة، فـلا يقـال لـه: أيـن دليلـك أو مرجعياتـك؟ لقـد أصبـح الشـخص نفسـه مرجعـا، هـذا مـا عـرف عنـد كتـاب مقـالات كبـار صـارت آراؤهـم أدلـة لغيرهـم، والأمثلـة كثيـرة لا حصـر لهـا.

أمـا البحـث، فللباحـث أيضـا وجهـة نظـر، يؤيدهـا بالأدلـة، العقليـة والنقليـة ضمـن الإطـار العـام مـن المحـددات التـي أشـرت إليهـا سـابقاً، وهـذه المحـددات وظيفتهـا تسـويق الأفكـار ودعـم منطقيتهـا، ووجاهتهـا وليـس لتأكيـد حياديتهـا وموضوعيتهـا، فهـي موضوعيـة، ولكنهـا ليسـت حياديّـة. وبنـاء علـى ذلـك يمكـن أن نختلـف مـع الباحثيـن، كمـا نختلـف مـع كتّـاب المقـالات، فمـا جـاء في الكتـاب «دراسـات مـن الأسـر» مـن أفـكار وآراء ووجهـات نظـر هـي صحيحـة مـن وجهـة نظـر بحثيـة أكاديميـة صرفـة؛ لأنهـا تسـير حسـب الأطـر التـي تحكـم البحـث، لكنهـا مـن جانـب آخـر قـد تكـون معرضـة للأخـذ والـرد، والنقـاش حولهـا كأفـكار مـن وجهـة نظـر دارسـين آخريـن لا يتبنـون الفكـر اليسـاري، ولا يسـيرون علـى تلـك القناعـات العقليـة التـي تحكـم الباحـث، فالإسـلاميون- مثـلا- لهـم رأيهـم البحثـي الأكاديمـي المنضبـط بالأطـر البحثيـة فيمـا يدّعـون ويناقشـون فيمـا يخـص موضوعـات كتـاب أمجـد عـواد، والشـيء نفسـه يقـال بخصـوص العلمانيـين والملاحـدة أو غيرهـم مـن أبنـاء الأيديولوجيـات السـماوية والأرضيـة. كمـا قـد يختلـف حولهـا أصحـاب النظريـات السياسـية النفعيـة والميكافيليـة، فالباحـث الـذي يؤمن بالسـلام ليس كالباحث المؤمن بالمقاومـة المسـلحة. وهـذه مجـرد أمثلـة لمـا يمكـن أن يؤسـس لاختـلاف وجهـات نظـر الباحثـين في المسـائل التـي يتـم بحثهـا ومناقشـتها بطريقـة أكاديميـة منهجيـة.

إذاً، ليس عيبا أن تختلف مع الباحث، بل لا بد من هذا الاختلاف، وهذا الاختلاف صحي وطبيعي ولازم، وموضوعيّ، وهذا دور الباحثين عموماً، ولا يعني الاختلاف الانتقاص من دقة البحث من ناحية بحثية، فالبحث يكتب- بما في ذلك أبحاث هذا الكتاب- بمنطقية منهجية، وتحكمه ذهنية فكرية موجهة يصب الباحث أفكاره من خلالها لبحث قضية ما ويتخذ حيالها موقفا بناء على تلك الذهنية الفكرية، لذلك لا يوجد ما يجعل الكتابة مطلقة ونفادية ومغلقة، أو غير نقاشية، لكنها تؤشر بفاعلية النشاط الذهني الذي أنتجها وتصورها وأخرجها على صورتها التي استقرت عليها منشورة متداولة بين أيدي القراء، لينتهي دور هذا الباحث ويبدأ دور باحثين آخرين، وهكذا دواليك، فلا ينتهي الكلام ولا تقف الأمور عند حد واحد. وسبحان من جعل تعدد الأفهام طبيعة بشرية.

وأخيرا؛ أقول: هنيئا للكاتب كتابه «دراسات من الأسر» الذي أضاف إلى معمار المشهد الثقافي الاعتقالي صفة «الباحث» للأسير الكاتب، بعد أن أعلى كثيرون من الأسرى الكتاب صفة الروائي والشاعر. لكن القلائل منهم من أضاف هذه الصفة إلى المشهد الكلي للثقافة الاعتقالية. فشكرا أمجد، وعجل الله بالفرج لك ولكل أسرى وأسيرات الحرية في معتقلات الاحتلال.

المعمار الفنّيّ في رواية «أنفاس امرأة مخذولة»

في عمل باسم خندقجي الموسوم بـ «أنفاس امرأة مخذولة» ثمّة ما يستدعي الحديث عنه، سواء في البناء الروائي الشكلي الذي انحاز إليه باسم أو بطريقة السرد واللغة المستخدمة، والحكاية ذاتها التي يسردها كاتب متخيّل، وصولاً إلى البنية الروائيّة، والموقف الأيديولوجي للكاتب.

أولاً: البناء الشكلي للرواية:

تنقسم الرواية إلى قسمين غير متكافئين في المساحة السرديّة، أتى القسم الأوّل تحت عنوان «كأنّها أمّي»، ويمتدّ من الصفحة الثالثة عشرة وحتّى الصفحة الثانية والستين، ويتحدّث فيها «مجير» مشكّكاً في الرواية التي سيتولّى الحديث فيها في القسم الثاني سارد معروف الاسم والملامح كما يخبرنا مجير، الأبن الأصغر لسنيّة؛ المرأة الموصوفة بأنّها «مخذولة». يبدو القسم الأوّل رأيا استباقيّاً حول الرواية المحتملة لأمّ السارد «مجير»، لكنّه يعطيه الحقّ الكامل ليقصّ علينا الحكاية من وجهة نظره. فهو سارد كما يسمّيه جيراند برنس «سارد الوعي بذاته»، «سارد على علم بأنّه يقوم بالسرد، سارد يبحث ويعلّق على عمله السردي». (المصطلح السردي، ص205)

ينتهي القسم الأوّل لتبدأ رواية شاكر المنيفي وتحت العنوان نفسه «كأنّها أمّي»، يوهم الكاتب باسم خندقجي القارئ بحيلة طريفة بصفحة غلاف كاملة مختلفة عن صفحة الغلاف الأوّل للرواية، حيث تظهر في هذه الصفحة العناصر الآتية: «العنوان، والتجنيس، والكاتب، ودار النشر، ورقم الطبعة وتاريخها»، ويزداد التوغّل في اللعبة الشكليّة لبناء الرواية، فيصطنع «توطئة وإهداء» بقلم شاكر ومكان الكتابة وزمانها (القدس، أوائل 2011)، يوضّح أنّ هذه هي حكاية سنيّة كما رواها ابنها مجير، وكما سمعها من الناس الذين تداولوا القصّة، ثمّ يثبت اقتباساً للكاتب اللبناني إلياس خوري، يبيّن فيها أهمّيّة رواية الحكايات، ففي روايتها حياة لها فهي لا تموت. وكأنّه يقول إنّ هذه الحكاية كي لا تنطفئ وتموت لا بدّ من حكايتها. أو كما قال محمود درويش الحاضر أيضاً في السرد، على ما سأوضح في موضعه من هذه القراءة:

«من يكتب حكايته يرثُ

أرض الكلام، ويملك المعنى تماماً». (لماذا تركت الحصان وحيداً، ص112).

امتدّ هذا القسم من الصفحة (69) وحتّى الصفحة (317)، وتنقسم إلى عشرة فصول، يتولّى فيها شاكر رواية قصّة سنيّة بنت مصطفى البدري من قرية عين المرجة، ويتتبّع قصّة حياتها منذ كانت طفلة في الخامسة عشرة من عمرها حتّى بداية الثلاثينيّات من عمرها، ورحلة عذابها التي شهدت عليها جغرافيّات فلسطينيّة متعدّدة، بدءاً من عين المرجة القرية التي ولدت فيها وحتّى يافا، مروراً برام الله والرام والقدس. بدا السارد عارفاً بأدقّ تفاصيل سنيّة وتفكيرها كطفلة صغيرة ثمّ صبيّة يافعة وانتهاء بامرأة ناضجة جميلة، بل ساحرة الجمال، ظهر مرافقاً لها حتّى في غرفة نومها، وشاهداً حيّاً على الأحداث. المكان الوحيد الذي لم يدخله السارد مع سنيّة هو الحمّام، ما عدا ذلك كان معها كظلّها يرصد حسناتها وسيّئاتها وهواجسها وتفكيرها. إنّه «السارد المحيط بكلّ شيء، ويستطيع أن يقول أكثر مما تعرفه بعض الشخصيّات» (المصطلح السردي، ص164)، ليس له دور في الرواية سوى القصّ فقط؛ فليس هو مشارك بالأحداث وليس بطلاً كذلك.

إنّ هذه الطريقة التي اتّبعها باسم في بناء الرواية وخاصّة في تقسيمها إلى قسمين، مختلفين في السارد ووجهة النظر، ينبئ عن «ديمقراطيّة» ما تجاه الرواية نفسها، بوصفها حكاية مسرودة علينا نحن القرّاء، فعلى الرغم من أنّ «مجير» لا يثق برواية «شاكر المنيفي» إلّا أنّه قدّم روايته ومهّد لها، منبئاً القرّاء- سلفاً- بموقفه منها عندما قال إنّني «سأنكرها وسأمزّقها وسأحرقها حتماً» (ص62). وكذلك فإنّها طريقة مناسبة جدّاً ليتخلّص الكاتب من نفسه، ومن سيطرته على القصّ وفعل الحكي، فكلّ ما في الرواية هو وجهة نظر شاكر، فلم يكن لباسم دور ظاهريّ فيه، وعليه فقد كان حياديّاً، وأيّ أخطاء سرديّة ستعود إلى شاكر وليس إلى باسم، مراوغة فنّيّة طريفة بلا شكّ. لكنّها لا تعفيه من النقد والمساءلة الفنّيّة في النهاية.

ثانياً اللغة في الرواية:

من الملاحظ أنّه لا اختلاف بين لغة السارد في القسم الأوّل وبين لغة السارد في القسم الثاني، على الرغم من أنّ «مجير» كسارد أوّل ومقدّم للرواية هو مغاير

لشاكر تماماً في النوع والهدف والوظيفة السرديّة، واللغة في القسمين عائدة بلا جدال إلى لغة باسم، هذه اللغة التي كان لها سمات، وربما عليها مآخذ.

تجنح الرواية إلى اللغة الشعريّة في كثير من مقاطعها، وتنبئ هذه اللغة عن مدى رومانسيّة سنيّة التي انحازت إلى الطبيعة بشكل واضح، فتمّ توظيف هذه اللغة المليئة بالزهور والورد والتراب والشذى ليعبّر بها عن طبيعة شخصيّة سنيّة. لقد استعار القصّ كثيراً من مفردات اللغة الشعريّة الرومانسيّة المختلطة ببعدها الوطني الرومانسي، وخاصّة في علاقة سنيّة بالفدائي ناصر الزيني، وعلاقتها كذلك فيما بعد باليهودي «عمير إليعازر».

بقدر ما كانت هذه اللغة خادمة للقصّ في إطارها العامّ إلّا إنّها أحياناً كانت تنساق نحو «اللغة الشعريّة المجانيّة»؛ الخالية من الهدف، بل تخلّلها عبارات مصوغة بتهويم كبير، لا يكاد القارئ يظفر منها بمعنى سوى أنّها تراكيب استعاريّة لوصف حالة، يعجز السارد عن وصفها. هذا فخّ سردي مميت للرواية بشكل عامّ، وقع فيه كثير من الروائيّين الذين جنحوا للغة الشعريّة كأحلام مستغانمي على سبيل المثال في رواياتها، وخاصّة في روايتها «الأسود يليق بك». ثمّة فيض إنشائيٌّ ولغة بلا هدف في رواية باسم أيضاً. حذر منها غير مرة الناقد العراقي عبد الله إبراهيم، إذ يرى أن «الكتابة الانشائية سمة عامة في الكتابة السردية العربية، وهي نقطة ضعفها الأساسية، ويجب تداركها بسرعة»[1]. بل أكثر من ذلك ليصف هذه الإنشائية بأنها نوع من «الثرثرة اللغوية»، و«تشكل مصدر خطر على الرواية العربية»[2].

لقد بدت اللغة كذلك غير سويّة تماماً فيما يتوافق ولغة الحوار بين الشخصيّات؛ ثمّة خلط بين العامّية والفصيحة في حديث المتكلم الواحد في المشهد ذاته، يبدأ عامّياً ثم ينتهي الكلام فصيحاً معرباً. إنّها تفاصيل صغيرة في صنعة الرواية، لكنّها بالتأكيد مهمّة، ذات قدرة على التأثير في القارئ، فلا بدّ من أن يقتنع القارئ بكلام الشخصيّة ليصدّقها، واللغة إحدى وسائل الإقناع الفنّيّة، فإذا

1. د. عبد الله ابراهيم: الإنشائية سمة عامة في الرواية العربية وهي نقطة ضعفها الأساسية، حوار مع علي كاظم داود، موقع كتّاب العراق، نشر بتاريخ: 28/5/2012: http://www.iraqiwriters.com/inp/view.asp?ID=3107

2. عبدالله إبراهيم: دخلاء على السرد «يعبثون» بالرواية العربية، حوار خالد بيومي، موقع الجسرة، نشر بتاريخ: 14/4/2021: https://cutt.us/NF1iT

فقدت مصداقيّتها ولم تعبّر عن واقع الشخصيّة الاجتماعي والثقافي كان لها أثر سلبي في التلقي.

ومن جهة أخرى تتجلّى اللغة في الرواية في اختيار أسماء شخصيّاتها ذات الأثر الكبير في تعميق أدوارها، فسنيّة ذات الجمال الآسر يتناسب هذا الاسم وما هي عليه من سمات جماليّة. وأمّا ناصر فهو دائما الأمل المنشود الذي تتطلّع إليه سنيّة ليخلّصها من صابر ومن حياة البؤس والتشرد الذي عاشتها، لقد كان حاضراً كالروح في جميع مراحل السرد على الرغم من ظهوره القصير في قرية عين المرجة.

وأمّا أبناء سنيّة الثلاثة، فلكل اسم من أسمائهم موقف، فسليم سمي سليما؛ لأن الداية عندما بشرت به صابرا قالت له ولد يا صابر صاغ سليم، فسمّاه سليماً، وفاطمة أسمتها أمّها بهذا الاسم؛ إذ إنها تشبهها، فإذا كانت سنية هي فلسطين في الاستعارة البعيدة، فإن فاطمة اسم متأصّل في الثقافة الشعبيّة والدينيّة الفلسطينيّة، وسبق لناجي العلي أن أطلقه على أمّ حنظلة في رسوماته الكاريكاتورية، تلك المرأة التي كانت قوية ومبدأية في رسوماته. وأمّا مجير فتسمّيه «مجيراً»؛ لعله يجيرها ويحميها من مصائب الدهر وويلاته». (ص192)

ولعلّ رجائي أيضاً، له من اسمه نصيب، كما تقول العرب، فظل رجاؤه أن يحظى بسنيّة، لكنّه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً، فظلّت بالنسبة إليه «رجاءً» بل حلماً مستحيلاً. أمّا صابر فكان ذا تاريخ محمّل بآلام الماضي، فأبوه متّهم بالعمالة لدولة الاحتلال، جعله ذلك محط احتقار الناس له، وعاني في حياته الكثير، فصبر على كلّ تلك المآسي، وربما يلحظ الدارس بعضاً من التعاطف الخفي مع صابر، فليس مسؤولاً عن أوزار والده في نهاية المطاف. دون أن يكون بريئاً براءة تامّة ممّا هو فيه من واقع سيّء وامتهانه السرقة، وفي تعامله الوحشيّ مع زوجته وأطفاله.

ثمّة ملمح أخير بارز في لغة الرواية لا بدّ من الإشارة إليه، إنّه اعتماد اللغة في كثير من المقاطع على السخريّة السوداء المريرة المقصودة، سواء عند مجير في سرده أو في سرد شاكر، لقد كانت السخريّة أساسيّة في معارك المواجهة المتعدّدة بين سنيّة والشخصيّات الأخرى، كزوجها صابر، ورجائي، وعمير، الوحيد الذي لم تكن السخريّة حاضرة معه هو الفدائي ناصر؛ فلم يكن نقيضاً لسنيّة، وإنّما كان حبيباً وعاشقاً مأمولاً به، ومنقذاً منتظراً.

ثالثاً: التأثّر بالشاعر محمود درويش:

ثمّة حشر غير مبرّر وغير مفهوم لكلّ تلك المفردات «اللوزيّة» في الرواية، فقد حضر اللوز وزهره وشجره، وأحياناً بتعبيرات لا معنى لها سوى أنّها استعارة لغويّة مجانية كقوله مثلا «القلب اللوزي» و«الفطرة اللوزيّة». أحاول أن أشرح وأفسّر تلك الظاهرة اللغويّة اللوزيّة في الرواية فلا أجد لها تفسيراً سوى أنّها رجع صدى لعنوان ديوان درويش «كزهر اللوز أو أبعد»، ربّما كان السرد يحاول أن يعطي معنىً وتأويلاً خاصّة لديوان درويش. ما يجعلني أميل إلى هذا التفسير أمران؛ الأوّل أنّ ناصراً الفدائي يتلو على مسامع سنيّة عندما التقيا في جبل المكسور قطعة شعريّة من شعر درويش، وإن لم يكن من ديوان «كزهر اللوز أو أبعد»، إنّما من ديوان «عاشق من فلسطين» والقصيدة المشهورة «فلسطينيّة العينين والوشم»، مقطع طويل يخضعه السرد إلى قوانين الكتابة النثريّة، ليدمجه في إيقاع النصّ السردي. (ينظر: ص92-91)

في هذا المقطع الشعري حضور واضح وعلني لدرويش، يعزّز سيطرة الشاعر على الروائي، هذه السلطة في اللاوعي، جعلت السرد يحوّر مقطعاً من شعر درويش ليكون مفتتحاً للفصل الثامن؛ يبدأ بخطّ أسود عريض (**Bold**): «أنت منذ الآن اسمكِ». (ص235) المأخوذ من نصّين لدرويش، أحدهما بعنوان: «أنت منذ الآن غيرك» (أثر الفراشة، ص269)، والثاني بعنوان: «أنت منذ الآن، أنت» (أثر الفراشة، ص276)، هل لهذا الاتّكاء من دلالة في الرواية؟ يبدو كذلك؛ لأنّ سنيّة في هذا الفصل ستتحوّل إلى سونيا، وتغيّر اسمها، فكأنّها هي منذ الآن غير ما كانت عليه. عدا أنّ «درويش» في هذا النصّ يتحدّث عن الهُويّة أيضاً، والتباساتها فيقول: «لا أخجل من هُويّتي، فهي قيد التأليف». (أثر الفراشة، ص275) وفي هذا الفصل ثمّة حديث عن الهُويّة بشكل أو بآخر.

أمّا الأمر الثاني فهو اقتباس من حديث لباسم يقول فيه: «إنّ محمود درويش يكفينا كشاعر لأكثر من مئة عام قادم»، ربّما لأجل ذلك لم يعد باسم يكتب شعراً، ولا يصدر كتباً شعريّة، مكتفياً بقراءة درويش، والاستمتاع بشعره وتوظيف في سياقات روائيّة، ويلجأ من أجل تفريغ مخزونه من اللغة الشعريّة إلى السرد ليكون هذا السرد الشعري المجنّح، وهو ما اعترف به قائلاً وهو يصف لغته في رواية «مسك الكفاية»: «إنّني امتلك لغة شعريّة، ولكنّني لست

شاعراً، وأنّ تجربتي الشعريّة المتواضعة لم تفِ بوعودها القاضية بحمل سرديّة قادرة بدورها على تنفيذ العامّ والخاصّ، بالإضافة إلى اكتشافي أنّ قصيدتي كانت مفتونة بالسرياليّة والتجريبيّة العاليّة». (كلمة للكاتب في ندوة أسرى يكتبون، عبر منصّة زوم، بتاريخ: 11/2/2021). هذه السرياليّة غير المفهومة حقّاً في بعض تعبيرات رواية «أنفاس امرأة مخذولة»، وتثلم من جماليّة النصّ، وتنال من صنعة الرواية.

ربّما أيضاً على القارئ أن يتذكّر كيف أنّ باسماً في «منثوره الروائي» «نرجس العزلة» قد وظّف فيه الشعر، دون أن يكون الشعر قادراً على أن يكون مستقلاً في ديوان أو قصيدة خارج السرد. إنّ هذه السيطرة لدرويش على الشاعر هي التي قضت قضاءً، لعله نهائيّ، على الشاعر فيه، وتريد من الشعراء الآخرين، أن يكفوا عن الشعر، فدرويش «يكفينا كشاعر لمائة عام قادم»، إنّه حكم متطرّف، مع أنّ ملاحظة باسم صحيحة من باب آخر، في أنّ درويش كان السبب في إماتة كثير من الأصوات الشعريّة المهمة التي لم يلتفت إليها، لأنّ حضوره كان أقوى، مع أنّ سلطة النصّ الدرويشي لم تكن هي وحدها السبب في ذلك. ثمّة شعريّات باذخة الحضور في المشهد الشعري الفلسطيني، تراجعت في الظلّ بسبب الاعتناء بدرويش الشاعر، فسيّدته عوامل كثيرة وأهملت بقيّة الأصوات وأفسدت المشهد برمّته.

وهذا يقود بطبيعة الحال إلى نقل الحالة الدرويشية إلى الرواية، فهل لو كان هناك روائي بتأثير درويش على الجيل الحالي، وربما اللاحق، سنقول: إن ذلك الروائي سيكفينا لمائة عام قادمة؟ لو سلم الأدباء والنقاد بهذا الحكم لما وجد درويش نفسه شاعراً بعد المتنبي، ولا وجد سارد بعد ماركيز أو نجيب محفوظ، ولا وجد باسم نفسه روائيّاً له حضوره بعد العلامات الثلاث للرواية الفلسطينية: غسان كنفاني وإيميل حبيبي وجبرا إبراهيم جبرا. فأيّ سذاجة في هذا الرأيّ؟

عدا أن اتخاذ مثل هذا الموقف حيال درويش يحمل قدرا كبيرا من الاستهانة والمهانة بالشعرية العربية والفلسطينية على وجه الخصوص، وبكل ما حققته من إنجازات جمالية عالمية، بعيداً عن درويش وأثر درويش الشعري.

ثالثاً الحكاية المتخيّلة لسارد متخيّل:

تقوم الرواية على عنوانين رئيسيّين هما «كأنّها أمّي»، و«أنفاس امرأة مخذولة»، والعنوان الأوّل كان عنواناً لسرد مجير، ولرواية شاكر المنيفي، والعنوان العامّ جامع للروايتين، رواية مجير ورواية شاكر. لعلّ الجامع بين الروايتين هو هذا الحكم النهائي المضمر في العنوان الأخير للروايتين «أنفاس امرأة مخذولة»، فقد بدت مخذولة في رواية مجير، وكذلك بإسهاب كبير في رواية شاكر، فالنتيجة واحدة، وإن اختلفا في بعض التفاصيل والأحكام الجزئيّة.

يدور السرد حول شخصيّة سنيّة، واقتربت الرواية من أن تكون رواية شخصيّة، فالسرد كلّه بوصفه بنية روائيّة يمثّل «شبكة العلاقات الحاصلة بين القصّة والخطاب، والقصّة والسرد، والخطاب والسرد» (المصطلح السردي، ص224)، كلّ هذه العناصر للبنية يدور حول سنيّة ذات الأوصاف المتعدّدة؛ فهي القاروطة، والهبلة، والمجنونة، والخائنة، والعاهرة المتهتكة، والعاشقة، واللوزية، والنادلة، وهي زوجة، وأمّ أيضاً لثلاثة أطفال: سليم وفاطمة ومجير.

رسمت الرواية لسنيّة قصّة حياة كاملة منذ كان عمرها خمسة عشر عاماً، وأضاءت الرواية مراحل حياتها وتشابكاتها مع شخصيّات أخرى، جدّيها، وناصر الفدائي، وزوجها صابر، ورجائي، ومنير شكيب، وأمّ عليّ، وأمّ حسين، وبعد ذلك في بيئة يافا أبو طوني، وتمارا، وعمير إليعازر. كلّ هؤلاء كانوا خدماً روائيّين وفنّيّين لتعميق الشخصيّة وإضاءتها من الداخل والخارج، وربّما يستطيع القارئ بعد الانتهاء من الرواية أن يرسم لسنيّة صورة في مخيّلته، فقد وصفها السارد وصفاً دقيقاً. وأضاء السرد تفاصيل حياتها وأحلامها، وتفكيرها وسيكولوجيّتها، كلّ ذلك كانت تبدو فيه الصنعة الروائيّة، تخدمه اللغة المتوتّرة التي كان إيقاعها يرتفع أو ينخفض تبعاً للأحداث، بجمل قصيرة متتابعة، فكانت اللغة ممثّلة مشاهد العنف بسرديّة عالية الإيقاع في خصامها مع زوجها واعتراضها عليه أو الثورة ضدّ رجائي الذي حاول اغتصابها، هذا الإيقاع السردي الذي كان سلساً مغايراً مثلاً، وهي في لحظات نشوتها عندما كانت مع ناصر الفدائي أو عندما تتذكّره، وفي بعض أحاديثها مع عمير أيضاً في طعم «سميراميس».

ربّما يستشفّ القارئ أحياناً أنّ ثمّة استعارة لعبت الرواية على بنائها لتكون

سنيّة الهبلة القاروطة المخذولة هي فلسطين المنكوبة، كثير من العبارات كانت تومئ إلى هذا التقابل بين الموضوعتين، المرأة سنيّة والأرض فلسطين، فما حلّ بسنيّة حلّ بفلسطين، وعندما كانت سنيّة تنتظر عودة ناصر الفدائي ليخلّصها من العذاب، كانت العبارات تشير إلى حاجة فلسطين إلى الفدائي النظيف الرومانسي القادم- أو المتبقي- من أيّام «الرومانسيّة الثوريّة»؛ لينقذ فلسطين ممّا تعرضت له من تغريب وتخريب بفعل السياسة ومفاوضات السلام. هذه الحالة من التغريب التي أصابت فلسطين أصابت سنيّة التي تحولت إلى سونيا، وذلك الصراع النفسي الذي كان يدور في نفس سنيّة تجاه سونيا؛ تجاه ذاتها واسمها وتبدّل وظيفتها، لقد وقعت في شرك عمير العشقي، ذلك اليهودي العراقي العربي، اختلاط وتغريب في الهويّة، يؤدّي إلى تغريب في الاسم وفي الوظيفة، يصل إلى حد «التطبيع الجنسي». عملت الرواية في النهاية على إدانته، والتخلص منه، لتجعل من محاولة انتحار سونيا/ سنيّة إدانة واضحة لهذه المرحلة ولهذه الوظيفة.

هل طوّرت الرواية هذه العلاقة الملتبسة بين هُويّتين متصارعتين، متأثّرة بدرويش وعلاقته بريتا اليهوديّة التي كانت مجنّدة في الجيش، ألم يقل درويش: «بين ريتا وعيوني.. بندقيّة»؟ (ديوان آخر الليل، الديوان، ج1، ص186)، فعمير أيضاً شارك في حرب لبنان عام 1982، وكان خائفاً من إخبارها بهذا حتّى لا تتركه، كما ترك درويش ريتا، لأنّ ثمّة بندقيّة بينهما كذلك، لقد تمّ تبديل الموقع، فلسطينية تحبّ يهوديّاً؛ جنديّاً إسرائيليّاً حمل السلاح ضدّ الفلسطينيّين. لم تعلم سنيّة بهذا لولا أنّ السارد أخبرنا نحن القرّاء به، وفي ظنّي لولا هذا التأثّر، لم يكن حاجة إلى ذكر هذه المعلومة التي لم تصل إلى سونيا/ سنيّة، بمعنى لولا هذا الهدف لأضحت المعلومة مجانية لا داعيَ لها. عموماً، يبقى الأمر نوعاً من التوقّع والقراءة، فلا شكل نهائيّ لحضور الأعمال الأدبيّة السابقة في النصوص الجديدة، فيما يدرس تحت آليات التناصّ وإستراتيجيّاته المتعدّدة.

ومن جانب آخر، لا بدّ من أن تكون الأحداث مبنيّة على المنطقيّة، ليقتنع القارئ بإمكانيّة وقوعها. وعدا اللغة وما تجرّه من عدم معقوليّة- كما سبق وبيّنت- فإنّ الأحداث نفسها كانت مسؤولة عن خفوت عنصر الإقناع في الرواية، منها على سبيل المثال المبالغة في سرد بعض الأحداث البعيدة عن المنطقيّة ضمن السياق التي جاءت فيه، فمثلاً مقدار البطش التي تعرّضت له سنيّة، وهي

عروس جديدة من زوجها «صابر عطوة البشيري»، لو تمّ في الواقع، لم تكن لتنجو منه في غالب الظنّ، بل إنّها لن تنجو منه أبداً، ولكان مصيرها الموت، خاصّة الفارق الكبير بينهما، فصابر وحش معدوم الآدميّة، وسنيّة طفلة لم تتجاوز ستة عشرة ربيعاً، رقيقة وبريئة، والشيء نفسه في عدم المنطقيّة في تخلّصها من رجائي عدّة مرّات مع أنّه ضخم الجثّة، ولا مقارنة بينه وبينها كذلك، وهناك أيضاً مشاهد تتناقض والواقعيّة، وإن كانت ممكنة، إلّا أنّها بالقياس إلى سنيّة والصورة المرسومة لها لن تكون مقنعة تماماً، بالظروف التي تمّت فيها، كرجوعها من قصر آل شكيب مشياً على الأقدام ليلاً بعد أن تعرّض لها رجائي بالتحرّش.

ولأهمّيّة هذا العنصر في الرواية يتحدّث عنه ماريو بارغاس يوسا في «رسائل إلى روائي ناشئ» بقوله: «وكلّ رواية هي كذبة تحاول التظاهر بأنّها حقيقة. إنّها اختلاق تعتمد قوّة الإقناع»، حيث «تضييق المسافة الفاصلة بين الوهم والواقع، وجعل القارئ، بمحو الحدود بينهما، يعيش الكذبة كما لو أنّها أكثر ثباتاً ورسوخاً». (ص24، وص30)

لقد كانت رواية باسم هذه بحاجة إلى أنْ يهتم بعنصر الإقناع اهتماماً بالغاً على نحو بعيدٍ عن العاطفيّة والتعاطف مع الشخصيات، أو الانجرار وراء شهوة السرد دون مساءلة المذهب النقدي الواقعي، لاسيّما أنّها رواية واقعيّة، وتريد أن تنقد الواقع، وتدفع القارئ إلى اتّخاذ موقف ينسجم مع رؤى الكاتب المستترة وراء السرد، وإن لم يكن هدف الكاتب دفع القارئ إلى تأييد رؤاه، فستصبح الكتابة عندئذٍ مجرد هواية خاوية من المعنى العميق للكتابة ذاتها.

رابعاً: زمن الأحداث والموقف الأيديولوجي:

تبدأ الأحداث كما يمكن أن يستنتج القارئ في أواخر السبعينيّات أو أوائل الثمانينيّات، وحتّى عام 2011 في رواية «مجير»، و1997 حسب رواية «شاكر»، وربّما أشار زمن القصّ الذي صرح به شاكر في الإهداء هو زمن انتهاء الأحداث أيضاً (أوائل 2011)، إذ ظلّت حكاية سنيّة مستمرّة، فثمّة ما يشير في رواية شاكر إلى زمن الأحداث، حيث تنتقل سنيّة إلى يافا عام 1995، وتستمرّ فيها حتّى 1997، حيث تنتهي الرواية، وكانت إذّاك على أبواب الثلاثين، مطروحة في مستشفى للأمراض النفسيّة في يافا يدعى «جفعات شؤول».

وخـلال هـذه الفتـرة الزمنيـة الروائيّـة الطويلـة التـي تقتـرب مـن الثلاثـين عامـاً (1980–2011) شـهدت فلسـطين والقضيـة الفلسـطينيّة أحداثـاً كبـرى، تركـت أثرهـا في الوعـي الجمعـي الفلسـطيني والعربـي، سياسـيّاً واجتماعيّـاً؛ فهنـاك اجتيـاح بيـروت عـام 1982، وظاهـرة تسـلل الفدائيّـين، والانتفاضـة الأولـى، عـام 1987، والعمـل في إسـرائيل، ونشـوء ظاهـرة العمـلاء وتصفيتهـم جسـديا مـن خـلال شـباب الانتفاضـة، ثـم مؤتمـر السـلام واتفاقيـة أوسـلو، ونشـوء السـلطة الفلسـطينيّة وأجهزتهـا الأمنيّـة. ومـن الملاحـظ أنّـه تمّ السـكوت عـن الفتـرة الممتـدّة مـا بـين (1997–2011)، ولـم تذكـر إلّا في هوامـش الخطـاب الروائـي، كمـا هـو عنـد شـاكر في الإهـداء (ص67)، أو في زمـن روايـة الأحـداث عنـد مجيـر. (ينظـر: ص20، يـورد عـام 2002، وص23، يـورد أواسـط تمـوز 2010، وص42، يـورد هـذا التحديـد: الآن، ينايـر عـام 2011).

كلّ هـذه الأحـداث أو بعضهـا كان لشـخصيّات الروايـة موقـف منهـا، معارضـاً أو متّفقـاً، وجـاء ضمـن السـياق الاجتماعـي الـذي تفرضـه أحـداث الروايـة، فلـم تكـن أحـداث الروايـة سياسـيّة بشـكل مباشـر، وإنّمـا كانـت تتشـكّل مـن أحـداث اجتماعيّـة للأحـداث السياسـيّة ظهـور في خلفيّتهـا، لقـد كانـت الأحـداث السياسـيّة حاضـرة، لكنّهـا لـم تَطْـغ علـى الحكايـة الاجتماعيّـة، وظـلّ صوتهـا أخفـت بكثيـر مـن الحكايـة الاجتماعيّـة، وبالتالـي لـم تطـغ الشـعاراتيّة علـى الخطـاب الروائـي، ولـم تتبجّـح شـخصيّاتها المناضلـة أو العاديّـة أو المعارضـة بمواقفهـا السياسـيّة، وإن عبّـرت عنـه تعبيـراً اجتماعيّـاً يتناسـب وطبيعـة شـخصيّات الروايـة، ومقـولات الخطـاب الاجتماعـي غيـر المنفصـل بطبيعـة الحـال عـن الخطـاب السياسـي. لذلـك- باعتقـادي- ظلّـت الروايـة محافظـة علـى وحـدة الإيقـاع الروائـي المتشـكّل مـن مجموعـة أحـداث يجمعهـا خيـط واحـد، ولـم تتشـعّب أو تتشـتّت في حقـول إنسـانيّة أخـرى، وخـفّ تبعـاً لذلـك صـوت الأيديولوجيـا لصالـح عناصـر الفـنّ الروائـي.

وتبعـاً لـكلّ هـذا- ربّمـا- لـم يكشـف شـاكر عـن مصيـر سـنيّة في روايتـه، وأبقـاه معلّقـاً، بمعنـى أنّ مصيرهـا لـم يكـن المـوت حتّـى تاريـخ الأحـداث التـي يرويهـا في الفصـل العاشـر (1997)، وهـذا اقتـراح فنّـي يفسّـر- روائيّـاً- أنّ الحـلّ متعـدّد، والنهايـة مفتوحـة. إنّمـا كان مصيرهـا علـى يـد ابنهـا مقتولـة بعـد ذلـك، هـذا يجعـل القـارئ يسـتدير إلـى روايـة مجيـر مـرّة أخـرى، ليقـرأ عـن مصيـر سـنيّة. مجيـر يقـول إنّ سـليماً- ابـن سـنيّة البكـر- هـو مـن قتلهـا، لكنّـه ليـس متأكّـداً مـن هـذا

أيضـاً: «قصـدتُ مـكان الجريمـة فلـم أعثـر علـى جثّـة أو علـى أيّ أثـر للدمـاء، لـم أجد قتـلاً هنـاك» (ص60)، نـوع مـن الغمـوض يلـفّ مصيـر سـنيّة، فهـل هـذا الغمـوض أيضـاً هـو غمـوض المستقبل السياسـيّ لفلسطين؟ وهـذا أيضـاً يفسّـر- روائيّـاً- أنّ الحلّ في الروايـة الأولـى- روايـة مجيـر- أيضـاً غيـر محسـوم بالمطلق. عـدا أنّ هنـاك أسئلة تبيـح تفسيرات غيـر قاطعـة، فهل يحمـل سـليم- علـى سـبيل المثـال- اسـتعارة مـا عندمـا يكـون هـو القاتـل لسـنيّة، بوصفـه ابنهـا البكـر، إذا كانـت سـنيّة هـي فلسـطين؟ فهل حركـة فتـح بوصفهـا الحركـة البكر هـي مـن قتلـت فلسـطين أو خذلتهـا، ولـم يبـق منهـا سـوى «أنفـاس جغرافيـا مخذولـة»؟

وهـل في هـذا إدانـة غيـر مباشـرة لمـا قامـت بـه الحركـة مـن تزعّـم المفاوضـات، وتشـكيل السـلطة الفلسـطينيّة فيمـا بعـد؟ ربّمـا، هـذا اسـتنتاج لـه مـا يدعمـه مـن النـصّ نفسـه، وخاصّـة في روايـة مجيـر التـي قـدمّ فيهـا صـورة سـيّئة لـرام اللّه، وحيّ «أمّ الشـرايط» تحديـداً الـذي وصفـه بأنّـه «إحـدى إفـرازات سـلوى أو عفـواً أوسـلو». (ص27)

ومهمـا يكـن مـن أمـر، فـإنّ الروايـة تبقـى حاملـة رؤى الكاتـب الفنّيّـة ومواقفـه الحياتيّـة، محاولـة تقديم وجهـة نظـره تجاه هـذا العالم الـذي يعيش ضمـن ظروفه وقوانينـه، لكنّهـا وجهـة نظـر بـأدوات الفنّ وعناصـره، مـا يجعلهـا تنتـج بالضـرورة خطابـاً أيديولوجيّـاً في التأويـل الأخيـر للسـرد وعناصـره بشـكل عـامّ.

شعرية الحذف في سردية ثائر حنيني «تحيا حين تفنى»

يشير مفهوم «الشعرية» إلى الملامح الأدبية أو العناصر الفنية التي تجعل النصّ منتسبا إلى الأدب، ويحقق شروطه من إمتاع وفائدة. ولهذه الأدبية بشكل عام مظاهر متعددة في النص، ولكل نص شعريته التي ينطلق منها، إن وعى ذلك الأديب أم لم يعِ إنما سيكون النص محكوما بها، وهي التي تعطيه فنيته أو أدبيته أو شعريتَه الخاصة، بصرف النظر عن نوع النص أكان شعرا أم نثراً، وسواء أكان رواية أم قصة أو أي فنّ من فنون النثر المعروفة.

ورافقت فكرة الحذف الوجود الإنساني منذ بدايات الخلق، فقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الثنائية في قصة خلق آدم عليه السلام، إذ منعه من الأكل من الشجرة، ويكتسب هذا المنع أهمية خاصة بفعل الحذف والإلغاء الذي جاء في سياق النهي الصريح، «فكلا منها رغدا حيث شئتما، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين»، فكانت بداية المحنة البشرية منع آدم وحواء من أكل الشجرة، والمنع نوع من أنواع الحذف، لأنه استثناء مقتطع من سياق أكبر، فهو محميّ، ومحجوب، وقد ارتبط هذا المنع على الطرف المقابل بفعل الانتهاك، انتهاك الحظر المفروض بحجة الخلود، وهكذا تمّ؛ إذ يأكلان من الشجرة المحرّمة، فصار هذا الفعل مؤشرا على المقاومة من جهة، وبحثا عن الخلود من جهة أخرى، هذان الفعلان عينهما سنراهما في نص ثائر حنيني، عندما يفصح عنهما خلال البنية السردية وفي الإهداء، ففكرة الحذف نفسها تغري بالانتهاك والمقاومة، لأنه اجتراح غير طبيعي وجد في سياقٍ الأصل أنه هو القاعدة والحذف استثناء.

إذاً، والحالة هذه، فقد وجدتُ أن نصّ ثائر حنيني «تحيا حين تفني» مؤسس على فكرة الحذف، في استبعاد التجنيس، وفي العنوان، وفي الفكرة التي يقوم عليها، وفي بناء البنية السردية، وفيما يلي تفصيل لكل هذه الجوانب. على أنني هنا لا أتحدث عن ظاهرة الحذف النحوي؛ أي حذف أحد عناصر التركيب، تلك التي تحدث في الجملة الفعلية أو الاسمية وتعطيها معنى خاصا ناشئا عن هذا الحذف كما هو عند البلاغيين أيضا. إنما ما توخيته من الحذف في

هذا النص هو المرادف لمعنى الإلغاء أو الاستثناء أو الإزالة أو المنع، بما يرتبط بالمشهد العام للنص بشكل كلي، ويحكمه في قوانينه الداخلية الكبرى بعيدا عن وحداته النحوية من حذف فعل أو حرف جر أو صفة أو ما شابه، على الرغم من أنه أحيانا قد يكون المؤشر على ظاهرة الحذف الكلي بعض الدلائل اللغوية في الوحدات الصغرى، وعلى أية حال هذا ما لا أريده في هذه الكتابة.

من اللافت للنظر أن ما كتبه ثائر حنيني غير الخاضع للتجنيس المحدد؛ إذ يتخذ من مفهوم «النص» تجنيسه العام. فثمة شعرية تستند إلى الحذف بمعناه الكلي، أو الجزئي. وربما أشار ذلك إلى إعطاء العمل صورة عامة تحت هذا التوصيف؛ «نص»، أدخلته في احتمالية تجنيسية مفتوحة على أكثر من احتمال سردي، فيحسن أن يكون سردية قصيرة، أو قصة بملامح روائية، أو سيرة ذاتية، فحذف التجنيس، أو وصفه بهذا الوصف حرره من المحدودية في تصنيفه، هذه المحدودية التي قد تحصر أفق التلقي ضمن قواعد ذلك الجنس الأدبي المعيّن وشروطه، وعليه فالحذف هنا- حذف التجنيس- جعل النص مطلقاً، هذا الإطلاق المتفق-نوعا ما- مع شعرية الحذف، في فكرة العمل الكلية أو الحذف المتحقق في بنية النص، على ما سأبين في الفقرات اللاحقة.

تقوم فكرة نص ثائر حنيني «تحيا حين تفنا» على ثنائية الوجود والحذف/ الموت، فالموت شكل من أشكال الحذف، فمنذ العنوان والنص يؤسس لهذه الثنائية التي لم تغب عن الرواية في فكرتها الأصلية التي كتب من أجلها. هذا بالنسبة للنص في فكرتي الحياة والموت. وكذلك تتحلّ لتوجد في الكاتب والمكتوب عنه، الكاتب ثائر حنيني والمكتوب عنه فادي حنيني، عدا أن العلاقة بينهما علاقة قرابة مباشرة، ففادي عم ثائر، شهيد، وثائر ما زال حيا، بمعنى آخر أحدهما حُذف من مشهدية الحياة وحذفه غير كامل، لأنه شهيد، والآخر موجود مع أن وجوده أيضاً غير كامل، لأنه معتقل، فالثنائية في ظاهريتها ثنائية وجود وحذف، وتتقاطعان في مساحة ما من الحضور والغياب، هذه الثنائية التي يتجاوزها ثائر الكاتب بنوع من التحايل الأدبي ذي المسحة الشعرية، فيؤسس لها في العنوان بجملة «تحيا حين تفنى»، فالعنوان المحكوم بهذه الثنائية من الإيجاد والحذف، فيحاول منذ البداية مقاومة فعل الحذف/ الاستشهاد ليؤكد أن فادي الشهيد هو حيّ بمعنى أنه عصيّ على الحذف، وثائر المعتقل يؤكد حضوره بالكتابة واستعادة الماضي، وسيرة حياة عمه، فهو عصيّ على الحذف

أيضاً، فمن يكتب لا يموت.

وليس هذا وحسب، بل إن قطع إصبعين من أصابع فادي، وهو يعد المتفجرات وما يؤشر ذلك من حذف، ارتبط بفكرة الموت، فقدم فادي للموت إصبعين، رشوة ليكسب المزيد من الوقت من أجل أن يقاوم، فارتبط في هذا المشهد القطع/ الحذف بالموت وبالمقاومة أيضا في معنى ثلاثيّ الفكرة على هذا النحو: «تلك كانت فلسفة فادي الخاصة الذي يرى الأشياء دوماً من زاوية تختلف عما نراها نحن. هو الذي جرب الموت ومنحه رشوةً إصبعين ليبقيه حياً حتى يواصل حلمه وبجانبه هذا العدو الذي لم يبقِ له ولشعبه حيزاً للحياة العادية»، وقد حضرت هذه الحادثة في حوار أحد الجنود مع الأم في إحدى مرات المداهمة، فقال لها متشفيا: «لقد قطع فادي إصبعه... ولن يستطيع بعد الآن إطلاق النار علينا». في هذه المشهدين ثمة تصور واضح لفعل الموت والحياة واندماجهما معاً بفكرة المقاومة.

وتحيل هذه الفكرة ذاتها إلى أفعال المقاومة التي هي في الأساس فعل من أفعال مقاومة الإلغاء والحذف، فالاحتلال المتربص بالمقاومين، ويدخلون معه في صراع مادي غير متكافئ هم- أي المقاومون- يصرون على فكرة مقاومة الإلغاء والموت والحذف، يلخص هذا كله ما كتبه ثائر: «وقد يكون دافع القتال للنجاة بالنفس هو موت أكثر صخبا من الموت العادي، موتٌ يصنع الحياة، موت يؤكد رفض الذل والخضوع. موت يثمر وطناً حراً».

ترسخت هذه الفكرة في وعي المقاومين جميعا على مر التاريخ، وهي ما أشار إليه أحمد شوقي بوصف ثوار سوريا في قتالهم للمستعمرين الفرنسيين. وكل المستعمرين على أي حال لهم الأساليب نفسها والأهداف نفسها من المحو والإلغاء والحذف التي تستهدف البلد المحتل، أرضا وسكاناً، وفي الحالة الفلسطينية أكثر وضوحا، لاعتبارات الاختلاف بين الاستعمارين. يقول أحمد شوقي:

دم الثوار تعرفه فرنسا
جرى في أرضها فيها حياة
بلاد مات فتيتها لتحيا
وتعلم أنه نور وحقٌّ

كمنهلّ السماء وفيه رزقُ
وزالوا دون قومهمُ ليبقوا
إنّ صدى هذه الأبيات يتردد بقوة
في ثنايا نص «تحيا حين تفني»،
بل بينهما اتفاق كبير في الفكرة
ذاتها، منذ العنوان وحتى آخر
البنية النصية التي انتهت على
هذه الشاكلة: «هكذا فقط يغدو
الموت- الفقدُ- وسيلة للحياة؛
ففادي وهو يرقد مطمئناً في
قبره. استطاع أن يقلق نوم هؤلاء
القوم الطارئين الذين غزوا

ربما اتسع مفهوم الحذف والإيجاد إلى أكثر من هذا، ليشمل المعنى الوجودي الكامل، وبغضّ النظر عن فكرة حياة الشهيد الدينية التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون»، فالعنوان لغويا وفكريا يشبه الآية كثيرا في توظيفه هذه الثنائية التي لها جانبان، ظاهري معلن معروف ومشاهد وهو موت الشهيد وحذفه من مشهدية الحياة، وحياة أخرى متخيلة أو متصورة في النص الديني وفي النص الأدبي، لا تعترف بالحذف من الوجود، وتصر على أن تعطيه معنى الوجود والحياة مرة أخرى، لكنها هذه المرة متواصلة لا تنقطع، ولا يجري عليها الموت مرة أخرى فقد أصبحت حياتها أبدية على مستوى النص الديني والنص الأدبي. مع ضرورة التسليم بأن هذه الحياة المتخيلة، هي حياة ذهنية لا دخل للواقع المعيش فيها، لا على المستوى الديني، ولا على المستوى الأدبي، ولا في حياة الثوار مهما كانت أيديولوجياتهم وعقيدتهم؛ بمعنى أنه لا أثر لها على أرض الواقع.

وربما وجد القارئ ملامح للثقافة المسيحية في هذا العنوان «تحيا حين تفنى»، فالسيد المسيح «الشهيد» حسب الرواية المسيحية، قدم جسده ليكون مخلّصا وفادياً لأتباعه، والفادي هو لقب السيد المسيح أيضا، والتقى الوصف والاسم

في شخص الشهيد فادي، فاكتسب رمزيته الدينية، وارتفعت شعرية النص بهذا المخزون المعرفي، لاسيما وأن المسيح عليه السلام، هو أصلا ابن فلسطين.

في كامل النص الذي كتبه ثائر ثمة مقاومة عنيفة لفعل الحذف الوجودي لحياة فادي، فأمه، جدة ثائر لا تريد أن تصدق أن فادي لم يعد موجودا، وسلوى كذلك لا تريد أن تقتنع أنه قد رحل، بل هو باق بقاء الحياة والذكريات، وثائر نفسه يكتب نصه تحت هذا العنوان ليقاوم فكرة الرحيل أو الحذف.

هذا التردد بين الموت بوصفه فعلا من أفعال الحذف القاسية وبين الحياة، وقع في شيء منه الكاتب نفسه فيما كتبه من إهداء، والإهداء عتبة ضرورية جدا لفهم النص. يبدأ الكاتب إهداءه بهذه الجملة: «لِروحكَ السرمدية والخلود»، وينهيه بقوله: «ولروحِ أمي وجدتي اللتين انتظرتاني ولم أعد». من اللافت للنظر أن الكاتب تجنَّب ذكر الموت وأصر على حذف هذا المعنى، وبالمقابل أكد فعل الخلود والسرمدية للروح، إنه يلتقي مع فحوى النص الديني وفكرته التي تقاوم الموت باللغة، «لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً»، هذه المقاومة اللغوية تصبح أضعف قليلا، أو ربما هي أكثر إنسانية بعيدة عن الإنشائية اللغوية، في خاتمة الإهداء فالأم والجدة أضعف من تصديق هذه الإنشائية والشعرية المتخيلة للشهيد، لذلك ثمة حزن عميق في قوله «انتظرتاني ولم أعد». هل تعبير «لم أعد» مساوٍ للموت؟ ربما الإجابة نعم، وربما لا، بناء على فهم النص القرآني. فهل من قُتل في سبيل الله حيّ بالمفهوم الأرضي أيضا بغض النظر عن المفهوم السماوي الذهني العقدي المتخيل؟

هذه الفكرة بما فيها من شعرية عالية، سواء أكانت مؤسسة على النص الديني أم لا، تأكدت في طريقة بناء النص بشكل كليّ، إذ إن النص مبني على تحقيق مخطوط يعود إليه الكاتب بعد ثماني عشرة سنة، وهذه الإشارة مهمة، فالمخطوط المهمل هذه المدة في منطقة نائية يعود إلى الحياة مرة أخرى، بمعنى أن الكاتب عمل على مقاومة أفعال الحذف المتتابعة التي أصابت المخطوط، وهذه الأعمال كانت متجسدة في عدة مظاهر، أو في النسيان والتغافل أو إهمال المخطوط هذه المدة، وهي المدة التي تشير إلى استشهاد فادي.

وهنا يتعزز فعل الحذف الكلي الوجودي، ففادي الشهيد، منذ ثماني عشرة سنة يعود بفعل مخطوط محذوف من مشهد الحياة ثماني عشرة سنة أيضا، يعودان

معا إلى الحياة بالقراءة وإعادة الكتابة. ومن ثم النشر وقراءته في كتاب ليعود إلى الحياة مجسدا بنص يمتلك أدواته الأدبية، محققا شعريته الخاصة التي تدفع القارئ إلى التعاطف أو القراءة بشغف على الأقل، ما ينجم عنه تقدير لبطولات فادي وتضحياته، وهنا أيضا ثمة حياة أخرى متخيلة في أذهان القراء يرسمونها لفادي، مبنية على تصور الكتابة ذاتها، فصورة فادي المصنوعة في الكتابة هي نوع من مقاومة الحذف والاستشهاد بهذه الكيفية التي يراد لها أن تعود، صورة بطل مضحٍّ، ومقاوم عنيد، مقاتل لا ينحني، صورة مثالية ممتلئة بالبطولة وأفعال عصية على الحذف من مشهدية الحياة في واقع كل فلسطيني.

لم يكن المخطوط/ الدفتر سليما تماما بل دخلته عمليات تآكل في حوافه وبعض صفحاته، أي أن ثمة حذفا قد أصاب بنيته المادية، لكن هذا الحذف بفعل الطبيعة من مطر أو تبدل الفصول والحرارة والزمن لم تجعله محذوفا ملغيا بالكامل، بل ما زال قادرا على الاحتفاظ بقصة الشهيد فادي، أي أنه ما زال قادرا على مقاومة الحذف والإلغاء، وإن لم يكن بشكل كامل كما يرجو ثائر، إلا أن ما أصابه من عطب لم يودي بفكرة حياته، كما أن غياب فادي لم يكن كليا كما أن حضوره وحياته لم تكن كلية، وإنما تستند على نوع معين من التخييل والشعرية، هذان الأمران اللذان يحكمان النص بكامله.

هذه الثنائية التي تجسدت بالفكرة الكلية للعمل، وبالكاتب والمكتوب عنه، وفي العنوان تعود لتتجسد مرة أخرى في طريقة الكتابة، أو على نحو أدق بإعادة الكتابة التي كانت محكومة بالحذف أيضا؛ فثمة مواقع كثيرة أصابها الحذف في بنية النص، وترك الكاتب دليلا على حذفها، وكأن هذا النص على هذه الهيأة من الكتابة أيضا، يؤكد الغياب الناقص لفادي أو الحياة غير الكاملة له، فثمة ما هو ناقص على الجانبين، فما في لا وعي الكاتب يظهر في بنية النص، فالكاتب والكتابة يقاومان فعل الحذف ويعوضانه بهذه الحياة الأخرى، حياة الكتابة وحياة الاستحضار وحياة الأفكار التي لا تموت وحياة نهج المقاومة الذي لا يتوقف.

لقد حفلت البنية النصية باثنين وثلاثين موقع حذف، بما فيها الإشارة إلى الصفحة الأخيرة التي أصابها العطب كثيراً، فأسماها الورقة التالفة، وهذا العدد ليس له أي قيمة أدبية خاصة ليتم تفسيره بناء عليها، أو أي إشارة تحمل

معنى شعرية ما، إنما هو ينم عن صدق واقعي في تعامل ثائر مع النص ونقله بأمانة دون أن يكون في اعتباره أي نوع من الفلسفة النصية لأفعال هذا الحذف.

هذه أبرز المظاهر الكلية لفكرة الحذف التي استندت عليها البنية النصية المسماة «تحيا حين تفنا»، وهذه الفكرة بما استندت عليه من فكرة دينية أو بناء نصّي أو فعلٍ ثوريّ تنتج شعريتها الخاصة التي شكلت هذا النص، وهو نص له قيمته التاريخية على المستوى الشخصي للكاتب والمكتوب عنه، ويشكل وثيقة نضالية ساطعة في حياة التنظيم السياسي الذي إليه ينتميان، ما يعزز من وجود هذا التنظيم في مشهد الكتابة، كما هو معزز في حياة مقاوميه، شهداء أو أسرى أو عاملين خارج السجون يتابعون المسيرة، ليجعلوا عمليات الإلغاء الاحتلالي عمليات لا فائدة منها وهم يقاومون الموت، وإن كانت هذه المقامة بالكتابة التي جعلت الأسير الكاتب ثائر حنيني حاضرا في المشهد؛ مقاوما اعتقاله المرّ، كأن هذا الاعتقال أيضا معنى آخر من معاني الحذف والإلغاء، ينجح الأسرى الكتاب بمقاومته بشعرية بالغة تجلت في هذا النص وفي نصوص أخرى كثيرة للأسرى الكتاب.

السرد المقنّع بالرسالة لبناء سيرة ذاتيّة

لم يدخل السجن كاتب أو مثقف إلّا وكتب رسائلَ إلى محبّيه ومريديه أو ممّن له علاقة معهم، لذلك من الطبيعي أن تظلّ الرسائل- على اختلاف أنواعها- حاضرة في حركة التأليف الإبداعي الإنساني. وقد شهد تاريخ الأدب كثيراً ممن كتبوا رسائل داخل السجن، فعلى سبيل المثال لا الحصر أذكر قصائد أبي فراس- وهو أسير- لأمّه ولابن عمّه سيف الدولة الحمداني، وكتاب «ابن تيمية»- رحمه الله- «رسائل من السجن»، ويتألف الكتاب من (10) رسائل، سبع رسائل منها كُتبت داخل السجن، ورسائل أنطونيو غرامشي إلى أمّه، وصولا إلى رسائل الأدباء الفلسطينيين الذين كان للرسائل حضور لافت في كتابتهم داخل السجن وخارجه؛ كمحمود درويش، وعزّت الغزاوي، وسميح القاسم، وكميل أبو حنيش وباسم خندقجي وحسام زهدي شاهين. وأيضاً على سبيل التمثيل لا الحصر والاستقصاء.

ولعلّ المتأمّل لعمل الكاتب الأسير حسام شاهين «رسائل إلى قمر» يُصاب بالحيرة تجاه تجنيسه الأدبي، ولعلّه تعمّد أن يربك النقّاد والقرّاء إلى حدّ كبير، ليوقعهم في مغبّة عدم التفكير بما هو خارج «فنّ الرسائل»، وقد مارس هذه العمليّة التضليليّة عبر كثير من الإرباكات، وكان من أهمّها وأوّلها العنوان «رسائل إلى قمر»، إذ يفترض العنوان طرفين؛ مرسل ومرسل إليه، ومجموعة نصوص مكتوبة بتقنيات كتابة الرسالة، علماً أنّ الكاتب خالف معهود الكتّاب في كتابة الرسائل، بدءاً من عنونة النصوص، فلم يكن الكتّاب يُعَنْوِنون رسائلهم الشخصيّة إلى ذويهم وأصدقائهم أو إلى محبوباتهم، بل كانت تبدأ بالتحيّة وذكر المرسل إليه وبصفته المحبّبة إليه، حبيبتي أو أخي أو بنيّ أو زوجتي أو عزيزتي أو ما شابه، وتنتهي بالتوقيع والمكان وتاريخ كتابة الرسالة الذي هو غالباً تاريخ الإرسال.

إنّ هذه العنونة تشير إلى قصديّة الكاتب في أن يكتب كتاباً موظِّفاً الرسالة في بنائه، وهذا ما حدث بالفعل، فقد خلت تلك الرسائل المعنونة من تاريخ كتابة الرسالة ومكانها، على الرغم من أنّ الكاتب وضع في نهاية الكتاب إشارة بيّن

فيها التاريخين اللذين يقع بينهما أوّل نصّ وآخر نصّ، وكذلك أماكن كتابة تلك الرسائل (أسماء معتقلات)، هذه الطريقة في التوضيح هي المستخدمة عند الكتّاب في توضيح بعض المسائل المتعلقة بظروف كتابة نصوصهم السرديّة، أضف إلى أنّ الكاتب في هذه الإشارة لم يسمّها رسائل، بل نصوصاً.

عدا ذلك، فإنّ العنوان الفرعي للكتاب «شظايا سيرة» جاء يربك المتلقّي مرّة أخرى، قبل الدخول إلى الكتاب، وعلى ذلك؛ فإنّ هذه النصوص بمجموعها تحاول أن تبني صورة للكاتب أراد أن يعرّف بها القرّاء، واتّخذ من «قمر» حُجّة لهذا الغرض، فلم تحضر قمر في صلب هذه النصوص ليكون الشكل الفنّيّ للنصّ هو رسالة إلّا في القليل من النصوص، بل شكّلت بمجموعها سرداً ذاتيّاً، يرسم من خلاله حسام شاهين صورة له، مؤكّداً تلك المقولة التي تقال دائماً عن كتّاب السيرة، وهي إشباع نزعة ذاتيّة نرجسيّة، تساعده في حالته كأسير على أن يكون حاضراً بالكتابة، لأهداف خاصّة سأذكرها لاحقاً.

ولأهمّيّة هذه الأهداف، فقد تناول الكاتب في بداية الكتاب أهمّيّة الكتابة بشكل عامّ للأسير، وأهمّيّة كتابة الرسالة أيضاً، ومَنْ كتبها، متتبّعاً ذلك عند كتّاب آخرين حشدهم في النصّ الأوّل من ثقافات متعدّدة عربيّة وفلسطينيّة وعالميّة، قديمة وحديثة. هذا يؤكّد للباحث مرّة أخرى أنّه يتقصّد إنشاء عمل سردي متّكئاً على فنّ الرسالة، لكنّه لم يشأ أن يكتب رسائل بمفهومها التقليدي المتعارف عليه.

يحيلني هذا العمل إلى ما قامت به الكاتبة حميدة نعنع التي كتبت روايتها «الوطن في العينين»، واختارت لها قالب الرسالة، مع اختلاف بين الأسلوبين، فقد استهلكت الرسالة الرواية بكاملها إلّا قليلاً. أمّا حسام فإنّه بنى معماره الفنّي السردي على مجموعة نصوص، لم تأخذ من الرسالة إلّا عبارتها الأولى «حبيبتي قمر» التي التزم بها في كلّ الكتاب عدا مرّتين أو ثلاث عندما قال: «حبيبتي الصغيرة». لذلك جنحت هذه الرسائل إلى فنّ المقالة كثيراً، واتكأت على السرد والحوار، والحديث عن الآخرين. فهل أراد الكاتب أن يطوّر من أسلوب كتابة الرسالة؟ وأين العنوان من الكتاب؟ وما هي ملامح شخصيّة الكاتب التي يستطيع القارئ أو قمر تركيبها من هذه الفسيفساء السرديّة؟

هذا الشكل من السرد لا يعطي هذه النصوص أهمّيّة تذكر من أجل أن يقول

الدارس أنّ الكاتب أراد أن يطوّر أسلوب الرسائل، على الرغم من أنّ الرسالة ليست ذات معنى واحد، وقد وردت في المعاجم العربيّة لعدّة معانٍ، بعضها حاضر في الكتاب ضمناً وصراحة، فمنها «المكتوب» المعروف التقليدي الذي هو الرسالة بمفهومها البسيط؛ ما يرسله شخص لآخر في موضوع شخصيّ بينهما، وهو ما يُعرف تقليديّاً في الدراسات الأدبيّة بـ «الرسائل الشخصيّة» أو «الإخوانيّة»، يشتمّ القارئ شيئاً من ذلك لاسيّما أنّ المرسل إليه شخص معروف ومحدّد سلفاً، ويؤكّد الكاتب حضوره في بداية كلّ نصّ، وإن كان هذا الحضور ناقصاً وشكليّاً.

ثمّ تحضر الرسالة بمفهوم «الرسالة الأدبيّة» كتلك التي كتبها أبو العلاء المعري والجاحظ وبعض كتاب الأندلس وبعض الفلاسفة، وهي الكتاب الموجّه لشخص ما، وعادة ما يكون أميراً أو حاكماً أو صديقاً أو عالماً، أو ألّف من أجل الإجابة على سؤال ما، أو بحث لقضيّة فلسفيّة أو فقهيّة معيّنة، ويعرّف المعجم هذا النوع من الرسائل بقوله: «كتاب يشتمل على قليل من المسائل، تكون في موضوع واحد»، ويستطيع الدارس أن يقول إنّ الكتاب بمجموعه هو «رسالة أدبيّة» ألّفها الكاتب لتكون لقمر ولأبناء جيلها ليتعرّفوا على تجربة الكاتب وتجارب من معه، ليستفيدوا منها. وهذا ما أكّده أيضاً ذلك المقطع المؤطّر على شكل رسالة تقليديّة ومثبت على غلاف الكتاب.

لهذه الأدبيّة في الرسائل ما يؤكدها، في هذا الاهتمام بفنّيّتها السرديّة والتعبيريّة واللغويّة، والمحافظة على خط سير سرديٍّ خاصّ بكلّ نصّ. إنّ عمليّة فنّيّة كبيرة جعلت من هذه النصوص بمجموعها «رسالة أدبيّة»، فيها من البوح والهمّ الذاتي المتّصل بالهم الجماعي الشيء الكثير، وبما ناقشته من أفكار ذهنية مجرّدة.

هذان الاحتمالان موجودان بوضوح في كتاب «رسائل إلى قمر»، وأما الاحتمال الثالث فقد جاءت الرسالة في الكتاب خلال السرد بمعنى الهدف أو المغزى أو الدروس المستفادة من تلك التجارب التي بثّها الكاتب في كتابه، ليصبح معنى «رسائل إلى قمر» مجموع ما يريد أن يوصله الكاتب من خبرة إلى القرّاء، وقمر من بينهم، وليس لها وحدها، وهذا «ممّا يتوخَّاه من وجوه الإِصَلاح» على حدّ وصف المعجم الوسيط، وهذه الخبرة المشحونة بالنصائح والتوجيهات الأدبيّة والعلميّة والتربويّة والنضاليّة.

ومن أجل ترسيخ هذا المعنى حرص الكاتب أن يرسم له صورة قريبة من المثاليّة،

وهذا بطبيعة الحال- كما أسلفت- متّفق مع الهدف والغاية من السيرة الذاتيّة، فقد بدا حسام في هذا الكتاب مناضلاً وقويّاً، وشخصيّة نضاليّة منذ صباه، من عائلة مناضلة عريقة، لها تضحياتها في سبيل الوطن.

ثمّ هو شخصيّة قياديّة، له حضوره في صفوف حركة فتح، وله علاقات عربيّة ودوليّة وأصدقاء من بلدان متعدّدة، كما أنّه بدا شخصاً حكيماً عارفاً مثقّفاً مجرّباً لا يهزم، يمارس حكمته من أجل أن يكون معلماً لقمر ولجيلها، بمعنى أنّه يعتقد أنّه ذو شخصيّة ملهمة، على الآخرين أن يستضيئوا بنور تجاربه وبصيرته، لذلك تراه يكثر من أفعال الأمر والنهي في توجيه قمر والقارئ لتكون مثل هؤلاء النماذج التي عرّفها بقصصهنّ وبقصصهم، ولتستفيد من تجاربه شخصياً، ولعلّ فارق العمر بينه وبين قمر جعله يشعر أنّه بمقام المعلم والأب، لاسيّما أنّه كان يخاطبها أحياناً «يا ابنتي».

عدا ذلك كلّه، بدا حسام شخصيّة ذات ملامح مثاليّة جدّاً، فاختياره القصدي لمجموعة السرود التي تضيء على حياته بطريقة «الشظايا» تجعل من هذه النصوص عند تركيبها تخرج بهذه الصورة المتخيّلة لهذه الشخصيّة العميقة المتبصّرة الواعية التي كانت صمّام أمان داخل المعتقل وخارجه. بل يتجاوز السرد هذه الصورة إلى صورة ذلك الرجل «القدّيس» الذي نجا بأعجوبة من محاولة المرأة الإيطاليّة اغتصابه، فتحوّل إلى «يوسف» جديد، فصار «نبيّ الثورة المعصوم»، كما أنّه مسيطر على شهواته وغرائزه، ولم يكن ليسمح أن يمرّ بخاطره أن يتجاوز حدوده مع صديقته كاترينا، على الرغم من تلميحها بذلك، فنام عندها في منزلها، ولم يحدث بينهما ما يكسر طوباويّة علاقة الصداقة، فالصداقة كما قال: «كانت أقوى منّا جميعاً».

في هذه النصوص ثمّة تقمّص لشخصيّة النبيّ صاحب الرسالة، وهذا المفهوم للرسالة حاضر أيضاً وإن بشكل أقلّ، فإنْ قال محمود درويش يوماً: «من أنا لأقول لكم ما أقول لكم»، فإن حسام في هذه الرسائل يؤكّد مقولة السيد المسيح الواردة في إنجيل متّى: «أَمّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ»، ولسان حال الكاتب يقول بناء على هذا: أنا من أنا، ولذا سأقول لك يا قمر، وسأقول لكم أيّها القرّاء، ويا أبناء هذا الجيل ما سأقوله لكم في هذه النصوص. لذلك تبدو في هذه الرسائل اللغة الواثقة اليقينيّة القاطعة، فكأنّ حسام شاهين رسول العناية

الإلهيّة، حامل لرسالة أخلاقيّة ووطنيّة يتقدّم بتعاليمها لقمر ولغيرها من القرّاء.

هذه الشخصيّة، بهذا اليقين، جعلت الكاتب أيضاً وفيّاً لأصدقائه، وقد عبّر عن هذا الوفاء في حشد قصص صديقاته وأصدقائه ومعارفه، فعدا كاترينا كان هناك أيضاً آينكن هاتليد صديقته اليساريّة التي كانت أصابعها تلامس روحه عندما لامسته، فهي المرأة الوحيدة التي لمسها منذ اثنتي عشرة سنة، لذلك كان لها كلّ هذا الأثر العميق في روحه، كما صوّر في مشهد لقائه معها خلال زيارتها له في المعتقل.

ومن الجوانب المهمّة في شخصيّة حسام وأكّدها مراراً نسويّته التي يدافع فيها عن النساء وحقوقهنّ، ومواجهة ما سمّاه «الذكوريّة» في المجتمع الفلسطيني، وخاصّة عندما تناول السرد الحديث عن شخصيّة الدكتورة ليلى غنّام، فهي امرأة بألف رجل، وتعمل على تحطيم منظومة القيم والعادات والتقاليد المعيقة للتقدّم والنهضة. إضافة إلى هذه الأفكار النسويّة التي تدافع عن حقوق المرأة خارج الحقوق التقليديّة، حشد الكاتب في كتابه نماذج نسائيّة متعدّدة، عربيّة وأجنبيّة، وبين معاناتهنّ جميعاً، وكيف استطعن أن يتحدين الظروف الصعبة القاهرة من أجل تحقيق الذات أوّلاً ثمّ للمشاركة في الحياة العلميّة والسياسيّة والاجتماعيّة الفلسطينيّة.

إضافة لهذين الأمرين فإنّ الإهداء الذي يستهلّ الكاتب فيه كتابه كان لثلاث نساء: أمّه، وقمر عماد الزهيري (المرسل إليه المفترض)، وأخته نسيم. وفي هذا الإهداء يحدث الإرباك مرّة أخرى، فكيف يهدي الكتاب لقمر الزهيري وهو رسائل موجّهة لها؟ وهذا ما حدا بي أن أغلّب أنّ قمر لم تكن سوى «حجّة» سرديّة ومرسل إليه افتراضي، إذ لا يحتاج المرسل أن يهدي المرسل إليه الكتاب مرّة أخرى. على الأقلّ أنا أعتقد ذلك. ومن باب آخر يؤكّد الإهداء أنّ هذه النصوص أيضاً رسائل أدبيّة ذات أهداف نضاليّة، كما أسلفت. فلو صحّ أن يهدي كتابه ثانية إلى «قمر»، فكيف يشرك معها غيرها في الإهداء، وعليه فإن الإهداء يكشف مرة أخرى عن ذهنية الكاتب البعيدة عن إنشاء رسائل كلاسيكية وحقيقية لشخص محدد.

لقد أتاح هذا الأسلوب المراوغ بين السرد والكتابة عن الذات أن يتحدّث

الكاتب عن كثير من الموضوعات، ويناقشها بطريقته الخاصّة، و«أطلقه من غير تقييد»، وإن غلب عليه في نصوص كثيرة البوح، والحديث عن الكتابة ذاتها، وأهمّيّة الكتابة من ناحيتين؛ الكتابة بشكل عامّ، فهو كما قال: «في الكتابة أحاول أن أستخدم كلّ ما اكتسبه من مهارة في هذا المجال، (مجال الكتابة)، بحكم التجربة لا بحكم التخصّص»، وهو يكتب أحياناً من أجل أن يتجاوز فخّ الروتين ليقتل الفراغ. وكذلك الكتابة إلى قمر بشكل خاصّ التي يلخّصها بقوله: «لذلك يا حبيبتي أواصل الكتابة إليك، لعلّها تنير شمعة صغيرة على طريق مستقبلك». وأمّا على صعيد شخصي بما يرتبط بالكاتب نفسه، فقد برّر الكتابة إلى قمر بقوله: «عندما تقرئين نصّاً ممّا أكتب، فأنت تقرئين جزءاً منّي، الجزء الذي أحاول أن أكون أو لا أكون، علماً أنّني لست أنا عندما أزاول الكتابة، لكنّني أكتب حتّى أكون أنا». فكأنّه يريد أن يقول أنا أكتب إذاً أنا موجود. وهذا بالمجمل ما تؤكّده كتابات الأسرى، ولعلّي لا أكون مبالغاً عندما أقرّر أنّ هذا هو الدافع الحقيقي لأيّ كاتب من أجل أن يكتب- وليس الكاتب الأسير فقط- ليحقّق وجوده من خلال الكتابة.

على أيّ حال، فإنّ الكاتب حسام زهدي شاهين في كتابه هذا اقترح طريقة جماليّة غير تقليديّة لكتابة سيرة ذاتيّة لمرحلة طويلة من حياته، سيرة تمحورت حول السجن والنضالات والإنجازات والشخوص الذين كانت تربطه علاقة بهم. لقد كان لافتاً للانتباه أنّ كلّ هؤلاء الأشخاص إيجابيّون مناضلون في الأعمّ الأغلب، وربّما يتّفق هذا مع أهمّ رسالة من رسائل الكتاب المخفيّة، وهي تنمية الحسّ النضالي الاجتماعي لدى قمر وأبناء جيلها، ولا يريد أن يشوّش العقول بنماذج سلبيّة، بل إنّه أكّد البعد التربوي بتكريس الشخصيّات التي تصلح لأن تكون قدوة في مجالها. ومن هنا يكتسب الكتاب بعداً تربويّاً تعليميّاً مُهمّاً رغماً عن تلك النرجسيّة التي لم يستطع الكاتب التخلّص منها، أسوة بكلّ كتّاب السيرة الذاتيّة، لاسيّما الكتّاب العرب. والمناضلون منهم على وجه الخصوص. وقد كرّس هذا البعد؛ البعد التربوي التعليمي، أيضاً بلغة مفهومة وسلسة، وذات توتّر عاطفي في بعض نصوصها، محمّلة بشحنات عاطفيّة، ربّما تكون مؤثّرة في نفوس بعض القرّاء، عدا ما اختزن الكتاب من قيم عليا وطنيّة وإنسانيّة.

حمزة يونس بين بطولتين

في كتاب الأسير حمزة يونس «الهروب من سجن الرملة» ثمة دروس يمكن استخلاصها، أشار إلى بعضها الكاتب، والآخر يستنتجه القارئ، دروس نافعة لتعاد وتستعاد في حياة الشعب الفلسطيني الذي وضعه القدر في مواجهة عدو إحلالي، شرس، يريد أن يلغي وجوده، ولا يعترف به إلا كونه مجموعة من السكان، يحولهم إلى عبيد وخدم.

يعود الكاتب بالقراء إلى أوائل الستينيات، وكيف يعيش الفلسطيني تحت الاحتلال بعد عام 1948، لا أفضل أن أصف تلك المعاملة بناء على التوصيف العنصري، إذ إن المحتلين الذين طردوا الفلسطينيين وأقاموا في بيوتهم، لا يحق لهم أن يكونوا «دولة» على أنقاضنا، فيصنفوا الخاضعين إلى هذه الدولة إلى مواطنين بدرجات مختلفة، إذ إنهم- المستعمرون القتلة- إلى الآن ليس لهم صفة «الدولة»، وبالتالي فهم لا شرعيون، لا يوصفون بغير المحتلين الهمجيين والقتلة والسارقين، والطارئين، والعابرين، وإعطاء «كيانهم» صفة العنصرية، اعتراف مبطن بأحقية أن نكون نحن الأصليين أقلية، ومواطنين من الدرجة الثانية، وكأن المشكلة كامنة في هذه المعاملة العنصرية، فإن زالت تلك المظاهر رضينا وقبلنا. إن في الأمر خديعة كبيرة.

من وجهة نظري، إن هذا هاجس له الكثير من المحاذير ألاحظه في كتب أدبائنا في فلسطين المحتلة عام 1948، وصارت تتسلل إلى كتّاب الاحتلال الثاني ولغة السياسيين الفلسطينيين، ويجري التعامل بها في مخاطبة العالم، وكأن شيئا يدفعها للتبلور وصولا إلى رؤيا حل الدولة الواحدة. بهذه الصورة وبهذه الكيفية يسيطر التفسير العنصري على ما كتب في كتاب «الهروب من سجن الرملة»، خاصة في قسمه الأول في حديث عن الوطن والعيش فيه، ويبدو احتجاج حمزة يونس عليه واضحا في ما كتبه عن ذلك.

حمزة يونس من الفلسطينيين الذين بقوا في فلسطين، بقي في بلده عارة، ولم يغادرها على إثر النكبة عام 1948، وعاش وهو طفل إجراءات الاحتلال التعسفية ضد السكان الفلسطينيين، وسلبية الناس والمختار في الدفاع عن

أنفسهم، تلك الحالة دفعته إلى أن يفكر بالدفاع عن نفسه، يقول: «فرض علي هذا الواقع أن أتعلم الملاكمة لأدافع عن نفسي»، ويصبح بطلا للوزن الخفيف الوسط على مستوى الكيان ويمثله في المحافل الدولية. عاش حمزة يونس دور البطولة الرياضية التي كانت نابعة من إحساس الدفاع عن الكرامة الشخصية، وذاق طعم نشوة الاهتمام الصحفي والشهرة، ووظف تلك البطولة في مواقف كثيرة، وكانت خطته على المستوى الفردي ناجحة تماماً في المواقف التي رواها. لقد فرض نوعا خاصا فريدا من أخلاقيات الرياضة ليكسب احترام ذاته، ويكون جديرا بالحياة.

يسرد حمزة في الكتاب تعامل «اليهود» معه، وما لاقاه من احتقار ومؤامرات، خلال مسيرته الرياضية والعملية، ونضاله من أجل أن يثبت حقه في التمثيل الدولي وفي العمل منقذا على الشواطئ. كان لهاتيك المعاملة أثرها الإيجابي في وعي حمزة الشاب الذي كان دائما يرفض الانصياع والذل والرضوخ، ويرفض فكرة الاعتقال، بل يصر دائما على التحرر، وعلى التحدي.

فكرتا التحدي والتحرر هما عصب كتاب «الهروب من سجن الرملة»، ما دفعه إلى الهروب الأول خوفه من الاعتقال، فتسلل إلى غزة، وهروبه الثاني من المستشفى في غزة، وذهابه إلى لبنان والتحاقه بحركة فتح، كان دافعه التمرد وعدم الخضوع والاستسلام للقدر، ناضل وبكل قواه ليكون حرّا فكان، وكذلك الحال هروبه الثالث من سجن الرملة.

لقد حقق حمزة يونس بطولته الثانية السياسية النضالية المبنية على البطولة الفردية، لقد علمته الملاكمة كيف يكون حراً، وكيف يكون مناضلاً، وعنيداً، وذكياً. يروي في الكتاب جانبا من عملياته التي اشترك في تنفيذها مع الثورة الفلسطينية التي كانت تتسم كما يقول بالغرابة والطرافة وقلة التكاليف. إنها بالفعل طرق مدهشة ولا تخطر على بال؛ كقصة أحشاء الخروف، كأنه يفتح آفاقاً للنضال ضمن ما هو متاح وبسيط، وعليه فالكل يستطيع أن يقاوم، بل يجب أن يقاوم، وألّا يستسلم، مهما كانت الظروف المحيطة ميئّسة ومحبطة وغير موضوعية، عليك أن تبذل جهدك، والتفتيش عن نقطة ضعف لدى عدوك.

إن في بذل استطاعتك مفاجأة لعدوك، وأن تقوم بالفعل وأنت متيقن من

نجاحه، لا لمجرد أن تقوم به، لقد نجحت هروباته المتعددة لأنه يثق بنفسه، ويقول إنني أستطيع، وقادر. لكنه مع ذلك غير متهور، بل يدرس ما حوله من ظروف وإمكانيات، ويوظفه ليكون في مصلحة خططه ويستغرق في التفكير العميق دارسا ومقلبا الأمور من عدة جوانب، كما حدث معه وهو يخطط للهروب الثالث من سجن الرملة. إنه ماهر في التخطيط، وجريء عند التنفيذ. إذاً، نحن أمام شخصية بارعة تتميز بصفات نفسية أهلت صاحبها ليكون أولا بطلا رياضيا ثم بطلا ثوريا يقود عمليات ناجحة، ينطبق عليه قول الشاعر: «وفاز باللذة الجسورُ». وأي لذة تعادل لذة الانتصار على عدوك وهو يفوقك قوة وعدة وعتاداً؟ إن هذا الكتاب درس عملي حقيقي في تجاوز ضعف الذات وتحويل ضعفها إلى نقاط قوة.

استطاع حمزة يونس عام 1999 أن يقصّ حكايته بعد أكثر من خمس وعشرين سنة من حدوث الهروب الأخير (1974)، بحكاية متماسكة ذات هدف واضح، إذ لم تكن هذه الحكاية لمجرد أن يقص بطولة فردية، ليتباهى بها، مشبعا غروره الذاتي، وإنما من أجل أن يؤكد حقيقة مهمة؛ وهي قدرة الفلسطيني على النضال حتى في أسوأ الظروف، ويبتكر الفلسطيني من لحظته خططه وتظهر عبقريته، هذه العبقرية التي تجلت عند حمزة يونس بهذه الطريقة، وتجلت عند غيره من الأسرى وغير الأسرى بأدوات ووسائل بسيطة، وصلت إلى حد «الجكر على الطريقة الفلسطينية» والإقامة في المكان، والمواجهة بضحكة ساخرة. لقد صار الفلسطينيّ مفاجئاً محتليه كل يوم بأساليب تربكه، وتجعله هزؤة أمام العالم.

لا أبالغ إن قلت إنها بداية الطريق في الخلاص والتحرر، إذ لم يعد هذا المحتلّ غولا يزرع في النفوس الخوف. فإن كان حمزة يونس قد حطم أسطورة الأمن «الإسرائيلي» بهروباته المتكررة، فالفلسطيني أصبح اليوم لا يقيم وزنا لهذا المحتل، فكل جبروته لا شيء، هذا ما تقوله سيرة حمزة يونس وحكايته، ويؤكدها الواقع المعيش. وهذا درس آخر يمكن للقارئ أن يستوحيه من هذه السيرة النضالية المصوغة ببساطة مدهشة.

عدا هذا وذاك؛ فإن في الكتاب أمرين مهمين، وإن بدوا أنهما هامشيين إلا أنهما مرضان حقيقيان، مرض ثوري أشار إليه حمزة يونس في الفصل الخاص

المعنون بـ «خارج القوس- الهروب الرابع إلى أين»، هذا المرض نابع من داخل الثورة نفسها، حيث تحوّل الثورة واستحالتها إلى رُتَب ومناصب ورواتب، وترقية للفاسدين وإهمال الوطنيين المقاومين، إذ «تمت ترقية الديب من سائق إلى سفير، وبموجبه (قانون المنطق الرباعي) أيضا جرى تعيين ولديه بمرتب وسيارة وسكن، فصار المستجدّ في العمل أعلى مرتّباً ممن قضى شبابه وبلغ سن الكهولة في صف المقاومة».

إضافة إلى هذا المقتل الذي أصاب الثورة في الصميم، يومئ حمزة يونس إلى ما ضاق به ذرعا، وقد سجن في السعودية دون تهمة، وبقي في «سجن حايل قرب الرياض لمدة عامين وأربعة شهور»، ويبين ما قد يقع فيه من مشاكل في تعامل الأنظمة العربية معه، أو مع أسرته، إلى أن يسأل السؤال المؤلم: «فأين تلم شملك وتنصب خيمتك؟»، هذا السؤال الذي تردد صداه كثيراً في أعمال أدبية كثيرة؛ شعرية ونثرية.

إن حمزة يونس في أسئلته الاستنكارية الحارقة يضغط على جرح اشتركت الأنظمة العربية في فتحه، إذ إنها لم تكن بريئة من دم الإنسان الفلسطيني والمعاناة التي لحقت به، لا في فلسطين أيام النكبة الأولى عام 1948، ولا في عام 1967، ولا في المنافي؛ لتدفعه إلى الهجرة بعيدا عن كل آفاق الوطن العربي حيث هو اليوم، فما أوجع قوله «عار أن لا يتسع صدر الوطن العربي بمن فرّ إليه ليقاتل من أجله»!

إن تجربة حمزة يونس الفردية، وتكوينه لبطولتيه الفردية الرياضية والنضالية كافية لتكون مثالاً حيّاً ونموذجاً، يضيء للأجيال الطريق، ويساهم في تعميق الوعي في القدرة على التحرر، لكن ثمة ما يعوق هذا التحرر، وليس الكيان الغاصب وحده ما يفعل ذلك، بل إن ذوي القربى- العربي والفلسطيني- أشد ألماً وهم يمارسون ضدك ما مارسوه ويمارسونه لتظل رازحاً تحت نير الاحتلال تعاني مما تعانيه من أهوال ومصائب، فكأنّ لسان حاله يقول كما قال الشاعر العربي:

ولو كان سهما واحدا لاتقيته
ولكنه سهم وثانٍ وثالثُ

والتاريخ ووقائعه أكبر شاهد على هذه الحقيقة الموجعة، وتدعم بصريح العبارة

ما أومأ إليه كتاب «الهروب من سجن الرملة»، هذا الكتاب الذي سيظل لفرادة تجربته نافعا لأجيال قادمة؛ لأنه شهادة حية لصاحبها على ما عاناه في الوطن تحت الاحتلال وفي السجون وفي المنافي العربية أيضاً.

السّرْديّة ومحاولة تعريف: «ليس حلما» نموذجاً

هل تتقاطع الفنون السردية في منطقة ما؟ وهل يمكن لعمل أدبيّ أن يلتبس بين هُويّتين أو أكثر؟ سؤالان يبرزان وأنا أقرأ كتاب «**ليس حلماً**» للكاتب الأسير سامر محروم[1]، الصادر مؤخرا عن دار طباق للنشر والتوزيع في رام الله. يبدو أنّ دار النشر قد أصرّت على منح الكتاب هُويّة تجنيسية جاذبة من خلال قذف النص إلى منطقة مغرية للقراء، فصنفته «رواية»، مثبتة ذلك على الغلاف، وأثبتت داخل الكتاب في الصفحة الثانية والثالثة وصف «حكاية». والغلاف، كما هو معروف، واجهة إعلامية بالدرجة الأولى، ولذلك يحمل الغلاف كل ما من شأنه ترسيخ هُويّة الكتاب ومنحه كامل حقوقه في الوجود من تصنيف واسم مؤلفه واللوحة، عدا اقتران اسم الكتاب بوصف أسير، ليصبح كتاب «**ليس حلما**» رواية للأسير سامر محروم. ولكن هذه الشخصية التصنيفية ملتبسة بين الرواية والحكاية.

وماذا على الناشر من ضير وخوف لو اكتفى بوصف حكاية؟ إنها لعبة الناشر الذي يبحث عن فرصة أكبر للتسويق، فالرواية أكثر حضورا وتمدّدا وسطوة من غيرها من الفنون السردية كالحكاية أو القصة القصيرة على سبيل المثال، وربما زاد من احتمالات التسويق هذه اقتران اسم المؤلف بصفة «أسير». هذه الصفة التي ربما منحت الكتاب فرصة أفضل للتداول على اعتبار أن هناك تعاطفا شعبيا وثقافيا مع قضية الأسرى. ولذلك فإن الخبر المنشور في صحيفة الأيام (الموقع الإلكتروني للصحيفة بتاريخ: 22/8/2019) عن صدور الكتاب يؤكد هاتين الصفتين، الرواية للكتاب، والأسير للكاتب، وأحببت أن أشير إلى خبر النشر، لأنه يشكّل نصا موازيا فوقيا إشهاريا للكتاب يعاضدُ غواية العنوان والجنس الأدبي وصفة «الأسير». إذن أصبح لدى الناشر دعامتان مهمتان ليصبح الكتاب رائجا، الأول إلباسه ثوب «الرواية» الفضفاض، وتأكيد صفة الأسير لكاتبه.

1. وُلد بتاريخ 24/4/1966، في مدينة جنين، اعتقل أولا بتاريخ: 1986-11-15، وحكم بالسجن مدى الحياة، وأفرج عنه بصفقة وفاء الأحرار، وأعيد اعتقاله بتاريخ: 18/6/2014.

من المهم أن يتم التوقف عند ما كتبه الكاتب نفسه في ثنايا كتابه واصفا إياه بقوله: «أنا لست روائيا بل راويا لأحداث حقيقية، وليست من بنات أفكاري». (ص119) يبدو الكاتب مدركا لعمله وطبيعته السردية فالكتاب ليس «رواية»، وإن أصرّ الناشر على اعتباره رواية، وقد تنبه الكاتب إبراهيم نصر الله في مقدمته للكتاب إلى هذه المسألة بقوله: «هي كتابة توثيقية، إذاً، وإن استعارت سردا روائيا». (ص7)، ومن المهم هنا الإشارة إلى أن وصف «حكاية» ربما كان من وضع الكاتب نفسه واقتراحه، وجاءت كلمة «رواية» وصفا دعائيا خاويا من الدلالة. وفي محاولة أخرى للخروج من التباس التصنيف، يكتب فارس عصام مقدمة قصيرة، يبين فيها أن الكتاب «أعمق من حكاية وأقل من رواية». (ص9)

ومما يزيد من الالتباس التصنيفي أيضا رغبة الكاتب في الكتابة بحرّيّة دون الالتزام بمواصفات الرواية الفنية، فقد نظر إلى كتابه هذا على أنه نوع من المقاومة، لتوثيق معاناة الأسرى، لأنهم، أي الكتّاب الأسرى، هم الأقدر على فعل ذلك من غيرهم. يقول الكاتب: «وكل الأمم التي كانت محتلة سطّرت مقاومتها في روايات الأدباء، وتاريخنا حافل في زخم أحداث متتالية، بهذا تتوفّر التربة الخصبة للكتّاب والأدباء في تخليد تاريخنا الإنساني لأجيال قادمة، فالتاريخ يجب أن يكتب بأقلامنا نحن الذين اكتوينا بنيران الاحتلال». (ص110)، بل إن الوعي لدى الكاتب في أهمية الكتابة أعمق من ذلك، عندما يقرّر في النهاية أن سطوره «ليست نوعا من الفنتازيا الأدبية في محاولة للظهور بموقف بطوليّ، وفق ما تقتضيه بعض الروايات لشد انتباه القارئ، بل هي للظهور بتواضع أمام عظمة من ضحوا بدمائهم على درب الحرية والاستقلال». (ص128)

إذن، تتراوح المسألة التصنيفية بين الرواية والحكاية، مع أن وصف الحكاية لا ينطبق انطباقا تاما على الكتاب، إلا مجازا، على اعتباره حكاية سامر محروم وتنقله بين سجون الاحتلال على مدى ثلاثين عاماً، لأنه يشتمل على عدة حكايات صغيرة متناثرة لا شيء يجمعها فنيا سوى أنها تنتمي لعالم الأسير سامر وحياته الشخصية داخل السجن، وتشكل كل واحدة منها «حدثا تاريخيّا خاصا يمكن أن يلقي سرده ضوءا على خفايا الأمور أو على نفسية البشر». (معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبه، ص17). وكذلك ينقص الكتاب كثير من العناصر الفنية ليكون رواية مع أن المادة الأصلية للرواية توفر الحكاية، ولكن هذه الحكاية يلزمها كثير من العناصر الأخرى لتحولها من مجرد حكاية إلى

رواية بالمفهوم الحقيقي للرواية كفن سردي.

ليس لإيراد الكاتب اسمه في الرواية أي علاقة بنفي الصفة الروائية، كما ادّعى الكاتب إبراهيم نصر الله، فهناك مثلا روايات السيرة الذاتية، وروايات التخييل الذاتي، وكلها بإمكان الكاتب روائيا أن يورد اسمه صراحة في المتن الروائي، وهنا يمكنني إحالة الروائي نصر الله على تجارب فلسطينية وعربية وعالمية أورد فيها الكتاب أسماءهم صراحة، فقد أورد «ربعي المدهون» اسمه في رواية «مصائر- كونشرتو الهولوكوست والنكبة»، ومليكة مقدم الروائية الجزائرية في رواية «رجالي» مثلا، والمثال الأشد حضورا رواية «الشطار» لمحمد شكري التي وُصفت بأنها رواية، على الرغم من أنها تشكّل الجزء الثاني من سيرة شكري الذاتية، وأما من الأدب العالمي، فهناك الكثير من الروايات التي لم يتورّع الكتّاب في ذكر أسمائهم، ولعل أهمها رواية «طعام، صلاة، حب» للكاتبة الأمريكية إليزابيث جيلبرت، مع أنها قد وصفت بأنها «سيرة ذاتية»، أو «مذكرات» كما يحلو للبعض أن يصنفها، عدا أنه لا ناقد ينفي عن الرواية بعدها التوثيقي، ومنها روايات إبراهيم نصر الله نفسه، وخاصة «أرواح كليمنجارو»، فهذه ذريعة ليست كافية لإخراج الكتاب من دائرة الرواية المغوية، كما قال نصر الله في مقدّمته القصيرة الملتبسة.

ولكن بعد كل هذا، ما الوصف الأنسب لهذا الكتاب المسمى «**ليس حلما**»؟ سأنطلق من قول فارس عصام أن الكتاب «أعمق من حكاية وأقل من رواية». إنه توصيف جيد ومقارب للكتاب وطبيعته السردية، فلم يصل الكتاب إلى مستوى الرواية، وتجاوز الحكاية أيضا، وربما لذلك يصدق على هذا الكتاب وصفه بأنه «**سردية**»، ولكن هل تشكّل كلمة «سردية» وصفا تجنيسيا معتبرا في حياة السرد العربي المعاصر؟ وهل يمكن للسرد العربي أن يوجد أصنافا تجنيسية خارج ما هو مألوف من رواية وقصة ومسرح؟

ربما لم يكن هذا الوصف التجنيسي «**السردية**» شائعا في السرد العربي، وسبق للكاتب جمعة الرفاعي أن اتخذه وصفا لكتابه «خارج الموعد» (دار الجندي، 2014) الذي كتبه داخل السجن أيضا، وكذلك فعل الكاتب شريف سمحان في وصف كتابه «أيلول الأسود»، (جمعية الزيزفونة، 2016) في حديثه عن أحداث أيلول الأسود التي وقعت في الأردن مطلع السبعينيات، فما هي السردية إذن؟

وسأحاول تعريفها انطلاقا من هذه الكتب الثلاثة.

إن دراسة هذه الكتب الثلاثة المشار إليها أعلاه، تمكّن الدارس من صياغة تعريف لمصطلح **السردية** اعتمادا على المفهوم العام للسرد «**الذي يشتمل على قص حدث أو أحداث أو خبر أو أخبار، سواء أكان ذلك من صميم الحقيقة أم من ابتكار الخيال**» (معجم مصطلحات الأدب، ص341). وعليه، فإن **السردية** هي: «**كتلة لغوية نثرية، تجمع ما بين المقالة والسرد الحكائي، ويتداخل فيها الذاتي والموضوعي، وتغلب عليها المشاعر ومفردات البوح، والحنين (Nostalgia)، وتتضمن توضيح وجهة نظر كاتبها وأفكاره بحرّيّة**». ففي كتاب «**ليس حلما**» بعض من المقالة، وخاصّة في بدايات الفصول، وفيها الحوار الفكري البحت ما بين الخيال والفكر، وفيها عدم الالتزام بالتسلسل المنطقي للأحداث. كما أشار الكاتب نفسه إلى ذلك بقوله: «قد تكون الأحداث الواقعية فيما أرويه غير متسلسلة لإرضاء ذوق القارئ، لكنها مترابطة إلى الحد الذي أشعر بأنني تحرّرت مرة أخرى حين أعود للكتابة مجدّدا». (ص119)، وبهذا الوعي على مسألة الكتابة المتجاوزة للتصنيف التقليدي للنصوص السردية ينهي الكاتب «سرديّته» بجملة «لم تتم...».

لقد كان الكاتب يكتب كتابه لهدف يعيه تماما، واختار له الشكل المناسب لأفكاره التي يريد لها أن توثق تجربته في السجن، وإلى حد ما كان يعي أنه لا يكتب رواية، وإنما يعبر تعبيرا حرا دون الالتزام بالتسلسل المنطقي للأحداث أو الانتباه لعناصر الرواية، وهذه إحدى أهم مميزات «الأدب الشخصي»[2]، ولذلك ربما كان الأقرب إلى ذهنه وصف الحكاية، مع أن كتاب «ليس حلما» أعمق من حكاية، يُقترح له وصف يناسبه، وهو «**السرديّة**»، ويمكن للدارس سعيا وراء الاختصار المكثف الذي سيظل يتطلب الشرح والتوضيح القول **إن السردية هي شكل فني «أعمق من حكاية وأقل من رواية»**.

إن الكتابة الطازجة تقترح شكلها المناسب لها، تبعا للتجربة الشخصية للكاتب، كما حدث أيضا مع كتّاب كبار كتبوا سردا بطريقة مختلفة، لم يكن رواية ولا يصح أن يكون رواية، فاخترعوا له اسما لم يتداول كثيرا بين الأدباء

2. تحدثت عن الأدب الشخصي في مقال: الشبهة الروائية والأدب الشخصيّ في كتاب «نسوة في المدينة»، صحيفة الحدث الفلسطيني، نشر بتاريخ: 16/5/2022. https://www.alhadath.ps/article/154768

والنقاد، كبعض ما كتبه نجيب محفوظ ومنصورة عز الدين وغيرهما وأطلقا عليه «المتوالية أو المتتالية القصصية»، وكنت قد أشرت إلى ذلك بالمزيد من الآراء والأمثلة فيما كتبته عن كتاب «جرائم لا يعاقب عليها القانون» للكاتبة الفلسطينية شادية كمال[3]. إنها فرائد الكتابة التي تحتاج إلى ترسيخ في عالم الكتابة الإبداعية والتنظير النقدي، ومثلها أيضا ما شاع من روايات «التخييل الذاتي»، واعتماد هذا المصطلح جنسا مستقلا على أغلفة الكتب السردية التي تمثله، وكنت قد تحدثت عنه أيضا وبإسهاب في كتابي «ملامح من السرد المعاصر- قراءات في متنوع السرد» تحت عنوان «البحث عن التخييل الذاتي في سياق السرد المعاصر»[4].

وختاما، لا يعني هذا بحال من الأحوال أن كتاب «**ليس حلما**» خالٍ من الملاحظات النقدية، فيما يخصّ البنية اللغوية ذاتها، بل إنها ربما أيضا تعاني من مشاكل متعددة، في بعض جوانب أسلوب الكاتب؛ فقد اعترته الركاكة أحيانا، وغصّ الكتاب بالكثير من الأخطاء اللغوية التي كان بالإمكان تداركها لو تمت مراجعة النصّ بشكل صحيح وبتروٍ. وهذه على أية حالة مسؤولية الناشر أيضا، وليس التصنيف فقط، وتصبح آكد وأوجب إذا ما كان الكاتب أسيرا قابعا وراء القضبان، متشوقا ليكون كتابه بحلة لغوية جيدة، خالياً من أي خطأ قد يشوه النص، أو يزعج القارئ، وهذا أقل ما يمكن أن تقدمه دار نشر لكاتب ارتضى أن يطبع كتابه لديها، وسبق أن تحدثت عن هذه المسؤولية المهنية كثيرا في وقفات سابقة، ولكن على ما يبدو لا أحد يهتم بمثل هذه القضايا الأخلاقية المهنية، حدث ذلك مع «ليس حلما»، وسيحدث مع غيره، ومع كل دار نشر، للأسف، وهنا ربما لا تطاوعني نفسي لأقول إلا من رحم ربك!

3. ينظر: مقال عندما يصبح الكاتب شاهد عصر، صحيفة الرأي الأردنية: https://alrai.com/article/10476684 نشر بتاريخ: 29/3/2019.
4. ينظر الكتاب، مرجع سابق، ص69-54.

المفارقات المتقابلة في كتاب «رنين القيد»

تتألف المادة الأصلية لكتاب «رنين القيد» من 28 نصاً ذاتيا حول معاناة كاتبها عنان الشلبي[1] داخل عدة سجون من سجون الاحتلال، وتمتد إلى عشرين عاماً، بدأت عام 2002، عام الاعتقال، وانتهت في 11/5/2022 وهو تاريخ اغتيال الصحفية شرين أبو عاقلة، وقد التزم في الكتاب بإيراد الأحداث حسب تسلسلها التاريخي ووجوده المكاني، ولذلك شكلت هذه «النصوص» معاً ملامح من سيرة ذاتية اعتقالية تخص صاحبها أولا وأخيرا وتدور حول ذاته ومعاناته، وقلّما أحال القارئ إلى أحداث كبرى. كما يفعل كتّاب السيرة في العادة.

وهذا الكتاب من الكتب التي فيها تصور نفسي ذاتي عن أحد أبناء الحركة الأسيرة المناضلين، وهو من ذوي الأحكام العالية، وينتمي إلى جيل من الكتاب الأسرى الذين ولدوا في السجن كتّاباً، وكان لتجربة الاعتقال أثرها الكبير في تشكيل وعيه بأهمية الكتابة، وتنطلق من هذه «الحاجة الماسة لابتكار طرق إبداعية ينجح عبرها هذا الأسير في خلق جسور أثيرية تبقيه على تواصل ولو شحيح مع عالمه الذي سلخ عنه».

ومع أن الكاتب في المقتبس السابق يتحدث عن غير الكتابة إلا أن الكتابة تأخذ هذا الدور أيضاً، ولذلك يحرص على أن يكتب تجربته الخاصة بإمعان نظر ليكون «على تواصل مع عالمه الذي سلخ عنه»، وما غير الكتابة لها هذا التأثير، وهذه الفاعلية؟ هذه الفاعلية التي يجدها الدارس في كل ما أنتجه الأسرى من كتب، فما الجديد إذاً في هذا الكتاب ليكون مختلفا عن غيره من كتب الأسرى؟

دائما أسأل نفسي هذا السؤال بعد قراءة أي عمل من أعمال الأسرى، وخاصة الأعمال النثرية، فما أتوقعه أجده في رسم معالم السجن والسجان، ومعاناة الأسير وزملاء الأسر، ولا يكاد يجد القارئ اختلافا بين أسير وأسير في رسم هذه العوالم، فالعالم هو نفسه، ولا اختلاف إلا في تنويعات التصوير والقصّ وحرارة التجربة؛ لأن التجربة واحدة، ويكاد يكون الأسرى ذاتهم ينطلقون من

1. ولد عام 1982، من مخيم عسكر الجديد، شرقي نابلس، واعتقل بتاريخ: 21/3/2002، وحكم عليه بالسجن المؤبّد.

وعـي فكـري ولغـوي ونقـدي واحـد، يجعـل كتاباتهـم متشـابهة إلـى حـد التطابـق أحيانـا في الأفكار، وفي طريقـة التعبيـر عنهـا، ومـع كل ذلـك إلا أنّ «ميـزة» خاصـة تميّـز كل عمـل عـن غيـره، هـذه الميّـزة قـد تكـون مخفيـة أو ظاهـرة، وفي حالـة الأسـير عنـان الشـلبي في كتابـه هـذا جـاءت مسـتقاة ومسـتلّة مـن عمـوم كتابـه، ولا تظهـر إلا بالمزيـد مـن التأمـل، لأنـه كتـب «حكايتـه» وروى «قصتـه» علـى طريقتـه الخاصـة، ومنطلقـا مـن وعـي بالـذات وأهميتهـا قبـل الوعـي الوطنـي والإنسـاني والدينـي، وبنـاء علـى ذلـك فـإن هـذا الوعـي الذاتـي الخـاص المقتـرن بصنـع المفارقـات الحـادة أهـم مـا يميـز نصـوص الأسـير عنـان الشـلبي.

تبـدو المفارقـة واضحـة منـذ العنـوان الـذي اتخـذه للكتـاب؛ فجعـل الرنـين مضافـا إلـى القيـد بتركيـب لا يحمـل إلا الوجـع والمـرارة، فالرنـين صـوت يطلـق علـى سـجع الحمامـة الحزيـن الهـادئ، وعلـى صـوت الصيـاح والبـكاء، وهـو أيضـا صـوت المعـدن، أو صـوت الوتـر، فـإذا مـا اقترنـت كل هـذه المعانـي مـع القيـد، أصبحـت التسـمية ذات فاعليـات متضـادة في دلالتهـا كتركيـب إضـافي، يصنـع مفارقتـه الموجعـة، قـد يعنـي الحـزن مـع الهـدوء كسـجع الحمامـة، وقـد يعنـي البـكاء والصيـاح أيضـا، ومـا يـدل عليـه مـن اضطـراب ووجـع وألـم وحسـرة وفعـل خارجـي التأثيـر عكـس الحـزن الهـادئ، وكلا المعنيـين ظاهـر في الكتـاب، فللصـوت هـذه الدلالـة النصيـة المتعاكسـة، فثمـة حـزن هـادئ يتسـلل إلـى أعمـاق النفـس، وثمـة معانـاة كبـرى لهـا أوجاعهـا القاتلـة كذلـك. وعليـه، فـإنّ هـذا الكتـاب ناضـح بالتجربـة الإنسـانية، إذ يحضـر الوطـن والسـجن كخلفيـة للأحـداث التـي تضـيء عليهـا النصـوص.

ويختـار الكاتـب لأفـكاره اللغـة السـهلة الدالـة علـى تلـك الأفـكار، وخاصـة الجانـب الوجدانـي منهـا، سـواء المتعلقـة بالـذات ومـا يخصّهـا، أو بالآخـر ومـا يتعلـق بـه، وقـد انعكسـت هـذه الثنائيـة الضديـة في هـذا التقابـل بـين الآنـا والآخـر، فيعمـق الفـرق بـين المحتـل وأدواتـه القمعيـة، وبـين الضحيـة وأدواتهـا في النضـال ومواجهـة تلـك الأدوات والأسـاليب القمعيـة، وكانـت أكثـر مـن كونهـا «مقاومـة بالحيلـة» إلـى مقاومـة بالقـوّة وبالفعـل، وتوظيـف كل مـا هـو متـاح وممكـن لهـذه المقاومـة، لتبـرز المفارقـة الثانيـة التـي يبنـي عليهـا المؤلـف كل نـص مـن نصـوص الكتـاب، ومـا آلـت إليـه النصـوص معـاً في تشـكيلها كتابـاً مطبوعـا يحتـوي بـين دفتيـه عناصـر هـذه المفارقـة، هـذه المفارقـة التـي لـم يخـلُ منهـا أي كتـاب مـن كتـب الأسـرى الإبداعيـة، كأنهـا الفلسـفة العامـة التـي تحكـم إبـداع الطـرف المقهـور المغلـوب علـى أمـره الـذي

يشعر بالاضطهاد، وتأبى له كرامته الإنسانية والوطنية الرضوخ لإرادة من يمثل هذه الأدوات القمعية القاهرة.

صحيح جداً أن لكل أسير قصة وحكاية- كما يكتب المحامي الحيفاوي حسن عبادي في مقدماته عن كتب الأسرى، وأعاد تأكيده في مقدمته لهذا الكتاب- هذه الحكاية لا بد من أن يحكيها الأسرى، بعيدا عن صورة الخلفية التي يتأطر من خلالها إبداعاتهم النثرية، وتمتد أحيانا إلى الشعرية، وربما انعكست أيضا على تكريس الأسرى جهدهم في الأبحاث العلمية لدراسة ظواهر الاعتقال وقضاياه، كما فعل الأسير الكاتب أمجد عواد على سبيل المثال في كتابه البحثي، ذي الطابع الأكاديمي «دراسات من الأسر».

حقق الأسير الكاتب عنان الشلبي في هذا الكتاب «رنين القيد» هذه المقولة «لكل أسير حكاية وقصة مختلفة»، هذه الحكاية ساعد الاحتلال على تشكل جانب منها، أما الجانب الآخر فهو الجانب البعيد عن الاحتلال والمتعلق بحياة الأسير وأحلامه وأسرته، وانكساراته وآلامه، وعلى الرغم من بُعد الاحتلال عن هذا الجانب إلا أنّ له يداً خفيّة في صنعه، بوصفه قدرا لا ينفك عن العبث بمصير العائلة الفلسطينية جميعها، وليس الأسير فقط، ما يجعل الأسر قضية «اجتماعية» و«عائلية» وليس قضية سياسية ونضالية فقط، وهذا ما استطاع عنان الشلبي تأكيده في نصوصه هذه.

هذا الجانبان المشار إليهما أعلاه واضحان جدا فيما كتبه عنان في هذا الكتاب؛ فالصورة الأولى لعنان هي صورته أسيراً، وهذه يتشابه فيها مع كل أسير، حتى ليكاد يكون كل كاتب منهم ناطقاً بمعاناة الجميع، ولا اختلاف إلا في ترتيب الأحداث، وحرارة السرد وانفعالات الكاتب ذاته، وأسلوبه الذي يختاره، فعنان كما غيره تحدث عن التعذيب وعن العزل الانفرادي وعن التحقيق وعن معاناة الأهل في الزيارات، وعن الشوق واللوعة والحنين، وعن إضراب الأسرى، لكنه لم يتعمق كثيرا في هذا الجانب، فلم يكن ظاهراً على حساب المعاناة الشخصية، وحسناً فعل، فقد وضع نفسه في هذا الكتاب ضمن سياق الحركة الأسيرة في المعاناة، لكنه كان معنيا بإبراز قصته وحكايته هو في الدرجة الأولى، ليتمحور الحديث حول الذات ومعاناتها الفياضة بالمشاعر، ولتبرز الصورة الأخرى للأسير عنان الشلبي.

الصورة الثانية- إذاً- هي تلك الصورة التي جعلت حكايته المفتتة على (28) نصاً سرديا، ذاتيا، أشبه بالسيرة الذاتية، ينحو فيها منحى المقالة كأسلوب كتابي، وبالتالي يختار عنان أسلوبا مغايرا لكثير من الكتاب الأسرى الذين يقبلون على الرواية ليكتبوا قصتهم، وليهتموا بعالم السجن المادي والروحي، أما عنان فكان تركيزه على الناحية العاطفية الذاتية وهو يتحدث عن أمه وإخوته وأخواته وبنات أخته وعميه الراحليّن، وأصدقائه، وفرحته بهم؛ وقد استطاع أن يهاتفهم في حضرة أمه، ويشاركهم، ولو وجدانيا أكلة مقلوبة، كما كانوا يفعلون قبل أن يحدث ما حدث من تشتت بفعل عوامل متعددة، كان الأسر واحدا من أهمّ أسبابها، ولكن المفارقة التي تحدث أن يكون الأسير والمعتقل سببا في إعادة وصل الأيام الخوالي، ولم يفت الشلبي أن يلتفت إلى هذه المفارقة: «حزنتُ لأن هؤلاء الأصدقاء بالكاد يلتقون معاً، أو حتى يتواصلون مع بعضهم البعض، وفرحت لأن مبادرتي هذه أعادت لمَّ هذا الشمل الذي فرّقته الأيام بأعبائها».

في هذه الصورة تحضر التفاصيل الإنسانية الصغيرة والهامشية للإنسان العادي، لكنها ذات دلالة نفسية كبيرة لدى الأسير، فمعاناة الأم الممتدة لعشرين عاماً كانت مختلفة في تفاصيل معاناة الأمهات، هذه الأم التي كانت تعرّض نفسها للأخطار من أجل زيارته، رغما عن كل شيء، ولم يمنعها من الزيارة إلا قوانين الاحتلال الجائرة والمرض اللئيم المقعد لها عن هذه المهمة البطولية في نظر ابنها الأسير عنان.

للأم في هذا الكتاب مساحة عاطفية كبيرة، بدءا من الاعتقال وأسبابه، وما جر ذلك من معاناة، ومن ألم نفسي وتعذيب ضمير للأسير ذاته، فيعبر عن هذه المفارقة المحزنة، إذ كيف يفكر باستشهاده في يوم عيد الأم ليهديها هدية مميزة؟ هذا شكّل أمرا لافتا في إحداث المفارقة التي تحدث عنها في الكتاب، وتعتمد هذه المفارقة على ثنائيات لا حل لها، وربما لا نجرؤ على أن نصرّح بها. فهل فعلا هي هدية تفرح الأم بها عندما يستشهد ولدها؟ لا أعتقد ذلك، لكن الأسير لا يفكر بعقل أمه وقلبها، وإنما أراد أن يقدم لها شيئا يجعلها فخورة به. وهل استشهاده بطريقة «رائعة»- على الرغم من أنه فخر لأي أمّ- علامة مميزة تجعلها فرحة بهذا الاستشهاد؟

تبلغ هذه المفارقة قمتها عندما يتحول هذا الهاجس إلى مأساة كبرى، تلاحق

الأم والابن مدى الحياة، فبدلا من الاستشهاد، يكون الاعتقال لمدى الحياة ما جلب لكليهما المعاناة الأبدية، وجعل يوم عيد الأم ذكرى سيئة في ذاكرة الأم تنفر منها بشدة، ومنح الأم يوما لذكرى سيئة مختلفة ومناقضة لما عليه باقي الأمهات؛ إذ أمست الذكرى كما يقول الشلبي نفسه «بالنسبة لأمي مدعاة للحزن الأخضر، وفرصة للبكاء والحسرة، ومناسبة تستعيد بها أعمق أوجاعها، وكأنني أحلت يوم عيد الأم يوماً للحداد بذلك الرحيل المستمر وذلك الوجع المتجدد والمتعاقب كربيع لا تزهر به الزهور والشقائق إلا لتذكّر أمي بالفقدان اليانع».

هذه المفارقة الأساسية التي شكلت وعي الأسير، وجعلت هذه الحادثة تسير فيه نحو العاطفة والانفعال في الكتابة الذاتية عن عالم الأب والأم والأخوة والأصدقاء، إذ تجعله هذه الحادثة مدانا أمام ضميره الأخلاقي كونه قد سبّب عذابا لأمه، كاد الأسير يعترف بهذا الذنب الذي جعله ينغرس في الصورة الأخرى، الذاتية، وتبهت صورة السجن وعوالمه القاتمة.

لهذا فقد جاء الكتاب مختلفا في حقيقته ودلالاته، وكاشفاً عن الضعف الإنساني للأسير عنان، هذا الضعف الذي قابله بقوة لافتة في مواجهة السجانين بكل السجون التي مكث فيها، وفي كل التحقيقات التي تعرض لها، وفي كل المواجهات مع السجان منفردا أو مع الأسرى، وخوضهم إضرابا عن الطعام لمدة (42) يوماً متتالية. كأن عنان الشلبي في هذه الصورة يرسم صورة أخرى تقوم على المفارقة والاختلاف بين هشاشته الإنسانية أمام ضعفه العاطفي وقوته وصلابته مع سجانيه، وهو بذلك يرسم صورتين أخريين متعارضتين له، يعبّر من خلالهما عن مفارقة بليغة دالّة ذات بعد إنساني أولاً، قبل أن تؤشر نحو البعد الوطني في مقارعة محتل مغتصب لا يرحم أمّا ولا أبا ولا طفلا صغيرا، وكان على استعداد أن يغتال صحفيّة جهارا نهارا أمام عين الكاميرا، فيعبّر الشلبي عن هذا الحدث بهذه المفارقة المحزنة الموجعة «وثقت هذه المرة رحيل الحياة عن الشهداء، وثقت رحيلها كسبق صحفي وكخبر عاجل هزنا بقسوته»، فأي مفارقة أعظم من هذه المفارقة التي تشكلت باغتيال شيرين أبو عاقلة، ووثقها «عنان الشلبي» في كتابه «رنين القيد»؟

قراءات في رواية مريم/ مريام

ولد كميل سعيد أبو حنيش في قرية بيت دجن في محافظة نابلس في 26/9/1975، ويعدّ من أكثر كتّاب السجن نشاطاً إبداعيّاً متنوّعاً ومتدفّقاً، فقد كتب الشعر والرواية والقصّة القصيرة والمقال الأدبي والسياسي، ومارس النقد الشعري والسردي، وكتب حول الكتابة ذاتها متأمّلاً صنعتها وأسئلتها. كما أنّه ينتمي إلى جيل من الكتّاب الأسرى الذين اعتقلوا عام 2002 وما بعده (اعتقل كميل بتاريخ: 5/4/2003)، ليشكّل مع زملاء آخرين ظاهرة من الكتّاب بسماتٍ وملامح خاصّة.

صدرت الرواية عن دار الآداب البيروتية، وتقع في (263) صفحة، قدم لها الكاتب الفلسطيني المحامي الحيفاوي حسن عبادي، يقبع أبو حنيش في المعتقلات الإسرائيلية إثر اتهامه بممارسة العمل العسكري، ومحكوم عليه بتسعة مؤبدات و(78) سنة إضافية، منذ عام 2003، وغرامة مالية مقدارها ستين مليون شيقل.

تمثل الرواية نسيجاً متشابكا ومفتوحا ومعقداً مبنيّاً على لسان إبراهيم/ أبرم «الحفيد» المعقد في تركيبته الثقافية وحتى البيولوجية، إذ اشتركت في تشكيله ثقافتان مختلفتان تنتميان إلى «معسكرين متعاديين» كما يقول، لذلك لا يغيب عنه دائما سؤال «الهوية» وسؤال «الانتماء» وسؤال «الصراع» وسؤال «الحل» وأخيرا صراع «الحياة» والجدوى منها.

هذه الرواية معقدة ومربكة للقارئ العادي والمثقف والناقد، معقدة بالنسبة للطرح السياسي ومشكلة اللجوء وحلها. ومدى إمكانية هذا الحل، على الرغم من أن الرواية تنحاز أحيانا وعلى لسان «مريم» العربية إلى مقولة جمال عبد الناصر المشهورة لحل الصراع العربي الإسرائيلي: «ما أخذ بالقوة لا يستردّ إلا بالقوة». ولكن حلّ القوة أحيانا يجعل المسألة أيضا معقدة. انتصر «اليهود» على العرب وشكلوا دولة على أنقاض الشعب الفلسطيني الذي أصبح لاجئا في وطنه وفي غير وطنه. ماذا لو حدث العكس؟ ما مصير اليهود الذين جمعتهم الحركة الصهيونية في فلسطين؟ هل سيكون مصيرهم الرمي في البحر، ليشبع السمك

الوارد في مقولة أحمد السعيد: «اتجوع يا سمك»؟ الحل ربما لن يكون إنسانيا على الرغم من مسألة الحق والعدالة ومن أحق بالأرض تاريخيا وثقافيا ودينيا، هذا التعقيد في الرؤيا وفي الحل تجسّد في مشكلة الرواية أو سؤالها الظاهر في ذلك الصراع المخفي بين المريمين: مريم ومريام، ومن الصادم روائيا وفنيا اكتشاف القارئ في الصفحات الأخيرة للرواية في الفصل (18) أن المريمين هما مريم واحدة وإن خضعت بعد ذلك إلى تاريخين مختلفين وثقافتين متباينتين، لكنهما تشيران إلى «هوية» واحدة متصالحة مع ذاتها، فـ «فلسطين كانت تسمى مريم أو مريام قبل أن تحمل أي اسم آخر». (ص 256)

تأخذ مسألة «الهوية» في الرواية بعدا جمعيا تاريخيا ممتدا، متوغلا في التاريخ القديم، ليكتشف القارئ أن كل التاريخ بحمولاته الثقافية والدينية متحول زائل والثابت الوحيد هو الأرض التي أطلق عليها «أرض السماء»: «إن هذه البلاد كان اسمها مريم قبل أن تحمل أي اسم آخر، كنعان أو فلسطين أو إسرائيل». (ص 103)، ما الرؤيا إذن لحل الصراع، أو ربما للتصالح مع الواقع؟ آلأرض أم التاريخ؟ إن صراع الجدتين الصامت هو صراع ثقافي ممتد له ارتدادات ثقافية وسياسية ودينية.

تبرز في الرواية أيضا مسألة الثنائيات المتصارعة للوهلة الأولى أو يُظن أنها متصارعة، ولكنها في الحقيقة تؤشر نحو تاريخ مزدوج من التفسير الثقافي لهذه الأرض التي تعاقبت عليها شعوب وقبائل، فقد عاش على أرضها «الكنعاني والأرامي والفلسطيني واليهودي والآشوري والفارسي والأموري والبابلي والفرعوني والأدومي والإغريقي والروماني والبيزنطي والعربي والتركي والإفرنجي». (ص 103)، هذه هي الحقيقة التاريخية الساطعة، الأرض الثابتة والبشر كلهم بمعتقداتهم وتاريخهم زالوا وإن تركوا بصماتهم في المكان والزمان.

لا معنى إذن للازدواجية الثقافية في نفس أبرم/ إبراهيم ما دام أنه هو ابن هذه الأرض التي احتملت شعوبا كثيرة واستوعبت ثقافاتهم المتنوعة، لا معنى للازدواجية ولا معنى إذن لسؤال الهوية إذن، فلن نتحدث إذن عن صراع بين ثقافتين، بل هو عدم إدراك للحقيقة، فنحصر المسألة وكأنه صراع معسكرين متعاديين مختصرين في «عرب ويهود»، وهما شعبان سبقا أن عاشا في هذه الأرض قبل هذا الصراع السياسي الأيديولوجي الاستعماري المقيت. صراع

يختصر هوية الأرض ويجعلها محصورة في ثنائية عدائية لا حل لها، حتى القوة ضمن هذا المنطق حل كارثي لا إنساني، هكذا تقول الرواية، وربما كان هذا هو خطابها المضمر الذي لم يصرح به السارد، وإن صرحت به بعض الشخصيات على شكل رؤى، وليس انحيازا يقينيا تتمحور حوله البنية الروائية.

في هذه القراءة لهذا المعنى الشامل للهوية كما تطرحه الرواية لا معنى له إذن، ولذلك سيكون بمقدار القارئ أن يرى في عقدة إبراهيم مجرد وهم لا أكثر لا يصمد أمام حقائق التاريخ الصادمة، هذا التاريخ المجهول الذي لا يعرفه الكثيرون، عربا ويهودا، ومنهم إبراهيم نفسه الذي كان يتلقاه مصدوما مع أنه في لحظة ما كان على استعداد للتصالح معه، وخاصة بعد أن تعرف على صديقه عيسى المثقف العارف العابر لحدود الهوية المنغلقة على ذاتها.

تبقى الأرض وتذهب كل مشاكل التاريخ لتتصالب مرة أخرى في وعي الكتاب جميعا وخاصة أفكار الكتاب اليهود الذين لم يكفوا عن مساءلة حقائق مجتزأة من التاريخ لتنحصر الأرض بمفهوم واحد مستند إلى حقيقة واحدة، تقول إن اليهودي المقنّع والمقتنع بهذه الرؤية التاريخية الضيقة ما هو إلا ابن لثقافة سابقة لأيديولوجيا الصراع السياسي الحالي، فعنات ذات الاسم اليهودي في مآلها المعاصر ما هي في الحقيقة إلا تجسيد لتاريخ موغل في القدم يقول إن الاسم يحيل إلى هذه الأرض وزمانها القديم قبل التأويل والتلوين الديني أو الثقافي، فعنات «اسم ليس يهوديا بالمطلق وإنما هي آلهة الحب والجمال عند الكنعانيين، وهي ابنة الإله «إيل» والإلهة «عشيرا»، وشقيقة الإله «بعل»، بحسب الأساطير الكنعانية» (ص 141). ولم يكن الاسم عنات هو وحده الكنعاني بل إن شلوميت اسم كنعاني أيضا، واسم إبراهيم أو أبرم أيضا سابق لوجود اليهود، فإبراهيم، عليه السلام، الذي يتخذه اليهود أبا لهم، لم يكن يهوديا، فوجوده سابق على وجود اليهودية.

لقد كانت الكنعانية هي الأصل والهوية الأصلية لهذه البلاد، وكل من جاء إليها كان يضيف إلى الهوية الأصلية شيئا من ثقافته حتى الإغريق اليونانيون لم يستطيعوا التغيير الكامل بل إنهم أضافوا للاسم الكنعاني ملحقات تؤشر على وجودهم، فإيليا الكنعاني هو إلياس، و«أدون» الكنعاني هو «أدونيس» اليوناني، وطرابلس ويونس وآلاف الأمثلة الأخرى. وتنبغي الإشارة إلى أن المشكلة ليست

مشكلة لغوية أيضا، بل هي أعمق وأبعد من الثقافة ذاتها. إنها تبدو لي مسألة وجود تلوّن بألوان خارجية، وبقي الأصل ثابتا لم يزُل ولن يزول.

في ظل هذه الحقائق اللغوية التاريخية الثقافية سيبدو إذن «بنحاس» الصهيوني خارجا عن السياق ويمثل وجها قبيحا لمآلات المشروع الصهيوني الذي أقام بفعل التاريخ المعاصر لليهود الناتج عن محارق النازية والهلوكست معنى آخر للهوية الجمعية المستندة إلى تشويه الحقائق وليّ عنق المسيرة الإنسانية، فيظهر الوجه البشع للحركة الصهيونية التي هجرت الفلسطينيين، واستندت إلى تاريخ الضحايا لتبني تاريخا جديدا هشا، ولتصبح «جلادا» يستثمر من التاريخ بعضه بطريقة مغلوطة.

كل هذه التوليفة المعقدة، هل أوصلت القارئ إلى حلّ؟ ليس جديدا أن أقول إن الأدب لا يعطي حلولا جاهزة، ولكنه قادر على فتح باب السؤال والتساؤل، مع أن الرواية لم تخل من تقديم بعض الحلول المقترحة في النظر إلى مسألة التعايش مع هذه المكونات وفي أكثر من موقع في الرواية. هل يكمن الحل في التصالح والنظرة الإنسانية وبناء هوية قائمة على مبادئ إنسانية وأخلاقية والإيمان بالسلام والتعايش والعدالة وعودة الحق إلى أصحابه، ونبذ الفكر الصهيوني الإلغائي الذي يصر على وجود اليهود وحدهم، والباقي ما هم إلا أغيار وعبيد خلقهم الرب لخدمة أبناء شعب الله المختار، إن تسامحوا مع إبقائهم في الأرض، ولذلك تعلن الرواية خلاصتها في تفسير أبي سريع: «إن الانتماءات العرقية والدينية والقومية والطائفية ليست هي الأساس. إنها انتماءات متخيلة وزائفة، وتحجب الهوية الإنسانية المشتركة للبشر! أما الانتماء الإنساني فهو الانتماء الأرقى والأعمق والأكثر صدقا وانسجاما مع النفس البشرية التي لا تلوثها أوبئة الانتماءات الأخرى». (ص 145). ولتوضيح هذه الرؤيا المهمة والضرورية للحل فإنه لا يعني بحال من الأحوال التعصب أو الاقتتال أو التمترس خلف قناعات زائفة، فكل تلك الانتماءات لا تلغيها الرؤيا الإنسانية للحل «بشرط ألا تكون هذه الانتماءات على حساب انتمائك الإنساني، وألا تنطوي على العنصرية القاتلة». (ص 145)، هذه العنصرية التي تجسدت ليست في قتل الإنسان فقط أو تشريده بل اتجهت إلى ذكريات الآخرين كما فعل بنحاس عندما اقتلع التينة في صفورية، لأنها تمثل ذاكرة حية لمريم العربية، أو هوية ووجود لهذه الأرض العربية بمكوناتها الطبيعية والإنسانية. فرمزية الاقتلاع يحيل إلى سلوك فظ

وعنيف ومعبأ بالحقد الذي يصر على الأحادية التي يكذبها تاريخ البشر الجمعي، وقد كان له دليل قوي في تاريخ هذه الأرض.

هل تنجح هذه الرؤيا التي قدمها كميل أبو حنيش في روايته «مريم/ مريام»؟ هذا سؤال الرواية الذي ظل معلقا لا إجابة عليه، وأظنه يحتاج إلى إرادة سياسية وقناعة من طرفي الصراع أولا، وهنا تبرز رمزية الزوجين شلوميت وإلياس اللذين شكلا حلا فرديا في الظاهر، ولكنه يحمل إيحاءات سياسية كبيرة متسقا مع ما قاله أبو سريع في المقتبس السابق، ولكنه حل لا مؤيدون له في المجتمع الإسرائيلي المتجه نحو العنف والمزيد من السيطرة وإلغاء الآخر، إلا عند فئة قليلة منهم. يساريون هامشيون منعزلون كما هو حال هذين الزوجين المنبوذين من العرب واليهود على حد سواء. مع أنهم نجحوا في إقامة علاقة ناجحة على مدى أربعين عاما دون مشاجرات ولا خلافات، ونأيا بنفسيهما عن هذا الصراع الذي كانا يصفانه بالصراع العبثي.

لعل ما تطرحه الرواية من حل هو حل باد منذ زمن، منذ فشل مشروع الدولة الواحدة الديمقراطية، هذا الحل الذي انحلّ وتلاشى وبقي قابعا في أدراج الفكر اليساري الإسرائيلي وفكر المعتدلين العرب، وقد تراجع من المشهد السياسي عند كلا الطرفين، وبالتالي فالنتيجة الحتمية هو استمرار الصراع ومزيد من القتل والعنف، والعنف المضاد، لنشهد بين الفينة والفينة موجات عنف وارتدادات، وربما لن ينجح الزمن في حل هذه المعضلة السياسية، بوصفها أعقد المشاكل السياسية في القرن العشرين. ويبقى السؤال: ما هي أنسب طرق الحل، إنسانيا وفكريا وسياسيا، فهل من المعقول إن تبدلت الموازين وانتصر العرب أن يُرمى الإسرائيليون في البحر أو أن يجري عليهم هولوكوست جديدة؟ لقد أدخلت الرواية قارئها المتسائل في دوامة من صراع فكري لن يجد لسؤاله إجابة منطقية تحقق العدالة والحق معا. ثمة معجزة يجب أن تحدث لوجود ذلك الحل السحري في ظل هذا التشابك المعقد جدا.

ثانياً: السلام هو المعضلة الأكثر بعدا عن العدالة

في هذه الرواية كمّ كبير من التسامح. وكمّ من الأسئلة التي تدور في الذهن: لماذا كتب كميل بهذه الطريقة؟ هل تعب من السجن والاعتقال؟ هل شعر باليأس من التحرير؟ هل تعب من البندقية بعد أن أورثته تسعة من المؤبدات

في ليل طويل قاسٍ؟ هل أصبح أكثر حكمة أم أنه انهزم؟ لماذا كل هذا الاستناد على حائط التاريخ الموغل في القدم وخاصة الأسطوري البعيد جدا؟ هل كان يبحث عن أرضية مشتركة للعيش المشترك؟ لماذا هذا الاستشهاد اللافت للنظر بكتابات اليهود، وخاصة روايات ومسرحيات حانوغ ليفين؟

يقتظ الفصل الثامن عشر بالكثير من الاقتباسات التي وجدها إبراهيم في كتابات أمه في كراساتها الخاصة التي كانت حريصة على ألا يطلع عليها أحد بمن فيهم إبراهيم نفسه. وتحضر من ضمن المقتبسات اقتباسات من حانوغ ليفين صاحب مسرحية «ملكة الحمّام»، هذا المسرحي الإسرائيلي الذي أغضب موشيه دايان، إذ لم يكن حانوغ صهيونيا، وكذلك لم تكن شلوميت صهيونية. هل ثمة نية في عقل كميل لوجود التعايش والتسامح؟ هل تكفي مسرحيات ليفين التي أغضبت العسكر الإسرائيلي الصهيوني أن تكون أرضية للتعايش؟ وأولا وأخيرا: هل الدعوة للتسامح- بهذه الطريقة أو تلك- جريمة؟

في حوار مع الشاعرة فدوى طوقان يعود لعام 1981[1]، تذكر قصة لقائها بموشيه دايان، وكيف كان موقفه من عودة اللاجئين. أكبر مشكلة وجودية لإسرائيل هم اللاجئون. فعودتهم حسب القانون الدولي المجمّد[2]، هو انتهاء إسرائيل عمليا كما قال موشيه دايان لفدوى طوقان، لأن كل اللاجئين سيعودون إلى أرضهم وأملاكهم التي تركوها. إذن سيرحل الإسرائيليون جميعا عنها، إلى أين سيذهبون، ستزول إسرائيل بالفعل لو عاد اللاجئون. لم تصل فدوى ودايان إلى حل، فلا هو استطاع أن يقنعها بوجهة نظره، ولا هي استطاعت أن تقنعه بوجهة نظرها، لذلك تقول فدوى: «ودار الحديث في هذه الحلقة المفرغة»[3]، لأن الفكرتين لا تجتمعان: فكرة وجود إسرائيل وفكرة عودة اللاجئين. هذا ما ناقشته رواية كميل أبو حنيش «مريم/ مريام»، لتصل إلى قناعة أن الإسرائيليين لن يسمحوا لمريم بالعودة إلى بيتها في صفورية وإن سمحوا لها لن تكون إلا

1. حوارات فدوى طوقان، د. يوسف بكار، الآن ناشرون وموزعون، عمّان، ط2، 2019. تسرد فدوى طوقان قصة لقائها بموشيه دايان في الصفحات من 31-29.
2. ينص القرار رقم 194 على: «وجوب السماح بالعودة، في أقرب وقت ممكن للاجئين الراغبين في العودة إلى ديارهم والعيش بسلام مع جيرانهم، ووجوب دفع تعويضات عن ممتلكات الذين يقررون عدم العودة إلى ديارهم وكذلك عن كل فقدان أو خسارة أو ضرر للممتلكات بحيث يعود الشيء إلى أصله وفقاً لمبادئ القانون الدولي والعدالة، بحيث يعوّض عن ذلك الفقدان أو الخسارة أو الضرر من قبل الحكومات أو السلطات المسؤولة».
3. حوارات فدوى طوقان، (ص31).

عودة منقوصة مشروطة، كما عاد عادل من لبنان إلى رام الله على إثر اتفاقية أوسلو، فلم يعد إلى أرضه وبيته وقريته، بل عاد إلى ذلك الجزء الذي أصبح متاحا بفعل الاتفاقيات.

علينا التسليم بأن المشكلة مع الزمن تزداد تعقيدا لتغدو معضلة، ولن يكون الزمن كفيلا بحلها، كما راهن الإسرائيليون بمقولتهم المشهورة: «الكبار يموتون والصغار ينسون»، لأن عدد اللاجئين في ازدياد، وعدد السكان الفلسطينيين في داخل الكيان «إسرائيل» في ازدياد، والصغار ورثوا الحق وطالبوا فيه بعد أن مات الكبار، لذلك تزداد الفوبيا الصهيونية من العربي ووجوده فتزداد تطرفا، ولا يعرف التسامح والسلام طريقه إلى عقل السياسي الإسرائيلي، فشرّع قانون القوميّة، وحارب اللغة العربية، وغيّر أسماء المدن والمواقع، وزيّف كثيرا من الحقائق، وخلق واقعا جديدا، وبالمقابل تزداد أحوال اللاجئين بؤسا في الداخل والخارج مما يجعلهم مصرين على حقهم في العودة إلى بلدهم ووطنهم وممتلكاتهم التي اقتلعوا منها. وخاصة بعد مشكلة اللاجئين الأخيرة في لبنان، فقد ظهرت أصوات، وإن كانت خجولة وجنونية، تنادي بزحف اللاجئين إلى فلسطين المحتلة عام 1948، وطالبوا أن يعودوا إلى بيوتهم. وربما كان هذا هو السبب الحقيقي في تراجع وزير العمل اللبناني عن إجراءاته المتعلقة بالعمل. فلعل هناك من ضغط عليه ليتراجع، فليس من مصلحة إسرائيل أولا انفجار الوضع، لأنه سيكون كارثيا.

سيظل المخيم رمزا لمأساة الفلسطينيين، تلك المأساة التي لم تفلح اتفاقية أوسلو بحلها، وفشلت فيه فشلا ذريعا كل جولات المفاوضات بين الإسرائيليين والعرب والفلسطينيين. في هذا الجو القاتم يمكن فهم محاولات تصفية الأونروا وإيقاف الدعم الأمريكي عنها. لأن وجود هذه المنظمة سيظل يذكر بالنكبة وأن هناك شعبا قد اقتلع من أرضه، وأن له حقا سيظل يحلم باستعادته.

إذن، وعودا على بدء، ما أهمية طرح التسامح في أدب حانوغ ليفين وفي رواية مريم/ مريام؟ إنه في نهاية المطاف تفكير لا يقوم على تحقيق العدالة، لاسيما وأنه لا يحق لأحد التصرف في حق الشعب الفلسطيني وخاصة حق العودة[4]، لا

4. نصت المادة (13) من دستور دولة فلسطين على أن: «للفلسطيني الذي هجر من فلسطين أو نزح عنها نتيجة لحرب عام 1948 ومنع من العودة إليها، حق العودة إلى الدولة الفلسطينية وحمل جنسيتها، وهو حق دائم لا يسقط بالتقادم».

الأدباء الفلسطينيون ولا الساسة المتسامحون من الإسرائيليين والفلسطينيين. وستظل القضية معلقة، كما بقيت معلقة في الرواية، ووصلت إلى خيبة أمل، وأدت إلى الموت قهرا ويأسا للشخصيات التي انتظرت الحل السلمي أو تلك التي تحلم بالعودة، فقد رأته يبتعد كل يوم أكثر وأكثر، هذا البعد الذي عبر عنه مريد البرغوثي في قصيدته «طال الشتات»[5]:

طال الشتات وعافت خطونا المدنُ
وأنت تمعنُ بعدا أيها الوطنُ

إنه أبعد مما كان يفكر فيه مريد البرغوثي منذ كتب هذه القصيدة عام 1983[6]، بل أصبح مستحيلا، ولن يكون سيناريو محمود درويش ممكنا أيضا، هذا التصور الذي ألمح إليه في قصيدته «سيناريو جاهز»، وحاولت رواية كميل أن تتناص معها من طرف خفيّ[7]، هذا السيناريو القائم على واحد من احتمالين: إما أن نتعايش معا في هذه الحفرة التي نحن فيها حتى وإن كنا كارهين لوجودنا معا فيها، وإما أن نموت معا. لأننا أصبحنا ذا مصير مشترك. إنها دعوة للتعقل الساذج، أو ربما في أحسن الأحوال دعوة فيها الكثير من التسامح غير المبرر، على الرغم من التسليم بحقيقة ما قاله درويش: «ههنا قاتل وقتيل ينامان في حفرة واحدةٍ»[8]. هذه معضلة حقيقية، أبانت الرواية عن تعقيداتها، واستحالة حلها «دون تنازلات مؤلمة»، ومن كلا الطرفين.

باعتقادي أن كميل أبو حنيش دعا إلى تسامح غير ممكن، ليؤشر على هزيمة أو شبه هزيمة غائرة في نفسه، أو نفس شخصياته التي حملت أفكاره ومعتقداته السياسية، نتيجة وضع سياسي متأزم. ولكن هل نلوم شخصا يعاني من قسوة الأحكام المؤبدة في محاولته للبحث عن حل يتجاوز محنته الشخصية إلى حل قريب من تحقيق العدالة؟ ربما لن يجد من يلبي هذا «الممكن» مع هشاشته، وما يعنيه من حل توافقي خاضع لمنطق الواقع وسياسات يحكمها الفكر المتغطرس الساعي إلى الحرب في أحلامه ليحقق سلاما حسب مقاييسه وشروطه. فالقوة هي الحاكمة الفعلية، وليس الحق والعدالة والمنطق ولا حتى

5. الأعمال الشعرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1997، ص411.
6. ورد في نهاية القصيدة في الأعمال الكاملة تاريخ كتابة القصيدة: «أواخر 82/ أوائل 83». (ص 430).
7. ينظر الرواية، ص113: (لقد أوقعني القدر في هذه الحفرة المخيفة، كيف لي أن أكون محايدا، وأنأى بنفسي عن هذه التعقيدات كما تقول مريام؟).
8. لا أريد لهذه القصيدة أن تنتهي، دار رياض الريس، لندن، ط1، ص60.

الحب الفردي والتزاوج الذي يأخذ أبعادا في التفسير أكبر من مجرد زواج مختلط دينيا. ويبقى الماضي القريب الذي يشير إلى الصراع السياسي المعاصر الحافل بالدم والدمار هو المسيطر، فلم تفلح رمزيّة هذا الزواج أن تتجاوزه وإن بدا في الرواية في قمة الرومانسية والانسجام. علاوة على أن إسرائيل إلى الآن تخشى السلام، وأنها على استعداد أن تخوض مئة حرب بدلا من أن تخوض عملية سلام واحدة ناجحة، فالساسة الإسرائيليون يخشون السلام أضعاف خشيتهم من الحرب، لأنهم أضعف ثقافيا ممن حولهم ويخشون من الذوبان والتلاشي ككثير من الشعوب التي مرّت على أديم هذه الأرض. فأين هي الآن؟ وأين ستصبح إسرائيل بعد حقبة من الزمن؟ لن أراهن على التاريخ قليلا أو كثيرا، ولكن للأرض أيضا قوانينها التي جربتها عبر العصور.

ثالثاً: التعبير عن المحنة الشخصية في الرواية:

خلال الحوار مع الكاتبة اللبنانية مادونا عسكر حول رواية «مريم/ مريام» للكاتب كميل أبو حنيش، أثارها ما كتبته من أفكار في موضوع «التسامح» الذي ناقشته الرواية فيما فهمته من الرواية، مع أن الكاتب أبو حنيش، حاول خلال اتصال هاتفيّ معي نفي هذه الفكرة عندما ناقشته بالفكرة، وربما منعته من الاسترسال في شرح فكرته، لأنني لا أحب أن يفسر الكاتب نصه، فنحن أمام بنية نصية، فلتقل ما يجب أن تقوله دون محاولة تحديد أفق خاص للتلقي محصور بنوايا الكاتب ومقاصده.

كانت وجهة نظر الكاتبة مادونا عسكر أن ما يظهر في الرواية بناء على المقال ليس تسامحا، وليس استسلاما أيضا، إنه نوع من اليأس، أو لعل الكاتب فقد الإحساس، نتيجة أنه أصبح وحده. إلى هنا ينتهي رأي الكاتبة فيما كتبته حول الموضوع، إذ لم تقرأ الرواية ولا تستطيع أن تحكم بمعقولية ما كتبت أو شططه، ولكن من خلال ما كتبت ناقشت الفكرة في سياق عامّ، ينطبق على كميل وعلى غيره أيضا حتى من غير الكتاب، من الناس العاديين الذين فقدوا الأمل في كل شيء حولهم.

وأعترف هنا أن هذا الحوار جعلني أعود للرواية من جديد وأتأمل بعض المقاطع التي جاءت فيها بناء على توقعات الأستاذة مادونا. فقد أصبح ظهر المناضل مكشوفا هذه الأيام، فهو يناضل وحده، ويسجن وحده، ويموت وحده،

وغيره مستولٍ على الوطن ومقدراته، ويعيش بالطول والعرض، كأن البلاد قطعة أرض ورثها عن أجداده. حالة يشعر فيها المواطن أسيرا أو عاملا أو موظفا أو عاطلا عن العمل. مناخ من العبثية القدرية، يعيش الناس في فلكها دون أن يمتلكوا القدرة على التغيير، فكلهم يشعر باغتراب في وطنه، ويسأل بين الحين والحين (الوطن لمين؟). الحالة التي تكشف عنها الرواية حالة مستحكمة في الحياة ومستعصية على الحال، يحاول الناس الثورة سلميا، فيقلبها المتربصون بهم جحيما ونارا متأججة، يفشلون، فييأسون، فيرون العبث هكذا واضحا.

هذه الحالة ليست حالة إحباط شديدة فقط للمناضلين ذوي الأحكام العالية من المؤبدات، فالرواية أيضا تضع مجموعة من الأسئلة المعقدة على الطاولة أمام السياسي الذي يدّعي أنه يرعى شؤون الأسرى، فماذا قدم لهم؟ آلمال والرواتب؟ وهل قاوم المناضلون من أجل «رتبة وراتب»؟ أين المواقف السياسية الحقيقية لإخراج هؤلاء الأسرى والناس أجمعين من حالة الضياع التي يعيشونها، فالناس لا ترى شيئا من ذلك، فالساسة الفلسطينيون لا يحركون ساكنا تجاه قضايا الأسرى، ولا يستخدمون ما هو متاح من إمكانيات التجمهر والحشد الشعبي، حتى لو دعا السياسيون إلى ذلك لا أحد سيلبي نداءهم، لأن الشعب لا يثق بكل ما هو سياسي، وهم يرون أن السياسيين يعتاشون من لحم الأسرى ويشربون من دمائهم وعرقهم ويضيئون لياليهم الحمراء من عتمة الزنازين منذ الانتفاضة الأولى التي أتت بهم إلى الوطن وحتى الآن وما بعد الآن، وقد خسرنا الوطن والحلم المشتهى.

إن الشعب لا يثق بهؤلاء السياسيين وهم يرونهم لا يفعلون شيئا للأسرى، فلا يتوجهون للمحاكم الدولية لطرح قضايا الأسرى الإنسانية على أقل تقدير؛ لتحسين شروط اعتقالهم، مع أن الفكرة موجعة، وغير إنسانية، ولكن فليساعدوا الأسرى على تحقيق مطالبهم التي ينتزعونها بمعارك الأمعاء الخاوية. كل هذا يراه الأسرى عيانا، فيكظمون الغيظ، ليخلق عندهم حالة من الإحباط الشديد، والكتاب على وجه الخصوص. فهل نطالب الكتاب بأن يبثوا روح الأمل في النفوس وهم يرون العتمة تزداد من حولهم؟

لماذا لا نريد أن نرى فيما يكتبه الأسرى إلا أنه يمثل القوة والمقاومة والجبروت؟ لماذا ننتظر منهم وهم القابعون خلف القضبان أن يمدونا نحن الكسالى المُقعدين

المشلولين بالطاقة الإيجابية؟ لقد كشفت أشعار كميل أبو حنيش وروايته هذه عن هذا الفضاء القاتم المعتم، فهو شاعر تزدحم في أشعاره مفردة الليل والعتمة والشوق والحنين، ويعاني من ثقل الوقت، ونادرا ما تخلو قصيدة من قصائده التي تنحو منحى الفلسفة من مساءلة الوقت والإحساس به، وليس هذا فقط بل انعكست على كتاباته الأخرى، فأخذ يدرس «جدلية الزمان والمكان في الشعر العربي»، وتسلل شيء من ذلك في روايته، فتبدو عنده ألفاظ الزمن والأزمنة والتاريخ وكل ما يحيل إلى هذا المعجم من كلمات وألفاظ وعلاقتها بالمكان، يقول السارد: «كانوا يحدقون من هذا المكان بصفورية، ويستدعون بمخيالهم زمانها الغارب، مثل شعراء الجاهلية العرب الذين اعتادوا زيارة أطلال بيوتهم لاستدعاء الزمان الغائب، ويبكون شوقا للحظاتهم الغاربة في المكان». (ص 244)

كل هذا التأمل وهذا الاستدعاء في مفردات الزمن جعلت إبراهيم يصل إلى هذه النتيجة، وهو يخاطب أخته: «لقد تعبت يا عنات، تعبت. أشعر باغتراب عنهما، كما أشعر بخواء في هذا العالم. خواء يتسلل إلى روحي والهواجس تتسلق نفسي. ألا تجدين أن أهلي مسؤولون عن مشكلتي وما تغصّ به حياتي من متاعب؟». (ص 209).

جدير أن نقف عند هذا المقتبس، وإن كان في سياق حوار روائي؛ إلا أن القارئ يشعر أنه مقطع من مونولوج داخلي، يعبر فيه الكاتب نفسه عن مشكلته، ويحاول أن يخفيه في السياق الروائي أو يقلل من وقعه على القارئ أو يشاكس به الناقد. يقال: لا شيء يولد صدفة، أو اعتباطا، أو بلا هدف حتى الجُمل لها آباء، وتتخلق من نُطف فكرية مختزنة في اللاوعي. إن لهذا المقطع أمثلة كثيرة ومتشابهة يعبر فيها السارد إبراهيم عن محنته الشخصية، هذه المحنة التي تعبر، ولو من بعيد تأويلا، عن محنة الكاتب، ولذلك لا يصح أن تُقرأ هذه المفردات بعيدا عن واقع الكاتب، فتجربته القاسية فرضت عليه نوعا خاصا من اللغة وأساليب التعبير، لتكتسب اللغة إذن بعدا مجازيا مواريا، ولتحمل ذاكرة محملة بالوجع الذاتي والصراع النفسي الحادّ.

في مقطع آخر يلمس القارئ عمق المأساة الشخصية للكاتب. يقول مخاطبا والديه: «إنني متعب حد الإعياء، وممزق وتائه، أرغم نفسي كل يوم بالقبول بواقعي المرير، لقد أنجبتماني وقذفتم بي في هذه الحياة، وبنيتم حولكم

الأسوار العالية، وتعيشان وحدكما داخل هذه القوقعة، ماذا فعلتما من أجلي؟» (ص 202)

لا يختلف المقطعان في دلالتهما إلا في الوضوح والتعبير بصراحة أكبر في المقطع الثاني، ليسأل أمه وأباه: ماذا فعلتما من أجلي؟ ومن حق القارئ أن يفسر مدلولات الأسوار والقوقعة تفسيرا يحيل على الواقع الذي يعيشه الكاتب وكل الأسرى، وما يعيشه الساسة المنعمون، فماذا فعلت الدولة أو السلطة له ولهم وللشعب كافة، وقد جعلت منهم مناضلين وقذفتهم في غياهب الجب، وهؤلاء المترفون يعيشون مطمئنين داخل أسوارهم العالية وقوقعاتهم التي عزلوا فيها أنفسهم عن الشعب وعن الأسرى.

لا شيء يمنع من أن يكون إبراهيم الغاضب الحزين المغترب عما حوله قناعا للكاتب، وخاصة فيما يعبر عن محنته الشخصية التي عبر عنها بالاغتراب. إن هذا الموضوع يستحق البحث فيه، وخاصة إذا ما درست الرواية على ضوء ما كتبه كميل من قصائد. فثمة تشابه وتقاطع كبيران بين الرواية وبين الشعر عنده، فإذا ما كان الشعر شخصيا ذاتيا فهو أقرب إلى تفسير الحالة الوجدانية للشاعر، وتزداد أهميته في تفسير النص الروائي المقنّع بقناع السرد والسارد والشخصيات، ولكنّ كليهما (الشعر والرواية) خارجان من شخص واحد يعاني من محنة قاسية تقترب من المحنة الوجودية فعلا.

رابعاً: الشخصيات

تتألف الرواية من تسعة عشر فصلا مسرودا بضمير المتكلم، إلا أن السارد أفسح للشخصيات الأخرى أن تتحدث عن نفسها، وتقص حكايتها، وتفسر الحدث الواحد، كل شخصية حسب رؤيتها الخاصة، ولكن من خلال تحكم السارد الذي كان شخصية رئيسية ومحورية في الرواية. إبراهيم إلياس محمود الصفوري، وأمه شلوميت اليهودية وأبوه العربي إلياس، وأخته من أمه «عنات»، وجدتاه، العربية مريم واليهودية مريام، يتفاعل مع هؤلاء مجموعة أخرى من الشخوص: بنحاس وآراد وعادل وأبو سريع، ومن بعيد يظهر محمود جد إبراهيم وعاموس زوج شلوميت الأول، وابن بنحاس وأبوه (آدم) اللذان قتل أحدهما في اشتباك مسلح مع الفدائيين والآخر قتل في الانتفاضة الثانية خلال اشتباك مسلح في مدينة نابلس.

هؤلاء تقريبا هم شخصيات الرواية. ثمة شخصية متحكمة في مصائر الشخصيات الأخرى. ويظهر من خلال السرد أنه كان ذا وظيفة محددة في الرواية بدافع البحث عن نفسه، وتحديد هويته، كان يبحث عن حل العقدة، فاستمع للحكاية ذاتها من أطرافها المتعددة. يزداد حيرة ويوغل في الاغتراب، وأحيانا يقترب من الراحة والهدوء، لتراه فجأة قد غرق من جديد في لجة من الضياع. كان باحثا عما يعطيه السكينة المفقودة بسبب تكوينه المعقد ما بين يهودية الأم وعروبة الأب وإسلامه. غربة واغتراب ساهم في صنعهما من حوله. لذلك قرر أن يكتب الحكاية. يقول: «فما أود الإفصاح عنه ليس حكايتي أنا تحديدا، وإن بدت كذلك، وإنما حكاية أعداد لا حصر لها من البشر. إنها حكاية الإنسان في هذا المكان، وفي هذا الزمن على وجه الخصوص». (ص 15) هكذا يحدد السارد وظيفته داخل السياق الروائي ليكون شاهد الحكاية كلها. يجيب جدته مريام عندما سألته: «لم تقل لي: لماذا تجمع هذه الحكايات؟»، فيجيبها: «أحتاجها لأجمع شتات روحي المبعثرة. ما قيمة المرء إن لم يعرف حكايات أهله، خصوصا إذا كانت تحمل كل تلك الإثارات الرهيبة». (ص 61)

إنه لا يجمع هذه الحكايات من أجل أن يعرف فقط، ويداوي جراح روحه المشروخة، بل إن له هدفا آخر، يفصح عنه خلال حواره مع أمه سلام/ شلوميت في بداية الفصل الخامس: «كنت أود أن أسمع حكايتها لتكمل الحلقة الناقصة فلربما تكون أهم من جميع الحكايات! وحينما أصرت على رفضها، قلت لها إنني بصدد كتابة رواية». (ص 79)

إذن سيروي عن شخصيات يعرفها وشاهد فعلها أو سمع روايتها، ويبدأ بتوصيف أزمته التي يعاني منها على هذا النحو: «وأنا من فرضت عليه الجنسية الإسرائيلية قسرا، أنا ابن الثقافة الغربية والثقافة الشرقية، ابن الأزمنة والتواريخ، أعيش تعدد الشخصيات التي تتصارع في داخلي وتتنازعني على الدوام». (ص 15)، ويعلن هدفه «سأترك لنفسي العنان لكي تروي سرديتها كما تشاء، وكما يحلو لها، ما دمنا نفتقر إلى سردية واحدة متفق عليها، وما دامت تعوزنا المقدرة على بناء سردية جديدة تليق بنا كبشر في هذا المكان، وكحالمين بمستقبل يتجاوز المأساة». (ص16)، سيقوم بإعادة التركيب والتفسير لحكاية معقدة، ويجلو الحقيقة الغائبة ليكون بمقدوره تجاوز ما يعتقد أنه ماض مفخخ بالعنف والكراهية ممتد في الحاضر، لعله يستطيع العيش في المستقبل حياة

أكثر أمنا وهدوءا، تناسب حياة الناس العاديين دون عقد ومشاكل وصراعات. فهل نجح في ذلك؟

لقد حدد لنفسه إستراتيجية في بناء هذه الحكاية، وكان في كل فصل من الفصول اللاحقة يستمع للحكاية من وجهات نظر محددة، من جدته مريم العربية وجدته مريام اليهودية ومن أمه شلوميت ومن أبيه إلياس ومن صديقه عيسى أبي سريع، ويستمع لأخته عنات. ليكتشف في كل مرة أن المسألة معقدة تحكمها الأيديولوجيا والتاريخ معا.

ثنائيات الاسم واللغة:

تشير ثنائية اللغة إلى ما تعانيه الشخصيات من اغتراب، إذ «تلحق اللغة باغتراب الهوية، وتساعد في اغتراب الفكر بعد اغتراب الوجود»[9]. هذه الحالة القلقة من الوجود الشخصي عبر عنها إبراهيم بقوله في آخر الفقرة الأولى من الفصل السادس: «كيف تسنى لي في ذلك العمر الغضّ أن أخفي العداء بين اللغتين؟ كيف أحسست أن الحرب بين اللغتين تنطوي على تناقض يضج بكل ألوان العداء». (ص 93)

على هدي من المقتبسين السابقين تبدو الشخصيات في الرواية على قسمين، القسم الأول تتنازعه ثنائية الاسم واللغة، ما بين اسم عربي وآخر عبري، بدءا من إبراهيم نفسه الذي يناديه العرب الفلسطينيون إبراهيم وأقاربه اليهود ينادونه أبرم/ أبرا، وأمه ذات الاسم العبري شلوميت أو العربي سلام، وأبوه إلياس عربيا، ويهوديا إيلي أو إيليا، فكل شخصية من هذه الشخصيات اجتمع في ذاتها تاريخان عربي وعبري، وثقافتان عربية وأخرى عبرية، أما جدتاه فإحداهما عربية هي مريم، وأخرى يهودية هي مريام، ويظل يدور في صراع من أجل التوليف بين هذين المحورين العربي والعبري معا، دون أن يستطيع حسم المسألة لصالح جهة من الجهات، سواء أكانت العربية أم العبرية. هذه الشخصيات هي محور الفكرة الروائية، وتدور الأفكار حول حل هذه المعضلة ذات التجليات الفكرية والسياسية التي كان لها صدى اجتماعي مؤثر، أدى إلى قطع العلاقات بين تلك الأطراف جميعا، ليظل هو وحده كما وصف نفسه «حلقة الوصل والرابط الهزيل». (ص

9. اللغة والهوية في الوطن العربي، مجموعة مؤلفين، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، بيروت، 2013، (ص199).

167) أو جسر العبور بين تلك الشخصيات جميعا.

هذه الشخصيات المتصارعة على الاسم عربيا وعبريا، تدخل في علاقات مع شخصيات أخرى، انقسمت هي الأخرى إلى قسمين: قسم يغذّي الجانب العربي والفكرة العربية والمأساة الفلسطينية، بوصفها مأساة عربية في المقام الأول، وقسم يغذّي الفكرة اليهودية أو الصهيونية، فقد كان محمود ومريم وعادل يغذّيان الشق العربي من الحكاية ويعليان من سطوعها ضمن حكاياتهم الروائية، وبنحاس ومريام وآدم يغذيان المأساة من جانبها اليهودي أو الإسرائيلي أو الصهيوني. وثمة نوع ثالث من الشخصيات وقف محللا أو غير مبال بالصراع أو أنه يحاول التوفيق بين الجانبين المتصارعين. تبدو عنات غير المكترثة إلا بأن تعيش وتمارس حياتها بلا تدخل في السياسة والصراع وتركز على حياتها فقط ومستقبلها، وتدعو إبراهيم ليحذو حذوها إن كان يريد الراحة والهدوء، تقول مخاطبة إبراهيم: «دعك من كل هذا وعش حياتك كما يحلو لك، أنا وأنت لن يكون بمقدورنا أن نحل مشاكل العالم. لنعش لذواتنا فحسب». (ص 113)، وأبو سريع الذي يحاول حل لغز اللغة الثنائية ويعيدها لأصول كنعانية سابقة لوجود العرب واليهود كليهما، ومثله ربما كان آراد زوج عنات المؤيد لفكرة التعايش والسلام.

وتنبغي الإشارة إلى أن ما ورد بخصوص «عنات» في الرواية من معنى الاسم ودلالته، كان قد طرحه كميل في قصيدة له بعنوان «عناة»، منشورة عام 2016، ولم يزد عليه إلا أن أعاده سرديا في الرواية على لسان أبي سريع (راجع ص 141)، فقد جاء في القصيدة: «أصغي إليّ أيا عناة/ لكي أقص عليك/ ما عرفت قراءاتي الوفيرة/ في الأساطير القديمة/ أصغي إليّ/ لتعرفي أن اسمك/ اختصر الوداعة والجمال/ وحضارة الشعب المقيد بالحديد/ كي تعرفي أن اسمك اختزل/ البحار... الحب.. والأزهار.../ والجنس المقدس في المعابد»[10].

هذه الخريطة وزعت الشخصيات ليكون لكل شخصية دورها في تناول الفكرة، فانشغلوا جميعا بفكرة الصراع واللغة والتاريخ والدين والثقافة وثنائياتها، هذه الثنائية اللغوية لم يسلم منها المكان المحوري في الرواية، وهو قرية صفورية المدمرة التي أصبح اسمها «تسيبوري» تحريفا للاسم العربي، والناصرة العليا

10. نشرت القصيدة بتاريخ 12/5/2016 في الموقع الإلكتروني للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وللاطلاع على القصيدة من خلال هذا الرابط:

https//:pflp.ps/post13373/

(اليهودية)، بمقابل الناصرة العربية التي احتوت واحتضنت الناجين من أهل صفورية ليكون لهم حي مشتق أيضا من اسم قريتهم الأصلية حي الصفافرة».

هذه الفكرة الطاغية في الرواية تركت أثرها في رسم ملامح الشخصيات التي ظلت شخصيات روائية فكرية تحمل الأفكار، فتدافع كل شخصية عن فكرتها، ولم يلمس القارئ شيئا من ملامح تلك الشخصيات الخارجية أو حتى النفسية إلا نادرا في التعبير عن الحزن في حالات الموت أو رسم معالم عامة لفجيعة القتل أو التشرد.

لم تكن تلك الروايات نماذج معبرة عن الشريحة التي تمثلها كل شخصية، بل اقتربت كثيرا من الرمزية. وثمة فرق بين الشخصية النموذجية والشخصية الرمز، فإذا ما كانت الشخصية النموذجية تعبر عن كل ما يشبهها في الحياة الواقعية التي يحيل إليها النص، أما الشخصية الرمزية فهي الشخصية ذات الملامح الفكرية البحتة، وجاءت لتحمل الفكرة بطريقة سردية معبرة عن الفكرة، وكأنها «استعارات شخصية» إذا جاز التعبير، «لأن ما كان ينسب إليها من صفات، وما يوكل إليها من وظائف، يمثل أيديولوجيا الكتاب، ويدعم موقفه من الصراع»[11].

الموت يغيب الشخصيات:

يلاحظ على الرواية موت العديد من شخصياتها، ميتات مختلفة، فمنهم من مات قتلا في حوادث العنف، كمحمود وآدم وابن بنحاس، وأناس آخرين من أهالي صفورية، وصديقة عنات التي راحت ضحية عملية تفجيرية. هذه الشخصيات لم تكن في الرواية سوى علامات على تاريخ طويل من الصراع ممتد روائيا لأكثر من خمسين عاما منذ عام 1948 وحتى عام 2002 تقريبا.

وأما الشخصيات الأكثر قربا من الفكرة الروائية وحُكم عليها بالموت فهي شخصية عيسى أبي سريع الذي استشهد في مدينة رام الله في أحداث الانتفاضة الثانية. يشكل موت عيسى رمزية خاصة في السياق الذي جاء فيه، فقد كان يمثل الصوت العقلاني المثقف العارف للتاريخ والثقافة، والمعتدل في أفكاره، اليساري في منهجه. يقتل على أيدي قوات الاحتلال خلال قمعهم لمظاهرة ضد

11. خصائص الخطاب الأدبي في رواية الصراع العربي- الصهيوني/ دراسة تحليلية، د. عبد القادر شرشار، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2005، ص16.

الاحتلال. كأن هذا القتل إخراس لكل صوت عقلاني ومعتدل في طرف الصراع الثاني، وهذا ينم عن مدى العجرفة والصلف الإسرائيلي في عدم اكتراثها كدولة احتلال بأي حل سلمي، وهذه ثيمة واضحة جدا في الرواية، هذه الدولة العنصرية في تعاملها مع ما بقي من العرب على أرضهم، لتفضح ديمقراطيتهم الزائفة، وسلوكهم العدواني مع كل ما هو فلسطيني سواء في الداخل أو في مدن الضفة، فقد فعلتها الشرطة وقتلت ثلاثة عشر شابا في قمعها لمظاهرة مساندة للفلسطينيين في انتفاضتهم الثانية. يقول إبراهيم: «أدركت معنى كذبة «إسرائيل» وزيف ادعاءاتها.. كيف لي أن أصف ادّعاءات هذه الدولة، وأنا أقرأ ممارساتها ككتاب ينضح بالكراهية والعنصرية!». (ص 126)

أما القسم الثالث من الشخصيات التي كان لها الموت بالمرصد، فهي شخصيات الحكاية المتنازع على روايتها، مريم العربية تموت أولا ثم مريم اليهودية ثم إلياس وتلحق به شلوميت. كل هذه الشخصيات تستقيل من العمل الروائي بالموت. هل لهذا الموت من دلالة؟

مريم العربية تموت مقهورة، وقد طال انتظارها ولم تعد إلى صفورية، رأت أن الحلم لن يتحقق تدخل في موجة من الاكتئاب وتموت، ثم لم يطل المقام بمريام لتموت هي الأخرى، وكأن الكاتب أراد هنا إحداث توازن فكري بين المريمين، فلا بد إذن من أن تموت هي الأخرى، فلا معنى لوجودها روائيا وقد ماتت مريم العربية، وكأن وجودهما معا شرط أساسي فإذا ماتت إحداهما ينبغي أن تموت الأخرى. ماتتا ولم تلتقيا ولم تتصالحا، ماتتا وبقيت القضية معلقة دون حل، بموتهما ينتهي الصراع الروائي ولكنه لم ينته على الأرض.

أما إلياس الداعي للسلام والتعايش فإنه يموت دون معرفة أسباب الوفاة، وتلحقه شلوميت بعد مدة قصيرة، هل كان موتهما نهاية للأحلام السعيدة والحل الفردي أو رمزية الحل السلمي الذي انهار دفعة واحدة باندلاع انتفاضة الأقصى، فشعرا بأن ما ناضلا من أجله مدة أربعة عقود فشل فشلا ذريعا لذلك لا بد من مغادرة الرواية. إن موتهما ربما يؤشر على هزيمة معسكر اليسار ودعاة السلام، فلا مؤشرات على الأرض يمكن أن تبث الحياة في جثة هامدة تدعى «السلام».

أما من تبقى من الشخصيات فإبراهيم المأزوم، وعنات غير المبالية بالسياسة

وزوجها آراد وأخوها بنحاس. حياة هذه الشخصيات يكتسب رمزية معينة في الرواية، تحيل على استمرار الأزمة في نفس إبراهيم ولم تحلّ وبقي وحيدا، مع أنه يمثل قطاعا كبيرا من الناس المفتتة الهوية، وبقيت عنات التي تعيش الحياة بلا اكتراث ومعها زوجها الخجول سياسيا، ذو التوجه اليساري، وبقي كذلك بنحاس الذي يمثل المشروع الصهيوني بأبشع صوره وخاصة بما يحمله من حقد وكراهية لكل ما هو عربي. وإذا ما أُسبغ على بنحاس رمزية معينة فهو يمثل دولة الاحتلال بأقسى تصرفاتها وهمجيتها وتعجرفها ولا إنسانيتها، وفي بقائه دليل على تطرف المجتمع الإسرائيلي، ومعه الدولة، الذي يزداد تطرفا يوما بعد يوما، ولن يكون هناك حل عادل للقضية الفلسطينية، بوصفها قضية سياسية أو حتى قضية إنسانية. وربما لذلك وجب أن يبقى حيا ويبقى إبراهيم شاهدا حيا على كل ما سيجري في المستقبل من مآسٍ.

الجهة السابعة ودلالات إغلاق البنية السرديّة

يتكئُ الكتاب على تجربة السجن، ويخلق المؤلف منها عوالم مختلفة وتنويعات ثقافيّة متباينة في الشكل، فهي في الجوهر تتمحور حول ثيمات محدّدة، لها علاقة مباشرة بعالم الأسر. تصدّرت الكتاب مقدّمة للناقد فيصل درّاج، ولوحة الغلاف للفنّان التشكيلي عبد الهادي شلا، وصدر عن دار فضاءات للنشر والتوزيع في الأردنّ، وكان باكورة تعاون بين الدار وبين مبادرة «أسرى مبدعون» التي أطلقها الصديق المحامي الحيفاوي حسن عبّادي، وتمّ توقيعه في معرض عمّان الدولي للكتاب في حينه (2021)، وتمت مناقشته أيضاً في غير ندوة، ومنها الندوة الخامسة عشرة لمبادرة «أسرى يكتبون» التي تُعقد في مقرّ رابطة الكتّاب الأردنيّين بمدينة عمّان، بتاريخ: 20/10/2021.

سأتجنّب وصف الكتاب بالرواية، وكان لي رأي فيها عندما عُرِضت عليّ وهي مخطوطة. لم أشجّع كميلاً على نشرها في حينه، لما فيها من إنشائيّة وذاتيّة ولغة رأيتها غير سرديّة روائيّة، أدخلها في باب التكرار أحياناً، وهذا لا يعني حكماً تقييميّاً بالجودة أو الرداءة، بل إنّ كونها كتلة سرديّة ذاتيّة المشاعر والأحاسيس خلق لها شعريّتها الخاصّة التي تجعل الناقد يتناولها ضمن هذا المحدّد السرد- ذاتيّ، لتكونَ مثالاً على الأدب الشخصيّ الأقرب إلى فنّ السيرة الذاتيّة.

هذا الرأي النقديّ لا يمنع من اعتبار الكتاب رواية عند من رآها كذلك، فلعلّ أصحاب هذا الرأي يرون أنّ الرواية قادرة على استيعاب كلّ أشكال الكتابة السرديّة والشعريّة والبحثيّة حتّى الصور والتشكيل الفنّيّ، ويذكر الناقد فيصل درّاج- في موضع آخر، خارج مقدّمته لكتاب كميل- أنّ لجنة جائزة الغونكور الفرنسيّة المخصّصة للرواية كانت ستمنح كلود ليفي شتراوس جائزتها على كتابه «مداريّات حزينة» لو كان الكتاب مصنّفاً على أنّه رواية[1]. فالرواية ابتلعت كثيراً من الأجناس وطوّعتها لخدمتها، كما ظهر ذلك في روايات كثيرة، وأشار لذلك نقّاد كثيرون.

1. ينظر: مقدّمة مداريّات حزينة، الطبعة العربيّة، دار كنعان، 2003، ص5.

إذاً، لا يوجد للرواية شكل نهائيّ منجز محدّد ومعتمد، بل إنّ الروائيّ الجيّد- كما سبق وذكرت في مناسبات أخرى- هو من يتجاوز المألوف ليصنع شكله الروائيّ الخاصّ به، فهنا يكمن الإبداع. وجرياً وراء مفهوم الإبداع الذي يعرّف بأنّه السير على غير مثالٍ سابق، فإنّ المبدعين الحقيقيّين لا يقعون أسرى القواعد والقوالب الجاهزة، فهم من يكسر هذه القوالب لصنع قوالبهم الخاصّة بهم، وهذا ما هو منتظر منهم، ليقودوا النقّادَ إلى الحديث عن أشكال وأساليب كتابيّة مستحدثة وغير مسبوقة.

ربّما في ذهاب «الجهة السابعة» نحو شيء من الصوفيّة واللغة الشعريّة والإنشائيّة المسيطرة على لغة النصّ تقترح جماليّاتها الخاصّة بها التي لا يعيبها إن خالفت فنّيّات الرواية، ولم تتماشَ معها، وخرجت عن بعض مقرّراتها النقديّة الكلاسيكيّة.

في هذه الحالة، حالة كميل أبو حنيش، وكلّ حالة مشابهة من كتابات الأسرى، لعلّ هؤلاء الكتّاب يبحثون عن حرّيّتهم بطريقة أخرى، لغويّة إبداعيّة، فيحطّمون القواعد والأسس، ولا يسيرون عليها، ليس جهلاً منهم بتلك القواعد، بل إمعاناً منهم في إيجاد ما يجعلهم متمرّدين على واقع السجن والقيود المادّيّة، فصار التحرّر من قيود الكتابة موازياً ومعوّضاً للتحرّر من القيود المادّيّة، فيكسرون بذلك وهْم الاغتراب عن الذات وعن المحيط، ليحسنوا لفت الانتباه لهم بهذه الكتابة، وعليه فإنّ السجن لم يُحدث عند هؤلاء الكتّاب حالة اغتراب إبداعيّ، بل خلق عندهم إصراراً على تجاوز المكتوب إلى آفاق أكثر حرّيّة، ربّما أكثر من الكتّاب الآخرين الذين يعيشون ويكتبون خارج دائرة الاعتقال المغلقة. وفي هذا دلالة على أنّ هذا النتاج الأدبيّ المولود في السجن وتخلّقت أعصابه ولغته من ظلام السجن ومعاناته هو ابن شرعيٌّ لتجربة مكتملة، يلزمها طريقة خاصّة في الكتابة، بحيث يصبح كلّ شيء متاحاً، ومباحاً في الكتابة، وله شرعيّة ما، فهم يحاولون البحث عن أفق فكريّ لغويّ فلسفيّ للحرّيّة المشتهاة. إذاً، فـ «الجهة السابعة» عمل سرديّ غير مقطوع في تصنيفه تماماً، إذ استفاد الكاتب في بنائه من عدّة تقنيات كتابيّة، طوّعها لخدمة السرد والبنية اللغويّة. فخرجت على هذه الشاكلة التي استقرّت عليها.

استند الكاتب في تسمية الكتاب «الجهة السابعة»- كما جاء في تصدير آخر

الأبـواب- علـى قـول للشـاعر أحمـد شـوقي:

ولـو أنّ الجهات خلقـنَ سبعاً
فإنّ الموت سابعة الجهاتِ

والبيـت جـزء مـن قصيـدة طويلـة لشـوقي يرثـي فيهـا جدّتـه «تَمـزار»، وكمـا رثـى أميـر الشـعراء جدّتـه في هـذه القصيـدة فـإنّ كميـلاً أيضـاً يُهـدي النـصّ «إلـى روح الجـدّة عريفـة» التـي وصفهـا بأنّهـا ملهمتـه في رحلـة الحيـاة بأفراحهـا وأوجاعهـا، مـا يعيـد هـذا الإهـداء مـرّة أخـرى لبعـض أبيـات قصيـدة شـوقي حيـث يقـول:

خُلِقنا لِلحَياةِ وَلِلمَماتِ
وَمِن هَذَينِ كُلُّ الحادِثاتِ
هِيَ الدنيا قِتالٌ نَحنُ فيهِ
مَقاصِدُ لِلحُسامِ وَلِلقَناةِ
وَكُلُّ الناسِ مَدفوعٌ إِلَيهِ
كَما دُفِعَ الجَبانُ إِلى الثَباتِ

وعلـى اختـلاف بـين التجربتـين لـدى الشـاعر والسـارد، وبـين القصيـدة الشـوقيّة والنـصّ السـرديّ لكميـل، واتّفاقهمـا في المسـألة الشـخصيّة، مـوت الجـدّة واسـتحضارها، إلّا أنّ كميـلاً اسـتعار التسـمية مـن تجربـة المـوت، لكنّـه ليـس المـوت بشـكله الموصـوف المعـرّف بخـروج الـروح مـن الجسـد، كمـا في حادثـة رثـاء شـوقي لجدّتـه، بـل ثمّـة مـوت آخـر، لذلـك فـإنّ كميـلاً لا يقـف عنـد حرفيّـة التنـاص مـع بيـت أحمـد شـوقي، ولا يقصـد منـه رثـاء جدّتـه عريفـة، بـل يأخـذ المعنـى إلـى مـوت آخـر مختلـف لـه صلـة بتجربتـه الذاتيّـة ومعاناتـه الخاصّـة داخـل الجـدران، جـدران السـجن.

جـاء بـاب المـوت آخـر الأبـواب، مسـبوقاً ببـاب الحـبّ، وبـاب الحلـم، وكلاهمـا (الحـبّ والحلـم) يؤشّـران علـى معـانٍ ذاتيّـة أكثـر ممّـا يؤشّـران علـى تجـارب فلسـفيّة عامّـة، علـى الرغـم مـن محاولـة كميـل أن يصعـد بالذاتـيّ إلـى العـامّ، لكنّـه ظـلّ أسـير الـذات والجـدران، وهـذا أمـر يومـئ إلـى مـا لتجربـة السـجن مـن أثـر نفسـيٍّ بالـغ في نفسـيّته فانعكسـت في الكتابـة علـى هـذا النحـو.

لقـد حـاول كميـل أن ينطلـق بالحـبّ مـن أسـس صوفيّـة معنويّـة روحيّـة غيـر حسـيّة، فاعتمـد أوّلاً في تصديـر هـذا البـاب «بـاب الحـبّ» علـى بيـت شـعر لأبـي القاسـم

القشيريّ جاء خاتماً لمجموعة أبيات:

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقولُ ذَكَرْتُ إلْفي
وَهَلْ أَنْسَى فَأَذْكُرَ مَا نَسِيتُ
أَمُوتُ إذَا ذَكَرْتُكَ ثُمَّ أَحْيَا
وَلَوْلا حُسْنُ ظَنِّي مَا حَيِيتُ
فَأَحْيَا بِالمُنَى وَأَمُوتُ شَوْقاً
فَكَمْ أَحْيَا عَلَيْكَ وَكَمْ أَمُوتُ
شَرِبْتُ الحبّ كَأْساً بَعْدَ كَأْسٍ
فَمَا نَفِدَ الشرابُ وَمَا رَوِيتُ

ومن اللافت للنظر في هذه الأبيات امتزاج الحبّ مع الموت في جدليّة شعريّة معنويّة لجأ إليها القشيريّ للتعبير عن حالة وجد صوفيّ، اكتفى كميل بالبيت الأخير فقط، لأنّ ثمّة باباً آخر قادماً سيخصّصه للموت. أعتقد أنّ كميلاً لم تغب عنه هذه الجدليّة ما بين الحبّ والموت المجسّدة في أبيات القشيريّ، وجسّدها هو في هذا السرد.

ما بين الحبّ وما بين الموت ثمّة حلم، ثمّة حياة أخرى، واقعة في منطقة البين بين، هي منطقة غير مسيطر عليها بالكامل، وغير ضائعة بالكامل، غير موجودة ومشخّصة وغير واقعيّة، مع أنّها- أيضاً وعلى الدرجة نفسها- ليست خياليّة، هذه المنطقة منطقة ذاتيّة جدّاً، وخاصّة جدّاً، ولغتها ذات مفردات مختلفة.

هذا البناء التجريدي المعنوي في فصول «الجهة السابعة» المعتمد على المعاني الذاتيّة والتجربة الخاصّة، بهذه الكيفية المشار إليها أعلاه استدعت أن يستحضر الكاتب خلال الكتابة «تجربة البرزخ»، فبدأ بها قبل الفصل الأوّل وذكرها ملخّصاً التجربة ببعديها النفسيّ الخاصّ والواقعيّ المعيش بقوله: «في البرزخ الأبديّ حيث تقيم، تختلط الحقيقة بالمجاز، عالم له شكل الدائرة في الزمان والمربّع في المكان». كأنّ الأمر أشبه بمنفىً، لكنّ البرزخ يأخذ التجربة إلى أبعد من كونه منفىً في الجغرافيا، إنّه منفىً في الزمن، فمن يحيا في ظروف سجن كظروف كميل، ويقع فيها تحت تأثير مؤبّدات متراكمة بعضها فوق بعض، تخلق ظلمة شبيهة بالظلمات المتراكمة في بحر لجيّ، وتصبح تجربة العيش ضمن برزخ هي التجربة الأكثر دلالة ووصفاً على واقعه الذي يحياه

ويشعر به؛ فجاء النصّ سلسلة متّصلة من السرد بدأت بالبرزخ وانتهت بالبرزخ.

لا شكّ في أنّ لذلك أكثر من دلالة، وأوضح تلك الدلالات الدلالة النفسيّة؛ فالكاتب واقع تحت ظرف فُرض عليه فرضاً، مع أنّه حيّ إلّا أنّه لا يمارس حرّيّته وكامل تصرّفه، فلا يعود إلى الحياة ولا يستطيع الاندماج الكامل مع أهل تلك الحياة، يسمع عن تلك الحياة ولا يدخلها. هذا هو شعور السجين المؤبّد الذي يتطلع لما هو خارج هذا البرزخ القهريّ القسريّ. ومن ناحية أخرى عندما يتطلّع إلى ما بعد البرزخ لا يرى أفقاً ولا نوراً، ولا يرى نهاية لهذا النفق الممتدّ المظلم، يرى حاجزاً منيعاً وكثيفاً من انعدام الرؤيا والرؤية، فيظلّ قابعاً في هذه المنطقة البرزخيّة، فلا يستطيع أيضاً الانفلات والتحرّر منها بالانتقال إلى العالم الآخر؛ ليرتاح من الانتظار، ومن ألم الأحلام.

تلحّ هذه الفكرة على كميل في القصيدة، خارج السرد، إلى درجة أنّها تسيطر على منطقة اللاوعي لديه فأنطقته بالفكرة ذاتها في نصّ شعريّ بعنوان «في البعيدِ البعيد»، وجاء في هذه القصيدة قوله:

سأغدو ذهاباً
بلا أيّ مثوى
ولا أيّ حلم بأيّ إياب
إلى عالم الأمنيات
سأَمضي وحيداً
كأنّي خيال ولمّا أجيء، ولمّا أغيب
ولمّا يساور قلبي سؤال عن الأحجيات
فأيّ المرايا ستُظهر وجه الظّلال، بُعيد الرّحيل؟
هناك، وآنئذ في البعيدِ البعيد
سأمسي خواء
بلا أيّ جدوى

(موقع بيت النص الإلكتروني: 3/2/2023)

وهذه الأجواء القاتمة من الشعور بالخيبة مسيطرة على كلّ سطور القصيدة، وقصائد أخرى غيرها ممّا نشره كميل في الفترة اللاحقة لنشره «الجهة السابعة»، من ذلك أيضاً ما حكاه عن الحلم في قصيدة بعنوان «يكاد يخنقني صداي»:

«وأنا رؤاي... أنا رؤايَ
فما أنا في الكون
إلّا ذرّة تصبو إلى شوق
وحلم مستحيل مزهر
سيظلّ يلمع في جوايَ
فمن أنا؟»

(موقع بيت النص الإلكتروني، 24/1/2023)

هذه الفكرة ذاتها ما يحكم النصّ الأكبر السرديّ «الجهة السابعة»، ولا أتجاوز الحقيقة لو قلت إنّها تحكم كلّ ما يكتبه كميل أبو حنيش، وخاصّة بعد أن تعمّقت لديه حالة الوعي بهشاشة الوضع السياسيّ الفلسطينيّ، ومعه عدد آخر من كتّاب السجن، لاسيّما أولئك الكتّاب الذين يعانون من الأحكام العالية الذين فقدوا الأمل في التحرّر، ويشعرون بأنّهم في عالم النسيان، وأنّهم يتعرضون للإهمال من المستوى السياسي الرسمي الفلسطيني والفصائلي على حدّ سواء، ما خلّف في نفوسهم هذا الحزن، وهذا اليأس.

إنّ الأسير بشكل عامّ عالق بين مكانين، في مكان أشبه بالبرزخ/ القبر؛ لأنّه يقرّبه إلى الجهة المقابلة/ الجهة السابعة (الموت)، ولا يعود به إلى الوراء؛ إلى الحياة الطبيعيّة، لذلك يسيطر على السجين في مثل هذه الحالة فكرة الموت، وهو لا ينتظر الحرّيّة وإنّما ينتظر الموت؛ ومن الهواجس ذاتها ينطلق- مثلاً- الأسير رائد عبد الجليل ليعقد موازنة بين الزنزانة والقبر: «الزنزانة هي كالقبر من حيث الشكل والصفة فهي صغيرة وضيقة ومغلقة، بإحكام فلم تعد تعرف هل أنت تحت الأرض أم فوقها، وهي مظلمة ومعتمة رغم الإضاءة الصفراء الشاحبة التي تنشر شعوراً أكثر دماسة من الظلمة، وهي باردة تفوح من جدرانها رائحة الرطوبة والعفونة الممزوجة برائحة الخوف، ولم تكن الزنزانة تشبه القبر فقط من حيث حجم المكان ضيقه وانفصاله عن العالم وانتشار الدود والحشرات فيها التي تنهش لحمك الحي، ولكن كانت في جوهرها ومجازيتها ومعناها عبرت عن القبر، فإذا كان القبر هو عبارة عن محطة عبور ما بين الدنيا والآخرة،.... فالزنزانة هي الأخرى محطة انتقال

ما بين الحرية المطلقة للجسد وما بين القيد المطلق له، وهي شيء مجهول». (المخطوط، ص108-107)

وبناء على ما تقدّم كله، صار أمراً منطقيّاً أن يكون عنوان الفصل الثالث «باب الموت»، والإصرار على إثبات مفردة «الباب» في الفصلين الآخرين أيضاً، لشعوره بأنّه ولج هذه الحياة من خلال تلك الأبواب اللعينة أبواب السجن القاسية المصمتة. فما الذي أجبره على أن يحبّ بهذه الطريقة أو يحلم بهذه الكيفيّة سوى دخوله البرزخ من باب الموت، فصار ما قبل هذه الأبواب- جغرافيّاً وزمانيّاً- مغايراً في عوالمه، فابتدأ حدّ البرزخ بهذه الأبواب.

بهذه التركيبة المعقّدة من المعاني والواقع المعيش الذي يحياه شخصيّاً ضمن هذه الظروف، يغدو الموت معادلاً موضوعيّاً للسجن، فالسجن أيضاً نوع من الموت، وليس فيه إلّا انتظار الموت. فلا أمل بمثل هذا الوضع النفسيّ الكارثيّ.

إذاً والحالة هذه، فإنّ ثمّة دائريّة متخيّلة في ذهن الكاتب عبّر عنها في المقتبس السابق في رؤيته لحياة البرزخ «عالم له شكل الدائرة في الزمن». هذه الدائريّة صارت دائرة كبرى سرديّة، فجعل السرد دائريّاً، فقد بدأ السرد بالبرزخ وانتهى به. بمعنى آخر فقد بدأ عند نقطة ما، وانتهى عند النقطة ذاتها، ما جعل البنية السرديّة مغلقة في بنائها، شبيهة بالدائرة، وهذه الكيفيّة من البناء الشكليّ للسرد تحمل مضموناً متعاضداً مع ما تمّ طرحه آنفاً، فحياة الأسير داخل المربّع الجغرافيّ/ السجن أو الزنزانة تدور في حلقة مفرغة دائريّة، فمهما طال السرد والوقت بالحبّ أو بالحلم، فلا بدّ من أن يصطدم الأسير الكاتب بالأبديّة المغلقة، فكأنّهما أصبحا عبثيّين أيضاً بلا معنىً، أو بعبارة كميل نفسه «بلا جدوى»، وهما محكومان بهذه الدائرة العبثيّة، ليعبّر عن هذه الدائريّة في نهاية الرواية تحت عنوان «البرزخ»: «وها أنت تعود لبرزخ الأسر المؤبّد، تلازمك ثلاثيّة الحبّ والحلم والموت»، ويسترسل في الكتابة معبّراً عن هذه الدائريّة بلغة خاصّة؛ مخاطباً ذاته المنتظرة أن تحيا «الجهة السابعة» كما لو كانت واقعاً، وليس محض أوهام وتخيّلات.

لا شكّ في أن الكاتب أبو حنيش متأثّر فيما يطرحه عن البرزخ بنظرة الصوفيين للبرزخ، فقد أولى ابن عربي- مثلاً- أهمية للبرزخ، وكانت الفكرة حاضرة في كتبه واعتقاداته؛ جاعلاً للبرزخ مكانة ثابتة متميزة عما قبلها من عالم

الشهادة، وعما بعدها من عالم الغيب، كما أن للبرزخ وظائف متصلة بالخيال، هذا الخيال الذي كان له النصيب الأكبر في باب الحبّ وفي باب الحلم في «الجهة السابعة»، وحتى باب الموت كذلك، فكأنّ النص مبني أيضا على عالم الخيال/ البرزخ، أفكاراً، ومكانَ كتابةٍ، ولغة وأسلوباً أيضاً.

من ناحية أخرى، يُعرّف البرزخ عند علماء العقيدة من المسلمين بأنّه «أوّل مشهد بعد الموت»، فلا رجوع منه بتاتاً، فهو يقرّب الميّت إلى الحياة الآخرة، ويتّخذ السجن هذه الوضعيّة ضمن هذه الحالة النفسيّة الملبّدة بالتسليم من انعدام آفاق التحرّر على المدى البعيد أو القريب، لاسيّما وهو يرى أن أسرى آخرين مكثوا أكثر من أربعين عاماً في السجن وما زالوا فيه، ومنهم من مات فيه، ولم تتحرّر جثثهم بعد؛ ما عمّق عند كميل الإحساس بالبرزخيّة الشبيهة بحياة القبور، فصار احتمال الموت أكبر من احتمال التحرّر والنجاة والعودة إلى ما قبل السجن، فيتمّ الرضوخ النفسيّ لهذه الحالة والانغلاق التامّ على الذات والانفراد بها، داخل هذا الانفراد القسريّ، كما فعل كميل الذي اعتزل داخل السجن في عزلة خاصّة اختياريّة، وكأنّه يحاول أن يصنع له قراراً خاصّاً يشعر به أنّه قادر على ممارسة إرادته كإنسان وليتغلّب على الإحساس بحياة البرزخ التي لا ترحم، ربّما هو نوع من التكيّف الإجباريّ ليستطيع أن يعيش، متصالحاً مع هذه التجربة، بعد أنْ فقد القدرة على إمكانيّة الخلاص أو كاد.

إنّ الزمن في البرزخ لا قيمة حقيقيّة له، مع أنّه كثيف وطويل، لكنّه لا يُصرَف ولا يُصرّف في أعمال ذات صبغة بشريّة حرّة، فيصبح الزمن من هذه الناحية أيضاً صفراً، وهذا ما عبّرت عنه البنية السرديّة في تحرّرها من الزمن، فالحلم لا زمن له، والزمن لا يشكّل فيه أيّ دلالة فارقة، وكذلك الموت الذي يجعل كلّ شيء- بما في ذلك الزمن- صفراً، وأمّا الحبّ والانغماس فيه، فيجعل الزمن أيضاً صفراً، بحالة ما، لاسيّما في حالة كميل كما يعبّر عنها في «الجهة السابعة»، فقد ارتبط الحبّ بالموت كما جاء في أبيات أبي القاسم القشيريّ الصوفيّ، كما بيّنت أعلاه.

وأخيراً، هل «الجهة السابعة» نصّ سرديّ عن الموت مقفل في دلالته كما هو مغلق في دائريّة بنائه السردي؟ أعتقد أوّلاً أنّ الخوف من الموت في السجن، وثانياً نسيان الأسرى داخل السجن جعلا هذا النصّ نصّاً يحذّر بطريقة سرديّة من

الموت وثقل الموت، إلّا أنّه يحاول بشيء من المراوغة اللغويّة ألّا يجعل للموت سيطرة قاتمة ومصمتة ونهائيّة عليه، لذلك فإنّه يتأمّل متاهته في العين الثالثة ليراقب ولادة «الفصل الخامس» من تعاقب الفصول الأربعة، لعلّه يرى النور، نور الحرّيّة، يوماً ما، فما زال الحلم ممكناً، مع أنْ لا شيء ملموس يؤيّد الحلم ولغته وتهيّؤات أصحابه، لكنّ الأسرى- ومنهم الكتّاب- محكومون بالأمل دائماً، ولا مفرّ من هذا الأمل، ولعلّ هذا الأمل هو الذي يدفعهم دائماً للكتابة التي لا تأخذ معنى المقاومة فقط، بل معنى التجدّد وقهر احتماليّة الموت بيقينيّة بقاء الكتابة بعد أصحابها، كما قال الشاعر:

وما مِنْ كاتِبٍ إلّا سَيَفْنى

وَيُبْقي الدَّهْرُ ما كَتَبَتْ يَداهُ

الوجه الآخر لكميل أبو حنيش[1]

هل للكاتب وجوه متعددة؟ أم أنها الكتابة هي ذات هذا التعدد؟ في هذا الكتاب «**وقفات مع الشعر الفلسطيني الحديث**» ثمة محور آخر للكتابة ينتهجها كميل أبو حنيش، الروائي والشاعر وصاحب المقال السياسي التحليلي. هذا سؤال مفتوح متصل على امتزاج الإبداع، كتابته من جهة وتقييمه من جهة أخرى، فهل الشعراء النقاد وهم يعالجون الشعر نقديا أقدر على النقد بمفهومه الأوسع من النقاد غير الشعراء؟

تُرجع مقالات هذا الكتاب الدارس إلى الناقد الأول في الشعر العربي، وقد كان شاعرا، فالشعراء هم أنفسهم كانوا نقاد القصائد قبل بروز الناقد المتخصص، وحتى الناقد المتخصص بعد ذلك لم يكن بعيدا عن قرض الشعر وإن لم يعرف به ويشتهر. إنها إذن أدوار يؤديها أصحاب الإبداع تجاه بعضهم بعضا. كانت تنطلق من إبراز العيوب وانتقادها حتى وصلت إلى تقويم الشعر والتفريق بين جيده ورديئه. فثمة دور للناقد إذن، وكانت مهمته وظيفية متصلة بالإبداع وإتقان الصنعة الشعرية في دائرتيها الكبيرتين اللفظ والمعنى.

في كتاب كميل أبو حنيش هذا الذي نضعه بين يدي القراء ودارسي الشعر الفلسطيني ثمة ما يؤشّر نحو تلك الذائقة المصقولة والذهنية المتوهجة والدربة عالية الحساسية في تناول النصوص الشعرية التي قاربها كميل، فكان يذهب في هذه الوقفات وراء شهوة نفسه المعرفية، وكان يكتب بكل ما أوتي من قوة ومعرفة ليعبّر عما أحدثه العمل المدروس أو المقروء من أثر في نفسه، لا يمدح الشاعر ولا الشعر، وإنما كل همّه متجه نحو الكشف عما رآه في النص من تجليات ثقافية، فجاءت هذه الوقفات كاشفة عن العالم المخفي والمتجلي للشاعر أو للشاعرة كما يظهر لكميل خلال القراءة أو التحليل.

لم يقف كميل أبو حنيش في هذه الوقفات على حدود القراءات الانطباعية المتعجّلة، مع أن الانطباعية ليست عيبا نقديا كما أزعم. بل غاص في النص فاعلا ومتفاعلا مع النصوص كاشفا عما فيها من جماليات، فكأنه، وهو

1. مقدمة كتاب «وقفات مع الشعر الفلسطيني»، وزارة الثقافة الفلسطينية، رام الله، 2021.

الشـاعر والذواقـة والمثقـف، يبنـي منهجـا نقديـا خاصـا فيـه منطلقـا مـن النـص محـاورا مـا فيـه مـن أفكارا كاشـفا عمـا فيـه مـن رؤى، أو كأنـه كان باحثـا ثقافيـا ﾑ تلافيـف القصيـدة عمـا يشـبع نهمـه المعرﾑ والجمالـي، فاقتـرب مـن آليـات النقـد الجمالـي المعروفـة لـدى نقـاد لهـم بـاع كبيـر ﾑ النقـد، كمحمّـد منـدور كمثـال للناقـد الـذي اختـط لنفسـه طريقـة ﾑ فهـم الشـعر وقصائـده دون أن يكـون أسـيرا لمنهـج واحـد محـدد.

يتألف هذا الكتاب من تسـع دراسـات، أسـماها الكاتب وقفات، فتحدث عن شـعراء فلسـطينيين وشـاعرات فلسـطينيات، ولـم يكـن معنيـا سـوى بالنـص وجمالياتـه مـن خـلال مـا كان يصلـه إلـى المعتقـل مـن كتـب شـعرية ودواويـن سـواء مـن خـلال هدايـا الكتّـاب لـه شـخصيا، أو مـن خـلال مـا يوصلـه إيـاه صديقنـا المشـترك وصديـق الأسـرى الأسـتاذ المحامـي حسـن عبـادي ضمـن مشـروعه العبقـري «لـكل أسـير كتـاب» هـذا المشـروع الـذي عـرّف بجيـل كامـل مـن الكتـاب الشـباب إلـى أبنـاء الحركـة الأسـيرة، وهـا هـو ابـن بـارّ مـن أبنائهـا المقاومـين يعرّفـون القـراء علـى هـذا الجيـل وأصـوات منـه جديـرة أن تـدرس وأن يقـرأ شـعرها وأدبهـا وروايـاتهـا. وإنـه لمحفّـز كبيـر للكتـاب والشـعراء أن تدخـل كتبهـم إلـى داخـل المعتقـلات، وإنـه لشـرف أكبـر أن يهتـم الكتـاب الأسـرى بهـا فيتناولونهـا بالقـراءة والدراسـة والنشـر عنهـا. إنهـم، وهـم الأسـرى القابعـون خلـف القضبـان، يتمـردون علـى كل ذلـك فيفـرّون مـع الشـعر ويحلقـون ويوصلـون أصـوات هـذا الجيـل الـذي كثيـرا مـا عبـر أبنـاؤه عـن تواضـع الاهتمـام النقـدي بمـا يكتبـون، فيأتـي الاهتمـام مـن داخـل المعتقـلات. إنهـا مفارقـة ذات دلالـة قويـة، ولعلهـا محرجـة لنـا نحـن الطلقـاء خـارج الأسـوار الحـادة.

لقـد كنـت واحـدا مـن هـؤلاء الشـعراء الذيـن كتـب عنهـم كميـل ﾑ هـذا الكتـاب، وخصنـي بوقفـة، وكان هنـاك أيضـا ثمانيـة آخـرون وهـم: أسـامة ملحـم، وآمـال عـواد رضـوان، وإيمـان زيّـاد، وشـذى أبـو حنيـش، وعفـاف خلـف، وفاتـن مصـاروة، ومـرزوق الحلبـي، ونـداء يونـس.

لـم أكـن واحـدا ممـن كتـب عنهـم كميـل فقـط، بـل شـرّفني بـأن أبنـي مـادة الكتـاب وأحرّرهـا، فارتأيـت أن أرتّـب هـذه الوقفـات أبتثيّـا حسـب أسـماء الشـعراء المكتـوب عنهـم، مخالفـا ترتيـب المؤلـف نفسـه الـذي أعطـى لـكل مقـال رقمـا ضمـن سلسـلة حلقـات بدأهـا مـع الشـاعرة شـذا أبـو حنيـش وأنهاهـا مـع الشـاعر مـزوق الحلبـي.

لم تكن هذه المقالات هي كل ما كتبه الأسير كميل أبو حنيش في الشعر، بل إن جعبته تحمل العديد من القراءات الشعرية لشعراء عرب أيضا، وكذلك لروائيين فلسطينيين، تمّ تأجيل نشرها لكتاب قادم، أو كتب قادمة، لعلها تسدّ ثغرة في جدار الثقافة أو تبني مدماكا في معمار الأدب الذي يحتاج إلى دارسين ونقاد كما يحتاج إلى مبدعين.

آمل أن يصدر كتاب كميل أبو حنيش القادم وهو معنا، ويتنسم نسائم الحرية، هو والأسرى كافة.

تقديم كتاب رائد حواري «إضاءات على إبداعات كميل أبو حنيش»[1]

تتابنـي حالـة مـن الارتبـاك والضيـاع في كلّ مـرة أكتـب فيهـا عـن كاتـب أسـير، أو كتـابِ أسـير، والآن تـزداد الحالـة وضوحـا إذ إننـي أكتـب عـن كتـاب يتنـاول إبداعـات أحدِ كتابنـا الأسـرى الأكثـر إنتاجـا والأخصـب عطـاء، وهـو عطـاء ممتـد في حقـول الروايـة والشـعر والرسـالة والمقالـة السياسـية والمقـال النقـدي.

لـم أعـرف الكاتـب كميـل أبـو حنيـش خـارج المعتقـل، بـل إلـى الآن لـم نلتـق وجهـا لوجـه، وإن نتبـادل الاتصـالات كثيـرا، يحدثنـي وأحدثـه في قضايـا متعـددة، كتبـت في روايـة كميـل «مـريم/ مريـام» أربـع مقـالات، كانـت روايـة محفـزة للقـراءة والكتابـة. ويـدور حـوار بيننـا علـى الهاتـف حولهـا وحـول قصائـده. قصائـد كميـل مربكـة وليسـت سـهلة، ذات حمولـة معرفيـة وثقافيـة متنوعـة، وروايتـه تتحـرك في ذلـك الفضـاء المفتـرض مـن حيـاة فلسـطين التاريخيـة، وحيـاة الأسـير الفلسـطيني، وأمـا رسـائله ففيهـا الكثيـر مـن الوجـع الإنسـاني الحـاد، وأمـا مقالاتـه السياسـية التحليليـة فتـرى مـا يـراه الآخـرون، ذات بعـد نظـر ثاقـب، وأخيـرا تتمتـع مقـالات كميـل النقديـة بمسـاحة تحليليـة للعمـل الأدبـي، محـاورا وكاشـفا ومعلـلا، يسـبغ عليهـا حمولتـه الثقافيـة، لتكـون أمـام كاتـب مثقـف ومتنـور وطليعـي، غيـر مهـادن، ولكنـه أيضـا عقلـي ينمـاز بالعمـق والتبحـر والتبصـر المعـرفي.

في هـذه المقـالات التـي كتبهـا الكاتـب الطليعـي النشـيط والمثابـر والمثقـف رائـد الحـواري، يجـوس فيهـا عتمـة السـجن، ويسـتجلي نـور الفكـرة والبصيـرة التـي ربمـا بحكـم وضـع وسـياق سياسـي صعـب لـم تظهـر جليـة للقـارئ، تأتـي إضـاءات الكاتـب رائـد التحليليـة كاشـفة، وكـم هـي مهمـة صعبـة أن تكتـب مقالـة نقديـة في إبـداع كاتـب متمـرس كالكاتـب كميـل أبـو حنيـش، إذ يعتـرف إدوارد سـعيد مثـلا أن المقالـة الأدبيـة غيـر كافيـة في إعطـاء العمـل الأدبـي حقـه، ولا تغنـي عـن قـراءة ذلـك العمـل.

ربمـا اسـتطاع الكاتـب رائـد أن يقـرّب النصـوص الكميليـة إلـى القـارئ، بحكـم مـا

1. سيكون في الفصل الخامس من هذا الكتاب تقرير صحفي عن الكتاب.

يتمتع بـه مـن دُربـة ومـران علـى قـراءة الأعمـال الأدبيـة، أهلتـه ليسـتطيع التفريـق بـين عمـل وعمـل مـن الناحيـة الفنيـة، ومفاتيـح كل عمـل، وكذلـك فكرتـه وفلسـفته.

لعلـه مـن المفيـد أن أقـول إن الناقـد في خدمـة الكاتـب، إن هـذه المقولـة مهمـة في حالـة كميـل أبـو حنيـش والكتـاب الأسـرى عمومـا، هـؤلاء الكتـاب الذيـن لـم يبخـل عليهـم الكاتـب رائـد الحـواري بقـراءة مـا كتبـوا، بـل إن لـه بصمـات لا تنسـى في مجـال المتابعـة والقـراءة، وكان مـن حصيلتهـا كتـب متعـددة تناولـت إبداعـات هـؤلاء الأسـرى. فـكان أن نصّـب نفسـه لخدمـة هـذا الفـرع مـن فـروع الأدب الفلسـطيني، وهـو أدب السـجون والمعتقـلات، وعـرّف بكتابـات لـم يتناولهـا إلا قليـل مـن الأقـلام بالرصـد والتحليـل.

يضيـف هـذا الكتـاب لبنـة جديـدة أخـرى مـن جهـد الكاتـب التحليلـي، ويسـاهم مسـاهمة فعالـة في إضـاءة عوالـم كاتـب فلسـطيني أسـير، أصبـح لـه مشـروعه الأدبـي الـذي يعمـل عليـه بكامـل الجهـد والطاقـة، فـكل التقديـر لهـذا الجهـد، مـع تمنياتـي للكاتـب الأسـير كميـل أبـو حنيـش، والأسـرى كافـة، أن يمـنّ اللّٰه عليهـم بالتحريـر القريـب. إنـه ولـيّ ذلـك والقـادر عليـه.

ورش الكتابة الإبداعية للأسيرات

فلنستمر بالكتابة فإنّ لها أثرا لن يُنسى

«**اكتبْ يا هيبا، فمن يكتب لن يموت أبداً**» (عزازيل، يوسف زيدان)

أنجزت الأسيرة الكاتبة مي وليد الغصين كتابها «**حجر الفسيفساء**»، لتتحدث عن تجربتها الاعتقالية التي امتدت إلى خمس سنوات ونصف في سجون الاحتلال. وسبق للكاتبة أن شاركت في الكتاب الذي أعدته الكاتبة العراقية هيفاء زنكنة بعنوان: «**حفلة لثائرة: فلسطينيات يكتبن الحياة**» (إي-كتب، لندن، 2017) بثلاثة نصوص، واحد منها أعيد نشره في كتاب «حجر الفسيفساء»، بعنوان «حنين». وتبع هذين الكتابين كتاب ثالث بعنوان «ترانيم اليمامة» (مكتبة بلدية بيتونيا، 2021)، اشتركت فيه الكاتبة أيضاً ومعها أسيرات أخريات. وهذه الكتب هي خلاصة ورش إبداعية عقدت من أجل حث الأسيرات على أن يكتبن قصصهن، ومن بين هذه الكتب أيضا كتاب الأسيرة نادية الخياط «**احترقت لتضيء**» (وزارة الثقافة، رام الله، 2021).

للمشروع أهمية كبيرة لغير سبب؛ أولا لأنه يضيء على حياة الأسيرات بأقلام الأسيرات أنفسهنّ، فهن يكتبن عن تجاربهن، لما لهذا التجربة من خصوصية كونهن نساء أسيرات، فهذا العالم ما زال مجهولا، خاصة في أدب المعتقلات في فلسطين.

والسبب الثاني يعود إلى قلة كتب الأسيرات الكاتبات، فمن كتبن فيه من الأسيرات يعد قليلا بالموازنة مع ما كتبه الأسرى من الكتاب، لينضم هذا المشروع مع كتب أديبات فلسطينيات تحدثن في كتبهن عن التجربة الاعتقالية، كالمناضلة عائشة عودة في كتابيها «**أحلام بالحرية**» و«**ثمنا للشمس**»، والكاتبة وداد البرغوثي في رواية «**البيوت**» على سبيل المثال، وعربيا ما كتبته على سبيل المثال هيفاء زنكنة في كتابها «**في أروقة الذاكرة**»، ونوال السعداوي في كتاب «**مذكراتي في سجن النساء**»، وزينب الغزالي في كتاب «**أيام من حياتي**»، وغيرهنّ من الكاتبات اللواتي تعرضن لهذه التجربة عالمياً.

ولعل المرء يضيف سببا ثالثا؛ متعلقا بأسلوب الكتابة وطبيعتها وموضوعها، المتصل بالجانب الخاص بذاتية الأسيرة من مشاعر واحتياجات وآلام، إذ لا تستطيع كتابات الكتاب الأسرى الحديث عنه، ولا تصويره بالكيفية التي هي عليها بكثافتها المشاعرية التي تنمّ عن صدق الكتابة في التعبير عن الواقع المراد تصويره أو توثيقه، كما ستكتبه الأسيرات الكاتبات.

من ناحية أخرى، لا شك في أن هذه الكتب تساعد على اكتمال صورة عوالم السجن المخفية، تلك العوالم المؤلمة التي لا نستطيع نحن الذين لم نتعرض لهذه التجربة أن نتخيلها، فنتعرف عليها عند النساء والرجال على السواء، وطرق المقاومة في السجن، والتحايل على السجان ومحاولة العيش دون أن يكون للسجن أثر كبير. في هذه الكتابات تكتشف النفس قدرتها على المقاومة والتكيف معا، مع أن التكيف نوع من الإخضاع، لكنه الإخضاع القسري بالقوة الذي لا يُبدّل الذات ولا أفكارها ولا يوهن من معنوياتها.

أعتقد أنه من الضروري أن يقرأ الناس جميعهم أو أغلبهم بعض هذه الكتابات، لأن أي شخص في فلسطين معرض للاعتقال في أي لحظة، فهذه الكتب قادرة على أن تجعل الأسير أو الأسيرة أكثر معرفة بعالم الأسْر ومعاملة الأسرى، وبالتالي أقدر على الصمود.

علينا أن ندرك دائما أننا ما زلنا شعبا تحت الاحتلال من قمة هرم القيادة؛ حيث الرئيس في المقاطعة، وأعضاء الحكومة قاطبة، إلى هياكل الأجهزة الأمنية وعناصرها وأسلحتها ومواكبها، إلى كل فرد من أفراد الشعب، وهذا يجعل من قضية الصمود إستراتيجية وطنية، لا بد من أن تكون غذاء روحيا معرفيا يوميا ممنهجا في كل مفاصل الحياة الفلسطينية، في السياسة، والإعلام، والتعليم، والثقافة، والشأن الاجتماعي العام، ويشترك في تنفيذ هذه الإستراتيجة مثقفون، وكتاب، وأسرى محررون، ومعلمون، ومحاضرون جامعيون، وطلاب، لتكون قضية الأسرى هي الأولى، والأكثر أهمية في الواقع الفلسطيني، يلمس حضورها كل فرد، في كل اتجاه، وفي كل موقع، لتخليص الأسيرات والأسرى من هذا الوجع المستمر الذي يستنزف الأسير وعائلته، إن كنّا فعلا نرى أنّه لا بد من تحريرهم، وألا يكون الأمر مجرّد خطابات جوفاء تُنسى بعد فضّ السامر الاحتفاليّ المؤقت، لنترك الأسرى والأسيرات منسيين في «العتمة الباهرة».

فليكتب كل أسير حكايته، ولتكتب كل أسيرة حكايتها، ولتكن هناك عشرات الورش الإبداعية لتدريب الأسيرات ورعاية كتابتهنّ، وليقرأ الجميع تلك الكتابات. مع أنّ الكتابة والقراءة دون فعل سياسي مقاوم أو عسكري كبير لن نجني منها حرية الأسرى والأسيرات، فليكن هذا النشاط الثقافي المتمثل في القراءة والكتابة والنشر، دافعا للضغط من أجل التحرك، لنصرة الأسرى من خلال المسيرات والاعتصامات، والبرامج التي تلفت نظر العالم إلى أن هناك إنساناً محروماً من أبسط حقوقه الإنسانية؛ لا يرى الشمس، ولا يعرف لون السماء، معتقل لعقود طويلة؛ بسبب مطالبته بحرية وطنه، وليعيش كما يعيش الناس على أرضه، وفي بيته دون أن يطالبه غريب محتل أن يبرز هويته الشخصية، بحثا عن مطلوب للمثول أمام محاكم محتل اختلت معه الموازين، وانتحرت بسبب ظلمه وتعسفه العدالة ذاتها.

مشروع كتابة الأسيرات والأسرى لتلك التجارب، قد يكون له الأثر الكبير إذا أحسنا التعامل معه، لإحداث الوعي اللازم للثورة المجتمعية النضالية؛ تحريكا لهذا الوضع القاتم الساكن. فلنستمر في الكتابة؛ فإن لها أثرا لن يُنسى على أقل تقدير لمن يقرأ تلك الكتب وتلك القصص، ما يجعل هذه القضية الإنسانية حية في نفوس الناس أجمعين، لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً.

الزمن النفسي في «حجر الفسيفساء» للكاتبة ميّ الغصين

يلفت حضور الزمن النفسي في السيرة الروائيّة للكاتبة الأسيرة ميّ الغصين **«حجر الفسيفساء»** (مركز بيت المقدس للأدب، 2021) نظر القارئ كثيراً، لما له من إشارات كثيرة نصيّة وسياقيّة، إذ يشير هذا الزمن إلى إحساس الذات بأثر الزمن على الكاتبة أو من معها في حالتي الحزن أو السعادة، ولذلك فهذا الزمن يرتبط بالذات، ويطلق عليه الدارسون أيضاً «الزمن الذاتي».

إنّ الزمن في حقيقته هو الزمن، لكنّ الإحساس به هو الذي يختلف بين البشر حسب ما يتعرّضون له من أحوال، وما يمرّون به من حالات نفسيّة، ولذلك- مثلاً- قالوا: «إنّ الانتظار صعب وممّل»، لما يتركه الانتظار في نفس المنتظِر من إحساس ثقيل بالزمن. ولا بدّ من أن يحضر هذا الإحساس في الشعر وفي النثر، خاصّة في ما يعرف بالأدب الوجداني أو أدب البوح، ووجد في كلّ أدب، وفي كلّ العصور. لقد أشار إلى هذا النوع من الزمن امرؤ القيس في معلّقته في بيتيه

المشهورين:

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله
فيا لك من ليلٍ كأنّ نجومه
عليّ بأنواع الهموم ليبتلي
بكلّ مغار الفتلِ شُدّت بيذبُلِ

في حين أنّ عمر بن أبي ربيعة اختلف عنده الليل؛ فوجده قصيراً، ولا يريد له أنْ ينقضي بعد أنْ بات قرير العين قد أعطي حاجته من محبوبته في تلك الليلة الممتعة:

فيا لك من ليلٍ تقاصر طولُه
وما كان ليلي قبل ذلك يقصرُ

هاتان حالتان مختلفتان في النظر إلى الزمن، ولا شكّ في أنّ العامل الحاسم فيهما هو الشعور والإحساس والحالة النفسيّة للشاعر، ولهاتين الحالتين نظائر كثيرة في الأدب، وتعرّض لهما دارسون كثيرون، لكنّني أحببت أن أشير لحضورهما في الشعر قبل الدخول إلى موضوع السرد، وانتباه الروائيّين والنقّاد له. في الرسالة السادسة للروائي ماريو فارغاس يوسا المخصّصة للحديث عن الزمن، يقول: «ولكنّ هناك زمن سيكولوجي نعيه بمقتضى ما نفعله أو ما لا نفعله، وهو يتأرجح بطريقة مختلفة جدّاً في انفعالاتنا، وهو زمن ينقضي بسرعة كبيرة جدّاً عندما نستمتع ونكون مستغرقين في تجارب انفعاليّة حادّة ومبهجة،...، ولكنّه يطول بالمقابل، ويبدو بلا نهاية، وتصبح الثواني دقائق والدقائق ساعات عندما نكون في حالة انتظار أو تألّم، ويمنحنا ظرفنا الخاصّ (...) وعياً حادّاً بهذا المرور، والوقت الذي يبدو راكداً، مؤجّلاً متوقّفاً». إنّ «زمن الروايات»- كما يقول يوسا- هو «زمن مشيّد انطلاقاً من الزمن النفسي، إنّه زمن ذاتي» (الرسائل، ترجمة: صالح علماني، ص61-60).

وتأسيساً على ما سبق يظهر في كتاب «حجر الفسيفساء» هذا النوع من الزمن، نظراً لأنّ الكتاب يتحدّث عن الحياة في المعتقل، وما يصاحب الإنسان داخله من هواجس وهموم وتطلّعات وأمنيات، فزمن السجن زمن نفسيّ بامتياز، ويكون الإحساس به قويّاً في نفس كلّ من عاشه، لاسيّما في الأيّام الأولى، والأسير يرى

الزمن ساكناً لا يتحرك، عدا الانعدام بالإحساس في الزمن في الزنازين وانعدام آلات معرفة الوقت، والمكان أيضاً لا يساعد المعتقل على معرفة الوقت، فيصبح الزمن ثابتاً وقاسياً، ناهيك عن الزمن وقت التعذيب، أو وقت الانتظار أو وقت الزيارات وما إلى ذلك، إنّ الزمن يفقد قيمته الحقيقيّة ليصبح زمناً نفسيّاً، فتندر ملاحظة الزمن بحجمه الطبيعي في أدب الأسرى والمحاصرين والمرضى. فإن كان زمن الروايات بشكل عامّ مشيّد على الزمن النفسي كما يقول يوسا، فإنّه في حالة أدب الاعتقال أشدّ وضوحاً وأوجب حضوراً، لطبيعة العلاقة التي تحكم الأسير بزمنه ومكانه.

كلّ هذه الحالات التي وضع فيها الأسرى، وهي «وضع خاصّ» بتعبير «يوسا» في رسالته المشار إليها سابقاً حيث «العزلة والانتظار والكارثة التي تحيط بنا، توقّع الشيء يجب أو لا يجب أن يحدث»، كلّها حالات حاضرة وبكثافة في المعتقلات، وأشارت إليها ميّ الغصين في مواضع متعدّدة من الكتاب، ولا تكاد صفحة من الكتاب تخلو من الإشارة إليه بصورة أو بأخرى.

لعلّ أكثر ما يجعل الزمن حاضراً في نفس الأسير بكثافة لزجة هو المكان المحصور، وكلّما ضاق المكان صار الزمن أكثر كثافة، هذا ما تعبّر عن الكاتبة خلال حديثها عن مكوثها بداية الاعتقال في الزنزانة، حيث ينعدم الوقت أو يكاد، فلا تستطيع معرفة الوقت، وكأنّه أصبح غير مقسّم إلى أجزائه المعهودة؛ ساعات ودقائق وثوانٍ، فصار كلّاً متتابعاً دون انقطاع؛ «زمنا رماديا». تقول الكاتبة في وصفه: «الزمن بطيء، بطيء جدّاً كسُلحفاة هرمة، يمُرّ دون أن ينتهي، وكأنّ عقارب الساعة أصبحت لزجةً تغرق في أرضٍ طينيّة لتبتلعها». (ص23)

هذا الوقت الذي يصبح أسرع، وهي مع الأخوات في غرف الاعتقال بعيداً عن الزنازين، فيمضين الوقت بالأحاديث والحكايات، هنا في هذه المساحة ربّما يأخذ الوقت وضعه الطبيعي في نفوس الأسيرات، فيتحدّثن بشكل عادي، ويمارسن المتاح من حياتهنّ دون أن يكون للوقت حضوره النفسي القاسي، هذا الزمن الذي يعود إلى زمن ذاتي خالص عندما تذهب كلّ أسيرة إلى النوم، لتحضر الذكريات والأحلام والعذابات الشخصيّة الحميميّة بصيغتها الفرديّة، وهنا يكون الوقت خارج نطاق الواقع، ليكون زمناً خاصّاً بكلّ أسيرة من الأسيرات،

تقول الكاتبة معبّرة عن ذلك «علينا أن نخترع زمننا الخاصّ ونكسر قوّة المكان». (ص53) وبذلك تكون الأحلام وسيلة للتغلّب على الظرفين المحصورين، الراهن من الزمن والمكان: «ونحن الأسيرات، في غرفنا، كلّ واحدة على سريرها، عندما تدقّ الساعة الثانية عشرة ليلاً لا نعود نعرف بعضنا البعض، نتأهّب للمغادرة، كلّ إلى كوكبها، تُشرقُ الأرواح بأنوار الأحلام، نحو أبواب سحريّة، لا تستطيع كومة المفاتيح تلك أن تغلقها». (ص81-80)

من أجل تحقيق هذا الانفلات من الإحساس بالزمن تحضر الذكريات أيضاً، والارتداد إلى الماضي حيث تستذكر الكاتبة أيّام حرّيّتها، وتجوّلها في عوالمها المكانيّة المختلفة وحدها أو مع صديقتها وأسرتها ومعارفها: المدرسة، البيت، الحديقة، قرية ترمسعيّا، القدس، وصولا إلى أماكن أكثر حميميّة وخصوصيّة؛ وهو «حضن الأمّ». إنّ لهذه الأمكنة ارتباطاً بزمن يمرّ في حالات التشوّق والحنين، فيسحب الكاتبة من واقعها، لعلّها تفلت من قبضة ذلك الزمن الذي وصفته بأنّه لزج تغوص عقاربه في الطين.

هذا الزمن الثقيل اللزج ينقلب إلى وقت سريع ينقضي بسرعه، وذلك فيما يتعلّق بأيّام الزيارة ولحظاتها، على الرغم من أنّ الزمن الذي يسبق موعد الزيارة هو أيضاً وقت ثقيل ولزج، تستحثّه الكاتبة ليمضي بسرعة من أجل لقاء الأهل والأحبّة، هذا ما يحدث مع كلّ زيارة حيث الزمن المتعلّق بهذا الحدث الاعتقالي المهمّ للأسيرات والأسرى عموماً ليس زمناً واحداً، بل إنّه يتدرّج ليكون ثلاثة أزمنة متّصلة، زمن ما قبل الزيارة، وزمن الزيارة ذاتها، وزمن ما بعد الزيارة، ولكلّ زمن وقعه الخاصّ في نفوس الأسيرات، كما تبيّنه الأسيرة الكاتبة في هذه المشاهد: «أمّي وأخي في انتظاري، أشرقت قلوبنا بألوانٍ قُزحيّة لا يستطيع أحد مهما كان مصادرتها، انطلق أخي بأحاديثه عن بلدتنا وأقاربنا الذين حمّلوه السلام لي، وانطلقت عيون أمّي نحوي ممزوجةً بالكثير من الحب، تلك الزيارة خالية من الدموع، وسريعاً انتهي وقتها». (ص51)

أمّا ما بعد الزيارة فإنّ الأمر يصبح انتظاراً قاسياً ومملاً لموعد الزيارة القادمة: «منذ انتهاء لحظة الزيارة نبدأ بالاستعداد للزيارة التي تليها، نحسب الأيّام والليالي، والساعات والدقائق، يتضخّم الوقت ويصبح ثقيلاً وبطيئاً كخطوات فيل..».

أمّا ذكرى الزيارة ذاتها فإنّها تستعاد لتبقى «تدور في الذاكرة كفيلم يُعاد تكراره مراراً دون كللٍ أو ملل، بل يبدو في كلّ مرّة نعيده وكأنّه يُعرض للمرّة الأولى، نستعيد كلّ كلمةٍ وإشارة وحركة، وكلّ دقّة قلب. إنّ نصف الساعة هذه تحتوي على فيض من المشاعر يحتاج ساعاتٍ وساعاتٍ وأياماً، لتسعها وتسع فرحنا بها». (ص47)

هذا الزمن/ زمن الزيارة يمضي سريعاً كلّ مرّة حتّى صار أشبه بقانون يشعر به الأسرى كافّة. لتولّد هذه الحالة هذا السؤال الذي تسجّله الكاتبة نقلاً عن بعض الأسرى: «لماذا خلف شبّاك الزيارة يمضي الوقت راكضاً؟». (ص84)

لكنْ لا شيء يستقرّ في حياة الأسير ليظلّ قانوناً عامّاً، بل إنّ هناك حالات يكسر فيها المحتلّ هذه القوانين، فزمن الزيارة هو الآخر يتحوّل إلى زمن ثقيل لزج، عندما يُكسر توقّع الأسير، ويفاجأ أنّ أحد محبّيه قد تغيّب عن زيارته، هذا ما حدث مع الكاتبة التي تفاجأت أنّ أمّها لم يُسمح لها بزيارتها؛ نظراً لانعدام «صلة القرابة بينهما»، حجّة تدعو إلى السخرية السوداء، ولذلك فإنّ الزمن لن يكون في صالح الأسيرة: «مرّ وقت الزيارة كئيباً لزجاً بلا طعم ولا لون، وككتلة حزن تمشي على رجلين عدت للغرفة، ما خطب قلبي مبتور الجناحين، كبوصلة تنكر كلّ الاتّجاهات الأربع ولا تعترف إلّا باتّجاه قلبك أمّي». (ص110)

ولا يختلف الزمن النفسي في حياة الأسرى بين محطّة وأخرى، فكلّ محطات الأسر لحظات قاسية على النفس، لكنّ الوقت الذي يسبق لحظة الإفراج عن الأسير لحظة مناسبة لتكون مشحونة بنهر من العواطف والمشاعر والشوق، ولذلك فإنّ «زمن الانتظار ثقيل» (ص203)، و«الوقت يمرّ بطيئاً لزجاً» (ص214)، ومن غادرهم الأسير قبل أعوام يُوقفون الزمن عند تلك اللحظة التي لها ثقلها في النفوس. تخاطب الأسيرة ذاتها قائلة: «صغيرتك هناك مذ غيابك أوقفت عقارب الزمن لحين عودتك». (ص214)

وإذا ما تعثّرت تلك اللحظة لأمر ما يعود الإحساس بالزمن أشدّ قسوة من قبل، عندما تعلم الأسيرات أنّ زميلتين ستتأخّران عن المجموعة «ساعتين إضافيّتين لحين صدور قرار المحكمة بحقّهما، فقد تمّ رفع دعوى عليهنّ لأنّه تمّ اعتقالهنّ بعد أوسلو». (ص215) هاتان الساعتان- كما تكتب ميّ الغصين- أصبحتا أكثر

قسوة وإحساساً: «وأصبحت السنوات الخمس والنصف في كفّة، والساعتان في كفّة أخرى». (ص216)

بهذه الكيفيّة يحسّ الأسير بكثافة الوقت ولزوجته أو بتسرّبه سريعاً، ليصبح عدوّاً أو خصماً على أقلّ تقدير، سواء في حالات الحزن والكآبة والانعزال أم في حالات السرور والسعادة التي هي- بطبيعة الحال- قليلة ومسروقة، معرَّضة للاغتيال في أيّ لحظة، ولن يتحوّل الوقت إلى حالاته الطبيعيّة في نفس الأسير إلّا إذا انعتق من ربقة السجن والسجّان، ليصبح حرّاً طليقاً لا تقيّده الجدران بقيود الزمن الثقيل.

المسكوت عنه «حجر الفسيفساء»

تتحدث الغصين عن تجربتها الاعتقالية التي امتدت إلى خمس سنوات، متخذة من السيرة الروائية جنساً لهذا العمل، هذا الجنس الأدبي الذي يتيح للكاتب توظيف عناصر روائية خلال حديثه عن سيرته الذاتية أو جانبٍ منها، فعرضت مجموعة من المشاهد المنتقاة من هذه السنوات لتبين تلك التجربة، فثمة فجوات في الأحداث وفي الزمن، فلم تكتب ميّ كل ما حدث معها في المعتقل خلال تلك السنوات بطبيعة الحال، وليس مطلوبا منها فعل ذلك، لكنها من المؤكد اختارت منها هذه المشاهد التي تبين حياة الكاتبة داخل السجن وعلاقتها بالمحيط الاجتماعي داخل السجن وخارجة، وعلاقتها بالبيئة وأثر كل ذلك في نفسيتها ولغتها وانتقاء أحداثها.

وبالنظر إلى قلة كتابات الأسيرات الفلسطينيات بالمقارنة مع الكتاب الأسرى، تأخذ هذه الكتابات بعدا مهمّا جدا في سياق السرد الفلسطيني؛ لما لهذه الكتابات من أهمية في كشف العوالم الذاتية والداخلية لحياة الأسيرات، وخصوصية المرأة الأسيرة في احتياجاتها الذاتية؛ ما يفرض نوعا من خصوصية الكتابة التي لا يحسن للكاتب الأسير أن يكتبها، ولا يستطيع أن يقوم بذلك حكما وواقعاً لافتقارها ساعتئذ إلى الصدق.

لم تقترب تلك الكتابات إلى تخوم «التابو» المحذور الاقتراب منه، ليظل مسكوتاً عنه، فثمة عوالم قاتمة ربما لن تجرؤ الأسيرات الحديث عنها، لكنهن يتحدث بلغة معجونة بالإنشائية والشاعرية عن المعاناة والصمود، ويبقى الصندوق الأسود مغلقاً، ولعله لن يفتح أبداً، ليموت جانب من الحكاية، باعتقادي، هو

الأهم في تجربة الاعتقالات النسوية في فلسطين والعالم أجمع.

لقد راعى القانون الدولي الإنساني هذا الجانب من الخصوصية عند الأسيرات، ونصت المعاهدات ذات الصلة باحترام هذه الخصوصية، ويندرج التعدي عليها ضمن انتهاكات المحتلّ للقانون الدولي وبنود المعاهدات الدولية، وقد تعرضت له الكاتبة مي الغصين من بعيد، في حرجها مثلا عند استخدام الحمام لقضاء الحاجة أو للاغتسال وخوفها الدائم من أن يقتحم عليها الزنزانة سجان أو سجين جنائي إسرائيلي فينتهك تلك الخصوصية، بل إنها لم تكن تخلع غطاء رأسها إلا عندما تكون مطمئنة أنه لا أحد سيطل عليها من شباك تلك الزنزانة، لقد سبب لها هذا الأمر مشاكل صحية أدت إلى تساقط الشعر لمكوثها داخل العزل الانفرادي محافظة على غطاء الرأس ما فاقم من هذه المشكلة، ومشاكل صحية أخرى لاضطرارها إلى تأجيل قضاء حاجتها في ساعة متأخرة من الليل.

إضافة إلى الخوف الطبيعي والتوجس من الأسرى الجنائيين الإسرائيليين ومن شتائمهم البذيئة وتعديهم على المعتقلات، ومن السجانين الذين لم يكونوا ذوي نظرات بريئة للأسيرات، فكثيرا ما كانت نظرات أحدهما تخترق الأسيرة (التعبير لميّ الغصين)، حيث النظرة التي تبعث على الريبة، ولا يخلُ الأمر كذلك من الخوف من أن تتعرض الأسيرات إلى الاغتصاب أو التحرش المباشر من المحققين، مع أن هذا لم يحدث مع مي الغصين أو مع أي أسيرة ورد اسمها في «حجر الفسيفساء»، وقد كان هذا هاجس الأهل دوما وخوفهم من أن تتعرض بناتهم للاغتصاب، لذلك فإن السؤال الذي كان يدور في ذهن عمّ مي في الزيارة الأولى هو استفساره عن هذا الموضوع بالذات، ليأتيه الجواب بالنفي فيطمئن.

أعتقد أن المحقق الإسرائيلي ليس بهذه الصورة المثالية التي قد تنطبع في ذهن القارئ بعد قراءة هذه السيرة الروائية، فالكاتبة لم تقف كثيرا عند التحقيق، بل كانت إشارتها للتحقيق سريعة، ولم تضئ تلك المشاهد التي عرضتها على جوانب من التحقيق مع الأسيرات أو مع ميّ بشكل مباشر ومفصل، كما عرضته مثلا عائشة عودة.

أظن أن هذه المنطقة المسكوت عنها في تجربة الاعتقال النسوية فيها الكثير مما يجب أن تتحدث عنه الأسيرات الفلسطينيات وغير الفلسطينيات، وهذا

بالتأكيد يحتاج إلى جرأة كبيرة، كتلك التي تحدثت فيها عائشة عودة أو غيرها ممن قلن ما هو فظيع خلال المقابلات التلفزيونية بعد خروجهن من الأسر. ولعلّ القراء أو القارئات بالتحديد يريدون أن يجدو إجابات لأسئلة تدور في رؤوسهم عن هذا الجانب، فهو المهمّ من وجهة نظري لأنه هو الذي يفضح الإجراءات الصهيونية غير الإنسانية والخارجة على القانون الدولي، إذ تمثل كل كتابة للأسير، كاتبا أو كاتبة وثيقة تاريخية قد تكون وثيقة قانونية أو تدعو إلى التحقيق- إذا وجدت الظروف المناسبة- والتحرك لوقف أو للحد من تلك الانتهاكات عظيمة الأثر في نفسية الأسيرة، سواء أكانت من المحافظات دينيا أم اجتماعيا، أو من الاتجاهات الليبرالية أو اليسارية، فثمة خصوصية إنسانية نسوية إنثوية يجب ألا تنتهك، ولا يتم التعرف على تلك الانتهاكات إلا بالكتابة عنها وتعميمها. فالمسألة تتعلق بالحق الإنساني ابتداء بغض النظر عن الأيديولوجيا التي تؤمن بها الأسيرة.

يبدو لي أن اختيار لغة شاعرية جميلة في الكتابة عن التجربة الاعتقالية لن يخدم الكتابة ومشروعها، فاللغة ذات مدلول نفسي، وتكون هذه الدلالة واضحة في مثل هذا النوع من الكتابات، لذلك فإن لهذه اللغة آثار عكسية على نفسية القارئ الذي سيرى في تلك الكتابات الأنيقة الشاعرية ذات اللغة الجميلة بقاموس لغوي رومانسي غارق في جزء منه في عوالم الذات القصية، سيرى الكتابة والجمال اللغوي ولا يرى التجربة، بمعنى آخر فإن الأثر الذي تتركه تلك الكتابات سيكون أثرا ذاتيا انفعاليا، يدور في فلك الجمال اللغوي، وليس النقمة على المحتل والسجن والسجان في المقام الأول، وتدعيم القناعات بوجوب التحرك من أجل حل قضية الأسيرات والأسرى ثانيا.

على الرغم من أن تلك الحكايات التي روتها الكاتبة لا تخلو من تصوير لهذه المعاناة، ولكنها المعاناة المنزوعة التأثير الإيجابي في القارئ الدافع لاتخاذ موقف، ولو كان موقفا فكريا عاطفيّا ينمّي فيه الإحساس بقضية الأسرى بمفهومها الإنساني والوطني العامّ، من هنا ربما يكون الحديث عن لغة الكتابة هو الأبرز وليس التجربة الاعتقالية التي تشابهت مع كل من كتبوا عن الأسر وعاشوا التجربة؛ فالمساحة الخاصة والخصوصية جدا ظل مسكوتا عنها، وبشكل يثير الشكّ وعدم الاقتناع بخصوصية التجربة.

ويشترك في هذا المسكوت عنه محدودية الحديث عن المشاعر الشخصية الذاتية المتعلقة بالعلاقة مع الرجل، مع أن نزار قباني بديوانه الشعري «حبيبتي» كان من أكثر الكتب قربا إلى الكاتبة، وتحرص على أن يكون معها دائما في تنقلاتها بين المعتقلات. وهذا المسكوت عنه في الكتابة عند مي الغصين كان شاملا جميع الأسيرات، زميلاتها في المعتقل، فلم تتعرض له من قريب أو بعيد. هذه المساحة الغائبة عن الكتابة وأفقها، لا يعطي الصورة بأبعادها كافة عن عوالم الأسيرات الذاتية السرية جدا. ربما هذا أيضا جانب من الكتابة لا تستطيع الكاتبات الخوض فيه، لعلاقته بأناس آخرين، ولاعتقادهن أحياناً أنه موضوع يجب أن يبقى طي الكتمان في مجتمع، لا يرى أهمية في كشف مثل تلك المشاعر، بل إنه يسعى وبكل ما أوتي من جهل أحياناً، ومن جبروت وقسوة أحياناً أخرى إلى محاربتها وطمسها وتجريم من يتحدث عنها، أسيرا أو أسيرة، أو أي كاتب أو كاتبة من خارج دائرة الأسرى، بل تصبح كتابات الأسيرات والأسرى أشد توجسا وابتعادا وهي تتحدث عنه، فالدارس لأدب الأسرى يرى تضاؤل هذه المساحة وتقلصها في أغلب الكتابات إن لم يكن في كلها، على الأقل فيما اطلعتُ عليه من تلك الكتابات، فالأسرى ما زالوا يرون أنهم أبطال؛ ليس من الصواب الحديث عن ضعفهم الإنساني وخضوعهم لشروط العاطفة التي قد تكسر هيبتهم، على ما يعتقد بعضهم، وللأسيرات إضافة إلى هذا، محذور آخر قد يتعلق بالسمعة والتقويم الأخلاقي لسلوكياتهنّ ما قد يسبب لهن مشاكل اجتماعية.

لعلّ زمن الكتابة وظرفها كذلك هما السبب في مثل هذا الانحراف في اللغة عن طبيعتها النفسية التي من المفترض أن تكون عليها في الجانب العاطفي والتوثيقي الخاص، فقد كتبت الكاتبة كتابها ضمن ورشة إبداعية بعد الخروج من الأسر بعدة سنوات، ما يعني أن هناك مسؤولا عن الكتابة ذاتها؛ تعديلا وتحريرا، ويتعامل مع الكتابة كجماليات لغوية دون النظر إلى التجربة الاعتقالية وثقلها النفسي، هذا الثقل الذي تعافت منه الكاتبة ذاتها، على ما يبدو فيما كتبته، وليس كما كتبت الكاتبة عائشة عودة مثلا التي عانت كثيرا وهي تكتب التجربة وتعيدها، إذ قالت في أحد اللقاءات إنها كانت تنتابها لحظات ألم شديدة وهي تكتب، ففي استعادة الألم ألم آخر أشد. لم يجد القارئ هذا الألم في «حجر الفسيفساء» كما سيجد ثقله النفسي بكامل كثافته المغرقة في البؤس كما في تجربة عائشة عودة الكتابية كمثال على الكتابة النسوية الاعتقالية، أو كما

يجدها القارئ عند فرج بيرقدار الذي كتب تجربته في المعتقلات السورية في كتابه «خيانات اللغة والصمت».

هذا الواقع اللغوي الحاضر بجماليته في الكتابة لا يعني أنه لا يوجد في اللغة ومشاهدها حيوية أو توتر عاطفي يدعو إلى تأثر القارئ، بل إن في «حجر الفسيفساء» الكثير منها، ظهر بشكل واضح في «الزمن النفسي» للسرد، لكنه توتر عاطفي بلاغي سردي محصور في البنية النصيّة، سيطرت عليه اللغة، وليس المشهد السردي المحيل على الواقع ذاته، ولعله من هنا مع عناصر أخرى ألمحت إليها، اكتسب العمل صفة «السيرة الروائية» في اختيار التجنيس الفنّي له، ومع التسليم بالموهبة التي تمتعت بها الكاتبة لتكتب بهذه الطريقة إلا أن اللغة- في ظني- كانت حاجزا نفسياً يحول بين القارئ والتأثر بالتجربة ذاتها من حيث كونها تجربة اعتقالية ووطنية وإنسانية على درجة كبيرة من الأهمية التوثيقية والسردية.

وهذا يقود الدارس إلى الحديث عن أمر مهم- في اعتقادي- وهو الانتباه إلى مثل هذه اللغة عند الكتابة، وأعيد مرة أخرى ما قالته عائشة عودة في مقدمة كتابها «ثمنا للشمس»: «لم أشأ إخراجها (مادة الكتاب) بلغتها الجافة التقريرية والتوثيقية، بل حلمت بكتابتها بلغة حية، كما التجربة ذاتها؛ يكون فيها صراع وانتصار وانكسار وذبول وتلألؤ وغوص في العمق، لا مجرّد أحداث تسجّل»، وبلا شك فإن ما قالته عائشة عودة عن حلمها بالكتابة موجود في كتاب ميّ الغصين، لكنه- حسب ما أزعم- توارى خلف بلاغة اللغة وشاعريتها، ما جعل اللغة هي الأولى وليست التجربة الاعتقالية ذاتها. فهل كانت تريد الكاتبة أن تنتصر باللغة كما انتصرت على السجان بمثل هذه اللغة؟ احتمال وارد لكن لا يخلو من المحاذير عند القراءة النفسية للعمل الأدبي، تلك القراءة التي تكشف عما وراء اللغة من محدّدات ومحركات.

هواجس الكتابة الذاتية في كتاب ترانيم اليمامة

يطرح كتاب «ترانيم اليمامة» أسئلة كثيرة، لعلّ أهمها تلك الأسئلة المتعلقة بصنعة الكتابة، فالكتاب اشتمل على (10) شهادات لأسيرات فلسطينيات، عانين من الاعتقال وظروفه، وربما لا يجد الدارس في شهاداتهن الشيء المختلف عن كتابات أخرى تناولت تجربة الاعتقال، فالتفاصيل هي ذاتها تقريبا، وإن

اختلفت في بعض الأحداث الصغرى، فالاختلاف لا يشكل عنصرا فارقا في تلك التجارب، بوصفها تجارب إنسانية وطنية، وفي هذه الحالة يحسن بالدارس الالتفات إلى الأسلوب وملاحظة الفرق بين أسلوب كتابة وأخرى، وتتبع تجربة الكتابة ذاتها عن السجن، لمحاولة الإجابة أو التفسير عن أسئلة تخص الغاية من الكتابة وأهدافها، ولمن كتبت تلك الشهادات، وما أثر الزمن في الكتابة، وما سوى ذلك من أسئلة.

ما يدعو إلى تبئير هذه الكتابة عن أدب الاعتقال، أو أدب الحرية، ربطه بأدب الاعتقال المكتوب بأقلام نسائية، من أمثال ما كتبته الكاتبات السجينات في كتب مستقلة، عدا ربطه بفكرة الكتابة عن التجربة ضمن مفهوم الورش الإبداعية، ونتج عنه عدة كتب؛ أشرت إليها آنفاً.

يستعير الكتاب عنوانه من تعبير ورد في شهادة عهود شوبكي، تقول في شهادتها بلغة وجدانية قريبة من اللغة الشعرية مستخدمة الجمل القصيرة: «هجرت البيت إجباراً، هاجمني طوعا الليل في انطواء، مررت عبر الدروب دون أن أراها، سمعت أصوات اليمام، سكون الليل يقتلني، الضوء الأعمى أيقظني». ويقوم العنوان في تركيبته على البعد المجازي في الدلالة على تلك الشهادات، وربما أحال العنوان إلى عنوان رواية الكاتبة الفلسطينية ليلى الأطرش «ترانيم الغواية»، لما لهما من التركيب الإضافي ذاته، والتطابق في الإيقاع، إضافة إلى ما يختزنه العنوانان من روح شفافة هي أقرب إلى روح المرأة الباحثة عن الجمال والأناقة في التعبير والصياغة.

ويدل الكتاب كله على الجهد النسائي المبذول في صنعة الكتابة؛ صياغة الشهادات، وتحريرها وتقديم الجهة الراعية، فهناك اثنتا عشرة امرأة اشتركن في هذا الكتاب، فبالإضافة إلى السجينات العشرة، هناك محررة الكتاب والمشرفة عليه الكاتبة ابتسام أبو ميالة، وكذلك تقديم آلاء القاضي ممثلة لمكتبة بيتونيا راعية الكتاب ومشروع الكتابة الإبداعية، حيث كان ترانيم اليمامة الإصدار الثاني للمكتبة.

وثقت عشر سجينات فلسطينيات تجربتهن الاعتقالية، وتراوح تاريخ تلك التجارب بين عامي 1978 كأقدم تجربة اعتقالية للأسيرة شريفة أبو نجم، وعام 2006 المتمثلة في تجربة جيهان دحادحة، وما بين تلك التجارب وكتابتها

يتراوح الزمن ما بين ثلاثين عاما وعشر سنوات تقريبا عدا ما ضمه الكتاب من يوميات مي الغصين التي كتبت في المعتقل. هذه الإشارات الزمانية للكتابة تدعو إلى بحث أثر الزمن الكتابي على الكتابة ذاتها، لاسيما أن هناك أسيرتين كانتا طفلتين حين الاعتقال وهما: جيهان دحادحة وعهود شوبكي، كما اختلفت تلك الشهادات في طولها وأسلوبها، وتميّزت كذلك شهادة الأسيرة شريفة أبو نجم باختلاف قضيتها عن بقية الأسيرات.

تغلب على خطاب تلك الشهادات اللغة الوجدانية التي تذهب إلى الحديث عن المساحة الشخصية جدا في التجربة الاعتقالية دون أن تلجأ الأسيرات إلى اللغة الشعاراتية أو السياسية الكبرى، ففي شهادة تغريد سعدي ثمة كتابة خارجة من عمق الذات، كأن الكلام مقدود من الأعصاب، فيها نوع من الحياة، عدا ما في هذه الشهادة من مسحة التفلسف الذاتي في محاولة تفسيرها أسلوب التعري الكامل عند تفتيش السجينات على سبيل المثال.

غاب عن تلك الشهادات الخطاب السياسي العام بتفاصيله ومفرداته المعهودة في كثير من الأدب الاعتقالي، لتصور الأسيرات بدلا من ذلك الحالة الإنسانية لكل واحدة منهنّ، وتفاصيل تلك الحالة وارتباطها العائلي والوجداني، ولذلك تركز هذه الشهادات على البعد الإنساني ومفردات الاحتياج الذاتي البشري، والذهاب إلى تفاصيل حياة السجن، وخاصة المكان في كثير من تلك الشهادات، وأهملت أغلب الشهادات، ولعله متعمد، الحديث عن سبب الاعتقال، فلم يكن واضحا تماما، فلم تضئ الشهادات هذا الجانب، وإنما اكتفت بالحديث عن المعاناة والأثر النفسي لتلك التجربة. هذا ربما يجعل هذه التجارب ناقصة، فلم تعرّف القراء على طبيعة الدور النضالي للمرأة الفلسطينية ضمن سياق المقاومة العام للشعب الفلسطيني، لاسيما وأن الكاتبات اعتقلن في ظروف متباينة وأوقات متعددة ومن بيئات مختلفة. فالشهادات تقول إن المرأة اعتقلت وحوكمت وتعرضت للتعذيب، لكنها لم تجعل كل هذه الخطوط ضمن إطار العمل النضالي الذي ظنّ الاحتلال أن الأسيرات قمن به وحوكمن بناء عليه. يبدو أن الأسيرات ما زلن يحتفظن بأشياء خاصة من تلك التجارب يفضلن ألا يطلع عليه أحد.

يبدو من خلال بعض الشهادات أن صورة الأب صورة مثالية، وأكدت هذه

الشهادات التي ذكرت الأب صورة مختلفة عن الأب، تلك الصورة التي تبين الأب قاسيا ومسيطرا كما تظهر في كثير من الكتابات للكاتبات غير الأسيرات. في حياة هؤلاء الأسيرات كان الأب إيجابيا وداعما، ومشجعا، واستمدت الأسيرات القوة من كلمات آبائهنّ، عدا الصورة الإيجابية بطبيعة الحال للأم وللعائلة بشكل عام.

استذكرت بعض الكاتبات كتابات أخرى، واقتبسن من أشعار محمود درويش وأحمد مطر، وغسان كنفاني، ووليد الهودلي بستائر العتمة ومدافن الأحياء، وعبد الرحمن منيف وروايته شرق المتوسط، وقبل كل هؤلاء سيطر الخطاب الديني على كثير من كتابات الأسيرات واستحضرت بعضهنّ قصة سيدنا يوسف عليه السلام.

هذه باعتقادي الخطوط العريضة التي تلتقي حولها هذه الكتابات، وعلى أهمية تلك الكتابات إلا إن ما يهم من تلك الكتابات ليس الكتابة بحد ذاتها، إنما لماذا يلجأ إلى كتابة التجربة وقد مر عليها زمن وأقله كان عشر سنوات؟ هل من هدف لتلك الكتابة؟

أظن أن ما أشارت إليه أريج عروق في شهادتها عن أهمية الكلمة ودورها في تقوية المعنويات، هو عصب وروح تلك الشهادات، على الرغم من أنها تحدثت عن أثر الكلمة الإيجابية المسموعة من الآخرين في النفس، إلا أنه قد ينطبق أيضا على الكتابة التي هي تجسيد لتجربة معينة فيها رسالة للآخرين بلا شك فيستمدوا منها القوة، فقد ورد أيضا في شهادة جيهان دحادحة تأثرها الكبير برواية وليد الهودلي ستائر العتمة التي بدت أنها تحفظها، فأخذت تستذكر أوصاف المكان كما هو مرسوم في الرواية لتجد التطابق.

إن اطلاع الأسيرات أو بعضهن على التجارب الاعتقالية السابقة جنبهن الكثير من الانكسار والضعف وخاصة مع المحققين أو مع العصافير، فكل تلك الأساليب قد مرت عليهن كتابة من تجارب غيرهن، فأكدت التجربة الذاتية لكل أسيرة من الأسيرات صدق المكتوب في تلك الكتب أو ما سمعنه من ذويهنّ فلم يتفاجأن بشيء، لذلك كنّ أقدر على الصمود والمواجهة والثبات.

كأن هذه الكتابات كانت ضرورية أيضاً من ناحية نفسية، فهؤلاء الأسيرات يقدرن تجاربهن تقديرا جيدا، وفخورات بأنفسهنّ، وحققن نوعا من الانتصار

على السجانين كما يظهر في تجربة شريفة أبو نجم وفي تجربة عطاف عليان ومنى قعدان. فهذه التجارب من وجهة نظرهن لها أهمية في رسم صورة كتابية للذات وترويجها للآخرين بالكتابة لتصنع عالما موازيا مع كتابات الكتاب الأسرى، فثمة خصوصية للأسيرات، أضاءتها تلك الشهادات وإن كان بالتلميح أكثر من التصريح إلا أنها كانت نافعة لمن يقرأ تلك الشهادات من العاملات في الأعمال الوطنية، ليكنّ على استعداد لما سيحصل، فالأمر ليس نزهة بل هو مغامرة لها نتائجها، فلنكن مستعدين، رجالا ونساء لدفع الثمن ونكون أقدر على المقاومة ومواجهة عالم السجن القبيح.

إن كتابة الأسيرات لتجاربهن أمر مهم ليعوض النقص في تلك الكتابات، وذلك لعدة أسباب ذكرتها الكاتبة هيفاء زنكنة في مقدمة كتاب حفلة لثائرة من بينها: أن كتابات الأسيرات قليلة «مما يسهل تغييب أصواتهنّ»، وإحجامهن عن الكتابة نظر لحساسية التجربة التي وقعن فيها، «أو لأنهن لا يرغبن بجذب الأنظار إليهن، فالمحيط العائلي والتقاليد المجتمعية لا يسمحان بذلك، أو لأنهن يرغبن بتجاوز تجربة المعتقل المريرة عن طريق النسيان». كما تذكر الكاتبة أسبابا أخرى من مثل: «التهيب من فعل الكتابة ذاته، وما تربين عليه من قدسية اللغة العربية وعدم جواز ارتكاب أخطاء نحوية خشية تدنيسها»، وتضيف أن انخراط الأسيرات في العمل والعائلة يدفع «المعتقلات إلى عالم الصمت فيبقى جرح التجربة المريرة غير قابل للاندمال».

أظن أن هؤلاء الأسيرات اللواتي كتبن تجاربهن، ويغلب عليهن التدين والالتزام لا يتفقن تمام الاتفاق مع ما قدمته الباحثة هيفاء زنكنة من أسباب لقلة الكتابة أو انعدامها. هذا لا ينفي وجود تلك الأسباب ووجاهتها عند البعض منهن، وعند الكتّاب الأسرى أيضا، إضافة إلى أنه ليس كل من تعرض لهذه التجربة كتب عنها، سواء من الأسرى أو الأسيرات، ربما يتعلق ذلك بوجهة نظرهم عن الكتابة وعدم جدواها من حيث الأصل. علما أن عدد الأسيرات بالنسبة لعدد الأسرى قليل، ولهذا فإن عدد الكاتبات أقل من عدد الكتاب، إضافة إلى أن الأسيرات اللواتي كتبن تجاربهن في كتاب «ترانيم اليمامة» لم يكتبن كل شيء، كما أسلفتُ آنفاً، وربما في هذا الجانب تبدو بعض الأسباب التي ذكرتها الكاتبة هيفاء زنكنة صحيحة تماما في الاختيار المدروس الذي قد لا يسبب إزعاجا لهن ولمحيطهن، مكتفيات ربما بالمثل الذي يقول «تتذكر وما تنعاد».

تبقى تجربة «ترانيم اليمامة» في توثيق معاناة الأسيرات تجربة كتابية مهمة، ولازمة، ولعلها تدفع الأخريات للكتابة بطريقة أكثر عمقا وتفصيلا، وربط الشخصي الذاتي مع السياق العام، ليتجاوزن مرحلة «البوح الشخصي» إلى كتابة فيها كل معالم الحياة النضالية للكاتبات اللواتي عشن تجربة مريرة، وليس فقط الاعتقال، بل ربما دفعت الأخريات من النساء المعنفات اللواتي يعانين من الاضطهاد في الأسرة أن يكتبن تجاربهن، لعل في هذه الكتابة تخفيف من الوجع ليشعرن بأهمية ما يقمن به، وما يقدمنه من خدمة لأنفسهن أولاً بوصف الكتابة عن التجارب السيئة نوعا من العلاج، ولما يقدمنه ثانياً للنساء الأخريات من خدمة في قراءة تجاربهن المتشابهة في كتابات الأخريات وتجاربهن. كما يلاحظ الدارس ذلك في كتاب «حجر الفسيفساء» وكتابات عائشة عودة وأخريات غيرهما.

الفصل الخامس:

الحضور الجماهيري لأدب الأسرى

إصدارات وكتب

للسجن مذاق آخر

يمكن أن يصنف الكتاب على أنه كتاب يوميات ومقالات، صدر عن دار الأمين، يقع الكتاب في (172) صفحة من القطع المتوسط، يتحدث فيه مؤلفه أسامة الأشقر عن يوميات المعتقل حتى غدا للسجن مذاق آخر. «فصور واقع الاعتقال وما يتعرض له الفلسطينيون على يد السجانين من معاملات قاسية ووحشية»، ووقوعهم في فخّ الجواسيس في السجن، أو ما يعرف بظاهرة «العصافير»، والحديث عن الإضرابات والعزل الانفرادي، وما إلى ذلك.

وتبرز رسائل الكتاب بقوله: «لم أرد من خلال كتابة هذه الصفحات سرد أعمال «إسرائيل»، ومخابراتها وجهاز الموساد التابع لها، فالغاية هي محاولة الإضاءة على الجوانب التي تستخدمها «إسرائيل»، وإعطاء بعض الدروس التي يمكن أن نفيد بها أجيالنا القادمة. (ص 17)

رسائل كسرت القيد

كتاب آخر للكاتب الأسير أسامة الأشقر، صادر عن دار الرعاة للدراسات والنشر وجسور ثقافية، رام الله وعمّان، في طبعته الأولى عام 2022، قدم له الكاتب المقدسي محمود شقير، ويقع الكتاب في (253) صفحة من القطع الكبير.

كتب المحامي حسن عبادي معرّفا بالكتاب «يشمل في قسمه الأول رسائل شخصيّة كما في رسائله إلى أفراد أسرته المقرّبين: والده، وإلى أمه، وإلى منار زوجته. وأخرى عامة؛ يقدّم فيها الأشقر عُصارة تجربته، فكتب إلى الحب، والبحر، والسنبلة، والسوسنة، وإلى الشمس والقدر والليلة المقمرة، وإلى طاووس، وفراشة، وإلى الحمامات. وكذلك رسائل فلسفيّة وفكريّة إلى مثقفين راحلين؛ شكسبير وماسلو، وإلى جابوتنسكي وجورج أورويل، وإلى نزار قباني ومحمود درويش، وأخرى إلى الحريّة.

واشتمل الجزء الثاني رسائل إلى دول وعواصم، وإلى مؤسسات، وكذلك مراسلات مع مبدعين، وإلى القائمين على مبادرة «أسرى يكتبون»، ورسائله إلى إعلاميين.

ورأى عبادي أن الهدف من هذه الرسائل «ربط الحالة النضالية المتمثلة بشريحة الأسرى مع الحالة الإبداعية المتمثلة بالشخوص الذين يقرأ عنهم في الصحف أو يسمع مقابلاتهم في الإذاعات، وذلك يصب في المحصلة النهائية في دفع مسيرة النضال الوطني إلى الأمام».

ويثبت الأشقر ردود أفعال الكتاب والسياسيين على رسالته لهم؛ فقد بعث نصا موحدا لمجموعة من الكتاب والمثقفين، وجاءته الردود عليها، تراوحت بيت الاقتضاب والتطويل.

حيفا تحتضن أولى كتابات الأسيرة أماني الحشيم

صدر في حيفا الكتاب الأول للأسيرة المقدسية أماني خالد الحشيم بعنوان «العزيمة تربّي الأمل»، ويقع الكتاب في (50) صفحة من القطع المتوسط.

اشتمل الكتاب على (25) نصا وجدانيا، بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة، وكانت الكاتبة قد كتبت تلك النصوص في معتقلها في سجن الدامون، صمم الكتاب والغلاف الفنان الفلسطيني ظافر شوربجي، وحرره وراجعه الكاتب فراس حج محمد، وقدم له المحامي الحيفاوي حسن عبادي. ومما جاء في التقديم: «تحلم بساعة التحرر آملة أن تفتح بوابة السجن بيدها لتمشي بالشارع دون مرافق، لها كباقي الأسرى أحلام وطموحات، فالسجن محطة عبور، ويبقى السؤال محلقا: هل كسرك السجن وحطم أحلامك؟ فهناك الكثير ممن كبرت أحلامهم داخل السجن».

تحدثت الأسيرة في كتابها عن الهموم الشخصية والعامة، وعن بعض مشاهد من المعتقل، مع سيطرة لافتة للنظر لموضوع الأمل، فقد حضر في عناوين نصوص كثيرة، سواء مباشرة أو مجازاً، واتكأت في بعض النصوص على نصوص أخرى حاورتها الكاتبة بطريقة أو بأخرى، للشاعرة فدوى طوقان، والشاعر محمود درويش، والشاعر والكاتب اللبناني جبران خليل جبران الذي ختمت الكتاب بمقتبس من كتاباته.

ومن الجدير بالذكر أن الأسيرة أماني الحشيم حاصلة على بكالوريوس تخصص العلوم السياسية والدراسات الدبلوماسية من جامعة القدس (أبو ديس)، ودبلوم اللغة الإيطالية، وناشطة في تدريس الأسيرات داخل المعتقلات، واعتقلت بتاريخ 13/12/2016، وحكم عليها بالسجن عشر سنوات، وهي أم لطفلين.

الأسير أمجد عواد يصدر كتابه «دراسات من الأسر»

صدر عن دارة الاستقلال للثقافة والنشر في رام الله، للأسير أمجد عواد كتاب «دراسات من الأسر»، ويقع الكتاب في (353) صفحة من القطع المتوسط، وقدّم له الكاتب والأسير المحرر عصمت منصور، واصفاً الكتاب بأنه مجموعة من الدراسات التي «تصلح فعلاً لأن تكون مرجعاً ليس للطلاب والجامعات فقط، بل لكل مهتمّ لأنها غنية وسلسة وتنطلق من بدهيات واقعنا وأبجديات صراعنا مع المحتل».

وتتكون مادة الكتاب من ست دراسات بحثية تأخذ الطابع الأكاديمي؛ تتناول الشأن «الإسرائيلي» والفلسطيني والإسلام والمرأة، وجاءت هذه الدراسات تحت العناوين الآتية: الاغتيالات- الشاباك والموساد، ونظرية الإحباط المركّز... سؤال النجاح والفشل، والصهيونية تدفع بالغرب لتبنّي المحرقة، واليسار الفلسطيني- أسباب وعوامل التراجع، والإسلام والغرب- التحدي الحضاري، وأهمية المعرفة، الثقافة، العلم في تغيير النظرة للمرأة- أسرى سجن هداريم حالة».

كُتبت هذه الأبحاث بين عامي 2017 و2019، وقد ذكر الباحث في مقدمة الكتاب أن هذه الأبحاث كتبت في سجن هداريم، «وبالتحديد كتبت في زنزانة حملت الرقم 19»، ولذا فالكاتب يعتذر من القراء والباحثين سلفا عن القصور البحثي الذي قد يقع فيها بسبب ظروف الاعتقال القاسية التي صاحبتها أحيانا ما أسماه «عملية تطهير ثقافي، حيث استولت (وحدة خاصة) على مكتبة السجن بكل ما فيها من كتب ومجلدات وزاد عددها عن 5000 كتاب».

اتبع المؤلف في هذه الدراسات المنهج العلمي في كتابة أبحاثه، ملتزما الطريقة الأكاديمية المتعارف عليها حيث وضح في بداية كل دراسة بعد المقدمة: هدف الدراسة، وأهميتها، ومحدداتها، ومنهجيتها، وأدوات جمع البيانات، والدراسات السابقة، وإشكالية الدراسة، والفرضيات العامة والفرعية، والإطار النظري، قبل الدخول إلى البحث الذي يقسمه إلى فصول، معتمدا على مجموعة من

المراجع ذات الصلة. منهيا البحث بخاتمة أو توصيات. وقد تنوعت مصادر الكتاب ومراجعه، فكان هناك مراجع باللغة العربية وأخرى باللغة العبرية، وتنوعت بين الكتب والدوريات والصحف.

وظف الباحث الاستمارة كأداة من أدوات البحث والحصول على البيانات الأولية اللازمة للتحليل واستنتاج الأفكار والتوصل إلى النتائج والتوصيات. واستعان بالعديد من المناهج البحثية في دراساته، كالمنهج الوصفي، والمنهج التحليلي، والمنهج التاريخي، ودراسة الحالة، والمنهج المسحي، والتحليل الإحصائي الكمي والكيفي.

ومن الجدير بالذكر أن الأسير أمجد عواد من سكان قرية عورتا- نابلس، ولد عام 1992، ينتمي إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ومعتقل منذ 10/4/2011، ومحكوم بالسجن المؤبد خمس مرات، حاصل على درجة الماجستير في الشؤون الإسرائيلية، وتمّ إعداد هذا الكتاب وإخراجه من سجن ريمون.

دار الشروق تصدر أول أعمال الأسير أيمن الشرباتي

صدر في عمان ورام الله عن دار الشروق باكورة الأعمال الأدبية للكاتب الأسير أيمن ربحي الشرباتي، وجاء العمل تحت عنوان «أسرى وحكايات»، ويتناول فيه الكاتب جانبا من سيرته وسيرة من معه في المعتقل، وما يرافق رحلة الأسر من معاناة وقصص وما يتولد عن التجربة من حكايات إنسانية. ويشير الكاتب إلى أنه كتب هذه الحكايات في سجن نفحة الصحراوي، وانتهى منها بتاريخ 4/4/2020.

يقع الكتاب في (221) صفحة من القطع الكبير، وقدّم له الكاتب محمود شقير، ومما جاء في التقديم : «يكتب أيمن عن معاناته في السجن وعن معاناة رفاقه، ولا تخلو كتابته من فكاهة عذبة ردا على تجهم الزنازين وجدران السجون». ويرى شقير أنه من الضروري التعجيل بإنهاء الانقسام الفصائلي، فهذه «واحدة من الرسائل الوطنية العديدة التي يحفل بها الكتاب». لأن الانقسام كان سببا في أن تسقط بعض الأسماء من قائمة التبادل.

أما المحامي الحيفاوي حسن عبادي فقد جعل التظهير تحت عنوان «لكلٍّ اسم وحكاية»، لافتا النظر إلى أن كل أسير له «قصة لم تحكَ بعد؛ بقيت مهمشة

منسية ومغيبة، وهناك ضرورة ملحة لتوثيقها»، لأن في توثيقها كما يرى عبّادي تشكيل «فسيفساء لأسطورة نضالية يشهد لها التاريخ».

ومن الجدير بالذكر أن أيمن ربحي الشرباتي قد اعتقل بتاريخ: 17/3/1998، وحكم بالسجن مدى الحياة. ويلقبه الأسرى بـ (المواطن)، وكتب إضافة إلى هذا الكتاب مجموعة من قصائد الشعر الشعبي والأناشيد الإسلامية والوطنية.

صدور العمل الأدبي الأول للأسير ثائر حنيني

في حدود السبعين صفحة من القطع المتوسط، صدر في حيفا العمل الأدبي الأول للأسير ثائر حنيني بعنوان «تحيا حين تفنى»، ويتحدث فيه الأسير عن بعض رفقائه في المقاومة معتمدا على حيلة سردية، تتمثل في إعادة سرد ما في دفتر مخطوط عثر عليه بعد مدة، كان أحد المناضلين ويدعى فادي يسجل فيه يومياته، ليكشف من خلال السرد أن حبيبته المدعوة في العمل بسلوى هي من كتبت هذه اليوميات. وفادي هذا هو فادي حنيني عم الكاتب أحد قادة وشهداء كتائب أبو علي مصطفى- الجناح العسكري للجبهة الشعبية، وقد استشهد في 18/12/2003 في عملية اشتباك مسلح في البلدة القديمة في نابلس مع الرفيق جبريل عواد. ويأتي الكتاب متزامنا مع الذكرى الثامنة عشرة لاستشهاده، وفاء لذكراه وذكرى رفيق دربهم جبريل عواد.

صمم الغلاف الفنان الفلسطيني ظافر شوربجي، وتصدرته صورة قرية الكاتب «بيت دجن» ، وكتب المقدمة المحامي الحيفاوي حسن عبادي، ويؤكد فيها أهمية كتابة الأسرى، فيقول: «يسلّط ثائر الضوء على بطولات رفاق دربه ليفيهم بعضاً من حقّهم، ويخصّ فادي وأمجد ويامن، مركّزاً على سيرة فادي البطوليّة، شهداء رسموا خارطة الوطن بدمائهم الزكيّة، وآن الأوان لكتابة سيرة كلّ من شهداء فلسطين، فهم يستحقّونها دون أدنى شك».

يستند الكاتب على أحداث حقيقية مرّت به ومعه، ويتخذ من بيت دجن قريته فضاء عاما للنص، من لحظة الانخراط في المقاومة وحتى استشهاد فادي، وعلاقته برفاقه الشهداء والمناضلين، وللمحافظة على الصدق الفني والالتزام الواقعي في النص، ترك الكاتب بعض الأسطر فارغة لعدم تمكنه من قراءة هذه اليوميات التي أصابها التلف بعد (18) سنة على كتابتها. ولم يقم بتعبئتها من توقعاته ليكمل تلك المواضع الناقصة.

ومن الجدير بالذكر أن الأسير ثائر حنيني اعتقل في 1-7-2004 ومحكوم بالسجن عشرين عاماً على خلفية مقاومة الاحتلال، حاصل على بكالوريوس في التاريخ والاجتماعيات، ويعد لنيل درجة الماجستير في العلوم السياسة. نشر له عدد من الكتابات الكترونياً وفي الصحف العربية.

صدور رواية معبد الغريب للأسير رائد الشافعي[1]

صدر عن دار الرعاة للدراسات والنشر، وجسور ثقافية في رام الله وعمان، العمل الأول للأسير رائد الشافعي؛ رواية «معبد الغريب». وتقع في (351) صفحة من القطع الكبير، رسم لوحة الغلاف الفنان علاء أبو سيف، وأعدها للطباعة مكتب «مجد» للتصميم والفنون في حيفا، وراجعها وحررها الكاتب فراس حج محمد.

تتكون الرواية من (29) فصلا، يسرد أحداثها سارد مشارك بالأحداث والبطولة، وتدور حول شخصية غريب، وهو مناضل فلسطيني اعتقله الاحتلال لنشاطه في المقاومة، ثم اعتقلته السلطة الفلسطينية للسبب ذاته، فأصيب بخيبة أمل، أوصلته إلى حد الاغتراب، والشك في كل منظومة القيم الوطنية والثورية التي تبدلت، وحل محلها قيم جديدة بقيادات أفرزتها اتفاقيات أوسلو، وانتقل للعيش في مناطق احتلال الـ48 ليتعمق الصراع في داخله، وتصبح أسئلته أكثر حدّة.

ومن خلال هذه الخطوط العريضة للأحداث التي حدثت في السجن، وفي الضفة الغربية، ثم في حيفا ويافا وتتناول بالسرد فترة الانتفاضة الأولى وما بعدها، يناقش الروائي مسائل وقضايا فلسطينية معقدة، من مثل: مآلات الوضع السياسي الفلسطيني، وموقع فلسطينيي الداخل المحتل عام 1948 من القضية الفلسطينية وأجندة سياسييها المعاصرين، والتعامل الرسمي مع الاحتلال، وعمل بعض الجهات بجهود مشتركة صهيونية وفلسطينية من أجل إشاعة ثقافة السلام، والاستفادة من الشخصيات المؤثرة في الجانب الفلسطيني لتطويعهم وإبعادهم عن التفكير بالمقاومة والعمل المسلح أو معارضة وجود الكيان الغاصب.

قدّم للرواية الروائي الجزائري واسيني الأعرج، بقراءة مسهبة، جاء فيها:

1. تم إتلاف هذه الطبعة، وسحب تسجيلها في المكتبة الوطنية، لتصدر عن دار نشر أخرى، بعد حذف الإشارة إلى المحرر، وحذف مقدّمة حسن عبادي، وصدرت بعدد صفحات (380) صفحة تقريباً.

«هناك من جمع بين السيرة الذاتية وخصوصياتها ومآسيها كما فعل الكاتب رائد الشافعي، في هذه الرواية «معبد الغريب» التي جسّد فيها الأسير وجدان الأسير بكل آلامه وخيباته وخوفه ومحيطه وإنسانيته القلقة من خلال شخصية غريب»، ويضيف الأعرج قائلاً أن الرواية «انفتحت على السجن وعلى التاريخ الفردي والجماعي داخل السجن».

وأما المحامي الحيفاوي حسن عبادي فقد كتب في تصديره للرواية: «حين قرأت المخطوطة وجدت كلماته تفجّر لغماً تحت أقدام كل من تسلّح بالسراب والوهم الأوسلوي لتخلصه من عبء يرزح تحته»، ويختم عبادي تصديره بقوله: «وأخيراً اكتشف رائد قيمة للكتابة، توازي قيمة الأمل بالحرية؛ يعبر بواسطتها عن آماله وأحلامه، عن ذاته وعن هزائمه وانتصاراته، فالكتابة تشكل مضادا للوهم واليأس وحارسا أمينا على ذكرياته، والورقة في الأسر هي ذاكرة حية مقابل الحوافظ الإلكترونية في الجهاز النقال الذي احتل عقول الناس».

وفي قراءة نقدية أعدها الناقد رائد الحواري حول الرواية بين أن القارئ يجد فيها «كل السمات المتعلقة بالرواية؛ من أحداث، وصراع خارجي وداخلي، وشخصيات: رجال ونساء فاعلة ومؤثرة»، ويضيف الحواري أن الرواية اشتملت على «طرح جديد يتمرد على ما هو سائد، سياسيا واجتماعيا، إن كان من خلال الحوارات أو من خلال المواقف»، ويرى الحواري أن حضور المرأة في الرواية كان لافتاً وانعكس على بنائها الفني.

ومن الجدير بالذكر أن الشافعي ولد في قرية شويكة قضاء طولكرم عام 1974، وحصل على درجة الماجستير في الدراسات الإقليمية من جامعة القدس- أبو ديس، ومعتقل منذ 28/7/2003 بعد مطاردة الاحتلال له لمدة عامين، وحكم عليه بالمؤبّد.

كتاب جديد للأسير الكاتب قتيبة مسلم

صدر عن المكتبة الشعبية في نابلس كتاب «حروف من ذهب» للكاتب الأسير قتيبة مسلم. يقع الكتاب في (224) صفحة من القطع المتوسط، ويحتوي على مجموعة من «النصوص» المتنوعة في موضوعاتها ما بين الذاتية الوجدانية وبين الموضوعات الوطنية والنضالية، وأفرد مساحة من بين تلك النصوص للحديث عن أصدقائه من الشهداء. ويشتمل الكتاب على (68) نصّاً، بين نصوص

قصيرة وطويلة، كتبت جميعها في سجن عسقلان، في الفترة الواقعة بين عامي: 2001 وحتى 2007.

قدّم للكتاب الكاتب فراس حج محمد، أما الكاتب والمحامي الحيفاوي حسن عبادي فكتب على الغلاف الأخير للكتاب، ومما جاء في كلمته: «عمل الجلاد دائماً على كسر إرادة الضحية، لكن أسرانا أصروا على كتابة التاريخ بطعم الحرية،...، صمموا على أن يكسروا روح العتمة ليقولوا للتاريخ: نحن هنا باقون».

ومن الجدير بالذكر أن الكاتب قتيبة مسلم من سكان قرية تلفيت- نابلس، ولد فيها عام 1968، حاصل على درجة الماجستير، ومعتقل منذ عام 2000، ومحكوم بسبعة وثلاثين عاماً، وهو من قيادات الحركة الأسيرة، صدر له أيضاً كتاب «آخر قبلة في السجن» عام 2011. ورواية «زنزانة وأكثر من حبيبة»، وكتاب «بقايا زنزانة»، ودراسة «العقلية الصهيونية ولاهوت الإبادة».

الاتحاد العام للكتاب يصدر رواية «زنزانة وأكثر من حبيبة» للأسير قتيبة مسلم

صدرت عام 2021 رواية **«زنزانة وأكثر من حبيبة»** للكاتب الأسير قتيبة مسلّم عن الاتحاد العام للأدباء والكتاب الفلسطينيين، وتقع الرواية في (168) صفحة من القطع المتوسط، وقدم لها الشاعر مراد السوداني الأمين العام لاتحاد الكتاب. ومما جاء في التقديم: «لقد سطر أبو حمدي من خلال «زنزانة وأكثر من حبيبة» سيرة الحزن الثوري الذي يعلي قطرة التماسك والثبات والرسوخ في مواجهة الانكسار والانحسار والسقوط. إنها إرادة الهجوم ومواجهته المحققين وزنازين الموت».

تحكي الرواية عن عالم الأسرى داخل المعتقلات الإسرائيلية من خلال حكاية أوس وأبيه في النضال؛ «صاعد»، وما يجري داخل المعتقل من علاقات ومشاكل وتمنيات وآهات، فتبين الرواية العالم النفسي للأسير، والإحساس بالزمن والمحاكمات والزيارات، والإهمال الطبي، ونحو ذلك، مازجاً الكاتب الهمّ الوطني بالجانب العاطفي وعلاقة أوس بحبيبته التي أطلق عليها اسم «أميرة».

وجاءت هذه الموضوعات ضمن عشرة عناوين: من هي حبيبتي؟، الوحش، أريد

أن يكون لي هوية، الحجر الأول والاعتقال الأول، الحب... الوطن... السجن، صوت أمير... المحكمة، الكبسولة، الحب المحاصر والزيارة الأولى في السجن، عيد الميلاد الثامن عشر، الحرية.

ومن الجدير بالذكر أن رواية «**زنزانة وأكثر من حبيبة**» هي المنجز الإبداعي الثاني الذي يصدر في غضون أسبوع للكاتب الأسير قتيبة مسلم، بعد كتاب النصوص «حروف من ذهب». وقد كتبت الرواية في سجن جلبوع المركزي، وانتهى منها كاتبها بتاريخ: 11/3/2021، كما جاء في نهاية الرواية.

فضاءات تصدر «الجهة السابعة» لكميل أبو حنيش

صدر عن دار فضاءات للنشر والتوزيع رواية «الجهة السابعة» للكاتب الأسير كميل أبوحنيش، وتقع الرواية في (314) صفحة من القطع المتوسط، وقدّم للرواية الناقد الفلسطيني فيصل دراج، وجاء في التقديم: «السجن لا يحتمل إلا إن كان تجربة وجودية، تتأمل الوجود وتسخر منه، تحاوره وتعقّب عليه، وتفرض على السجين أن يحول «مساحة زنزانته» إلى أرض واسعة».

تتألف الرواية التي زين غلافها الأول لوحة للفنان الفلسطيني عبد الهادي شلا، من ثلاثة فصول، كل فصل أيضا هو باب، فكان الفصل الأول تحت عنوان «باب الحبّ»، وأما الفصل الثاني فجاء بعنوان «باب الحلم»، وجاء الفصل الثالث بعنوان «باب الموت».

تتناول الرواية عبر فصولها الثلاث استبطان الكاتب لتجربته الذاتية في عوالم مفتوحة على الحبّ وعلى الحلم وعلى الموت، هذه المعاني الثلاثة المتداخلة بعلاقة جدلية يفرضها واقع الأسير لعله يتغلب عليها بكتابتها أو استحضار بدائل نفسية تنقذه مما هو فيه من ثقل اللحظة.

كتاب «جدلية الزمان والمكان في الشعر العربي»

الكتاب للأسير كميل أبو حنيش، ويعد أبو حنيش من أكثر الكتاب الأسرى نشاطا إبداعياً، وإنتاجا أدبيا وفكرياً على مستويين؛ الكمّ والنوع، وأقصد بالنوع الجنس الأدبي، فتنوعت كتاباته بين الشعر والسرد، الرواية والقصة، والدراسات المحكمة، والمقالات السياسية والنقدية والأدبية.

صدر الكتاب عن دار الشامل عام 2020، وتجاوزت صفحاته السبعمائة صفحة

من القطع الكبير. وخصص له حلقة كاملة من حلقات كتابه «الكتابة والسجن»، فقد استغرق من الكاتب ثلاث سنوات من أجل أن ينجزه، وقدّم له الدكتور محمود العطشان، أستاذ الأدب العربي في جامعة بيرزيت.

ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام؛ الأول: يبحث فيه «الزمان في الشعر العربي»، والثاني خصصه لبحث «المكان في الشعر العربي»، وجاء الفصل الثالث ليجمع الزمان والمكان تحت عنوان «جدلية الزمان والمكان في الشعر العربي». ليغدو عنوان هذا الفصل عنوانا عاما للكتاب.

تبدو في هذا الكتاب شخصية كميل أبو حنيش البحثية من زاويتين، الأولى في تجميع المادة البحثية؛ محل النقد والتحليل (الأبيات الشعرية)، فيختار ما يناسب فكرته وتفريعات كل فصل من هذه الفصول الثلاثة، فيجيل فيها فكره محللا ومبينا، فظهرت لديه مقدرة التحليل والربط والاستنتاج. وأما الزاوية الثانية في استجلاء شخصية كميل البحثية فتكمن في عودته إلى مجموعة من المراجع والمصادر ذات العلاقة، وبلغت خمسة وسبعين مرجعاً متنوعاً.

لا شك في أن كميل أبو حنيش قد بذل جهداً كبيرا من أجل إنجاز هذا الكتاب، يستحق أن يكون علامة مميزة من بين أدب الحركة الأسيرة المنجز بالكامل داخل المعتقل.

كتاب جديد يضيء إبداعات الأسير كميل أبو حنيش

صدر عن دار الفاروق للثقافة والنشر في نابلس كتاب جديد للكتاب رائد الحواري، تناول الكتاب مجموعة من مؤلفات وكتابات الأسير كميل أبو حنيش، جاء الكتاب تحت عنوان «إضاءات على إبداعات كميل أبو حنيش».

يبين الكاتب فراس حج محمد في المقدمة أن الكتاب «يساهم مساهمة فعالة في إضاءة عوالم كاتب فلسطيني أسير، أصبح له مشروعه الأدبي الذي يعمل عليه بكامل الجهد والطاقة». يقع الكتاب في (164) صفحة من القطع الكبير، ويضم بين دفتيه ست عشرة مقالة، موزعة على ثلاثة أقسام؛ نظرة على إبداعات كميل أبو حنيش الشعرية، وتناول فيها الكاتب مجموعة لقصائد كميل المكتوبة داخل المعتقل ومنشورة في الصفحات والمواقع الإلكترونية، وأما «نظرة على إبداعات كميل أبو حنيش في المقالة»، فتوقف الحواري أمام خمس من مقالات

كميل، وخصص القسم الثالث من الكتاب لمناقشة روايات أبو حنيش: وجع بلا قرار، والكبسولة، ومريم/ مريام.

يذكر أن كميل أبو حنيش يُعتبر من أبرز قيادات الحركة الأسيرة والمسؤول الأسبق للجبهة الشعبيّة في سجون الاحتلال.

صدور رواية «سراج عشق خالد» للأسير معتز الهيموني

صدر عن المكتبة الشعبية- ناشرون في مدينة نابلس رواية جديدة للأسير معتز الهيموني، تحت عنوان «رواية عشق خالد»، وتقع في (236) صفحة، من القطع المتوسط، تصدرها مقدمة قصيرة للكاتب بيّن فيها ظروف كتابة الرواية وما تعرضت له من «مصادرة بعض الصفحات التي وقعت بين أيدي جنود الاحتلال».

يقول المحامي الحيفاوي حسن عبادي عن الرواية في تظهيره للرواية: «يطرح معتز الأمور بجرأة دون مواربة ليشير أننا شعب عادي يعاني من قضية العملاء المستشرية»، وجاءت الرواية «ضمن سرد بوليسي شيق وجذاب ينسج رواية الصراع الاستخباراتي الفلسطيني الإسرائيلي، فتتناول بجرأة الوجه البشع لمسألة الخيانة والعمالة لإسرائيل، ويتطرّق للحالة النفسيّة لشخصيّات الخوَنَة واستغلال المخابرات الإسرائيلية للضعفاء. ويعرض كم تُجنّد دولة الكيان من الموارد في المخابرات واصطياد أصحاب النفوس الضعيفة. كما أن للمرأة حضوراً طاغياً في الرواية ويسلّط الكاتب الأضواء على دورها الريادي المشارك في النضال في سبيل التحرّر من الاحتلال.

ومن الجدير بالذكر أن الأسير معتز الهيموني ولد عام 1981، ومحكوم ستّة مؤبدات وعشرين عاما أخرى، يقبع في سجن عسقلان، وسبق أن صدر له كتابان هما: «تحت عين القمر»، و«شمعة من قلب الزنزانة».

دار الفاروق تتبنى أولى إصدارات الأسير منذر مفلح

تحت تصنيف «سردية» صدر عن دار الفاروق للطباعة والنشر (2020) في نابلس العمل الأول للأسير منذر مفلح. يقع هذا العمل في (150) صفحة من القطع المتوسط، وصمم غلافه الفنان الفلسطيني ظافر شوربجي.

قدم للسردية المحامي حسن عبّادي، ومما جاء في التقديم قوله: «تُعتبر الكتابة

متنفّسا للأسير، تدفعه نحو الأمام، تجعله يتنفّس شكلا من أشكال الحرية، واليوم يحقّق منذر حُلمَه في الانطلاق الروحي المحلّق؛ ويخرج من ظلمات السجن إلى النور، من عالم النسيان إلى عالم الخلود».

تدور فكرة الرواية حول التجربة النضالية، فيرصد كثيرا من أحداث الانتفاضة الثانية، وفترة المطاردات وملاحقة قوات الاحتلال للمقاومين، وتنطلق فكرة السردية من حكاية حقيقة؛ من تلك الخرزة التي وجدها الكاتب منذر في ثنية إحدى جيوب بنطاله بعد اعتقاله بأيام في مركز التحقيق لترافقه ردحاً من السنين وتختزن ما اختزنته من سنوات وظروف، فيربط من خلال هذه الخرزة الأحداث التاريخية بالموروث الشعبي بالأحداث المعاصرة، ليبني نصا متحركا في أزمنة مختلفة وبيئات متعددة.

ومن الجدير بالذكر أن الرواية قد مرت بمرحلة صعبة، في كتابتها وتسريبها من السجن وطباعتها، ولم تكن الرواية الأولى التي يكتبها الأسير منذر، فقد سبق له أن كتب رواية أخرى بعنوان «اللحظة»، تلك الرواية التي نجح في إيصالها إلى الرفيق أحمد سعدات في سجن أريحا، ليكتب مقدمتها، وضاعت الرواية بمقدمتها في خضم مداهمة قوات الاحتلال للسجن واعتقال سعدات ورفاقه. ليواصل منذر الكتابة ويكتب سردية «الخرزة» التي من المفترض أن ترى النور قبل هذا العام بـ 15 عاماً.

أطلقنا على هذا العمل تجنيس «سردية»، وذلك لأنه واقع بين الرواية والسيرة الذاتية، فعناصره الروائية مبنية على مادة واقعية عاشها الكاتب. تتحدث سردية «الخرزة» عن فترة عصيبة من فترات النضال الفلسطيني، وهي فترة انتفاضة الأقصى، وما صاحب ذلك من اجتياحات ومطاردات وعمليات عسكرية للفصائل الفلسطينية، وينطلق الكاتب من «خرزة» مسبحة وجدها عالقة في ذيل بنطاله، فأخذ يتأملها وهو في السجن، فبنى عليها السرد، وكأنها صارت فانوسه السحري الذي يلهمه القصّ الذي ينهال عليه متدفقا ليرتد إلى عام 1967 وصولا إلى لحظة الحكي. يختلط في السردية الواقعي بالفنتازي بطريقة فنية لا تشعر القارئ بالقلق أو التوهان.

والكاتب منذر مفلح من قرية بيت دجن قضاء نابلس، ولد في الكويت عام 1976، وحاصل على بكالوريوس صحافة وإدارة أعمال عام 2001 من جامعة النجاح

الوطنية، وماجستير في الشؤون الإسرائيلية من جامعة أبو ديس (القدس) عام 2018 أثناء وجوده داخل المعتقلات الصهيونية. وهو عضو في نقابة الصحفيين الفلسطينيين، ومعتقل منذ عام 2003 محكوم بـ 33 عاماً، أمضى منها حتى (2020) 18 عاماً. وله العديد من المقالات والدراسات والأبحاث التي نشرت في أكثر من موقع، وله مجموعة من القصص والقصائد، ورواية أخرى في انتظار الطباعة.

ناصر الشاويش يعيد قريته «قنّير» إلى الحياة في ديوان جديد

صدر في حيفا بالتزامن مع ذكرى النكبة الفلسطينية الرابعة والسبعين ديوان شعر للأسير الشاعر ناصر الشاويش، ابن قرية قنّير المهجّرة، المحكوم بأربع مؤبدات، ومعتقل منذ 2/6/2002.

حرر الديوان وأشرف عليه، وراجع قصائده الكاتب فراس حج محمد، ويقع في (92) صفحة من القطع المتوسط، قام الفنان الفلسطيني ظافر شوربجي بتصميم الديوان الداخلي والغلاف، وتصدر الديوان مقدمتان، الأولى بقلم الشاعر نفسه جاء فيها: «إن إخراج هذه المجموعة الشعرية خارج السجن يعد انتصارا للكلمة البندقية، وللبندقية الكلمة، وهزيمة لسجان تأخر كثيرا عن الإنسانية في ظل انشغاله اليومي باختراع أدوات قمع جديدة لقمعنا لمصادرة حقنا بالحرية والحياة».

وأما الثانية فكتبها المحامي الحيفاوي حسن عبادي أشار فيها إلى «أنّ الكتابة خلف القضبان متنفّس للأسير، يحلّق من خلالها ليعانق شمس الحريّة المشتهاة، حريّة مؤقّتة عابرة تمدّه بالأمل والعزيمة».

اشتمل الديوان الذي أنجزه صاحبه داخل سجن ريمون الصحراوي ثمانيَ وعشرين نصاً، تراوحت بين شعر التفعيلة، والشعر الكلاسيكي موحد القافية، وتناول فيها الحديث عن الشهداء وعالم الأسرى وعالم الذات، وكتب الشاعر في هذا الديوان القصيدة القصيرة والقصيدة الطويلة، كما استعان بالرموز الشفيفة التي لا يستغلق معناها على القارئ.

حضرت قرية الشاعر التي هُجّر منها جده ووالده إبان النكبة عام 1948 في غلاف الديوان، كما خصّها بقصيدة ختمه بها، وهي قرية مهجَّرة قضاء حيفا،

وسيقام على أرض قنير المهجّرة أيضاً حفل الإطلاق الأول للديوان في ذكرى النكبة الرابعة والسبعين بمشاركة كتاب ومثقفين بقراءات نقدية، ونشاطات أخرى إبداعية وفنيّة.

ويأتي ديوان «أنا سيّد المعنى» الإصدار الرابع للشاعر الأسير ناصر الشاويش، فقد صدر له بين عامي 2009 و2015، ثلاثة دواوين وهي: «طقوس تموزية»، و«للقيد ذاكرة وخنجر»، و«ذاكرة البنفسج».

صدور الديوان الثالث للأسير الشاعر هيثم جابر

صدر عن دار الرعاة وجسور ثقافية (رام الله وعمّان) ديوان «زفرات في الحب والحرب-3»، وهو الديوان الثالث للأسير الشاعر والروائي هيثم جابر. ويتخذ الشاعر هيثم جابر من هذا العنوان «زفرات في الحب والحرب» عنوانا ثابتا لكل ديوان من هذه الدواوين. ويقع الديوان في (230) صفحة من القطع المتوسط.

تقوم تجربة الشاعر في هذا الديوان على المزاوجة بين هاتين الثيمتين الحب والحرب، وكأنهما ثيمتان نديتان متصارعتان. يبدأ الديوان بقصائد «الحرب»، ويتكون هذا القسم من (46) نصاً، يتحدث فيها عن غزة والجزائر، وعن انتمائه القومي العروبي وعن حياة السجن، وغيرها من الموضوعات التي لها علاقة بالحرب أو الصراع مع المحتل أو الاستعمار.

وأما القسم الثاني المعنون بـ «زفرات حب»، فاشتمل على (25) نصاً عبّر من خلالها عن عاطفة الحب الإنساني التي يعيشها الشاعر بشكل عام وعلاقته بالمرأة أو تشوّقه لها وحنينه إليها. وختم الديوان بمجموعة نصوص قصيرة تحت عنوان «الإشراقات»، وتميزت بكثافتها وتنوع موضوعاتها بين الحرب والحب وتجاوزت السبعين نصا.

طقوس الكتابة داخل المعتقلات الصهيونية في كتاب جديد

صدر في رام الله وعمّان كتاب «الكتابة على ضوء شمعة» الذي يتناول فيها مجموعة من الأسرى الفلسطينيين بالحديث طقوس الكتابة داخل المعتقلات الصهيونية، صدر الكتاب عن دار الرعاة للدراسات والنشر وجسور ثقافية، وأعده وحرر مادته الكاتبان الفلسطينيان المحامي حسن عبادي الذي كتب مقدمة الكتاب، وفراس حج محمد الذي كتب مقالا موسعا حول هذه الشهادات،

تضـيء علـى فلسـفتها وأهميتهـا وأبـرز مـا تناولتـه.

ضـم الكتـاب (36) شـهادة إبداعيـة، وصمـم غلافـه الفنـان الفلسـطيني ظافـر شـوربجي، ويقـع في (172) صفحـة مـن القطـع الكبيـر، ويتـوزع علـى فصلـين، تنـاول الأول تسـع عشـرة شـهادة إبداعيـة عـن الكتابـة داخـل المعتقـلات، لكتّـاب مـا زالـوا في المعتقـل، ويواجهـون أحكامـا عاليـة بالسـجن، كونهـم متهمـين بالعمـل ضـد الاحتـلال، وهـؤلاء الكتـاب هـم: أحمـد العارضـة، أسـامة الأشـقر، أيمـن الشـرباتي، حسـام زهـدي شـاهين، خليـل أبـو عـرام، راتـب حريبـات، رائـد السـعدي، رائـد صالـح أبـو حمديـة، سـائد سـلامة، عمـار الزبـن، عمـار محمـود عابـد، قتيبـة مسـلم، كميـل أبـو حنيـش، معتـز الهيمونـي، منـذر مفلـح، ناصـر الشـاويش، هيـثم جابـر، وليـد دقـة، ياسـر أبـو بكـر.

أمـا الفصـل الثانـي فتحـدث أيضـا فيـه سـبعة عشـر كاتبـا وكاتبـة عـن ذات التجربـة، وقـد تحـرروا مـن الأسـر، وكتبـوا شـهاداتهم هـذه بعـد أن كتبـوا داخـل السـجن وخارجـه، وشـارك في هـذه الشـهادات سـبع كاتبـات، هـن: جيهـان دحادحـة، خالـدة جـرار، سـلام أبـو شـرار، عائشـة عـودة، مـي الغصـين، ناديـة الخيـاط، د. وداد البرغوثـي، بالإضافـة إلـى عشـرة كتـاب: أميـر مخّـول، جمعـة الرفاعـي، رأفـت حمدونـة، سـعيد نفـاع، صالـح أبـو لـبن، عبـد الكـريم زيـادة، عصمـت منصـور، عيسـى قراقـع، ناصـر أبـو خضيـر، وليـد الهودلـي.

التـزم المحـرران بالتسلسـل الأبتثـي في ترتيـب شـهادات الكتـاب والكاتبـات، وعرّفـا بـكل أسـير كاتـب، حيـث أبـرزا مـدة حكمـه، وإنتاجـه الأدبـي، ومـا تحصّـل عليـه مـن شـهادات علميـة، وتشـير هـذه الشـهادات إلـى تنـوع الكتـاب في بيئاتهـم التـي جـاءوا منهـا، وشـملت كل مناطـق فلسـطين المحتلـة، وكذلـك توزعـت علـى عـدة سـجون إسـرائيلية، وشـملت تجـارب كتابيـة، بعضهـا مكـرس والآخـر مـا زال في بدايـة المشـوار، وتشـير كذلـك إلـى تنـوع الكتابـة في الأسـر مـا بـين الكتابـة الإبداعيـة بشـتى أجناسـها الأدبيـة إلـى المراسـلات الصحفيـة والحقوقيـة إلـى جانـب كتابـة الأبحـاث العلميـة.

وفي حديـث خصنـا بـه مقـدم الكتـاب أ. حسـن عبـادي تحـدث عـن بدايـة الفكـرة التـي ولـدت مـع مشـروعه «أسـرى يكتبـون»، فكـان في زياراتـه المتكـررة للأسـرى الكتـاب

داخل السجن ما يدور الحديث معهم حول الكتابة، ومشاريعهم المستقبلية، وما يتعرضون له من معاناة في الكتابة، ليكون اقتراح حديث الكتاب عن طقوس الكتابة داخل المعتقلات من زوجة حسن عبادي السيدة سميرة عبادي.

تصلح هذه الشهادات لتكون إضاءات على عالم الكتابة لدى الأسرى، وتوفر مجالا للمقارنة بين طقوس الكتابة لكتابٍ كتبوا دون المرور في تجربة الأسر، وبين هؤلاء الكتاب الذين خضعوا لشروط وظروف هذه التجربة التي مسّت كما جاء في قراءة الكاتب فراس حج محمد لتلك الشهادات، لاسيما انعدام الخصوصية، وتعرض الأسرى الكتاب لمشاكل هي وليدة وضع السجن، إضافة إلى أن مشروعية الكتابة ذاتها وأهميتها، وأنها كما يقول حسن عبادي «متنفس للأسير».

كما يلفت الكاتب حج محمد النظر إلى أهمية أن يكون هناك معايير خاصة تقيّم بناء عليها إبداعات الأسرى، لأنها نتاج ظروف غير طبيعية، بكل ما تعنيه وتؤشر إليه من ظروف قاسية غير مريحة ولا توفر أجواء طبيعية للكتابة، والتنقيح، والمراجعة، والنشر، وما تجره صنعة الكتابة من إجراءات معروفة لدى الكتاب الذين يتحركون في فضاء من الحرية والحركة وهم غير خاضعين للسجن وعتمته وإجراءات السجان، والتنقل عبر السجون المختلفة.

«موجوعة» جديد أدب الأسرى

صدر في حيفا، كتاب للأسيرة إسراء جعابيص تحت عنوان «موجوعة»، أعدّه المحامي الحيفاوي حسن عبادي، وصمم الغلاف الفنان ظافر شوربجي، وتصدّره لوحة بريشة الأسيرة، وهي تحمل صغيرها المعتصم بالله.

يندرج هذا الإصدار ضمن مشروع «من كل أسير كتاب» الذي يشرف عليه المحامي حسن عبادي، منطلقا من فكرة مؤداها أن لكل أسير حكاية يجب أن تحكى، بغض النظر عن الشكل الفني أو المستوى الإبداعي لهذه الحكايات، فثمة وجع إنساني وراء كل قصة من قصص هؤلاء الأسرى، وإسراء على نحو أخص؛ نظرا لطبيعة حالتها الصحية وظروف اعتقالها، ومعاناتها التي لا تتوقف، فجاء اسم الإصدار «موجوعة» دالّا على عمق تلك المأساة التي تعاني منها إسراء بشكل مستمر.

جاء الإصدار في أربع وثمانين صفحة من القطع المتوسط. تقول الكاتبة في

التصدير: «هذا الكتاب هو باكورة أعمالي من داخل الأسر، لعل صفحاته تنقل معاناة مُنعت من النشر». كما تهدي كتابها إلى مجموعة من المقربين من عائلتها، وإلى الأسيرات والأسرى ممن كان لهم صلة بإسراء داخل السجن.

ضم الكتاب بين دفته ألوانا متنوعة من الكتابة، فكان منها البحث الذي التزمت فيه الأسيرة بالإطار الأكاديمي المتعارف عليه. تناولت فيه ظاهرة الإهمال الطبي في السجون، طارحة سؤالا مهماً: «هل المماطلة في علاج الأسرى والأسيرات كعقوبة ضد الأسرى؟». واشتمل الكتاب على صورة للبحث مكتوبا بخط يد الأسيرة، بثلاث عشرة صفحة.

وجاءت الخاطرة من الألوان الكتابية التي حملت قضية الأسيرة وأفكارها وآلامها، فنقرأ خواطر بعنوان: «السندباد الأسير»، و«تنهيدة»، «وخاطرة تحيي من خلالها يوم الأسير الفلسطيني»، و«رد على جريدة يديعوت أحرونوت» تردّ فيها على اتهامات الجريدة لإسراء جعابيص دون أن تفصح الخاطرة عن هذه الاتهامات مكتفية بالقول: «ترى يا يديعوت أحرونوت عقلي مثل الكتكوت».

ومن الخواطر أيضا التي اتخذت شكل الشعر، خاطرة بعنوان «مناجاة»، وخاطرة نثرية تجنح نحو الأسلوب المقالي بعنوان «نحن الشامخون». وثمّة خاطرة أخرى دون عنوان باللغة العامية مكتوبة بخط يد الأسيرة، تتشوق فيها للقاء أحبتها بعد الخروج من السجن: «أموت وعرف كيف هية فرحتهم... يوم ارجع وشوف لمتهم».

كما تكتب الأسيرة لأختها منى من سجن الدامون بتاريخ 6/1/2019 رسالة تخبرها فيها عن وضعها الصحي، وعن معاناتها مع المرض ومع السجن وتجربته القاسية، وجمعت هذه الآلام الشقين الجسدي والنفسي، وخاصة الاكتئاب والاشتياق لابنها معتصم التي كانت محرومة من رؤيته.

إضافة إلى هذه المواد أجرى الدكتور عبد الحميد صيام (أستاذ دراسات الشرق الأوسط في جامعة رتغرز بولاية نيوجرزي الأمريكية) حواراً مع الأسيرة جعابيص عبر الهاتف من بيتها الكائن في القدس بحضور أبيها وأختها والمحامي حسن عبادي. وركز صيام في حواره على حالة إسراء الصحية وما تعانيه من مشاكل نتيجة ما تعرضت له، فتصف حالتها قائلة: «أصابع يدي اليمنى من تحت البتر ملتصقة ببعضها. وأصابع يدي اليسار أول إصبعين منفصلان وهو

ما يساعدني على أن أمسك الهاتف وأتكلم معك. والثلاثة الأخرى في اليسار ملتصقة بمفصل واحد من تحت». وعن الوجه تقول الأسيرة: «الحروق بالوجه كاملة درجة أولى وثانية وثالثة. نصف الوجه فيه حروق بسيطة من جهة ومن جهة حروق بليغة درجة ثانية وثالثة».

وبجانب ذلك اشتمل الكتاب على مجموعة من رسومات الأسيرة وتشكيلاتها الفنية، وبلغ مجموع تلك الرسومات (31) رسما بما فيها: لوحة الغلاف، وملصقان دعائيان للتذكير بقضية إسراء. وعلى مجموعة من الصور الشخصية والعائلية التي تبين حالة إسراء قبل الحادث والأسر وما بعده، وعددها (9) صور.

وفي الكتاب أيضا، تحدث عن إسراء الجعابيص أربعة من أصدقائها ومعارفها، فأدلوا بشهادتهم حول تجربتها الاعتقالية، وهم: الأسير راتب حريبات الذي كتب شهادته تحت عنوان «بأي ذنب حرقت؟»، والشاعرة أسماء خليل أبو الرب التي كتبت «فرن يحولني إلى ذاكرة»، أما الكاتب حسن عبادي فتحدث عن علاقته بإسراء وزياراته لها في سجن الدامون، وأخيرا كتبت الأسيرة المحررة إيمان الأعور شهادتها المطولة لتضيء على «قصة عذاب» إسراء الجعابيص.

ومن الجدير بالذكر، فإن إسراء ولدت بتاريخ 1984-7-22، واعتقلت بتاريخ: 2015-10-11، وهي من سكان جبل المكبر في القدس، حكم عليها بالسجن 11 عاماً. وأم لطفل. وحسب تقرير لوكالة وفا الفلسطينية (5/9/2021) فقد «أتت الحروق على أكثر من 60% من جسدها ووجهها عقب اندلاع حريق في المركبة التي كانت تقودها في تشرين الأول عام 2015، بعد أن انفجر بالون الهواء في المقود، بالقرب من حاجز الزعيّم شرق القدس المحتلة، لتصبح بين ليلة وضحاها من وجهة نظر الاحتلال «مجرمة»، وتحاكم بتهمة محاولة تنفيذ عملية دعس».

تقارير صحفية حول نشاطات الأسرى وإبداعاتهم

ندوة أدبية عن أدب السجون

استضافت مدرسة قبلان الثانوية للبنين يوم الثلاثاء 20/3/2018 ضمن نشاطات المكتبة المدرسية الكاتبة والأسيرة المحررة عائشة عودة، للحديث حول أدب السجون وتجربتها النضالية وكتابة هذه التجربة في كتابيها «أحلام بالحرية» و«ثمنا للشمس»، وما رافق هذه التجربة من معاناة وتحدٍ. وحضر الندوة طلاب الصف العاشر الأساسي والحادي عشر، ونخبة من المعلمين ومديري المدارس والمثقفين. وتأتي هذه الندوة تعزيزا للنهج التربوي الداعم للأنشطة غير الصفية، ومهارات التفكير الناقد والحوار والتعرف على موضوعات المقررات الدراسية من المبدعين أنفسهم، متوخية كذلك دفع الطلاب إلى القراءة والمطالعة الهادفة.

ورحب مدير المدرسة الأستاذ جمال صادق بالكاتبة والحضور، ثم تحدث أمين المكتبة عصام فهمي عن استراتيجية المكتبة في تعزيز النشاط الثقافي لدى الطلاب وأهميته في صقل شخصية الطلاب ووعيهم في هذه المرحلة العمرية، مبينا جانبا من السيرة النضالية للأديبة عائشة عودة.

كما تحدث المشرف التربوي فراس حج محمد عن أدب السجون والمعتقلات في الأدب العربي والفلسطيني، مبرزا أهم الملامح الإيجابية في الكتابين موضع النقاش، وألقى الضوء على معاناة الكاتب الأسير الذي يكتب تحت ظروف صعبة وقاسية وما تتعرض له كتابات الأسرى من ضياع نتيجة مصادرتها، وفي حالة الكاتبة عائشة عودة فإن كتابة التجربة بعد أكثر من عقدين من الزمن تجعل الكاتب يعيش الألم مرة أخرى، لما بدا في لغة هذه السيرة الأدبية من توتر في اللغة وحيوية، كأن الكاتبة تكتب عن تجربة مرت بها في الأمس القريب.

وفي كلمة مسهبة بينت عائشة عودة الرحلة التي مرت بها في كتابة هذه التجربة؛ إذ قبل أن تأخذ الكتابة شكلها النهائي في كتاب «أحلام بالحرية» أعادت كتابة الكتاب مرات عديدة، حتى رضيت عن توثيق التجربة بالشكل الذي استقرت

عليه، لتكون معبرة عن معاناتها الإنسانية بعيدا عن الشعارات والكلام الفكري النمطي، مشيرة إلى أنه يجب أن يكون للكتابة هدف، بعيدا عن النشر لمجرد النشر وحيازة لقب كاتب. كما أشارت الكاتبة إلى تجربة خاصة في ممارستها فن الرسم، وتوظيفها الألوان الطبيعية من النباتات والورود بعد تجفيفها حتى استطاعت أن تقيم معرضا فنيا يضم (35) لوحة، حازت على الرضا والقبول من الجمهور، وقد وظفت اثنتين من لوحاتها في غلافي كتاب «ثمنا للشمس» و«يوم مختلف»

وفي معرض الحوار والرد على استفسارات المعلمين والطلاب، بينت الكاتبة معارضتها لمصطلح «أدب السجون» ورأت في ذلك بديلا عن مصطلح «أدب المقاومة»، كما أنها عبرت عن نفورها من مصطلح «الكتابة النسوية»، وإن أشار إليه بعض من كتب عنها كما قالت، كما أشارت إلى أنها عندما أخذت قرارا بكتابة تجربها في الأسر كان ذلك من باب الالتزام الوطني في توثيق معاناة الأسرى وما يتعرضون له، حتى لا يكتب عنهم، وخصوصا الأسيرات، من ليس له علم بما كنّ يتعرضن له من أهوال التعذيب.

قناديل الأسرى تضيء سماء مدينة نابلس

بحضور رسمي وشعبي وإعلامي وأهالي الأسرى وأصدقائهم، وبرعاية المحافظة في نابلس عقد منتدى المنارة للثقافة والإبداع أمسية رمضانية بعد إفطار يوم الخميس 29/4/2021، بعنوان «حروف مضيئة في عتمة الزنازين» احتضنتها مصبنة كنعان التي تعد من الأماكن الأثرية البارزة في البلدة القديمة في نابلس.

تناولت الأمسية تكريم مجموعة من كتّاب نابلس الأسرى الذين ما زالوا خلف القضبان على مجمل منجزهم الإبداعي وما قدّموه من فكر وأدب للثقافة، مؤكدين مقولة «الثقافة مقاومة»، وهؤلاء الكتاب الأسرى هم: كميل أبو حنيش، وباسم خندقجي، وعمّار الزبن، ومنذر مفلح، وياسر أبو بكر، ووائل الجاغوب». كما تمّ في الأمسية إطلاق ديوان «أنانهم» وتوقيعه للأسير أحمد العارضة وتكريمه على منجزه الشعريّ.

بدأت الأمسية بالسلام الوطني وقراءة الفاتحة على أرواح الشهداء الأبرار، ثم رحّبت الدكتورة لينا الشخشير، رئيس منتدى المنارة للثقافة والإبداع بالحضور، مثمنة دور المؤسسات والفعاليات الوطنية والشعبية في دعم الحركة الأسيرة

ومساندتها، مشيرة إلى أن هذه الأمسية تعقد على شرف المناضلين الأسرى الذين أضاءوا بحروفهم زنازين الاحتلال البغيض.

وتحدث اللواء قدري أبو بكر، رئيس هيئة شؤون الأسرى والمحررين مبيّنا جانبا من جوانب معاناة الأسرى جميعا داخل المعتقلات، مضيفا أن للكتاب الأسرى معاناتهم الخاصة، فهم لا يكتبون إلا وهم مهددون بمصادرة ما يكتبون عدا أن إجراءات السجن ليست مناخا مناسبا للكتابة، من هنا تأتي أهمية كتاباتهم.

أما ممثل وزارة الثقافة الفلسطينية، مدير مديرية الثقافة في محافظة نابلس الأستاذ حمد الله عفانة فقد بيّن دور وزارة الثقافة في دعم الكتاب الأسرى، حيث سبق للوزارة أن أصدرت مجموعة من الكتب التي أبدعها الأسرى.

وتناول الكاتب الحيفاوي المحامي حسن عبادي السيرة الإبداعية لهؤلاء الكتاب المكرّمين وعلاقته بهم، من خلال مبادراته المتنوعة، فتحدث عن كتاب كميل أبو حنيش «جدلية الزمان والمكان في الشعر العربي»، والرواية الجديدة المعدة للنشر «الجهة السابعة»، كما تناول في الحديث سردية «الخرزة» لمنذر مفلح، وأضاء على ما كتبه باسم خندقجي فتوقف عند رواياته «نرجس العزلة»، و«خسوف بدر الدين»، و«مسك الكفاية»، و«أنفاس امرأة مخذولة»، وأشار إلى روايته الجديدة المعدة للنشر «محنة المهبولين».

وتحدث عبادي عن كتاب الجاغوب «رسائل في التجربة الاعتقالية»، وعن كتب ياسر أبو بكر «أسفار العتمة»، وسلسلة بعنوان «كيف ننجح» حيث صدر منها كتابان، وكتابه الأخير «أشكال الفساد ومخاطره على حركة التحرير الوطني الفلسطيني فتح في سجون الاحتلال ووسائل علاجه». أما عمار الزبن فذكر عبادي كتبه وهي: «عندما يزهر البرتقال» و«من خلف الخطوط»، و«ثورة عيبال»و«أنجليكا» و«الزمرة»، متوقفا عند رواية الزبن الأخيرة «الطريق إلى شارع يافا».

في حين تحدث الكاتب فراس حج محمد عن ديوان أحمد العارضة «أنانهم»، وهو الديوان الثالث للشاعر الأسير، فقد سبقه ديوانان آخران هما «وشم على ذاكرة العدم» و«خلل طفيف في السفرجل»، ما زالا مخطوطين، وأشار إلى ما في «أنانهم» من لغة مكثفة، وصور شعرية لافتة، وإيقاع موسيقي هادئ، متوقفاً عند دلالة العنوان المصوغ من ثلاثة ضمائر (أنا ونحن وهم)، وحضور هذه

الضمائر ودلالاتها في النصوص الشعرية. لافتا النظر كذلك إلى أن الشاعر العارضة قد استفاد في هذه العنونة اللافتة إلى ما تتيحه قوانين اللغة العربية من قواعد في النحت والاشتقاق. ورافق إشهار الديوان وتوقيعه إلقاء قصائد من الديوان، فقد ألقى الطالب زيد السيّد أحد طلاب الصف التاسع الأساسي في المدرسة الإسلامية قصيدة «أنتّ أجمل» وبعض المقاطع من قصيدة (أ ن ا).

واختتمت الأمسية بمداخلات من الحاضرين وذوي الأسرى، حيث قرأ إبراهيم العارضة رسالة من أخيه الأسير أحمد معبراً عن فرحته بصدور ديوانه وشكر القائمين على إصداره، وفي المداخلة الثانية قدّمت بيسان بنت الأسير عمار الزبن كلمة عبّرت فيها عن مشاعر الود والاحترام تجاه كل من ينوّه بالأسرى وإبداعاتهم، لافتة النظر إلى جهود المحامي حسن عبادي في هذا الأمر.

منتدى المنارة للثقافة والإبداع يعلن نتائج مسابقة (قناديل الأدب/ أسرى مبدعون)

برعاية وزارة الثقافة وهيئة شؤون الأسرى والمحررين أعلن منتدى المنارة للثقافة والإبداع اليوم الأحد 6/6/2021 في مقر وزارة الثقافة الفلسطينية نتائج المسابقة الرمضانية «قناديل الأدب/ أسرى مبدعون» التي أعدت مادتها، وقدمت حلقاتها الثلاثين رئيسة المنتدى الدكتورة لينا الشخشير، وبثّت في حينه على قناة المنتدى في «اليوتيوب».

وتهدف المسابقة إلى التعريف بالكتّاب الأسرى الذين ما زالوا يقبعون في سجون الاحتلال، واستطاعت المسابقة أن تعرف بثلاثين كاتبا توزعت كتاباتهم على حقول إبداعية وفكرية وبحثية متنوعة، وكانت المسابقة مفتوحة لمشاركة جميع الفئات، وجاءت المشاركات من جميع الجغرافيا الفلسطينية، بالإضافة لمشاركات عربية من الجزائر ومصر والأردن.

افتتح حفل إعلان النتائج الذي احتضنته قاعة «صالح علماني» بكلمة الدكتورة لينا الشخشير، بينت فيها أن فكرة المسابقة انبثقت من مبادرات المحامي الحيفاوي حسن عبادي المهتم بالأسرى وكتاباتهم ويتابعها بشكل مستمر وفاعل، وأرادت المسابقة أن تلفت نظر المجتمع إلى هؤلاء المبدعين والتعرف على إنتاجاتهم الفكرية، وتدفع المتابعين والمعنيين إلى التفتيش عن هؤلاء الكتّاب الذين لم يكونوا معروفين لدى قطاع كبير من القراء والمهتمين.

وقال وزير الثقافة الدكتور عاطف أبو سيف في كلمته بهذا الخصوص: «أن مثل هذه المسابقات والنشاطات هي انتصار للقيمة النضالية التي يمثلها أسرانا البواسل وانتصار لروح الإبداع الفلسطيني والإصرار الفلسطيني على الإبداع». وأكد أبو سيف أن الكثير من الكتّاب والقادة خرجوا من السجون والتجربة النضالية تجربة مختلفة من جميع الجوانب، لأنها تعني أن هذا الإنسان الذي اريدَ عزله ونفيه وقتله تغلب على جلاده وواقعه المرير واستطاع أن يقدم أدباً وفكراً مختلفاً.

أما رئيس هيئة شؤون الأسرى والمحررين الدكتور قدري أبو بكر فقال: «الاحتلال أراد للمعتقلات أن تكون مقبرة للأحياء، لكن الأسرى الأبطال حولوا هذه المعتقلات إلى مدارس وأكاديميات وخرجوا الكثير من الكوادر التي يفخر فيها شعبنا الفلسطيني وعالمنا العربي، مضيفاً أن الهيئة تنظم كل عام مسابقة لكل من يكتب عن السجون، ولكنها توقفت هذا العام، نظرا للحالة الوبائية التي مرّت فيها فلسطين والعالم.

وتم استعراض الكتاب الثلاثين الذين كانت الحلقات تستهدف التعريف بهم، وبإنتاجهم وتعرف أيضا بمحكومياتهم العالية. وقد تم اختيار الفائزين العشرين عن طريق القرعة، من بين (47) مشاركاً، كانت جميع إجاباتهم صحيحة. ويذكر أن الجوائز مقدمة من وزارة الثقافة الفلسطينية، وهيئة شؤون الأسرى والمحررين، وشركة سوبر لينك للاتصالات، ومنتدى المنارة للثقافة والإبداع، والمهندس فخري الصفدي، وحرص المنظمون للمسابقة أن تكون كتب هؤلاء الأسرى جزءاً من الجوائز المقدمة للفائزين، تعميما للتعريف بكتاباتهم وقراءتها والتفاعل معها.

وقد حضر حفل الإعلان عن النتائج نخبة من المثقفين والكتاب، وبعض موظفي وزارة الثقافة وموظفي هيئة شؤون الأسرى والمحررين، ومندوب شركة سوبر لينك للاتصالات، بالإضافة إلى أعضاء الهيئة الإدارية لمنتدى المنارة السيد واصف معلّا والشاعر مفلح أسعد.

العناب المر على مائدة النقاش في مكتبة بلدية نابلس

عقد منتدى المنارة للثقافة والإبداع في حديقة مكتبة بلدية نابلس يوم السبت 24/7/2021، وبتعاون مشترك ما بين المكتبة وبيت الفكر والثقافة الشبابي،

نـدوة خاصـة لمناقشـة روايـة «العنـاب المـر» للكاتـب الفلسـطيني أسـامة مغربـي، واسـتهل اللقـاء السـيد ضـرار طوقـان مرحبـا بالكاتـب والمتحدثـين والضيـوف، مبينـا أهميـة مناقشـة هـذه الروايـة كـون كاتبهـا أسـيرا محـررا، وتتنـاول الروايـة حدثـا مهمـا في حيـاة الشـعب الفلسـطيني، وهـو الانتفاضـة.

وبـين عضـو منتـدى المنـارة الشـاعر مفلـح أسـعد مديـر النـدوة دلالات العنـوان، ومآلاتـه في النـص وفي الواقـع، حيـث تـذوق النـاس مـرارة تلـك الحقبـة التـي لـم يكـن يطمـح الفلسـطيني لتكـون هـذه هـي نتيجـة تلـك التضحيـات.

وتوقـف الدكتـور خليـل قطنانـي عنـد المـكان في الروايـة، متحدثـا عـن المـكان وأنماطـه وتشـكلاته والمـكان الأليـف والمـكان المعـادي، وفـرّق بنـاء علـى رأي غاسـتون باشـلار في كتابـه «جماليـات المـكان» مـا بـين المـكان والمكانيـة، إذ يبـرز مفهـوم المكانيـة في شـعرية المـكان وتوظيفـه الفنـي في روايـة العنـاب المـر مـن خـلال كثيـر مـن الإشـارات بـيّن بعضهـا الدكتـور قطنانـي.

وفي إضـاءة أخـرى قدمهـا الكاتـب فـراس حـج محمـد وقـف مـن خلالهـا علـى مـا تثيـره الروايـة مـن أفـكار في بنيتهـا الاجتماعيـة ومـا تـدل عليـه، مركـزا علـى «الحاضنـة الشـعبية» التـي كان لهـا الأثـر الكبيـر علـى مطـاردي الانتفاضـة الأولـى، كمـا أشـار إلـى دور المـرأة في الروايـة، وكيـف أنـه ظـل محكومـا للنظـرة التقليديـة للمـرأة علـى الرغـم مـن وجـود امـرأة مؤهلـة فنيـا وروائيـا أن تكـون نموذجـا تقدميـا للمـرأة الفلسـطينية.

وأمـا القـراءة الثالثـة التـي قدمهـا الناقـد رائـد الحـواري فأشـارت إلـى واقعيـة الروايـة، وخاصـة مـا تناولتـه مـن ظاهـرة التعامـل مـن المتعاونـين، عمـلاء الاحتـلال، وعمليـات الإسـقاط والتجنيـد في صفـوف المخابـرات الإسـرائيلية، كمـا تحـدث الحـواري عـن البطـل الإنسـان بعيـدا عـن الأسـطرة التـي اسـتطاعت روايـة العنـاب المـر أن تقـدم ثلاثـة نمـاذج منهـم وهـم: إبراهيـم وأحمـد وحسـان.

وفي كلمـة للكاتـب أسـامة مغربـي بـيّن ظـروف كتابـة هـذه الروايـة، فهـي التجربـة الأولـى لـه، وعمرهـا يقـارب الثلاثـين عامـا وإن نشـرت عـام 2018، إلا أنهـا كتبـت عـام 1994 في السـجن، ولذلـك ففيهـا بعـد توثيقـي لمرحلـة مـن مراحـل النضـال الفلسـطيني.

وقبـل تكريـم الكاتـب مـن منتـدى المنـارة للثقافـة والإبـداع وتوقيـع نسـخ مـن الروايـة،

استمع الكاتب إلى مداخلات متعددة من الكتاب والكاتبات الذين حضروا الندوة وتفاعلوا مع مضمونها وأفكارها، مقدمين بعض الملحوظات النقدية حول الرواية.

ومن الجدير بالذكر أن الرواية صدرت عن وزارة الثقافة الفلسطينية عام 2018. وتقع في (303) صفحات من القطع المتوسط، وللكاتب أيضا رواية بعنوان «اغتراب» صدرت عام 2020، وسردية قصيرة بعنوان «اجتياح» صدرت عام 2021.

مخيّم بلاطة يحتفي بإطلاق «رسائل إلى قمر»

احتفل مركز يافا الثقافي في مخيم بلاطة يوم السبت 21/8/2021 بإطلاق كتاب «رسائل إلى قمر» للكاتب الأسير حسام زهدي شاهين المحكوم بـ 27 عاماً، والكتاب مجموعة من النصوص المكتوبة داخل السجن، ويخاطب فيها قمر عماد الزهيري التي كانت طفلة عندما تم القبض على حسام في بيت والد قمر قبل سبعة عشر عاماً.

افتتحت الحفل عريفته الأستاذة عزة عز الدين، معرفة بالكتاب، وأبرز ما جاء فيه من محطات إبداعية وإنسانية، فعمدت إلى الاقتباس من الكتاب لتضيء على أفكار حسام وموضوعات كتابه، كما أبرزت الجانب الإنساني فيه، وخاصة فيما يتعلق بقمر وأخته نسيم وأمه آمنة.

ورحب الأستاذ تيسير نصر الله، رئيس مجلس إدارة مركز يافا، بالحضور بكلمة جاء فيها: «هذا الحفل الذي يحتضنه مخيم بلاطة يشكل قيمة وطنية وثقافية نعتز بها، كون هذا الكتاب المفعم بالإرادة والحياة أحد مؤلفات كاتب أسير هو الكاتب المناضل حسام زهدي شاهين، وبوجود بطلة الكتاب قمر الزهيري، واعتبر نصر الله أن هذه المناسبة هي جزء من حراك ثقافي يُعنى بأدب الحركة الأسيرة والأدب الفلسطيني المقاوم».

وتناول المحامي الحيفاوي حسن عبادي في مداخلته علاقته بحسام وزياراته المتكررة له، متحدثا عن بعض فصول الكتاب وأفكاره ومواقف حسام الإنسانية والثقافية والنضالية، لافتا النظر إلى ما يعانيه الكتاب الأسرى من إهمال، ومن مماطلة في نشر أعمالهم من المؤسسات الثقافية المحلية الرسمية وغير

الرسمية؛ واصفاً عبّادي تلك المماطلات بـ «المواعيد العرقوبية».

أما الدكتور خليل قطناني، فتناول كتاب «رسائل إلى قمر» بقراءة نقديّة تفصيلية فتحدث عن التجنيس الأدبي للكتاب، ولغته وأسلوبه، ورسائل الكاتب البلاغيّة والوطنيّة.

في حين تحدثت الكاتبة أسماء ناصر أبو عيّاش عن أدب السجون الفلسطيني، وأهم من كتب في هذا الأدب، مشيرة إلى جهود الأديب الفلسطيني خليل بيدس.

وألقى كلمة الأسير حسام شاهين أخته نسيم، شكرت فيها كلّ من شارك، وكلّ من نظّم، وبذل جهدا من أجل إطلاق الكتاب، مشيرة إلى أن الكتاب يعد تجربة نافعة قد يستفيد منها كل شاب وشابة في الوطن العربي، وبدورها، وفي كلمة مقتضبة، شكرت قمر الكاتب حسام الذي أهداها كتاباً لن تنساه طوال عمرها، معبرة عن تمنياتها أن يكون لقاؤها به قريبا ليحتفلا معا بعيد ميلادها القادم، وقد تحرر من قيوده.

حضر الحفل الشاعر عبد الناصر صالح وألقى قصيدة شعرية كتبها في أيام اعتقاله قبل 40 عاماً، تعبر عن واقع النضال الفلسطيني والحرية والاستقلال، مشيدا بدور الحركة الأدبية في سجون الاحتلال ودورها في تعزيز الثقافة الوطنية، معرجا على علاقته بالمناضل زهدي شاهين حيث جمعهما المعتقل.

واختتم حفل الإطلاق بالاحتفال بعيد ميلاد قمر عماد الزهيري بطلة الكتاب، حيث صادف عيد ميلادها الجمعة 20/8/2021، ومن ثم توقيع نسخ من الكتاب، وقد شارك في التوقيع كل من نسيم شاهين أخت الكاتب وقمر الزهيري والمحامي حسن عبادي.

حضر الاحتفال جمع من الكتاب والمثقفين والأسرى المحررين، وقام تلفزيون فلسطين بتغطية الحدث إعلامياً.

ندوة دولية عبر زوم لمناقشة أدب الأسرى الفلسطينيين

عقد التحالف الأوروبي لمناصرة أسرى فلسطين ندوة عبر تطبيق زوم، خصصها لمناقشة أدب الأسرى الفلسطينيين ودوره في التعريف بقضايا الأسرى ومعاناتهم، وذلك يوم الجمعة الموافق: 11/2/2022. وشارك فيها وحضرها نخبة من المثقفين والمهتمين من فلسطين والوطن العربي والدول الأوروبية. وقد تولى

إدارتها الشاعر والكاتب د. سليم نزال المقيم في السويد متحدثا عن أدب الأسرى، متمنيًا الحريّة القريبة للأسرى جميعاً. ثم تحدث رئيس التحالف د. خالد حمد بكلمة ترحيبيّة وتعريفيّة عن التحالف ونشاطاته.

بدأت الندوة أعمالها بقراءة رسالة الأسير أحمد عارضة، صاحب ديوان «أنانهم» الصادر في عام 2021، والمحكوم بالسجن مدى الحياة ويقبع في معتقل ريمون الصحراوي. وجاءت رسالته تحت عنوان «**أنا أكتب إذًا أنا حرّ**»، وألقتها نيابة عنه الأكاديمية والتربوية عزّة عز الدين. وأشار العارضة إلى أن الكتابة في السجن «تغدو فعلًا ثوريًا، لاسيما مع اعتبار ذلك محاربةً واعية لمرامي التجهيل والتفريغ المنهجة المتّبعة من قبل أدوات منظومة السيطرة الاستعمارية التي لا تفتأ تطارد الأفكار والأقلام والكتب والرواية والتاريخ والذاكرة».

ومن قطاع غزة تحدث السيد خليل الحلبي والد الأسير محمد الحلبي، وتناول معاناة ابنه، والمحاكمة التي يمر بها، فالحلبي صاحب أطول محكمة في التاريخ (168 جلسة حتى اليوم) موجّهًا نداءً للمجتمع الدولي لوضع حد لهذه المعاناة.

أما وزير الأسرى السابق ورئيس المكتبة الوطنية الفلسطينيّة الأستاذ عيسى قراقع فتحدث (من مدينة رام الله) عن تنوع كتابات الأسرى التي كان منها الرواية والشعر والخواطر والقصص القصيرة والحكايات والمذكّرات والسرديات والمسرحيات والأبحاث والدراسات الأكاديميّة، مضيفا أننا «نشهد في الآونة الأخيرة ثورة ثقافيّة حقيقيّة فيما يخص أدب الأسرى».

ومن المشاركات العربية كانت مداخلة الروائية والشاعرة المغربيّة أمينة الجباري، وتحدّثت بدورها عن تضامنها مع فلسطين وقضيّتها وأسراها، فقد صدر لها ديوانان، هما: «فلسطين تستحق الحياة» و«عائدون»، وقرأت بعض القصائد من هذين الديوانين.

تلاها من الأردن عضو رابطة الكتّاب الأردنيين الروائي عبد السلام صالح، وتحدّث عن أدب السجون وموضوعاته المتنوّعة وقيمته الأدبيّة، معرّفاً بمبادرة «أسرى يكتبون» التي تعقد كلّ أسبوعين، لتناقش عملا أدبيا من أعمال الأسرى الكتاب، ويدير الندوة في كل مرة أحد الكتاب الأردنيين، ويشارك فيها نقّاد من الوطن العربي بقراءات نقدية حول ذلك العمل، وبمشاركة الأسير بكلمة يلقيها نيابة عنه أحد أفراد العائلة، ويتبع الندوة تقرير صحفي يوزع على المواقع

والصحف المحلية والعربية والعالمية. منوّها أن المبادرة تحققت بفضل جهود من التعاون المشترك بين المحامي الحيفاوي حسن عبادي ورابطة الكتاب الأردنيين. وقد ناقشت حتى تاريخ انعقاد هذه الندوة عشرين عملا أدبيا متنوعا.

ومن نابلس تحدثت الدكتورة لينا الشخشير، رئيسة منتدى المنارة للثقافة والإبداع، عن الأبعاد الإنسانية والفكرية والنضالية في أدب الأسرى، وتطرقت إلى جهود منتدى المنارة في التعريف بأدب الأسرى وتكريم الكتاب الأسرى ضمن نشاطاته المتعددة التي عقدها العام الماضي (2021)، وتطرّقت للمسابقة الرمضانية حول أدب السجون، وتناولت كل يوم إصداراً لأسير ممن يقبعون في سجون الاحتلال، ومحكوم عليهم بأحكام عالية، تراوحت بين عدة مؤبدات إلى خمسة عشر عاماً حيث كان هذا الحكم أقل هذه الأحكام.

ومن حيفا تحدث المحامي الحيفاوي حسن عبادي عن تجربته مع أدب الأسرى، وزيارته للأسرى الكتاب، وتأسيسه لعدة مبادرات للتعريف بأدب الأسرى، ومما جاء في مداخلته: «تبيّن لي أنّ الكتابة خلف القضبان متنفّس للأسير، تجعله يحلّق ليعانق شمس الحريّة؛ من عتمة الزنازين يرسم الوطن قوس قزح»، وتناول كذلك في الحديث الصعوبات التي تواجه الأسير الكاتب، وإخراج المخطوطة من السجن، ورحلتها حتى ترى النور كتابا مطبوعاً.

وفي نهاية الندوة فُتح المجال لمداخلات الحضور، فكان هناك مداخلات قصيرة لكل من: هاني مصبّح، ويوسف الطويل، وعماد محاسنة، وحسام الدلقي، وصالح شعبان، وسميرة حاجي، ود. علي هدروس، وجميل قاسم، وعصام فرح.

ندوة دولية عبر زوم للتضامن مع الأسيرة الفلسطينيّة

خاص بمجلة الليبي (رسالة فلسطين)

عقد التحالف الأوروبي لمناصرة أسرى فلسطين ندوة عبر تطبيق زوم، خصصها للتضامن مع الأسيرات الفلسطينيات تزامنًا مع يوم المرأة العالمي، وذلك يوم الجمعة الموافق: 11/3/2022. وشارك فيها وحضرها نخبة من النشطاء والمهتمين من فلسطين والوطن العربي والدول الأوروبية. وقد تولى إدارتها الدكتور عبد الحميد صيام المقيم في الولايات المتحدة الأمريكية متحدثا عن المرأة ونضالها لنيل حقوقها وعن المرأة الفلسطينيّة عامّة والأسيرة بشكل خاص، متمنيًا الحريّة القريبة للأسرى جميعاً، وشاركته الترجمة د. تغريد المصري ثم

تحدّث المنسّق العام للتحالف د. خالد حمد بكلمة ترحيبيّة وتعريفيّة عن التحالف ونشاطاته داعيًا الجميع للالتفاف حول التحالف والمشاركة في فعاليّاته ونشاطاته.

بدأت الندوة أعمالها بمداخلة شموليّة للأسيرة المحرّرة خالدة جرار (رام الله)، بدأتها بتحيّة لوالدات الأسرى والشهداء وأخواتهم وللأسيرات، وتحدّثت عن الفترة الأولى للاعتقال التي تتّسم بالعنف والصدمة ساعة الاعتقال وما يليها من نقل لمعسكر جيش احتلالي ومركز تحقيق، ومنها إلى (المعبار)، مطالبة بإلغائه لظروفه الصعبة جدًا، و«البوسطة»، وظروف سجن الدامون بمبناه القديم والمليء بالكاميرات، وعدم وجود وسيلة تواصل مع العالم الخارجي، سياسة الإهمال الطبي المتعمّد، عدم وجود طبيبة نساء، وملاحقة الكتاب، وخطوات نضالية ومنها إرجاع الوجبات والامتناع عن الخروج إلى الفورة، وكذلك برنامج تعليم ثانوي وجامعي للأسيرات.

ومن قطاع غزة تحدثت أم ضياء الآغا، والدة الأسير ضياء، وتناولت بكلمات مؤثّرة وموجعة معاناة ابنها، أسير منذ ثلاثين عامًا، مُنع من الزيارة في الخمس سنوات الأخيرة، توفّي والده وهو في الأسر، كلّ ليلة دموعها تسيل على المخدّة، وتنادي العالم للتدخّل لوضع حد لهذه المعاناة المستمرّة.

تلتها السيدة مايا ديف؛ قائلة بأنّه يشرّفها أن تكون صوت فلسطين في هولندا، ونشاهد اليوم تسليط للضوء على انتهاك حقوق الانسان في أوكرانيا، وآن الأوان لتسليطها على الانتهاكات اليوميّة في فلسطين عامّة وتجاه الأسرى خاصّة ولا سكوت بعد اليوم منددّة بازدواجية المعايير لدى المجتمع الدولي.

أما أمل تسوتسويانو من رومانيا فأعربت عن ارتياحها لسماع أصوات أصيلة من فلسطين، وأكّدت ضرورة فضح الاختراقات والانتهاكات للحقوق الأساسيّة والمحاكمات الصوريّة، ومعاناة زيارات الأهالي، ونظام الفصل العنصري وضرورة تحرير الوعي للحريّة في فلسطين دون سجن وسجان، مؤكّدة حق تقرير المصير وحق العودة وضرورة إنهاء نظام الأبرتهايد.

وكانت بعدها الكلمة لأمل حمد (الاتحاد النسائي الأوروبي الفلسطيني) من برلين، وأكّدت ضرورة تسليط الضوء على المرأة الأم/ الزوجة والوضع الإنساني لكلّ أسيرة وأنسنة قضايا أسيراتنا.

تلتها سميرة حاجي (مغربيّة مقيمة في إيطاليا)، التي شدّت على أيادي الفلسطينيات عامة والأسيرات خاصة، وتسييس الأسيرات وتحويل مؤسسات القمع إلى مؤسسات ثورية تتحدّى الجلاد والمؤسسة العنصرية، وأهميّة المثقّفة الثوريّة وتبلور الوعي عند الأسيرات، وأهميّة تأهيل الأسيرات بعد التحرّر.

وكانت بعدها الكلمة لهبة بعيرات (الولايات المتحدة)، تناولت بدورها الوضع القانوني الدولي والانتهاكات ضد الأسرى التي تنافي القانون الدولي وميثاق روما وتشكّل جريمة حرب، وتناولت إمكانيّة مقاضاة ومحاكمة الأشخاص الذين يقوموا بالانتهاكات حين تواجدهم في الولايات المتحدة وغيرها.

تلتها الناشطة سيرين جبارين (أم الفحم/ الداخل الفلسطيني) التي تحدّثت بدورها عن نشاط حراك حيفا ومجموعة نشطاء من أجل أسيرات الدامون، وإيصال الكتب للأسيرات، ومساعدة الأهل في الزيارات، الوقفات الاحتجاجيّة والمظاهرات قبالة سجن الدامون، والاحتفال بأعياد ميلاد الأسيرات، وإطلاق كتاب الأسيرة أماني الحشيم «العزيمة تربّي الأمل» باب السجن وغيرها من نشاطات دوريّة مساندة لحرائر الدامون.

وكانت المداخلة الأخيرة للناشطة البلجيكية ميريام دي لي التي أكدت ضرورة النشر حول معاناة الأسرى والتعذيب، والتحرّش الجنسي داخل الأسر، ونشر شهادات أسيرات (خالدة جرار، دارين طاطور وإسراء جعابيص) وغيرهن.

وفي نهاية الندوة فُتح المجال لمداخلات الحضور، فكان هناك مداخلات قصيرة لكل من: لميس الديك (الولايات المتحدة) وهاني مصبّح (غزة). كما تحدّث عبد الناصر فروانة وشرح معاناة الأسرى وضرورة رفع وتيرة التضامن معهم وزيادة التنسيق بين المؤسسات والجمعيات المتضامنة مع الحركة الأسيرة.

ومن الجدير بالذكر أنّه كانت محاولات قرصنة واختراق للندوة الالكترونيّة.

منتدى المنارة للثقافة والإبداع يحتفي بكتاب «ترانيم اليمامة»

عقد منتدى المنارة للثقافة والإبداع يوم السبت 11/6/2022 لقاء ثقافيا في مقر التدريب المجتمعي التابع للإغاثة الطبية في نابلس، ناقش فيه كتاب «**ترانيم اليمامة- مذكرات أسيرات محررات**».

يقع الكتاب في (207) صفحات، ويضم مجموعة من النصوص الأدبية لعشر

من الأسيرات المحررات، حضر اللقاء منهنّ: عطاف عليان ومي الغصين ونهاد وهدان وأريج عروق وجيهان دحادحة وعهود شوبكي، بالإضافة إلى أربع من الأسيرات لم يتمكن من الحضور وهن: لينا الجربوني، وتغريد السعدي وشريفة أبو نجم، أما الأسيرة منى قعدان فما زالت خلف القضبان فقد أعيد اعتقالها، وحضر نيابة عنها أخوها الأسير المحرر طارق قعدان.

وكانت هؤلاء الأسيرات قد تلقين دورة في الكتابة الإبداعية أشرفت عليها الكاتبة الروائية ابتسام أبو ميالة. وهو الكتاب الثالث من سلسلة هذه الورشات؛ إذ سبق أن أشرفت أبو ميالة على كتاب الأسيرة المحررة نادية الخياط «احترقت لأضيء»، وكتاب مي الغصين «حجر الفسيفساء» في ورشات كتابة مماثلة، تشجيعا للأسيرات على توثيق التجربة بتفاصيلها كاملة أو بجزءٍ منها على الأقل.

استهلت الدكتورة لينا الشخير رئيسة منتدى المنارة اللقاء بكلمة ترحيبية بينت فيها أهمية اللقاء في تسليط الضوء على معاناة الأسيرات الفلسطينيات داخل سجون الاحتلال ونقل تجربتهن الاعتقالية للعالم الخارجي من خلال فعل الكتابة الإبداعية الذي يعد نوعا من التطهير النفسي، ثم تحدث المدير العام للإغاثة السيد غسان حمدان بكلمة مقتضبة مرحبا فيها بالأسيرات المحررات، مشددا على أهمية مساندة الأسرى الفلسطينيين ودعمهم.

حاور الأسيرات كل من الكاتبة عفاف خلف والكاتب والأكاديمي حسان نزال، فبدأت خلف حديثها بالتعريف بالأسيرات ووجهت لهنّ مجموعة من الأسئلة تتعلق بمضامين النصوص، أما نزال فقد تطرق في حواره مع الأسيرات إلى تجربة الكتابة، مشيرا إلى ما تتميز به كتابات الأسيرات من عمق وسلاسة وتوثيق.

وأما المشرفة على الكتاب الروائية ابتسام أبو ميالة فقد عبرت عن سعادتها بالعمل مع الأسيرات، والمصاعب التي واجهتها خلال الورشة، ومتابعتها للأسيرات في حالة اليأس والملل، وأشارت إلى اختلاف الأسيرات في القدرة على الكتابة، كما أشارت إلى أن بعضا من الأسيرات لم يكملن العمل، ولم يكتبن تجاربهنّ وتوقفن عن ذلك؛ تبعا لظروف متعددة.

وقدم مداخلات قيمة كل من الأسيرات المحررات نادية الخياط، وهيام حمدان،

وفدوى عباسي، والسيد سامي دغلس مدير مركز تدريب الشباب المجتمعي، والمحامي الحيفاوي حسن عبادي، ومظفر ذوقان منسق اللجنة الوطنية للدفاع عن الأسرى.

وفي نهاية اللقاء تم توقيع الأسيرات والكاتبة أبو ميالة على نسخ من الكتاب للحضور.

رواية «معبد الغريب» تشق الأفق في طولكرم

بناء على رغبة الأسير رائد الشافعي في أن يكون موعد إطلاق روايته الأولى بالتزامن مع الذكرى الخامسة والسبعين للنكبة، مستذكرا بلدته التي هجر منها، استضافت جامعة فلسطين التقنية خضوري- فرع طولكرم يوم الثلاثاء 16/5/2023 حفل إشهار رواية «معبد الغريب» بدعوة من مديرية وزارة الثقافة، وهيئة شؤون الأسرى في المحافظة، وبتنسيق الناشطة الثقافية غصون غانم، وبإشراف طاقم مكتبة الجامعة.

استهل الحفل الذي أداره الأستاذ حمد الله عفانة (مدير مكتب وزارة الثقافة) بالسلام الوطني وقراءة الفاتحة على أرواح الشهداء، وتحدّث عفانة عن جهود وزارة الثقافة الفلسطينية في دعم الإنتاج الأدبي للأسرى الفلسطينيين.

ومن ثَمّ عُرض فيلم قصير للتعريف بالأسير في سجون الاحتلال، رائد عليان عيد شافعي المعتقل منذ 28/7/2003، أعدّته الإعلاميّة هناء فياض، صاحبة مبادرة «الأسير ليس رقماً». تلا ذلك حديث للسيدة عصمت أبو صاع، مديرة هيئة شؤون الأسرى والمحررين في المحافظة، مؤكدة دور الحركة الأسيرة في النضال الفلسطيني، وما يؤدونه من مهام جليلة على المستوى الوطني والثقافي، مشيدة برواية الأسير الشافعي «معبد الغريب».

وفي كلمة للمحامي الحيفاوي حسن عبادي؛ تحدث عن زيارته لرائد الشافعي في السجن وعلاقته به، وعمله على الرواية ورعايتها حتى خرجت مطبوعة، ناقلا ما قاله له رائد خلال الزيارة الأخيرة التي سبقت حفل الإشهار: «فرحتي لن تكتمل إلّا حين أعود مع الرواية لأزور أهلي وبلدي».

وفي ذات السياق قدم الأستاذ عبادي لوحة مهداة لمكتبة خضوري بعنوان «الذاكرة اللانهائية» رسمها الفنّان الأسير جمال هندي تزامناً مع الذكرى،

بوحي وفكرة الأسير حسام زهدي شاهين. تتمحور حول الذاكرة الفلسطينية المتجددة. وقدّم عبادي شرحا حول مكونات اللوحة؛ «فالطفل الفلسطيني مولود من رحم النكبة المتجسد بحلقة المفتاح، حتى يكبر وينمو ضمن تعاقب الأجيال، ويواصل مسيرته صعوداً على درب ذاكرة العودة نحو فلسطين الوطن، كما وتجسد نافذة المفتاح وحدة الشعب الفلسطيني بكل أطيافه، وتؤكد الحجارة القديمة عروبة فلسطين وتجذر شعبها العربي الفلسطيني في أعماق التاريخ».

وفي قراءة نقدية للكاتب فراس حج محمد- محرر الرواية، أشار إلى «تحولات الزمن الفلسطيني في الرواية»، وما فيها من مضامين سياسية، وأسئلة وطنية بدءا من سؤال النكبة ذاتها وحتى سؤال الراهن المتعلق بأوسلو وتداعياتها، ويمرر الشافعي انتقاداته على مجمل السياسة والسياسيين في فلسطين، وخاصة الاعتقال السياسي الذي تمارسه أجهزة أمن السلطة الفلسطينية، والتحقيق مع المناضلين بالأساليب نفسها والكيفية ذاتها التي يمارسها المحقق الصهيوني.

كما بين الناقد حج محمد طبيعة البناء الروائي في رواية معبد الغريب، وتوزع السرد على جغرافيات ثلاث، وأزمنة ثلاثة، تسير بالموازاة بين الفصول الفردية والزوجية، لتعود وتلتقي بالفصول الأخيرة، وصولا إلى ما تعانيه الشخصيات الرئيسية في الأماكن الثلاث والأزمنة الثلاث أيضا من اغتراب نتيجة لتحولات الزمن الفلسطيني وتبدل منظومة القيم، وخاصة القيم الوطنية الثورية.

وأضاف أن الكاتب رائد الشافعي ينتمي إلى ظاهرة الكتاب الفلسطينيين الذين ولدوا كتابا في سجون الاحتلال، وكانوا دخلوا السجن بعد عام 2000، ويقارب عددهم (100) كاتب، كتبوا في صنوف أدبية متنوعة، وإن غلبت الرواية على إنتاجاتهم الأدبية لأسباب متعددة.

وفي مداخلة قصيرة للشاعر عبد الناصر صالح بيّن أهمية أدب الحرية، وأهم من كتب فيه، والمضامين التي يتناولها هذا الأدب، والقضايا التي يعالجها.

وفي كلمة للأسير، قرأها نيابة عنه عمه ساطي الشافعي، شكر فيها المبادرين والحضور وكلّ من عمل لإنجاح هذه الفعالية وإشهار الرواية، كما تحدث نجل الأسير فراس رائد الشافعي، في كلمة أهل الأسير عن علاقته بأبيه الذي اعتقل وهو بعد طفل صغير؛ لم يتجاوز الستة أشهر آنذاك.

هذا، وقرأ عريف الحفل برقية وصلت من الشاعر هاني مصبح- غزة، جاء فيها: «برقية تهنئة نقدمها باسم التحالف الأوروبي لمناصرة أسرى فلسطين- لجنة تنسيق قطاع غزة للأسير رائد الشافعي في حفل إشهار كتابه «معبد الغريب». فمن يمتلك الأمل يمتلك كل شيء. وأسرانا يمتلكون الأمل ويمتلكون الإرادة والعزيمة والإصرار وبذلك يمتلكون الحرية وإقامة الدولة الفلسطينية».

حضر جمهور كبير من المثقفين والكتاب والأسرى المحررين وذويهم هذه الاحتفالية، وقامت مجموعة من وسائل الإعلام المرئية بتغطية الحدث. ووقع الأستاذ حسن عبادي على نسخ الرواية للحضور في نهاية الحفل نيابة عن الأسير الكاتب رائد الشافعي.

يوم ثقافي وطني بحضرة الأسيرة المقدسية إسراء الجعابيص:

احتفل يوم السبت 16/9/2023 مجموعة من المثقفين والأكاديميين والإعلاميين وأسيرات محررات بالإصدار الأول للأسيرة إسراء الجعابيص، وذلك في نشاطين متتاليين، كان الأول بتسجيل حلقة خاصة من برنامج عمالقة الصبر، استهلت الفنانة الفلسطينية رنا بشارة عرضا مسرحيا، وهي ترتدي مجسما مصنوعا من الأسلاك الشائكة، مضافا إليها بعض العناصر الطبية التي ترمز إلى الإهمال الطبي داخل السجون، وتخلل العرض ترديد الفنانة بشارة كلمة «موجوعة» بحالات تمثيلية تحاكي ما تعانيه الأسيرة، وهي تحمل في الوقت ذاته أعمالا فنية للأسيرة إسراء الجعابيص.

وفي الفقرة الثانية من البرنامج استضاف الإعلامي سامر تيم أسرة إسراء؛ ابنها معتصم، وأمها، وإخوتها، وأخواتها، وأبناءهم. فتحدثوا عن إسراء وعلاقتهم بها، ونشاطاتها المجتمعية قبل الاعتقال، وما تتمتع به إسراء من سمات شخصية، يغلب عليها المرح وحب الحياة.

وشارك في الحلقة أسيرات محررات، فتحدثت خالدة جرار عن علاقتها الإنسانية والأكاديمية بإسراء داخل السجن، وعن إنجازها العلمي وكتابة الأبحاث، وإشرافها على تلك الأبحاث. في حين تناولت كل من إيمان الأعور ودلال أبو الهوى وأم الأسيرة مرح باكير الحديث عن إسراء داخل السجن وخارجه، وعن إصرارها ومواساتها لزميلات الأسر.

وتحدث المحامي حسن عبادي عن كتاب إسراء الجديد «موجوعة» مبينا موضوعاته، وأهمية أن يكتب الأسرى معاناتهم، لافتا النظر إلى أن الكتاب جاء هدية من الكاتبة لابنها معتصم في عيد ميلاده، ومن جانب آخر، بين الكاتب فراس حج محمد الأهمية الوطنية والفكرية لكتابات الأسرى والأسيرات، وما تمثله من بعد توثيقي.

وفي الفقرة الأخيرة من الحلقة احتفل الحضور والمشاركون بعيد ميلاد معتصم ابن الأسيرة الجعابيص، حيث أضاء الشمعة الخامسة عشرة من عمره.

ثم توجه المشاركون إلى معرض فلسطين الدولي للكتاب الثالث عشر، من أجل إشهار كتاب «موجوعة» وتوقيعه، وذلك في صالون سلمى الجيوسي، أدارت الفعالية الأسيرة المحرّرة سلام أبو شرار، وحضره جمع غفير من المهتمين بأدب الأسرى وأسيرات محررات وأسرى محرّرون وأهاليهم، ومنهم ماهر وكريم يونس. وتخلل الحفل كلمة للأسيرة، وكلمة الأسرة، وكلمة للأسير هيثم جابر باسم الحركة الأسيرة. في حين تحدث المحامي علي أبو هلال، والمحامي حسن عبادي، محرر الكتاب، والكاتب فراس حج محمد، والأسيرات المحررات: خالدة جرار، ومنى قعدان، وإيمان الأعور متناولين جوانب متعددة من حياة إسراء ومعاناتها وكتابها وما جاء فيه.

وفي نهاية الحفل وقّع المعتصم بالله ابن الأسيرة على نسخ من الكتاب للحضور.

وبالتزامن مع هذه الفعالية الاحتفالية، أقيم لإسراء حفل موازٍ في سجن الدامون شاركت فيه زميلات الأسر، تخلّلته زغرودة للأسيرة حنان البرغوثي.

إطلاق كتاب «موجوعة» للأسيرة إسراء الجعابيص[1]

تدوين- تغطيات

على هامش معرض فلسطين الدولي للكتاب، عقدت عائلة وأصدقاء الأسيرة إسراء الجعابيص ندوة إشهار كتابها «موجوعة» الصادر حديثا في حيفا، حيث أعده المحامي الحيفاوي حسن عبادي، وصمم الغلاف الفنان ظافر شوربجي.

وتخلل ندوة إشهار الكتاب التي أدارتها الأسيرة المحررة سلام أبو شرار، كلمة

1. نشر التقرير في منصة تدوين التابعة لصحيفة الحدث الفلسطيني بتاريخ: (16/9/2023) تحت الرابط الآتي:

https//:tadween.alhadath.ps/article/167110/

لإسراء كتبتها في سجن الدامون بتاريخ 10 أيلول الجاري، ألقتها شقيقتها منى الجعابيص، بالإضافة إلى مداخلات لأسيرات محررات، وحقوقيين، والكاتب فراس حج محمد.

ومما جاء في كلمة إسراء: «رسوماتي تعبر عن كل شيء لا أستطيع قوله و«موجوعة» هو أناي، أناي ليست كلمة تعبر عني أنا وصرخة امرأة فقط بل هي شعوري المنغمس بالألم والأوجاع، «موجوعة» هي أناي التي تكتب بالقلم المرتجف دون أن يجف، وكتبت وإياه سويا فضفضات موجوعة، في كتابات بعضها ليست دقيقة نحويا بالفصحى، ولا تملك صفة التقرير، ولا أراني ممن تتوفر لديها الحروف الهجائية، إلا وتكون مبعثرة في كلمات عشوائية، ولا أراني ممن تنطبق عليها صفة الأديبة، التي تكتب بشكل حِرّيّ ولست بعقلية الباحث التي تسير على منهجية البحث بكل دقة، هذا الإصدار هديتي المتواضعة بمناسبة عيد ميلاد فلذة كبدي المعتصم بالله وشكرا لكم جميعاً».

من جانبه، قال المحامي علي أبو هلال في مداخلته: إن الحديث عن إسراء الجعابيص حديث له تأثير ووقع عميق جدا في نفس كل إنسان حر، لأن ما تعانيه الأسيرة منذ اعتقالها عام 2015 حتى الآن، يفوق القدرة البشرية، فهي تعرضت لحروق في كل أنحاء جسمها نتيجة إطلاق الرصاص عليها وانفجار أنبوبة الغاز التي كانت تحملها بالصدفة».

وأضاف: لقيت هذه المناضلة تعاطف كل أحرار العالم وفلسطين، إلا السجانين وحكومة الاحتلال وجيشه ومؤسساته بما فيها القضاء، الذي هو جزء من منظومة الاحتلال ويأتمر بسياسة القيادة العسكرية والسياسية الإسرائيلية».

وتابع: «دليل على هذا أنه عندما توجهت عائلة المناضلة إلى محكمة العدل العليا في أيار 2022، للسماح لها بإكمال علاجها وهي بحاجة إلى ثماني عمليات جراحية وأوصى بذلك كثير من منظمات حقوق الإنسان والأطباء، إلا أن المحكمة رفضت طلب الأطباء».

من جانبه عرج الكاتب فراس حج محمد على أهمية هذا الكتاب بشكل خاص، وكتب الأسرى بشكل عام، إذ قال: «كل كتب الأسرى والأسيرات لها بعد توثيقي للحظة التاريخية التي يكون فيها الأسير في داخل السجن، فلكل لحظة تاريخية أبجدياتها وظروفها، وعندما يكتب الأسير أو الأسيرة هذه اللحظة فهم

يجسدوها في تلك الفترة، وتظل الكتابة شاهدا على ذلك حتى بعد تحررهم».

وأشار حج محمد إلى أن الناحية التوثيقية تشمل جوانب فكرية ونفسية، هذا لأن اللغة لها جانب نفسي يختلف عند استعادته عن الكتابة في حينها.

أما الأهمية الثانية وفقا للكاتب، فهي أن كتابات الأسرى بشكل عام لها أهمية وحضور وطني، لذلك عند مناقشتها، لا يحكم عليها أدبيا؛ لأن النقد الاجتماعي يأخذ بعين الاعتبار البيئة التي ينشأ فيها النص، فبيئة السجن لها ظروفها الخاصة، لذلك لها نصها الخاص، ولا يجوز الحكم على كاتب يكتب كتابا وهو في حالة ارستقراطية وبرجوازية وبالقلم الذهبي كمن يكتب في السجن.

وفيما يتعلق بكتاب الأسيرة إسراء الجعابيص، اعتبر حج محمد أنه يأخذ شكل «الكولاج» حيث جمعت فيه الأسيرة من كل فن أغنية، لذلك هي تسوق نفسها أدبيا أو فنيا أو إنسانيا للعالم الخارجي لتقول «إنني أكتب البحث العلمي، الخاطرة، الرسالة، والحوار وأرسم وأعبر بكل وسائل التعبير».

أما المحامي حسن عبادي: فقال في كلمته: «التقيت بإسراء للمرة الأولى بتاريخ 17 آب 2021 في قلعة الدامون وزرتها ثماني مرات من خلال مبادرتي للتواصل مع الأسرى ومع حرائر الدامون، مبادرة تطوعية دون مقابل، ويوم الأحد كان اللقاء رقم 227 مع الأسيرات والأسرى، حدثتني مطولا عن وضعها الصحي ومعاناتها والإهمال الطبي وحرمناها من تلقي العلاج لسنوات طويلة».

وأضاف: كانت إسراء دون أصابع ووجه مشوه يتوق العلاج، وتشنجات متواصلة، حدثتني عن التعلم في جامعة القدس المفتوحة وبحثها حول الإهمال الطبي، وفرضيتها بأن هنالك عقوبة تمارس ضد الأسرى والأسيرات وعلاقة جدلية بين الإهمال والعقوبة». كما قرأت على مسامعي نصوصا كتبتها وقالت لي ذات لقاء «نحن الأحياء في قبور أسسها السجان لتكون وفق استطاعتنا في تحويل هذه القبور إلى جنان، نهرب من واقع الضجر إلى واقع الأحلام لنبني ونؤسس جنة الصمود».

تقارير ندوة أسرى يكتبون[1]

كميل أبو حنيش

بمبادرة نصف شهرية، تعقد مساء السبت مباشرة عبر تطبيق زوم لرابطة الكتّاب الأردنيين بالتعاون مع الاتحاد العام للأدباء والكتّاب الفلسطينيين انطلقت يوم السبت: 9/1/2021 فعالية (أسرى يكتبون) دعمًا للحركة الأسيرة الفلسطينيّة وكتاباتها، وخصص اللقاء الأوّل لانطلاق المبادرة ومناقشة أعمال الأسير كميل أبو حنيش، وخاصة روايته الأخيرة الصادرة عن دار الآداب في بيروت «مريم/ مريام».

أدار الأمسية الأديب أحمد أبو سليم الذي أعلن بدورة عن سلسلة ندوات تحت عنوان «أسرى يكتبون» حيث أن مثل هذا النشاط يُحدث ثقبًا يدخل منه النور ليضيء عتمة زنازينهم.

تخلّلتها كلمة للشاعر أكرم الزعبي- رئيس رابطة الكتّاب الأردنيين، الذي تحدّث بدوره عن أهميّة مثل هذا النشاط وضرورته، وأهميّة التعرّف على أدب السجون الفلسطيني، وشكر المبادرين وأثنى على دورهم لإحراج البرنامج إلى حيّز التنفيذ وسعادته باحتضان الرابطة للمشروع.

تلاه الشاعر مراد السوداني- رئيس الاتحاد العام للأدباء والكتّاب الفلسطينيين، الذي شكر بدوره المنظّمين وقال إن هناك مانديلات في كلّ قرية ومدينة ومخيم تنحاز للوفاء، الأسرى يواصلون كتابة التراجيديا الفلسطينيّة بما يتخلّلها من بطولات ليؤكّدوا أنّ شعب فلسطين لن يرفع الراية البيضاء.

بعدها كانت الكلمة للأستاذ رشاد أبو شاور الذي حيّا بدوره الأسرى وراء الزنازين وعّبر عن اعتزازه بهم وهو يقرأ كتاباتهم، فنحن كما قال أبو شاور نتلهّف باستمرار على ما ينتجوه لنتعلّم ممّا يكتبون ونستفيد، يكتبون ما لا نستطيع كتابته وما لا نعرف. «واجبنا أن نقرع الجدران ونحمل منجزاتهم الأدبيّة ونقدّمها للقارئ العربي. لستُم وحدكم! نستمدّ منكم ما يُلهمنا ويقوّينا».

1. شارك بكتابة بعض هذه التقارير الصديق حسن عبادي. وبلغ عدد الندوات التي عقدت (28) ندوة حتى آب 2023.

ثم تحدّث المحامي الحيفاوي حسن عبادي عن مبادرته «من كلّ أسير كتاب»، ومن خلالها بدأ بإرسال كتب الأسرى إلكترونيًا إلى كلّ من يرغب بقراءتها ويطلبها من العالم العربي، ليصير هناك حراك ثقافي عربي حولها، والأمسية وليدة هذه المبادرة التي تحقّق حُلمَ أسرانا في الانطلاق نحو الحريّة المنشودة وأصبح حُلمهم بالتواصل يتحقّق؛ أسرانا يكتبون رغم عتمة الزنازين، فالكتابة متنفّس لهم، واختراق كلمتهم للزنازين وأسوار السجون حريّة لهم».

شارك الشاعر صلاح أبو لاوي بقصيدة بعنوان «ثلاث أغنيات لأشجار الزنزانة» مهداة للأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال جاء فيها:

«ثمة مَنْ بالنيابة عنا يجوعون حتى فناء الزنازينِ
لا يشربون سوى ملح أجسادهمْ
بالنيابة عنا يقيمون في كل زنزانة وطناً للكرامةْ
ويشيدون أبراجهم للسماء علامةْ
يا إلهي ألم تنتهِ المعجزاتْ
كيف صار الأسير نبياً ومن جوعه تنبتُ المكرماتْ»

كانت المداخلة الرئيسة للروائي مصطفى عبد الفتاح متناولا رواية كميل أبو حنيش «مريم مريم»، واصفا الرواية بأنها: «ليست مجرد رواية، أبطالها يعيشون الواقع، يبحثون عن ذواتهم المعذبة والمهددة، يبحثون عن الإنسان في داخلهم، يبحثون عن هويتهم القومية والوطنية والمدنية، فيتوهون في لجج الحياة، يبغون حياة دافئة مطمئنة فيزداد ضياعهم، إنّها كتاب مفتوح على قضية شعب، بكل تفاصيلها الدقيقة، وبكل تشعباتها، الكبيرة والصغيرة».

واختتمت الأمسية بكلمة الأسير، ألقاها بالنيابة عنه شقيقه كمال أبو حنيش، وجاء فيها: «نشد على أياديكم وأنتم ترفعون لواء الثقافة والأدب وتذودون عن هذه القلعة في ظل محاولات الطمس والاستلاب الثقافي التي يسعى إليها أعداء الأمّة ونحيي مثل هذه الأنشطة والفعاليات الثقافية التي تحاول إبراز أدب السجون وتسليط الضوء على إبداعات الأسير الفلسطيني الذي يتعرض للتنكيل المستمر من قبل مصلحة السجون الصهيونية بهدف إفراغ الأسير من محتواه الوطني والإنساني والحيلولة دون تمكينه من الإبداع الثقافي الذي من

شأنه أن يفضح ممارسات السجان اللا إنسانية».

من الجدير بالذكر بأن الأديب محمد مشّة يركّز هذا المشروع.

حسام شاهين

عقدت الندوة الثانية لمبادرة أسرى يكتبون التي ترعاها رابطة الكتاب الأردنيين، وخصصت لمناقشة أعمال الأسير حسام زهدي شاهين، وخاصة إصداره الأخير «رسائل إلى قمر» الصادر عن دار الشروق في عمان ورام الله، وأدار الأمسية الشاعر صلاح أبو لاوي، متناولاً سيرة الكاتب وأعطى لمحة عن الكتاب.

كانت المداخلة الرئيسة للأديب المقدسي محمود شقير الذي وصف الكتاب بأنّه شظايا سيرة؛ فحسام لم يكتب سيرة مكتملة بل اكتفى باختيار مشاهد من حياته من داخل السجن ومن خارجه، وقد كتب هذه الرسائل ليؤكد أهميّة احترام التعددية وعدم التعصب والانغلاق.

أما كلمة الأسير حسام فقد ألقتها بالنيابة عنه شقيقته نسيم، ومما جاء فيها: «الكتابة داخل السجون بعيداً عما يتم نشره في الخارج في عملية مستمرة ومتواصلة، وتشكل الطباق الصوري الذي يجعلها نوعاً من التعبير الاستعاري عن الكفاح المسلح كأرقى أشكال النضال والمقاومة، فالكفاح الكتابي بين الجدران هو الرديف العملي للكفاح المسلح خارجها».

بعدها كانت المشاركة لقمر الزهيري التي توجّه لها حسام بهذه الرسائل، فقد قالت بانفعال واضح: «الكتاب أحلى إشي صار بحياتي، أنا فخورة لأنّه مش الكلّ بصحلّه فرصة ينكتب عنه كتاب من قبل أسير!».

وشارك في الأمسية كلّ من الأسيرة المحرّرة عائشة عودة، والدكتور سري نسيبة، والكاتبة النصراويّة إلهام دعبول-بلان، د. هدى دحبور/ السعوديّة، وإيد جوهري/ ألمانيا، وسهى الأعرج/ عمان، والأسير المحرّر أمير مخول/حيفا، والمحامية بثينة دقماق، والأسير المحرّر حسام كناعنة/ عرابة، والكاتب عزيز العصا/ بيت لحم، والإعلامية قمر عبد الرحمن/ الخليل، والأديب محمد مشّة/ عمان.

وفي النهاية تحدّث المحامي الحيفاوي حسن عبادي، وشكر بدوره كل المنظّمين

للندوة وكلّ المشاركين وتحدّث عن علاقته بحسام وفكرة الكتاب وأنهى باقتباس الإهداء من الكاتب له ولزوجته.

باسم خندقجي

عُقدت في العاصمة الأردنية عمّان، وعبر تطبيق «زوم» الندوة الثالثة لمبادرة «أسرى يكتبون» وخصصت لمناقشة أعمال الأسير باسم خندقجي، مركزة الحديث حول روايته «مسك الكفاية – سيرة سيدة الظلال الحرة»، وأدار الأمسية الأديب محمد عارف مشّة، متناولاً سيرة الكاتب وإنجازاته الأدبية المتنوعة بين الشعر والرواية وكتابة المقال.

كانت المداخلة الرئيسة للكاتب فراس حج محمد بعنوان «تلك النّطفة المهرّبة لجعل الحياة والتّاريخ أقرب دلالة»، وجاء فيها «نجح الكاتب في أن يبلور من خلال المصادر الشحيحة التي اعتمدها بنية روائيّة متماسكة برؤى فكريّة وفلسفيّة واضحة المعالم، تناولت صعوبة الكتابة داخل السجن ومحدوديّة أدواته، وقد تحقّق فيها كثير من الشُّروط الفنّية والإتقان».

أما كلمة الأسير باسم فقد ألقتها بالنيابة عنه الإعلاميّة قمر عبد الرحمن، وأعرب فيها عن شكره لمنحه وغيره من الأسرى متسعا من الحرية، حرية الكلمات والشعور بجدوى الكتابة وأن ثمة من يكترث ومن يقرأ ما يكتبونه في هذه الغرفة الحديدية. وتحدث باسم عن الرواية فقال: «إن هذه الرواية كانت وما زالت بمثابة نقطة الانطلاق في مشروع روائي سردي متجدّد أسعى إلى تحديد ملامحه ومركّزاته وأشكاله لكل نص أكتبه فيما بعد».

كما قدمت الكاتبة جمانا سمير العتبة من ليبيا مداخلة حول الأديب خندقجي وروايته، فتحدثت عن جماليّة الكتابة ومتعتها في القراءة. كما غنّت الطفلة يافا خميس بصوتها العذب أغنية «يا طالعين الجبل».

وشارك في الأمسية كلّ من: الأديب المقدسي محمود شقير، والأديب رشاد أبو شاور والكاتبة نزهة الرملاوي.

وفي النهاية، تحدّث المحامي الحيفاوي حسن عبادي، وشكر بدوره كل المنظّمين للندوة وكلّ المشاركين، وخصّ بالذكر الأختين ميسم وسوسن حج محمد اللّتين قامتا بطبع مداخلة باسم، لافتا النظر إلى أن باسم ليس مؤرّخا، بل اتخذ

التاريخ ركيزة لروايته.

أما الختام فكان مع وصلة عزف وغناء مع الفنان المبدع يزن أبو سليم.

أسامة الأشقر:

عقدت في العاصمة الأردنية عمّان، يوم السبت، عبر تطبيق زوم الندوة الرابعة لمبادرة «أسرى يكتبون»، وخصصت لمناقشة كتاب الأسير أسامة الأشقر «للسجن مذاق آخر»، وأدار الأمسية الأديب صالح حمدوني، متناولاً سيرة الكاتب.

وكانت المداخلة الرئيسة للكاتب محمد مشة الذي تناول عنوان الكتاب كعتبة نصيّة، وكذلك الإهداء، وتطرّق لأسلوبه الساخر وظاهرة «العصافير»، وغرف العار داخل السجن، وتحدّث عن ارتباطه بمنار كرسالة تحدٍّ، وكذلك الأمر بالنسبة لتهريب النطف والإصرار على الإنجاب.

أما كلمة الأسير أسامة فقد ألقتها بالنيابة عنه زوجته منار، وأعرب فيها عن شكره لمنحه وغيره من الأسرى متنفسا عبر القضبان، وجاء فيها:

«إن الكتاب للسجنِ مذاقُ آخر الذي نتناوله الآن لم يكن نابعا من ترف الكتابة ولم يأت بدافع الهواية في التعبير عن مكنونات الذات أو ما تحويه نفسي، بل هو وثيقة ضرورية وهامة لبعض ما يحدث داخل أسوار السجون التي أردنا توثيقها وإطلاع شعبنا وشعوب العالم الحر على بعض أشكالها.»

وكانت مداخلة للكاتب أحمد أبو سليم الذي تحدّث بدوره عن تواصله مع أسامة بُعيد مقاطعته للجوائز التطبيعيّة وقرأ رسالة بعثها له الأسير من سجن الجلبوع وردّه عليها.

وشارك في الأمسية كلّ من: الأديب المقدسي محمود شقير، والكاتبة لينا أبو بكر (لندن)، والكاتبة إسراء عبوشي (جنين)، ود. ربحي حجازي (عمان)، والأسير المحرّر أمير مخول (حيفا)، والكاتب عامر طهبوب (عمان)، والكاتب شفيق تلولي (غزة).

وفي النهاية تحدّث المحامي الحيفاوي حسن عبادي، وشكر بدوره المنظّمين للندوة، كما تحدّث عن لقائه الأخير بأسامة وأهميّة كتابة حكايات الأسرى وإيصالها لكلّ حدب وصوب ورحّب بمشروع تأسيس مكتبة لأعمال الأسرى

الإبداعيّة وترجمتها للغة الإنجليزيّة الذي بادرت له د. لينا أبو بكر.

وكان الختام مع وصلة عزف على العود وغناء مع الفنان المبدع كمال خليل.

منذر مفلح:

عقدت مساء السبت 6/3/2021 في العاصمة الأردنية عمّان عبر تطبيق زوم الندوة الخامسة لمبادرة «أسرى يكتبون» وخصصت لمناقشة سرديّة «الخرزة» للأسير الكاتب منذر مفلح، وأدار الأمسية الروائي عبد السلام صالح، متناولاً سيرة الكاتب وقال: «حين يكتب الأسرى عن الشهداء يرتجف كلّ ما هو في القلب، يختلط الدمع بالصبر، يختلط المعنى بالمبنى... تختلط العاطفة بالرصاصة وبالقيد... بالدم نكتب لفلسطين».

كانت المداخلة الرئيسة للروائي أحمد أبو سليم بعنوان «القانون والمعجزة في سرديَّة الخرزة» وجاء فيها: «تمثِّل الخرزة الَّتي وجدها نصر عالقة في ثنايا بنطاله الحدَّ الفاصل بين زمنين، سيعلِّقها بخيط ويدلِّيها من سريره في السِّجن، ويضربها بيده حتَّى تتحرَّك في الهواء كالبندول، إنَّها ساعة السِّجن البيولوجيَّة خاصَّته»، وتحمل حركتها المتناوبة ذاكرة محشورة في الماضي، ولا تقوى على الخروج منه أَبداً... سيقدِّم منذر تعريفاً جديداً للمكان والزَّمن في السِّجن، إنَّه بطريقة أُخرى يلج نظريَّة آينشتاين من أَوسع أَبوابها، فما دام الزَّمن هو البعد الرَّابع للمكان، وما دام المكان هو السِّجن، فنحن إذن أَمام تعريف مختلف للزَّمن.... إنَّه زمن البندول، الخرزة. «

أما كلمة الأسير منذر فقد ألقتها بالنيابة عنه ابنة أخته سلافة حنايشة، وأعرب فيها عن شكره للقيّمين على هذا النشاط، وجاء فيها: «الكتابة هي مشروع إعادة التمثيل للتجارب بكل ما فيها من تصاوير، تفكير عالم موازٍ هو عالم السجن، وهو الذي يتفكر من الماضي والحاضر يسيران تحت جدل زمان موازٍ للآخر، فالماضيان والحاضران، ماضٍ خبرهُ الكاتب، وماضٍ أمنهُ الأسير، وحاضرٍ يتلمّسه على ملامح وجههِ، وآخرً يتلمس ملامحه منً المستقبل».

وشارك في الأمسية كلّ من: الكاتبة أسماء ناصر أبو عياش (رام الله)، والناقد رائد الحواري (نابلس)، والكاتب فراس حج محمد (نابلس)، والأديب المقدسي محمود شقير (ألقاها بالنيابة عنه حسن عبادي)، والكاتبة المقدسيّة نزهة

الرملاوي، والروائيّة سهام أبو عواد (عمان)، والشاعر محمد خضير (عمان)، والناشطة الثقافيّة جمانا العتبة (ليبيا). هذا وكانت هناك تحيّة مؤثّرة من نداء مفلح حنايشة، أخت الأسير، لكل من شارك في الندوة التي تناولت عمل الأسير منذر أو حضر الندوة وتفاعل معها.

وفي النهاية تحدّث المحامي الحيفاوي حسن عبادي، فشكر بدوره المنظّمين للندوة، متحدّثاً عن علاقة منذر بحفيدته ليم والرسائل التي يكتبها لها، وأضاف: «تُعتبر الكتابة متنفّسا للأسير، تدفعه نحو الأمام، تجعله يتنفّس شكلا من أشكال الحرية، وحين صدرت الخرزة حقّق منذر حُلمَه في الانطلاق الروحي المحلّق؛ ليخرج من ظلمات السجن إلى النور، من عالم النسيان إلى عالم الخلود، وها هو اليوم يحلّق في سماء عمان رغم السجان وقيوده».

أما ختام الأمسية فكان مع وصلة عزف على العود وغناء للفنان كمال خليل شملت أغنية لحّنها خصّيصًا لأم الفحم وحراكها المطلبي الأخير.

أحمد سعدات:

عقدت مساء السبت 20/3/2021 في العاصمة الأردنية عمّان عبر تطبيق زوم الندوة السادسة لمبادرة «أسرى يكتبون»، وخصصت لمناقشة كتاب«صدى القيد» للأسير أحمد سعدات، وأدارت الأمسية القاصّة حليمة الدرباشي، مستهلّة القول: «في زنازين العزل تُشرق الشمس رغما عن أنف السجّان، تُنبت الكلمة وتنمو الروح ويمتدّ الأفق، هناك تتكاثف الأفكار والآمال الصاعدة من الرؤوس الثائرة لتنهطل على الكون كلّه، جدران رطبة بالية تحبس الجثّة فقط، فمن يقدر على حبس الأفكار المتدفّقة من الأدمغة؟».

كانت المداخلة الرئيسة للمحامي الحيفاوي حسن عبادي؛ تحدّث بدايةً عن لقائه بالأسير أحمد سعدات في سجن ريمون الصحراوي الذي حفّزه على الاستمرار بمشروع أطلق عليه «متنفّس عبر القضبان» والتقى من خلاله بحوالي ثلاثين أسيراً ممن يكتبون، وتناول الكتاب الذي يتحدّث عن تجربة أحمد سعدات الشخصية في العزل داخل سجون الاحتلال، وتجارب أسرى التقاهم خلال سجنه، وتعريف العزل الانفراديّ، على أنواعه، ويصف حياة الأسير المعزول انفراديا ومعاناته في زنزانته، محاولات تدمير نفسيّته لكونه من أشدّ أساليب التعذيب

قسوة ليصل إلى نتيجة «أنّ صمودك من شأنه أن يُضعف عدوّك وأن يُفكّك شخصيّته وقيمه العنصريّة، فلا تسمح للحقد بالانتصار على قيم الإنسانيّة الخلّاقة»، وأضاف أنّ الكتاب أُرفق بملحق سُمّي «من كشكول العزل» يصوّر جوانب مضيئة من واقع العزل لأسرى مرّوا بتجربة العزل ومعاناة عائلاتهم.

أما كلمة الأسير سعدات فقد ألقتها بالنيابة عنه ابنته صمود، وأعرب فيها عن شكره للقيّمين على هذا النشاط، وجاء فيها: «إن الحافز الذي دفعني لكتابتها (تجربة العزل) هو السعي لإلقاء بعض الضوء على أساليب قهر الاحتلال ومؤسّسته القمعيّة في السجون التي يجري ممارستها في الزوايا المعتمة والبعيدة عن أوجه الحماية الجماعية للحركة الأسيرة، والمجتمع الفلسطيني بشكل عام».

وشارك في الأمسية كلّ من: الأسير منذر مفلح (سجن هداريم الاحتلالي وألقت مشاركته نيابة عنه ابنة أخته سلافة حنايشة)، والناشط عبد الكريم زيادة (رام اللّه)، والكاتب زياد جيوسي (جيوس/ عمان)، الشاعر صلاح أبو لاوي (عمان)، والشاعر محمد خضير (ألقى قصيدة من أشعاره تحيّة للأسرى/ عمان)، والكاتب محمد مشّة (عمان)، والكاتب فراس حج محمد (نابلس) ممثّلا لمجلة الليبي، والأسيرة المحّررة الأستاذة رُلى أبو دحو (جامعة بير زيت)، والأسيرة المحرّرة الأستاذة سعاد غنيم (بريطانيا) والشاعر سامي عوض الله البيتجالي (الولايات المتّحدة).

هيثم جابر:

عقدت يوم السبت 3/4/2021 عبر تطبيق زوم، الندوة السابعة من مبادرة «أسرى يكتبون»، وتم فيها مناقشة رواية (الشهيدة)، للأسير في سجون الاحتلال الروائي هيثم جابر، وأدار الندوة الكاتبة والباحثة مريم عنانزة. شارك فيها نخبة من المثقفين والأدباء العرب، وبحضور أعضاء من الرابطة: أكرم الزعبي رئيس الرابطة، والروائي عبد السلام صالح، والأديبة هدى أبو غنيمة.

قدمت في البداية الأديبة الفلسطينية المقيمة في لندن د. لينا أبو بكر قراءة نقدية للرواية، وقالت فيها إن الرواية الفلسطينية عمل مقاوم من الأسرى الفلسطينيين للاحتلال، وتحدثت عن إيجابية الرواية من حيث الصنعة الفنية والإبداعية، مبينة في تحليلها لرواية «الشهيدة» أهم المرتكزات الفنية والإبداعية

للنص، كما قالت إن هيثم جابر كان منحازا للمرأة الفلسطينية، وتحدثت عن بعض محفزات النص، بخصوص حجاب بطلة الرواية سلمى، ما أثار نقاشا من الروائي أحمد الغماز بما تم طرحه من خلال الحجاب، فأوضحت أبو بكر ما كانت تقصده في تحليلها للنص الروائي.

وكانت مشاركة الكاتب هيثم جابر بكلمة ألقاها نيابة عنه أخوه علي جابر حيّا فيها المشاركين، وشكر رابطة الكتاب الأردنيين على هذه المبادرة، مضيفاً: نحن لا نكتب في الأسر كي نطلب الشهرة، بل نكتب من فعل مقاوم، فكما قاومنا بدمنا ونحن أحرار خارج السجن، نقاوم من داخل السجن بفعلنا النضالي الكتابي، وقال لا تتعاملوا مع أدب الأسرى من مبدأ الشفقة، ولكن حاكموا العمل فنيا، وليتم مناقشة الإيجابيات والسلبيات».

ثم فتحت مديرة الندوة للمشاركين المجال للمناقشة، فتحدث المحامي حسن عبادي حول علاقته بالأسرى الكتاب من خلال مشروع لكل أسير كتاب، وأشار إلى اهتمام هيثم بالقراءة وتطوير الذات وحرصه على أن تصله الكتب من خارج السجن، وخاصة الكتب النقدية.

أما الأديب الفلسطيني محمود شقير فقد قال في مداخلته أن الشهيدة رواية غرقت «في التفصيلات الكثيرة، وكنت أتمنى أن يترك مجالا لخيال القارئ، وأن يكون هناك فراغات يعمل القارئ على تعبئتها ليكون مشاركا في العمل بصورة ما».

ثم تحدث الناقد رائد محمد الحواري عن فنيات النص، وقال: إن هيثم قاصاً أفضل مما هو روائي، وروائي أفضل مما هو شاعر. وأما الكاتب فراس حج محمد فقرأ قصيدة «بلادي» من ديوان هيثم جابر «زفرات في الحب والحرب -2». مشيرا باقتضاب إلى ما في القصيدة من نواحٍ جمالية.

وكان للأسيرة المحررة عبير عودة مداخلة أشارت فيها إلى التجاهل الذي يعاني منه أدب الأسرى، وأفصحت عن العمل الجديد القادم للأسير هيثم جابر وهو الجزء الثالث من ديوانه «زفرات في الحب والحرب». وأكدت الكاتبة أسماء ناصر ضرورة متابعة الأسرى وهمومهم عامة وللمبدعين في الأسر خاصة، أما الكاتبة الفلسطينية المقيمة في ليبيا جمانا العتبة فقرأت بعض المقطوعات من رواية الشهيدة وأبدت إعجابها بكافة أعمال هيثم الروائية والقصصية والشعرية.

وفي ختام الأمسية شكر عضو رابطة الكتاب الأردنيين الكاتب محمد عارف مشة، المشاركين جميعا، ورحب بكافة أعمال الأسرى والمحررين لتجد طريقها إما للنشر أو للمناقشة والإشهار عبر هذه الأمسيات.

نادية الخياط:

عقدت مساء السبت في العاصمة الأردنية عمّان عبر تطبيق زوم الندوة الثامنة لمبادرة «أسرى يكتبون» التي ترعاها رابطة الكتاب الأردنيين، وخصصت لمناقشة كتاب» احترَقَتْ لتُضيءَ « للأسيرة المحرّرة نادية الخياط.

أدار الأمسية الدكتور إسماعيل القيام، مستهلا القول: «عشت لحظات أليمة في السجن ولحظات عزّ وكرامة وأنفة مع الأسيرات الحرائر حين قرأت الرواية» ونادى بضرورة قيام دراسات واعية عن أعمال الأسرى وترجماتها للغات أجنبيّة.

و كانت المداخلة الرئيسة للكاتب أبو علاء منصور، ونوّه إلى كون الرواية كتاب توثيقي تناول مجموعة قضايا إنسانيّة، تعاملنا مع الأسرى كأبطال وأرقام وجاءت الكاتبة لتحيي مشاعر إنسانيّة، فالأسير إنسان بطل/ بطل إنسان والسجن حياة وآن الأوان لأنسنة أسرانا وقضيّتهم.

أما الكاتبة نادية الخياط فقالت إنها جاءت لنوثّق تجربتها الاعتقالية بشكل إخباري/ سردي، عاشت التجربة ورغبت بإيصالها على أتم وجه ولا تريد أن تتركها للآخرين كي لا يشوّهوها، عمدا أو عن غير قصد، وشكرت المنظّمين لهذه الندوة وأشارت إلى أهميّتها.

وشارك في الأمسية كلّ من: الكاتب أحمد الغماز، الأسيرة المحرّرة مي الغصين، لبنى أحمد (ابنة أخت الأسيرة وكشفت عن اسمها الحركي «أبو خليل» الذي اعتادته العائلة)، الناقد رائد الحواري، القاصّة مريم عنانزة والكاتب محمد مشّة.

وتحدّث المحامي الحيفاوي حسن عبادي وشكر بدوره عريف الندوة الدكتور إسماعيل القيام والمشاركين، ورابطة الكتاب الأردنيين التي ترعى هذه المبادرة، وأشاد بدور الكتّاب محمد مشة وعبد السلام صالح وعملهم الدؤوب لإنجاح المبادرة، ونقل تحيّة الأسرى في سجون الاحتلال وسعادتهم للمشاركة في هذه المبادرة التي تعتبر متنفّسا لهم ومشاهدة الحلقة وتسجيلاتها داخل القضبان تشكّل عرسا ثقافيا يحتفلون به.

د. وداد البرغوثي:

عقدت مساء السبت 26/6/2021 في العاصمة الأردنية عمّان عبر تطبيق زوم الندوة التاسعة لمبادرة «أسرى يكتبون»، وخصصت لمناقشة رواية «حين يعمى القلب» للأسيرة المحرّرة د. وداد البرغوثي، وأدار الأمسية الشاعر والإعلامي محمد نصيّف الذي لفت الانتباه لبعض محاور الرواية.

افتتحت باب المداخلات السيّدة رلى أبو دحو (أسيرة سابقة ومحاضرة في جامعة بير زيت) فتحدّثت عن صلابة مواقف الكاتبة، وعن أدب السجون والكتابة داخل السجن عبر سمسمة الأوراق ولفّها في كبسولات وتهريبها، كما أشرت إلى أن الأسير كتلة من المشاعر والأحاسيس وله فكرة ورؤيا يعبّر عنها عبر الكتابة.

أما الكاتب وسام رفيدي (باحث ومحاضر جامعي في جامعة بيت لحم) فتحدّث عن بلدة كوبر، محور الرواية، وعن الأسير الذي يهتم بالأشياء الصغيرة (حين كان يحصل على دفتر وقلم من الصليب الأحمر لخمسين أسير!)، تتناول الرواية سيرة وداد البرغوثي، وكأنّه يعرف كلّ شخوصها رغم عدم ذكر الأسماء، وتتحدث عن التوجّه للمنظّمات غير حكوميّة التي تساعد على كيّ الوعي، وحين كتبت تململ الكثيرون من «أبطالها»، فكما يقول المثل «اللّي ع راسه بطحة بحسّس عليها، وتنحاز الرواية- كما يرى رفيدي- إلى الصراحة لدرجة المباشرة، وقد نجحت في استخدام طاقتها للتحريض الثوري، التربوي والتوعوي.

كانت المداخلة الثالثة للأسير كميل أبو حنيش (قرأها أخوه كمال) بعنوان: «وضوح الرؤى والمواقف في رواية حين يعمى القلب»، وجاء فيها: «وداد المنسجمة مع نفسها وما تحمله من مواقف ومبادئ راسخة، تبدو شبيهةً بنصوصها، وما يميزها هذه المرة في روايتها الجديدة أنها قررت أن تفتح النار وتصرخ بأعلى صوتها بلا أي تحفظ، وهي تشير إلى عري الملوك والأمراء والسادة ومرحلتهم، وتفضح بكل شجاعة وجرأة الأقنعة الزائفة التي يتسترون من خلفها. فالرواية ليست مألوفة بل خارجةً عن المألوف، امتزجت فيها السيرة الذاتية للكاتبة مع الخيال الروائي مع واقعية المشهد الفلسطيني المفتوح كجرح، وما تنطوي عليه المرحلة التاريخية من بطولات وخيانات ومؤامرات، والكثير من تواطؤ الأبناء، فالكاتبة تضع يدها على الجرح وتسلط الضوء على بعضٍ من عيوب معركتنا

التحررية، وتلامس أوجاعنا والكثير مما لا نتجرأ بالبوح به حتى لا نمعن في فضيحة ذاتنا الوطنية».

أما الكاتبة وداد البرغوثي فتحدّثت عن الكتابة داخل الحبس المنزلي والإقامة الجبرّية وقدّمت شهادة إبداعيّة وبعضا من نصوصها وشكرت المشاركين والمنظّمين لهذه الندوة وأشارت إلى أهميّتها.

وقرأ الروائي عبد السلام صالح رسالة من الأسير هيثم جابر (سجن النقب الصحراوي) باسم الحركة الأسيرة وجاء فيها: «ولا زال قلم الدكتورة «وداد «ينبض شعرا ونثرا وسردا. ولا زالت تقدم وتعطي، وتصنع الرجال، والأجيال في بيتها، وفي قاعة المحاضرات بجامعة بير زيت. كما تصنع شخصياتها السردية في الأدب والرواية. على الدكتورة «وداد «دفء الشعر والكلمات ولنا مسرة الحرف ومتعة القراءة والنشيد».

ونقل المحامي الحيفاوي حسن عبادي رسالة مؤثّرة من ولدها قسّام (سجن نفحة الصحراوي) وجاء فيها: «علّمتِني النقاء والنُبل قبل الكتابة، الإيمان بالفكرة قبل الكتابة في سبيلها، فدُمتِ خير معلّمة. «حين يعمى القلب» رواية تلخّص دفاعك المستميت عن فكرة نقيّة، لم تكوني أقلّ نقاوة منها. وأن يعمى القلب ليس بحدّ ذاتها مشكلة، المشكلة تكمن في أن يعمى القلب، ولا يجد دليلا نقيا وطاهرا كقلبك يهديه لخير سبيل» وشكر بدوره عريف الندوة والمشاركين، ورابطة الكتاب الأردنيين التي ترعى هذه المبادرة، كما نقل عبّادي تحيّة الأسرى في بساتيل الاحتلال وسعادتهم للمشاركة في هذه المبادرة، وتحدّث عن جرأة الكاتبة في تعرية المنظّمات غير الحكوميّة ومشروع الـ NGOS الذي يسعى لإجهاض العمل الوطني والثوري سعيا لإرضاء الجهات المموّلة.

معتز الهيموني:

عقدت مساء الاثنين 12/7/2021 الندوة العاشرة لمبادرة «أسرى يكتبون»، وخصصت لمناقشة رواية **«سراج عشق خالد»** للأسير الخليليّ معتز الهيموني، وأدار الأمسية الشاعر رامي ياسين الذي قدّم لمحة عن الكاتب ووصف الرواية بسرد بوليسي شيّق يطرح قضيّة العملاء بجرأة ولفت الانتباه لبعض محاور الرواية.

افتتح الندوة بكلمة الأسير فألقتها بدلا عنه الإعلاميّة سجى زلوم (مؤسّسة

الشعلة) وجاء فيها: «لم يعد يخفى على أحد أن أدب السجون بدأ يأخذ في العقد الأخير منحنى مختلفاً عما كان سابقاً، إذ كان منصة للتعبير عن الذات وإطلاق الأفكار والأهم كان تحدياً لفلسفة السجان القائمة على عزل الأسير المجتمعي، لكنه اليوم قد أمسى صرخة معبرة عن حال الخذلان التي يشعرها الأسير الفلسطيني، ليس من المستوى الرسمي وحسب وإنما من المستويات كافة، لقد بات الأسير يشعر أنه مجرد مادة دسمة للشعارات والخطابات لإثارة عواطف الناس، كان يرى في ذلك الحد الأدنى الذي يرتضيه، لكن في الآونة الأخيرة حتى هذا بدأ يتلاشى. وبدأ جلياً أن هناك تجاهلا متعمدا من المستوى الرسمي والفصائلي الأمر الذي أدى الى عزوف شعبي عن قضية الأسرى، فلم يعد يوم الأسير الفلسطيني يوما يستنفر الناس للتضامن مع الأسرى... بدأ الإحساس لدى الأسير بضرورة التسلح بالأدب والثقافة والتوجه نحو الإعلام الجديد ليطلق صرخة مفادها نحن هنا ولا زلنا داخل السجون، نقارع المحتل لم نتحرر بعد، ولا يزال المئات منا يدخلون أعوام جديدة والعشرات يدخلون أعوامهم العشرين فلا تنسوا ذلك، خشية أن تتحول صرخة نحن هنا مجرد تذكير بلا تحذير ثم تحدٍ قد يؤدي إلى قلب الطاولة على الجميع».

وكانت المداخلة الأولى للناشطة الثقافيّة جمانا العتبة التي قالت بأن أقلام الأسرى تمدّنا بالقوّة والعزيمة، وأشارت إلى استعراض الكاتب فكر المقاومة/ العمالة، بلغة جميلة وواضحة ومريحة وتسلسل الأحداث رائع.

وتلاها الناقد رائد الحواري متناولا أدب السجون وخصوصيّته، موضوعاته وحيثيّاته، عرف معتز كيف يدخل إلى عقليّة المتلقّي ليتتبّع الأمور، البناء الروائي محكم ومتناسق. ووجّه النقد للمحرّر والناشر مطالبا إيّاهم بالاهتمام أكثر بالكتاب.

تلاه الكاتب محمد مشّة الذي رحّب بدوره بالمشاركين والمتابعين والمنظّمين والمهتمين بأدب الأسرى وتناول الرواية بقراءة نقديّة شموليّة مثنيا على الرواية وصاحبها معرّجا على محاورها.

تلته الشاعرة والإعلاميّة قمر عبد الرحمن بمشاركة تناولت فيها عنوان الرواية «بالرغم من العمالة سيبقى الوطن السراج والعشق الخالد».

وشارك الكاتب زياد الجيوسي والسيّدة بشرى الأطرش التي تناولت الجانب

النفسـي في الروايـة وأهميّتـه.

وكانـت المشـاركة الختاميّـة للمحامـي الحيفـاوي حسـن عبـادي الـذي شـكر بـدوره العريـف ورابطـة الكتّـاب الأردنيّـين، راعيـة المشـروع، وبعـث أحـرّ التعـازي للأسـيرة خالـدة جـرار بوفـاة ابنتهـا سـهى وتحـدّث عـن حسـرة الأسـرى لفقـدان أعزائهـم دون وداع.

وتحـدّث عبـادي عـن لقاءاتـه بمعتـزّ ومشـروعه الثقـافي، وفرحتـه بصـدور الروايـة عـن المكتبـة الشـعبيّة وتظهيـره لهـا، وتحـدّث عـن لقائـه الأخيـر بمعتـز وفكـرة تجميـع مفاتيـح كلّ الزنازيـن حـال تحريـر كافّـة الأسـرى وصهرهـا دون رجعـة لتصيـر تمثـال الحريّـة، وحلمـه بلقـاء كلّ الأسـرى الذيـن التقاهـم في السـنوات الأخيـرة لقعـدة تلمّهـم في بلكونـه الحيفـاوي.

أيمن شرباتي:

عقـدت مسـاء الاثنـين 26/7/2021 النـدوة الحاديـة عشـرة لمبـادرة «أسـرى يكتبـون»، وخصصـت لمناقشـة كتـاب **«أسرى وحكايات»** (مـن فـن السـيرة في السـجون) للأسـير أيمـن ربحـي الشـرباتي الملقّـب بـ (المواطـن)، وأدار الأمسـية الشـاعر محمـد خضيـر الـذي تحـدث عـن الكتـاب وأدب السـجون، وقـرأ نصوصـاً مـن الكتـاب. وحضـر النـدوة العديـد مـن الأدبـاء والكتـاب والمهتمـين بـأدب الحركـة الأسـيرة.

افتتـح بـاب المداخـلات الأديـب المقدسـيّ محمـود شـقير بتحيّـة للأسـرى خلـف القضبـان، وقـرأ رسـالة بعثهـا للكاتـب يـوم 24/11/2020 وتطـرّق لكيفيـة كتابـة الكتـاب ورؤيتـه النـور، وأسـلوبه واسـتخدامه الفكاهـة بطريقـة ذكيّـة.

تـلاه الكاتـب صالـح حمدونـي بمداخلـة عنونهـا: «**سـفر التنكيـل**»، وجـاء فيهـا: «ينقطـع الفعـل الإنسـاني في حالتـين: «في الأسـر ترفـض الـروح إلا تأكيـد وجودهـا، لـذا تتحـوّل الكتابـة إلـى فعـل تُقـاوم الـروح مـن خلالـه لتأكيـد حضورهـا، وإصـرار جسـدها علـى البقـاء مـن خلالهـا، الكتابـة مـلاذ أخيـر، وربمـا وحيـد، ليقـول الأسـير بعـد 24 عامـاً مـن الأسـر، أنـه موجـود وحـيّ.»

وفي مداخلـة للكاتـب محمـد عويسـات بعنـوان «مقاومـة الضّيـاع في عتمـة الزّنازيـن» تنـاول فيهـا الناحيـة الموضوعيـة والفنيّـة وقـال: «أبـرز مـا يسـم الكتـاب هـو الحشـد

العظيم من الاستعارات والمجازات والتشبيهات والتّصوير البيانيّ، التي منحت نصوصه لمسات جماليّة رائعة، وإن كان تواليها متراكبة متكاثفة يأتي أحيانا على حساب الفكرة.»

تلتها كلمة للأسير أيمن الشرباتي، ألقاها نيابة عنه ابنه علاء، شكر فيها القيّمين على الندوة وكلّ من ساعده في النشر، وتحدّث عن أهميّة الكتابة والنشر بالنسبة للأسير «بدأت بالكتابة بعد وصولي إلى قناعة بأن الصراع العربي الإسرائيلي ما هو إلّا صراع روايات بالدرجة الأولى والأخيرة فقرّرت أن أجعل من قلمي بندقيّة مشحونة بذخيرة الأحرف، وأن أجعل لغتي خندقا ونصوصي حصنا افتراضيا في وجه سجّاني».

كما وشارك في النقاش الأديب جميل السلحوت والقاص مصطفى عبد الفتاح، والأديب سعيد نفاع (الأمين العام لاتحاد الأدباء الفلسطينيّين الكرمل 48) وقرأ قصّة بعنوان «المواطن يكتب القصّة».

وكانت المشاركة الختاميّة للمحامي الحيفاوي حسن عبادي الذي شكر بدوره ميسّر الأمسية ورابطة الكتّاب الأردنيّين، راعية المشروع، كما تحدّث عن أهميّة الكتابة بالنسبة للأسير «إنَّ الكتابة خلف القضبان متنفّس الأسير، يرسم الوطن وقوس قزح يتكوّر في أعالي السّماء ليعانق شمس الحريّة... نعم؛ الحريّة خير علاج للسّجين».

مي الغصين:

عقدت مساء الاثنين 9/8/2021 الندوة الثانية عشرة لمبادرة «أسرى يكتبون»، وخصصت لمناقشة كتاب «حجر الفسيفساء»- سيرة روائية- للأسيرة المحرّرة مي وليد الغصين، وأدارت الأمسية الروائية سهام أبو عواد التي تحدثت عن الكتاب وأدب السجون. وحضر الندوة العديد من الأدباء والكتاب والمهتمين بأدب الحركة الأسيرة.

افتتح باب المداخلات الأديب جهاد بلعوم (نائب الأمين العام للاتحاد العام للأدباء الفلسطينيّين – الكرمل 48)، وتناول أدب السجون وميزاته، وأشاد بالكتاب وصاحبته، لغة وأسلوبا.

تلته كلمة الأسيرة المحرّرة مي الغصين، فشكرت فيها القيّمين على الندوة وكلّ من ساعدها في النشر، وتحدّثت عن الكتابة خلف القضبان، وتدوين يوميّاتها وكلّ ما مرّت به وزميلاتها في الزنازين والكرّاسات التي جمعتها ودوّنت فيها تجربتهن اليوميّة، وتحدّثت عن تجربتها في الأسر.

وتناولت الناقدة العراقية د. إيمان السلطاني في مداخلتها: «سيميائيّة العنونة»، وتحدثت عن أهميّة العنوان الرئيسي للكتاب والعناوين الفرعيّة لفصوله، ووفّقت الكاتبة باختيارها للعناوين التي جاءت متسقة مع النصوص.

وكانت المشاركة الختاميّة للمحامي الحيفاوي حسن عبادي الذي شكر بدوره ميسّرة الأمسية ورابطة الكتّاب الأردنيّين، راعية المشروع، وأشاد بمشاركة أعضاء الاتحاد العام للأدباء الفلسطينيّين – الكرمل 48 الفعّالة ومساندتهم للمشروع، كما أشار إلى أهميّة كتابة تجربة الأسرى لتكتمل الفسيفساء للحركة الأسيرة وتجربتها، وأشار إلى دور مكتبة بيتونيا وتنظيمها لدورة كتابة إبداعيّة لأسيرات محرّرات وكان نتاجها كتاب «ترانيم اليمامة».

وبالإضافة إلى تلك المداخلات شارك في النقاش الناقد رائد الحوّاري، وأسمهان خلايلة، وفوز فرنسيس، وجمانا العتبة، وخالدية أبو جبل، والشاعر محمد خضير، والكاتب محمد مشة.

عمار الزبن:

عقدت مساء الثلاثاء 24/8/2021 الندوة الثالثة عشرة لمبادرة «أسرى يكتبون»، وخصصت لمناقشة رواية **«الطريق إلى شارع يافا»** للأسير عمار الزبن، وأدار الأمسية القاص محمد مشّة، وقدّم لمحة عن الأسير وقصّة اعتقاله وأسره وعائلته.

افتتحت باب المشاركات مي الزبن (أخت الأسير) التي قرأت كلمته، شاكرة القيّمين على هذا النشاط وتناولت أهميّة الكتابة داخل السجن بالنسبة للأسير.

كانت المداخلة الأولى للأسير المحرّر والكاتب وليد الهودلي وجاء فيها «أنّ عمار الزبن كتب الرواية على أرض الواقع بالروح والدم مضحيا ومعرّضا حياته للموت، يمتشق القلم كما امتشق السلاح، لغة الرواية سينمائيّة، ذات دلالة لغويّة عالية»، تمثّل أدب الحريّة/ المقاومة/ روح الانتصار، تضخّ الوعي الأمني بين السطور، تمتاز بتناص ديني بعيدا عن الوعظ والمباشرة وجاءت لتفنّد رواية المحتل.

تلتها مداخلة للكاتب والسناريست أحمد داوود من غزة الذي تحدّث بدوره عن الدراما في الرواية وعنصر التشويق وقال إنّها تليق بمسلسل وهو يعمل على ذلك.

وكانت مشاركة لبيسان الزبن (ابنة الأسير) التي أوصلت تحيّات عمار وشكره وتناولت طقوس قراءته وكتابته مقتبسة ما قاله لها في اللقاء الأخير: «أعيش حتى يموت سجّاني».

وكانت مداخلة للمحامي الحيفاوي حسن عبادي الذي تناول الرواية، أحداثها وأسلوبها، عناوين فصولها، لغتها الانسيابيّة السلسة، تصوير حياة المطارَد وما يرافقها، أنسنة المرأة الفلسطينيّة لتفنيد الرواية الصهيونيّة التي تحاول شيطنتها. تحدّث أيضا عن علاقته بعمّار وانطباعاته من زيارته، ولهفته بسبب لقاء «حروف مضيئة في عتمة الزنازين» الذي نظّمه منتدى المنارة للثقافة والإبداع على شرف المناضلين الأسرى الذين أضاءوا بحروفهم زنازين الاحتلال البغيض.

بالإضافة إلى تلك المداخلات شارك في النقاش الكاتب زياد جيوسي، والناقد رائد الحوّاري، وأبناء الأسير مهنّد وبشائر الزبن وكان الختام مع قصيدة ألقتها الطفلة ليان عواد (ابنة أخت الأسير) مهداة لخالها.

ترانيم اليمامة (10 أسيرات):

عقدت مساء الاثنين 6/9/2021 الندوة الرابعة عشرة لمبادرة «أسرى يكتبون»، وخصصت لمناقشة كتاب **«ترانيم اليمامة»**. وأدار الأمسية الكاتب أحمد الغماز، وقدّم لمحة عن الكتاب مقتبسا بعضا ممّا جاء فيه.

افتتحت باب المشاركات الكاتبة ابتسام أبو ميالة التي أشرفت على الكتاب وكتبت مقدمة له، فتحدّثت عن تجربتها في دورة الكتابة الإبداعيّة مع الأسيرات المحرّرات، مضيفة «أن تجعل الأسير يكتب ويبوح بما حدث معه في أسره ليس أمرا هينا».

وأما الكاتب محمود شقير فتناول الكتاب وأهميّته، رغم الأخطاء المطبعيّة والتحريريّة وحاجته للتدقيق اللغوي، مشيدا بالأسلوب الوصفيّ الدقيق لعمليّات التعذيب، وضرورة كتابة التجربة الاعتقاليّة وأهميّتها كتحدٍّ للسجّان».

وتحدث السيد ربحي دولة، رئيس بلدية بيتونيا، الذي أشاد بدوره بهذا الاصدار

الذي تبنّته البلدّية وحيّا القيّمين على هذا النشاط.

بالإضافة إلى تلك المداخلات شارك في النقاش الكاتبة أسمهان خلايلة (عضو الاتحاد العام للأدباء الفلسطينيين الكرمل-48)، وكل من الأسيرات المحرّرات: عطاف عليان، ونهاد وهدان، وأريج عروق، ومي الغصين، وجيهان دحادحة، كما شارك في النقاش الكاتب المقدسيّ جميل السلحوت والقاص محمد مشّة.

وفي الختام أشار المحامي الحيفاوي حسن عبادي إلى أن هذا الإصدار شجّع باقي الأسيرات على كتابة تجربتهن الاعتقالية. باعثاً بتحيّة للأسرى الذين تنفّسوا نسائم الحريّة فجر يوم 6/9/2021 رغم أنف السجّان.

ومن الجدير بالذكر أن عشر أسيرة كتبن شهادتهن في هذا الكتاب وهن: مي الغصين، وشريفة أبو نجم، وتغريد سعدي، وعطاف عليان، وأريج عروق، ولينا جربوني، وجيهان دحادحة، ونهاد وهدان، وعهود شوبكي، ومنى قعدان، وصدر عن مكتبة بلدية بيتونيا.

كميل أبو حنيش للمرة الثانية:

استؤنفت من عمان في مقر رابطة الكتاب الأردنيين ندوات أسرى يكتبون، وبمشاركة كتاب آخرين عبر تطبيق زوم، وذلك يوم الأربعاء الموافق 20/10/2021، تناولت الندوة كتاب الأسير كميل أبو حنيش، الصادر عن دار فضاءات للنشر والتوزيع في الأردن، وكان باكورة تعاون بين الدار وبين مبادرة «أسرى مبدعون».

تولى إدارة الندوة الكاتب والقاص الأردني محمد مشة، حيث عرّف بالكاتب أبو حنيش وبكتاب «الجهة السابعة»، مقتبساً بعض ما كتبه المحامي الحيفاوي حسن عبادي عن الرواية، ومما جاء في قوله: «باتت الكتابة عند كميل متنفّساً يخترق جدران الزنازين، سلاح يمتشقه دفاعا عن كينونته، لواء يرفعه في ميادين الثقافة العربية الشامخة، وكلمات حرة ينثرها في الحقول الوعرة».

وأما المداخلة الرئيسية فكانت قراءة نقدية في كتاب «الجهة السابعة» قدمها الروائي عبد السلام صالح، مبينا أبواب الكتاب الثلاثة: باب الحب وباب الحلم وباب الموت، وأسلوب كميل في كتابه، متوقفا عند بعض المحطات السردية في الكتاب، وكاشفاً عن جمالياته.

وفي كلمة للكاتب قدمتها الدكتورة أمل أبو حنيش، بين الكاتب المعاناة التي صاحبت كتابته لهذا العمل، ورحلتها منذ كانت فكرة صادفها في بيت شعر حتى استقرارها كتابا مكتملا، شاكرا كل من سانده في هذه العملية بدءا من تسجيل الرواية وطباعتها ومراجعتها وتنقيحها والدفع بها إلى المطبعة وتوقيعها في معرض عمان الدولي للكتاب.

وفي مداخلة أخرى قدمها الكاتب فراس حج محمد، بين فيها دائرية السرد وارتكاز «الجهة السابعة» على فكرة البرزخ، ودلالتها النفسية وارتباطها بتجربة الأسر، ومقاربة السجن وعوالمه بعوالم القبر وحياة البرزخ.

كما قدّم الناقد رائد الحواري كلمة في الرواية، وبين أن هذه الأبواب الثلاثة التي تتكون منها أبواب دائمة ومتكررة، فما أن تنتهي حتى تعود من جديد، وأشار إلى ما فيها من قيم معرفية وعاطفية وسيرة ذاتية تجعلها عملا فنيا قريبا من القارئ.

وتحدث كذلك المحامي الحيفاوي حسن عبادي عن رواية الجهة السابعة، وفكرة أسرى مبدعون التي تتوخى طباعة أعمال أدبية لأسرى يكتبون ما زالوا داخل المعتقلات بالتعاون مع دار فضاءات الأردنية وبمشاركة كتاب وفنانين متعددين، فيساهم الكتاب بكتابة مقدمات لتلك الأعمال، وأما الفنانون فيرسمون أغلفة لها. فكانت رواية «الجهة السابعة»، من تقديم الكاتب والناقد الفلسطيني فيصل دراج، ولوحة الغلاف للفنان الفلسطيني عبد الهادي شلا، وتقع الرواية في (314) صفحة من القطع المتوسط.

وشارك في الندوة كذلك الأديبة أسمهان خلايلة والروائية نزهة الرملاوي.

وليد دقة:

عُقدت يوم الأربعاء الموافق 3/11/2021 الندوة السادسة عشرة من ندوات أسرى يكتبون، وقد تناولت الندوة رواية «حكاية سرِّ الزيت» للكاتب الأسير وليد دقة. وتولى إدارة الندوة الكاتب الأردني هاني الهندي، حيث عرّف بالكاتب وليد دقة وبكتابه.

وأما المداخلة الرئيسية فكانت قراءة نقدية للدكتورة فهيمة غنايم، وجاء فيها:

«تجسّد حكاية سر الزيت معاناة ذوي الأسرى الفلسطينيّين، وكيف يتقدّم بهم العمر دون رؤية ذويهم، في إشارة الى والدة وليد التي قضت عمرا تأمل فيه أن تحتضن ابنها خارج سجنه... إضافة إلى فتيات ونساء تسرق ظلمة الأسر أعمارهن، وأطفال اعتقلوا وانتزعوا من أحضان أمهاتهم ومن طرقات مدارسهم، تنهش طفولتهم ظلمة الجهل والمستقبل المجهول، لتصل الرواية في خلاصتها إلى أن الفلسطيني أينما حل فإنه يعيش في سجن كبير، بحاجة للوعي والفكر والإرادة لأجل مستقبل مشرق يقوده أبناؤنا بالوعي والإدراك لقضايانا المصيرية.»

وتلتها مداخلة أخرى للروائي مصطفى عبد الفتاح بعنوان «البحث عن طريق تحرير المستقبل»، تحدّث فيها عن أسلوب الكاتب ومضامين الرواية التي تلائم الفتيان وغير الفتيان وكاتبها صاحب رؤية ورؤيا، «وكأنّي به يتنبأ بعمليّة نفق الحريّة»، معوّلا على الجيل الشاب وتعلّمه. وتبعتها مشاركة للأسير الكاتب حسام زهدي شاهين ألقاها نيابة عنه الروائي عبد السلام صالح، واصفاً وليد دقة بأنه رجل: «يتمتع بدرجة عالية من الإنسانية، كما يتمتع بأعمق أشكال الوعي والانتماء لهويته الوطنية والقومية والإنسانية».

وفي كلمة للمحامي الحيفاوي حسن عبادي شكر باسمه وباسم الحركة الأسيرة، القائمين على هذه المبادرة، وتحدّث عن لقاءاته بالأسير وليد دقة، وأضاف «تحدّثنا عن التهجير والعودة المشتهاة، فالحاجة فريدة ما زالت تحلم بعودتها إلى قاقون والحوارث، وعن الحريّة التي ستتحقّق بهمّة جود ورفاقه».

وشارك في الندوة كل من الأديبة سحر أبو زينة، والأديبة خالدية أبو جبل والكاتبة نهال أحمد مهيدات، فتحدثن عن الكاتب والكتاب. كما حضر الندوة- افتراضيّا عبر تطبيق الزوم- العديد من الأدباء والمثقفين.

راتب حريبات:

عُقدت يوم السبت 27/11/2021 الندوة السابعة عشرة من ندوات مبادرة «أسرى يكتبون»، تناولت كتاب «لماذا لا أرى الأبيض؟» للكاتب الأسير راتب حريبات. وتولى إدارة الندوة الكاتب الأردني محمد مشّة، فعرّف بالكاتب والكتاب.

تناولت المداخلة الرئيسية قراءة نقدية للأسير المحرّر أمير مخّول الذي رافق

الكاتب في الأسر مدّة طويلة. وصف مخّول الكتاب بوثيقة مهمة من شاهد عيان، وقال إن الأسرى ليسوا مرضى، بل أصيبوا خلال الأسر، ولم تُضمّد جراحهم بعدما تعرضوا له من الإهمال الطبّي المتعمّد، وتصوّر هذه الشهادات الحقيقيّة واقعاً مريراً مُهمّشاً، وهناك ضرورة لترجمته للغات أجنبيّة وترجمة ما جاء فيه إلى لغة الفعل والممارسة، وتعلو معه الصرخة لتحمّل المسؤوليّة.

أما القاصة والإعلامية رانية الجعبري فتمحورت مداخلتها حول الناحية الأدبيّة والسياسيّة للكتاب، فالمناضل لا تنتهي مهمّته ساعة الأسر، بل هي مستمرّة مع تغيير دور المقاوم، وتحدّثت عن جماليّة اللغة والقدرة التصويريّة للكاتب. وتلتها مداخلة ثالثة للأديبة خالدية أبو جبل- ألقاها نيابة عنها عريف الندوة- بعنوان «ست عشرة حكاية أسر وألم». ووصفت الأديبة أسمهان خلايلة في مداخلة لها العنوان بأنه ذكي، والنصوص بالمبكية، شديدة التأثير، وتحدّثت كذلك الأسيرة المحّررة عبير عودة عن تجربتها الاعتقالية وما تخللها من إهمال طبي.

وألقى علي محمد حريبات ابن شقيق الكاتب الأسير راتب حريبات كلمة نيابة عنه، جاء فيها: «هذا الكتاب ليس إلا بعض من معاناة أسرانا المرضى، ويتحدث عن احتياجاتهم ومشاكلهم سواء الطبية أم النفسية داخل أسوار السجن». وأضاف: «إن الاحتلال يمارس أشد العقوبات على الأسرى المرضى، ويدّعي أنهم برعاية صحيحة كاملة، ولا يعترف بأي شكل من الأشكال بمعاناتهم».

كما شارك في الندوة عبر تطبيق الزوم الناشطة الثقافيّة جمانا العتبة والأديبة سحر أبو زينة.

واختتمت الندوة بكلمة المحامي الحيفاوي حسن عبادي؛ فشكر باسمه وباسم الحركة الأسيرة القائمين على هذه المبادرة، وتحدّث عن المؤتمر السابع للتحالف الأوروبي لمناصرة أسرى فلسطين الذي سيعقد في مدينة مالمو/ السويد في يومي 11 و12/12/2021، مستذكراً «وصيّة» الأسير المرحوم كمال أبو وعر- أحد ضحايا مستشفى سجن الرملة المعروف بالمسلخ- ومما جاء فيها: «إنّ أقسى أنواع الموت هو هذا الموت الذي لا صوت له، لا أحد يسمعه، يظل مدفوناً خلف الجدران، يندثر في الصدى والنسيان، فلا تكونوا- أيها الناس- مشاركين في هذا الصمت».

عمار عابد:

عُقدت الندوة الثامنة عشرة من ندوات أسرى يكتبون، عبر تطبيق زوم، وذلك يوم الاثنين الموافق 20/12/2021، وقد تناولت الندوة رواية «المعمعة» للكاتب الأسير عمار محمود عابد.

تولى إدارة الندوة القاص الأردني أسيد الحوتري، حيث عرّف بالكاتب عمار عابد وبروايته وكانت له إضاءة نقديّة حول الرواية.

وأما المداخلة الأولى فكانت قراءة انطباعية للأسير السابق الروائي وليد الهودلي، وأشاد بلغة الرواية القويّة والثريّة، وتصوير المشاهد، وكأنّك داخل المشهد، والتناص الديني والشعبي، ووصف الكاتب التعذيب النفسي والجسدي الذي يتعرّض له الأسير.

تلاه الدكتور خليل قطناني بمداخلة نقدية تناول فيها العنوان كعتبة نصيّة وأشار للرصد اليومي في حياة السجين، والفيض الكتابي ووصف معبر رفح ككابوس، والزنزانة والحاجز والبوسطة كأماكن معادية. كما تحدّث عن جماليّة اللغة، وتوظيف الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة والأمثال الشعبيّة واللهجة الغزيّة المحكيّة.

أما كلمة الأسير فألقاها نيابة عنه المحرّر رامز إسماعيل الحلبي وجاء فيها: «إن الأسير عندما يكتب، فكتابته تأتي في ظرف استثنائي، فهو المحروم من الأب والأم والزوجة والأحباب، ومن كل تفاصيل الحرية التي يحياها غيره، ولكم أن تتصوروا حجم المعاناة عندما ينشطر قلب الكاتب وروحه بين أهله وأحبابه وقومه خارج السجن وبين جهد ذلك الأسير الكاتب وجهاده لضمان أمن وريقاته التي يكتبها بمداد مزج بالخشية من السجان على وليده الذي قد يودي بها في أية لحظة إذا ماً وقعت تلك الأوراق في يدي السجان».

وفي النهاية كانت كلمة المحامي الحيفاوي حسن عبادي الذي شكر بدوره، باسمه وباسم الحركة الأسيرة، القائمين على هذه المبادرة، وبعث تحيّة تضامن مع أسيرات الدامون، أوصل تحيّة التحالف الأوروبي لمناصرة أسرى فلسطين، وتحدّث عن حرمان أسرى غزة من زيارات الأهل، وتحدّث عن مشروع عمار عابد الأدبي؛ «زُويرا» وتصوير السجن وحياته من زيارات على أنواعها ووصف

الزنزانة والساحة والغرف والحمامات والبوسطة والكرت التعريفي الخاص وما يميّزه إرفاقه بـ 100- 120 صورة.

ثائر حنيني:

عُقدت في مقر رابطة الكتاب الأردنيين في عمان الندوة التاسعة عشرة من ندوات أسرى يكتبون، وبمشاركة كتاب آخرين في فلسطين عبر تطبيق زوم، وذلك يوم الأربعاء 12/1/2022، وتناولت الندوة كتاب «تحيا حين تفنى» للكاتب الأسير ثائر حنيني.

تولى إدارة الندوة القاص الأردني محمد حليقاوي، افتتحها بلمحة عن الكتاب وصاحبه متمنيا حريّة قريبة لكافّة أسرى الحريّة.

كانت المداخلة الرئيسية قراءة نقدية للأسير أحمد عارضة؛ المحكوم بالسجن مدى الحياة ويقبع في معتقل ريمون الصحراوي، وألقتها نيابة عنه الكاتبة مريم عنانزة. وجاء فيها: «إننا أمام عمل إبداعيّ جديد يضاف إلى موسوعة الرفض الإبداعي، يقول لنا عبر نصّه الجميل بأن الكتابة هي فعلٌ ثوريٌّ بما تحتويه من رسائل ومضامين ومواقف لم يتوانَ صديقُنا ثائر عن إشهارها بوضوح ودون مواربة، بلغة مكثفة وأسلوب سلس، ومعانٍ صارخة مشحونة بكمٍّ هائل من المشاعر الصادقة، بعيداً عن أيّ تكّلف».

تلاها الناقد رائد الحواري بمداخلة نقدية تناول فيها الكتاب ومضامينه وبعض القضايا الفنية، ومما جاء فيها: «الموت لا يعني انتهاء وجود المتوفى، فهناك راحلون ما زالوا بيننا، نشعر بهم، وما زلنا نردد ما قالوا، حتى أننا نتحدث عنهم، هذه الحالة تكون فقط مع أولئك الذي تربطنا بهم علاقة استثنائية، لذلك فالكتاب يشكّل لمسة وفاء لشهدائنا عبر فادي حنيني، «بطل» الكتاب عبر عنها ابن اخيه الكاتب الأسير ثائر حنيني.

وشارك الأسير الكاتب بكلمة ألقتها نيابة عنه أخته عرين حنيني، عبّر عن سروره بهذه الندوة وشكر المنظّمين، وتناول فعل الكتابة خلف القضبان، وأضاف قائلاً: «من السجن أطلع إليكم حرًا... والكتاب فعل وفاء لفادي وكافّة شهدائنا».

تلاه الروائي عبد السلام صالح الذي رحّب بأهل الكاتب الذين حضروا إلى مقر رابطة الكتاب الأردنيين، وتحدّث عن التجنيس ووصف الكتاب برواية مرسومة بحرفيّة عبر السرد والحوار والأحداث، المكان والزمان، وجاء البناء الفني منسجمًا مع الحالة وتقطّع السرد.

تلاه الأستاذ الكاتب عماد محاسنة بمداخلة، تناولت العنوان، وواقع النضال الفلسطيني ضد المحتل، وأشار لعلاقة نص ثائر مع قصيدة «هي وبلادي» للشاعر الفلسطيني راشد حسين. ثم تحدثت الناشطة الثقافية جمانا العتبة التي أثنت بدورها على الكتاب وجهود الكتاب الأسرى في توثيق حكاياتهم. وختمت المداخلات بمداخلة الكاتب فراس حج محمد الذي تناول إحالة العنوان على النص الديني المسيحي والإسلامي، وأشار إلى تقنية المخطوط التي اعتمدها الكاتب في بناء النص.

وقبل أن يتم تكريم الكاتب ثائر حنيني من رابطة الكتّاب الأردنيين، ممثّلة بالروائي عبد السلام صالح، بتقديم درع الرابطة لأسرة الكاتب، تحدث المحامي الحيفاوي حسن عبادي الذي شكر بدوره، باسمه وباسم الحركة الأسيرة، القائمين على هذه المبادرة، وشكر الفنان ظافر شوربجي الذي صمّم الكتاب ومنتجه، والكاتب فراس حج محمد على التحرير والتنقيح، وأشار إلى صدور الطبعة الثانية من الكتاب عن «دار الرعاة للدراسات والنشر» و«جسور ثقافية للنشر والتوزيع».

رائد السعدي:

عُقدت الندوة العشرون لمبادرة «أسرى يكتبون»، وذلك يوم الأحد 20/2/2022، وتناولت الندوة كتاب «أمي مريم الفلسطينيّة» للكاتب الأسير رائد محمد السعدي. وتولى إدارة الندوة القاص الأردني محمد مشّة، فعرف بالكاتب والكتاب.

كانت المداخلة الرئيسية قراءة نقدية للناقد الفلسطيني رائد الحواري متحدثا عن مضامين الكتاب وعن بعض القضايا الفنية، وجاء في مداخلته: «بما أن العنوان «أمي مريم الفلسطينية» فإن الكاتب يركز على هذا الأمر أكثر من سواه، فكل الأمهات وصفهن بهذه الصفة، مريم الفلسطينية»، وأضاف الحواري

بما يتصل بالتجنيس الأدبي للكتاب «في هذا الكتاب الذي يتمرد على الشكل الأدبي الرائج، الرواية، يمكن أن يبنى عليه ليكون هذا النوع من الأدب خاص بالأسرى الفلسطينيين دون سواهم»، وأشار أيضا إلى قدرة الكاتب على إقناع القارئ فهو يتحدث بصدق، وبحميمية، ودون تكلف أو تجميل، فتخرج الكلمات من قلمه كما يخرج رغيف خبز الطازج من بين يد الأمهات.

وتحدث الكاتب الروائي والأسير المحرر وليد الهودلي عن علاقته بالكاتب رائد السعدي، إذ رافقه في الأسر لأكثر من عقد داخل المعتقلات، مشيدا بمواقفه ونضالاته، وأخلاقه، ومشددا على أهمية دعم الحركة الأسيرة والأسرى والعمل على تحريرهم مما هم فيه من قمع وأحكام جائرة.

وكانت مشاركة لوالد الأسير، الشاعر الحاج محمد شريف السعدي (أبو عماد) التسعينيّ الذي لم يفقد الأمل يوما في أن يرى ابنه رائد محرّرا ويضمّه إلى صدره وتحدّث بحرقة عن بعده عنه وألقى بعض قصائده، موجها رسالته إلى ولده متمنيا أن يرى قبل أن يحين الأجل.

تلته من بيت عائلة الأسير الكاتبة سحر أبو زينة بمداخلة حول الحركة الأسيرة ومعاناة الأهل وصبرهم وصمودهم مع أبنائهم الأسرى، وأشارت إلى البعد الإنساني الذي تضمنه كتاب «مريم أمي الفلسطينية». واستذكرت بعضا من المواقف البطولية لبلدته سيلة الحارثية، وخشية الاحتلال من أهلها ومناضليها.

وتلاها عمار السعدي، أخو الأسير، بكلمة من الأسير رائد الذي شكر كل القائمين على هذه الندوة وعبّر عن سعادته للاهتمام بما كتبه وتناوله وأن رسالته وصلت رغم القضبان والسجان.

بالإضافة إلى ما سبق، فقد كان هناك مداخلات لكل من الأستاذ عماد محاسنة والشاعرة عائدة أبو فرحة والأسيرة المحررة عطاف عليان.

وفي النهاية تحدث المحامي الحيفاوي حسن عبادي؛ مبيّنا أنّ الندوة عقدت تزامنا مع عيد ميلاد الأسير رائد، وقد دخل- كذلك- عامه الرابع والثلاثين داخل السجن، وأشار إلى أنّ الكتاب يتناول قصّة الأم الفلسطينيّة التي تتجسّد بأم الأسير؛ فتصوّر المريميات الفلسطينيّات اللواتي هنّ أمهات الأسرى والجرحى والشهداء، وهنّ من يحملن همّ القضيّة، متمنيا الحريّة القريبة لكافّة أسرى الحريّة.

ومن الجدير بالذكر أن كتاب «أمي- مريم الفلسطينية» صدر عام 2021، عن مؤسسة مهجة القدس في قطاع غزة، بمقدمة للأسير هيثم حمدان، ويقع في (229) صفحة.

أماني حشيم:

عقدت الندوة الحادية والعشرون لمبادرة «أسرى يكتبون»، تزامنا مع مناسبة عيد الأمّ، يوم الاثنين 21/3/2022، لتكريم الكاتبة الأسيرة المقدسية أماني حشيم، ومناقشة كتابها «العزيمة تربي الأمل». وتولى إدارة الندوة من مقر رابطة الكتاب الأردنيين في عمّان الروائي الأردني عبد السلام صالح، فعرّف بالكاتبة التي تقضي حكما بالسجن لمدة عشر سنوات، وهي أم لطفلين. وعرّف كذلك بالكتاب الصادر حديثا في حيفا وعن طبيعة نصوصه. وناب الروائي عبد السلام صالح عن الرابطة في تكريم الأسيرة الكاتبة والأم، وسلّم درع الرابطة لخال الأسيرة السيد أشرف حشيم.

كانت المداخلة الرئيسية في مناقشة الكتاب قراءة نقدية للروائية المقدسيّة ديمة جمعة السمان. جاء فيها: «السّؤال؛ هل حقا يُربى الأمل؟ وهل ينمو داخلنا كما ينمو الجنين داخل رحم الأم؟ وكيف نغذّيه؟ من يقرأ نصوص الكاتبة حشيم يقرأ الإجابة جلية واضحة من خلال نصوصها الخمسة والعشرين.. التي تميزت بعناوين مميزة، منتقاة بعناية.. كتبتها بلغة جميلة وحرف راقٍ..». وقرأت الكاتبة السمان نصّ أماني الذي كتبته للأم، احتفاءً بهذه المناسبة.

وكانت مشاركة لوالدة الأسيرة إلهام حشيم (أم هيثم) التي تحدّثت بدورها عن معاناة أهل الأسيرة، وعبّرت عن سعادة العائلة لإصدار الكتاب الذي بثّ الأمل، وشكرت القائمين على هذه الندوة متمنيّة حريّة قريبة لابنتها وللأسرى كافّة.

وتحدّث المحامي الحيفاوي حسن عبادي عن علاقته بالأسيرة الكاتبة ولقاءاته بها في السجن، وعن حلمها بساعة التحرّر آملة أن تفتح بوابّة السجن بيدها لتمشي بالشارع دون مرافق، لها كباقي الأسرى أحلام وطموحات، فالسجن محطّة عبور».

وتحدث الكاتب فراس حج محمد حول الفكرتين اللتين يتمحور حولهما كتاب «العزيمة تربي الأمل»، وهما: القوة والتفاؤل، وكيف أن كل نصوص الكتاب

مجدولة بهاتين الفكرتين، فتظهر في الكتاب كثير من المفردات الدالة على هاتين الفكرتين، من صفحة الإهداء حتى آخر نص، كما تحدث حج محمد عن مصادر ثقافة الكاتبة التي كشفت عنها النصوص.

وأشار الناقد رائد الحواري في مداخلته إلى أن: «الكتاب عبارة عن مجموعة نصوص، تحاول فيها الكاتبة إيصال مشاعرها تجاه واقعها كأسيرة، وكيف أنها استخدمت القلم الورقة كوسيلة مقاومة وإثبات الذات»، ويلفت الحواري النظر إلى أثر المكان في الكتابة من خلال استخدام الأسيرة لمجموعة من الألفاظ الدالة على ذلك، ما يعني الثقل النفسي الذي تعانيه الكاتبة.

حضر الندوة عبر تطبيق زوم عائلة الأسيرة أماني حشيم، والعديد من الكتاب والمثقفين والمهتمين بأدب الأسرى.

أحمد العارضة:

عقدت رابطة الكتاب الأردنيين يوم السبت 14/5/2022 ندوتها الدورية المخصصة لمناقشة الأعمال الأدبية لأسرى يكتبون خلف القضبان، وجاءت الندوة الثانية والعشرون لتناقش ديوان «أنانهم» للشاعر الأسير أحمد العارضة.

أدارت اللقاء الأستاذة مريم عنانزة من مقر رابطة الكتاب الأردنيين في عمّان، وبحضور عدد من أعضاء الرابطة، وشارك فيها نخبة من الكتاب متحدثين عن الديوان عبر تطبيق زوم، وهم: الكاتب فراس حج محمد، والكاتب كميل أبو حنيش، والكاتبة صفاء أبو خضرة، والكاتب رائد الحواري، والمحامي حسن عبادي، وختمت بكلمة للكاتب الأسير أحمد العارضة.

بدأت مديرة الندوة كلامها باستذكار الشهيدة شيرين أبو عاقلة، «وقد حولت رصاصة الغدر الشاهدة شهيدة» واصفة شيرين بأنها «شهيدة الحق والحقيقة»، ثم قدمت شرحا موجزا حول الديوان، وعنوانه اللافت للقارئ الذي نحته شاعره من الضمائر الثلاثة (أنا، نحن، هم) معتبرة أن الديوان انتصار للأسير على سجانه، وهو كذلك «عمل أدبي مميز وأنيق»، كما قدمت عنانزة قبسا من حياة الأسير، وإنجازاته الشعرية الأخرى: «خلل طفيف في السفرجل» و«وشم على قارعة العدم».

ثم تناول الكاتب فراس حج محمد الديوان؛ فتحدث عن الصورة الضمنية للشاعر من خلال ما قدمه من قصائد اعتمادا على رأي للناقد وين بوث في كتابه «بلاغة الفن القصصي» حيث يرى أن كل عمل أدبي يقدم صورة لكاتبه، يسميها «الكاتب الضمني» أو «الشخصية الثانية».

وفي قراءة موسعة للكاتب الروائي كميل أبو حنيش، قرأت جزءا منها الإعلامية قمر عبد الرحمن، ناقش أبو حنيش ثيمات «الوحدة، والحزن، والضياع» في الديوان، إذ يفصح الشاعر «عن إحساسه بالوحدة والحزن والاغتراب والضَّياع وهو إحساس وإن بدا إحساسا ذاتيا محضا إلَا أنه ناجم عن الواقع المأساوي المحيط بالشارع الذي يعكس نفسه ويترك تأثيره البالغ والعميق في وجدان الشاعر».

وعبّرت الكاتبة الروائية صفاء أبو خضرة عن إعجابها بالديوان، وترى أن الشاعر «وصل بوعيه وإدراكه من عبثية الأشياء من حوله إلى تلك الفجوة الكبيرة ما بين الواقع الحقيقي والواقع المأمول مما شكّل تكوينه النفسي ودفعه إلى حالة من التوتر الدائم والقلق».

وفي مداخلة للمحامي الحيفاوي حسن عبادي بدأها بنقله تعازي الحركة الأسيرة باستشهاد الإعلامية الفلسطينية شيرين أبو عاقلة، وأشار إلى عدد صحيفة المدينة في حيفا الصادر في حينه في حيفا والملحق الخاص الذي سيصدر في الجزائر اللذين ضما كلمات تعبر عن مواقف الحركة الأسيرة تجاه هذا الحدث الجلل.

كما تحدث عبادي عن علاقته بأحمد العارضة أول مرة، وأنه أفضل من يكتب الشعر خلف القضبان، وعن هواجس الشاعر العارضة من انعدام الحاضنة التي تحتضن كتابات الأسرى، لذلك فهو يقدر عاليا ما تقوم به رابطة الكتاب الأردنيين من مناقشة للكتب وتعميمها. ويرى أن مناقشة كتابه في هذه الندوة تحليق للأسير وكأنه في عمّان، كما ينقل عبادي عن الأسير نفسه في لقائه الأخير به في السجن.

وفي كلمة قصيرة أشار الناقد رائد الحواري أن الديوان اتجه فيه شاعره إلى التجريد الكلي، واستخدام للأسطورة بطريقة معكوسة، وهناك علاقة واضحة بين المعنى واللفظ، فالديوان بحد ذاته يمكن أن يكون مدرسة في الشعر لما فيه من خصب على مستوى الأسطورة والمعنى وتوظيف ثيمات الكتابة والمرأة والطبيعة.

وفي كلمة للأسير الكاتب أحمد العارضة ألقاها نيابة عنه شقيقه إبراهيم شكر فيها رابطة الكتاب الأردنيين على جهودها المميزة في دعم الحركة الأسيرة وأدب الأسرى، كما قدم شكره للمتحدثين في الندوة، معبرا عن أهمية مناقشة كتابات الأسرى، فيرى أن هذا تجلّ آخر «للانتصار على السجان، ولا قيمة لكل ما نكتبه إذا ظل حبيس الجدران».

الفصل السادس:

مبادرات لدعم الأسرى الكتّاب وإبداعاتهم

مركز أبو جهاد لشؤون الحركة الأسيرة شاهد إبداع وقضية[1]

تقف مشدوها مبهورا وأنت أمام هذا المبنى الشامخ الذي تحتضنه جامعة القدس/ أبو ديس الذي يتربع على 1125 مترا مربعا، ومكونا من ثلاث طبقات، تنبئك عن تاريخ طويل من معاناة الشعب الفلسطيني وتضحياته عبر مسيرته النضالية في صراعه من أجل الانعتاق والتحرر من الاحتلال البغيض، لتجد في هذا المركز كل ما يتعلق بالحركة الأسيرة الفلسطينية من إحصائيات ووثائق وكتب وتحف فنية، إنه تاريخ ناطق بالإبداع والصمود معا، إنه «مركز أبو جهاد لشؤون الحركة الأسيرة».

لقد جاء التصميم الهندسي للبناء حاملا رسالتين: الأولى من خارج المبنى إذ يعبر هذا التصميم عن جدار «الضم والتوسع» الذي حول الأرض الفلسطينية إلى سجن كبير، وما يجر ذلك من متاعب ومصاعب على كل فئات الشعب الفلسطيني، والثانية ما يعكسه التصميم الداخلي، حيث تحاكي البداية طريق الآلام، إنها الطريق التي يسيرها الأسير الفلسطيني من لحظة اعتقاله وحتى خروجه، مذكرا بقصة السيد المسيح ومعاناته مع اليهود في هذه الديار.

وتتلخص أهداف المركز، وكما توضح الأدبيات الصادرة عنه، إلى: «جمع كل ما يخص الأسرى الفلسطينيين، سواء أكانت متعلقات شخصية كالرسائل الفردية والخاصة أم الرسائل الجماعية والعامة، والكراسات والمخطوطات والصور واللوحات وكل ما له علاقة بالمنتج الثقافي والفكري للأسرى، توسيع نطاق البحث عن كل ماله صلة بتاريخ وماضي الحركة الوطنية الفلسطينية الأسيرة، تنفيذ مشروع الموسوعة السردية التي تؤرخ وتوثق لمسيرة الحركة الوطنية الأسيرة».

وخلال زيارتي للمركز والاطلاع على موجوداته ومقتنياته، كان لي حوار مع

1. أجريت هذه المقابلة بتاريخ: 1/6/2013، ورافقتني في الزيارة وإجراء الحوار والتقاط الصور لمعروضات المركز الأستاذة المعلمة، والطالبة في الجامعة حينذاك في برنامج الماجستير خلود خالد أبو عوض. فلها جزيل الشكر.

الدكتور فهد أبو الحاج، مدير عام المركز، والأسير السابق الذي جرب الاعتقال ثلاث مرات على فترات متباعدة بدءا من عام 1978 وحتى عام 1991، فسألته:

كيف جاءت الفكرة وما سر هذه التسمية؟

عايشت حياة المعتقلات الإسرائيلية بفترات زمنية طويلة، واطلعت على ما ينتجه الأسرى من مواد ثقافية متنوعة سياسية وأدبية وثقافية وأعمال فنية، وبعد أن رأيت أن الإسرائيليين يقومون بالاستيلاء على هذا الإرث الثقافي المهم، فيحتفظون به في مراكز أبحاثهم، فيحرم منه الشعب والباحثون، ففكرت بإنشاء هذا المركز، وبعد جهود مضنية وبدعم من الرئيس (أبو عمار) شخصيا ومتابعته الحثيثة لذلك، ومن الدكتور سري نسيبة، تم إنشاء المركز بدعم سخي من حكومة دولة الكويت والصندوق العربي في الكويت، وتساهم جامعة القدس بشيء من ميزانيته المالية بالإضافة لما خصصه الدكتور سلام فياض لدعم المركز، أو من مصادر عربية ومحلية أخرى، تجعل المركز مستمرا في عطائه وبث رسالته الإنسانية النبيلة.

وحول تسمية المركز بهذا الاسم، تحدث أبو الحاج قائلا: «إن أبا جهاد رحمه الله كان من القادة الفلسطينيين الذين يهتمون ويتتبعون هموم الأسرى، واحتراما وتقديرا له، تقرر أن يكون هذا المركز حاملا لاسمه، وعلامة على ما قدم من تضحيات في سبيل القضية الفلسطينية، وقد تم رسميا افتتاح المركز في ذكرى استشهاده رحمه الله بتاريخ: 16/4/2007».

لقد مكثت في المعتقلات الإسرائيلية فترة طويلة، فما هي حصيلة هذه التجربة الإنسانية وأهميتها في نفس فهد أبو الحاج؟

دخلت السجن – يا صديقي- وأنا أميّ لا أتقن القراءة ولا الكتابة، وتعلمت في السجن، وقد بدأت بالتعليم بكتب (راس روس)، وبالإصرار والعزيمة، استطعت أنا وكثيرون أن نحول ظلام السجن إلى نور، ونتحدى المحتلين في محاربتهم لنا ومنعهم عنا الورقة والقلم، ولكن إرادتنا كانت صلبة وعزيمتنا لم تهن، حتى تحولت المعتقلات إلى ما يشبه الجامعات، ولم تمنعنا إجراءات الإسرائيليين من أن نقهر الظروف ونتحدى، لنصنع المستقبل.

يحفل المركز بالكثير من المواد الثقافية المتنوعة التي تتصل بقضية الأسرى،

كيف تم الحصول عليها؟ وما هي مصادركم في ذلك؟

كل بداية لا بد لها من تضحية وإصرار وعزيمة، وهذا هو الدرس المهم الذي خرجنا به من ظلام السجن والسجان، وبهذه النفسية، زرت مناطق فلسطين كافة بسيارتي الشخصية القديمة، ودخلت كل مدينة وقرية ومخيم وحارة وشارع وزقاق، وكل بيت فيه نصيب من عذاب الأسر، واستطاع المركز أن يجمع ما يزيد الآن عن (63) ألف وثيقة متنوعة في شتى المجالات الثقافية والسياسية، كما يوجد الآن في المركز حوالي (1500) قطعة فنية تدخل في صلب الفن التشكيلي والتحف والمشغولات اليدوية، إذ حول الأسرى تلك المواد البسيطة إلى تحف فنية زاخرة بالجمال والإبداع، إضافة إلى مكتبة تشتمل بالإضافة إلى تلك الوثائق التي أبدعها الأسرى، كتبا ودراسات حول الأسرى وقضاياهم، كما أنها تشتمل أيضا على كتب مطبوعة ألفها الأسرى حول تجربة الاعتقال لتشكل «إبداعات انتصرت على القيد» لثلة من مبدعي الحركة الأسيرة.

يتعرض الأسرى والأسيرات لانتهاكات متعددة للقانون الدولي الإنساني، باعتقادكم كم نجح المركز في إيصال قضية الأسرى العادلة للزائرين؟ وهل هناك تواصل بينكم وبين المؤسسات الحقوقية؟

من خلال أهداف المركز، والذي يركز على البعد التوثيقي لقضية الأسرى، ولذلك فإن اللغة المنطقية القوية هي التسلح بالوثيقة، فالتاريخ يعتمد على الوثيقة، والذي يثبتنا على هذه الأرض هو الوثيقة، فهذه الوثائق هي التاريخ، فلا يمكن الاستخفاف بها، وعليه فإن هذه الوثائق ستظل شاهد إثبات أمام العالم أجمع على عدالة القضية الفلسطينية، ولذلك فالمؤسسات الحقوقية تعتمد على هذه اللغة المنطقية، والتي نجح المركز في إيصالها لتلك المؤسسات ممن يزورونا من مؤسسات دولية أو فلسطينية.

خصصت مكتبة بلدية نابلس ركنا تحت اسم مكتبة الأسير الفلسطيني، ما مدى استفادة المركز من تلك الوثائق والمواد؟

لقد اطلعت على ما في مكتبة بلدية نابلس من وثائق وأرشيف الحركة الأسيرة، وهو خاص فقط بما كان في سجن الجنيد، وقد تم نقل كل محتويات السجن لمكتبة بلدية نابلس عام 1994، وقام المركز بنسخ كل تلك الوثائق، ليكون منها نسخة في هذا المركز، لأننا نطمح أن يكون المركز هو قبلة الباحثين الرئيسية،

فكل ما يحتاجه الباحث في شؤون الأسرى نعمل على أن نوفره في هذا المركز تحقيقا لأهدافه التي وضعناها له، وليس فقط ما هو موجود في مكتبة بلدية نابلس، بل قام السيد المرحوم قدورة موسى، بتوفير كثير من الوثائق المتعلقة بالأسرى في منطقة جنين، ووقف معنا وساندنا في هذا العمل.

ولد هذا المركز عملاقا، وسيظل كذلك، ما هي رؤيتكم المستقبلية للمركز؟

نسعى في الحقيقة إلى زيادة المساحة التي يتربع عليها المركز، والخطة القادمة هي أن يتم بناء مركز أكبر ليستوعب هذا الإرث الحضاري للشعب الفلسطيني، أضف إلى أننا نسعى إلى حوسبة كل الوثائق، وفهرستها، ليستطيع الباحثون الوصول إليها بسرعة وبأقل الوقت، ونضع في إستراتيجيتنا التعريف بقضية الأسرى من خلال استقبالنا لطلبة المدارس والجامعات الأخرى والرحلات المنظمة، ليساهم المركز في تنمية الوعي بقضية الأسرى العادلة، وإبداعاتهم المتعددة الجوانب، وهذا هو دورنا ورسالتنا، وهو أقل ما نقدمه لأسرى الحرية.

جهود حسن عبادي في نشر أدب الأسرى وتعميمه

المحامي الحيفاوي- كما يحب أن أكتب عنه- عاشق لحيفا، ولبحر حيفا، ولوادي النسناس، وللناس فيه ومن حوله، ناشط ثقافي، صاحب فكرة «نادي حيفا الثقافي» ومن مؤسّسيه، ومن مؤسّسي منتدى الكتاب الحيفاوي على اسم الشاعر الفلسطيني حنا أبو حنا[1]، كاتب قصّة قصيرة، ويكتب المقالة الأسبوعيّة «قراءة في كتاب» منذ عدّة سنوات، صاحب مشروع تواصل مع أسرى يكتبون منذ حزيران 2019 ويكتب مقالة كل أسبوعين «متنفس عبر القضبان».

صاحب مبادرة «لكلّ أسير كتاب»، ومبادرة «من كلّ أسير كتاب» التي تُعنى بإيصال إصدارات الأسرى للعالم العربي، والتشبيك بين أسرى يكتبون وبين أدباء خارج السجن. شريك مع رابطة الكتّاب الأردنيين في ندوة «أسرى يكتبون»، وعضو تأسيسي لتجمع «التحالف الأوروبي» لمناصرة الأسرى الفلسطينيين، واشترك في عدة لجان تحضيرية لمؤتمرات وفعاليات تخص الأسرى، وأشرف على العديد من كتب الأسرى، وقدّمها، وأطلقها في فعاليات الإشهار والتوقيع.

صدر له بالاشتراك معي تحريرا ثلاثة كتب: «إيفا شتال[2]: أمميّة لم تغادر التل، 2020»، و«زعترنا أخضر[3]- قصائد، 2021» و«الكتابة على ضوء شمعة، 2022»، وصدر له عام 2023 مجموعة قصصية بعنوان «على شرفة حيفا».

بدأت مبادرة المحامي الحيفاوي حسن عبادي «لكل أسير كتاب» عندما أعلن

1. من أبرز شعراء المقاومة في جيلها الأول، ولد في قرية الرينة قرب مدينة الناصرة المحتلة في 16/10/1928، عمل مدرّسا للغة العربية في الكلية الأرثوذكسية العربية في مدينة حيفا منذ عام 1959، ثمّ مديرا لها عام 1974، حتى تقاعده عام 1987، و محاضرا في دائرة اللغة العربية في جامعة حيفا حتى سنة 1993، ومحاضرا في كلية إعداد المعلمين العرب في حيفا حتى سنة 1995، ومدير لمركز الجليل للأبحاث الاجتماعية. له عدة إصدارات شعرية وكتب أدبية، وتوفي في مدينة حيفا 2/2/2022. (نقلا عن موقع مركز رؤية للتنمية السياسية- موسوعة النخبة الفلسطينية- حنا أبو حنا)
2. ممرضة سويدية عملت في أحد مستوصفات مخيم تل الزعتر في لبنان. فقدت زوجها يوسف حمد– المسؤول الصحي للجبهة الشعبية في المخيم- بسبب قصف منزلهما خلال حصار المخيم عام 1976 وأصيبت وفقدت جنينها وتم بتر ذراعها.
3. يشتمل الكتاب على مجموعة من القصائد التي قيلت في مجزرة تل الزعتر التي وقعت بتاريخ: 12/8/1976.

عنها على صفحته في الفيسبوك بتاريخ: 30 تموز 2019، بحيث يتبرع الكتّاب والناشرون بإصداراتهم لتوصل إلى الأسرى داخل السجون، وبرقت في رأسه هذه الفكرة بعد زيارته مجموعة من الأسرى الكتاب في سجون الاحتلال، فواظب على زيارتهم والتعرف إليهم وإلى مشاريعهم الكتابية، ويذكر دائما أن لزوجته سميرة دوراً مهمّا في إيقاد شعلة هذا المشروع، وفي استمراره، كلما راودته الفكرة أن يتوقف.

استطاع من خلال هذه المبادرة إيصال الأسرى كتبا للكتاب خارج السجن ليعرفهم على ما يكتبه الكتاب في الخارج، ومرة بعد مرة، انبثقت فكرة أخرى هي «من كل أسير كتاب» والهدف منها تعميم كتب الأسرى والتعريف بها لمن هو خارج السجن.

من خلال مشروع حسن استطعنا التعرف إلى كتاب كثيرين، يكتبون بجودة عالية، وهم تعرفوا علينا، فقد كنا بالنسبة إليهم مجهولين، هذا المشروع كان له أكثر من أهمية، ولعل أهمها جميعا هو شعور الكاتب الأسير أنه ليس وحيدا، وأنه يكتب وينشر ويقرأ، وتناقش كتبه، ويكتب فيها النقاد مقالات ودراسات وكتبا وبحوثا، وقد حققت كتب الأسرى ونشاطاتهم الإبداعية نتيجة ذلك حضورا لافتا لدى العديد من القراء والكتاب والنقاد والبرامج الإعلامية والدوريات الثقافية والسياسية[4]. وصار مطمح كتاب كثيرين أن يكتبوا مقدمات لكتب الأسرى والاطلاع عليها وقراءتها والتعريف فيها، فكتب للأسرى الدكتور الناقد فيصل درّاج، والروائي واسيني الأعرج، والكاتب إبراهيم نصر الله، وآخرون.

هذا الأمر شجع مبادرات أخرى ولدت من رحم مبادرتَيّ حسن، فشرعت الإعلامية قمر عبد الرحمن بإعداد حلقات برنامجها الإذاعي «وتر النصر» حول الأسرى الكتاب، ثم مبادرة رابطة الكتاب الأردنيين «أسرى يكتبون» التي دأبت على مناقشة كتاب لكاتب أسير كل أسبوعين، وهكذا كان من واجبي

4. أصدرت مجلة الدراسات الفلسطينية عددا خاصاً، كتبه الأسرى الفلسطينيون، العدد 128، خريف، 2021. كما اهتمّت مجلة الليبي التي تصدر عن مجلس النواب الليبي بنشر العديد من التقارير الصحفية حول كتب الأسرى والأنشطة الثقافية ضمن رسالة فلسطين للمجلة. وغير هاتين المجلتين الكثير من الصحف والمجلات والمواقع الإلكترونية التي أولت عنايتها للنشاط الفكري لهؤلاء الأسرى.

بالتعاون مع حسن عبادي إعداد تقارير صحفية حول تلك الفعاليات التي نشرتها صحف ومجلات ومواقع عربية كثيرة، ونشرتها مجلة «الليبي» تباعا، وهذه ميزة ومِنّة وفضل لهذه المجلة التي وقفت مع قضايا الأسرى، كونها قضايا تتعلق بالحرية والإنسان والثقافة. كما انبثق من هاتين المبادرتين مبادرة «أسرى مبدعون» التي تعمل على نشر إبداعات الأسرى ضمن إستراتيجية واضحة، عربية فلسطينية.

كما تابعنا في منتدى المنارة مبادرة حسن عبادي وقمنا بعمل ندوة خاصة بمناسبة يوم الأسير وتحدثنا عن إبداعات الأسرى، ثم أعددنا ثلاثين حلقة حول كتاب أسرى ما زالوا يقبعون في سجون الاحتلال، وقدمت زميلتنا الدكتورة لينا الشخشير، رئيسة المنتدى حلقات مركزة، تضيء على الأعمال الثقافية لأولئك الأسرى الكتاب وتبين الجانب النضالي والإنساني لهم. وبلغ عددهم أكثر من ثلاثين كاتباً، تناولنا في تلك الحلقات ثلاثين منهم فقط.

لقد ترك هذا الحراك أثره الكبير في الساحة الفلسطينية الثقافية داخل السجن وخارجه، وتشجع الكثيرون من الأسرى ليكون لكل منهم كتابا يصدره، وقد وصلتني أنا وحسن العديد من الكتب الجديدة التي ستكون الإصدار الأول لهؤلاء الكتاب لينضموا إلى نادي الكتابة والكتّاب، ومرّ سابقا في الفصل السابق الكثير من تلك الكتب التي أشرف عليها حسن عبادي وراجعتها لغويا أو حررتها.

يتجاوز اليوم عدد الكتاب الأسرى داخل سجون الاحتلال (125) كاتباً. وليس هذا وحسب بل إن دور نشر ومؤسسات استعدت لتنشر للكتاب الأسرى إبداعاتهم، حتى أصبح لدينا اليوم في المكتبة العربية مئات الكتب التي ألفها الأسرى، تعيش وتمارس حياتها الثقافية مع القراء بحرية تامة بعيدا عن السجن وقضبانه والسجان وسلطاته.

لقد تمددت مبادرة حسن عبادي- غير أبهٍ بما يثيره بعض المغرضين من إشاعات حول تلك المبادرات- لتكون عامةً وشاملة لكل الأسرى، دون تمييز حزبي أو مناطقي، ودون الانحياز للون أدبي دون غيره، وكان من ثمارها عدا كتاب «الكتابة على ضوء شمعة» الكشف عن إبداعات الأسرى في مجالات أخرى غير الكتاب الإبداعية، كالرسم، والموسيقى، وإعداد المشغولات اليدوية،

وتحضير الطعام والأكلات من تلك المكونات المتاحة في السجون الصهيونية.

عدا مبادراته مع التحالف الأوروبي لمناصرة أسرى فلسطين، ومشاركته في حفلات توقيع كتب الأسرى وإشهارها، وتوزيعها، واهتمامه البالغ بالعناية بها، وتوفير كتاب ونقاد يتحدثون عنها، وناشرون ينشرونها دون مقابل في الداخل والخارج، بل إن بعض كتب الأسرى صدرت وتكفّل بنفقات الطباعة والتوصيل كاملة. عدا هذا كله، فقد جاب فلسطين من شمالها لجنوبها ومن شرقها لغربها من أجل الترويج لأدب الأسرى الذي يطلق عليه «أدب الحرية»، واستطاع أن يجمع حول هذا الأدب كوكبة من الكتاب والنقاد الذين تولوا مهمة الحديث عن هذه الإصدارات في البلدان العربية، ويقف على رأسها جميعا اهتمام الإعلام الجزائري من خلال جهود السيد خالد عز الدين الملحق الثقافي في السفارة الفلسطينية بنشر كل ما يقوم به عبادي من أنشطة أو ما ينشره على صفحته بخصوص الأسرى وقضاياهم وكتبهم.

مجلة الليبي «أنيستنا» في كلّ سجون الاحتلال[1]

المحامي حسن عبّادي (صاحب فكرة أسرى يكتبون):

بدأت مشواري التواصليّ مع أسرى خلف القضبان يكتبون لاهتمامي بأدب السجون؛ نشرت على صفحتي يوم 30 تموز 2019 تغريدة عنونتُها «لكلّ أسير كتاب»، بادرتُ بمشروع إيصال إصدارات كتّابنا لأسرانا القابعين خلف القضبان، وصارت تغريدة أسبوعيّة كلّ صباح خميس، ومن خلالها اخترقت مئات الكتب جدران السجن لتصل أسرانا.

بعثت لي الكاتبة صفاء أبو خضرة برسالة جاء فيها «أشكر اهتمامك وأود بشدّة أن أقرأ للمبدعين من الأسرى ..»، وعقّب الروائي أحمد أبو سليم على صفحتي: «وأشكرك على مبادرتك الجميلة، وبوركت جهودك، أقترح أن تكون المبادرة باتجاهين، نحن أيضا يهمنا أن نطّلع على الأدب الذي يكتبه الأسرى، ولا أعرف كيف يمكن ترتيب ذلك».

في لقاء مع الأسير الكاتب باسم خندقجي في سجن هداريم الاحتلاليّ فاجأني قائلًا: «أشعر أنّ اليوم عيد ميلادي لأنني سجين منذ خمسة عشر عاما وللمرّة الأولى يزورني «غريب» لسبب كتاباتي، أشعر اليوم أنّني أصبحت كاتبا حقا».

تواصلت مع أسرانا؛ وأسعدهم الاهتمام بكتاباتهم ورحبّوا بالفكرة. تبيّن لي أنّ الكتابة خلف القضبان متنفّس للأسير، تجعله يحلّق ليعانق شمس الحريّة؛ من عتمة الزنازين يرسم الوطن قوس قزح.

من وحي سماع كلماته (ورسائل صفاء وأحمد) بدأت مشروع «من كلّ أسير كتاب»؛ من خلاله أعلن عبر صفحتي عن كتاب لأسير وأؤمّن نسخة لمن يتواصل معي، وهكذا وصلت عشرات الإصدارات لقرّاء ومهتمّين خارج حدود الوطن، وبدأ الاهتمام أكثر بتلك الإصدارات. استضافت كتاباتهم مجموعة «أكثر من قراءة» في عمان ومنها إلى رابطة الكتاب الأردنيّين ومبادرة «أسرى يكتبون»، ومن خلالها تُعقد ندوة نصف شهريّة تتخلّلها قراءات نقديّة ويشارك الأسير

1. مجلة الليبي، العدد (36)، ديسمبر، 2021، ص19.

بمداخلة يقرؤها قريبٌ له، وكذلك مشاركون أخرون.

قام الإعلامي خالد عز الدين والإعلام الجزائري بتغطية النشاط، وكذلك الكاتب الفلسطيني فراس حج محمد الذي دأب على كتابة ونشر تقرير دوري حول تلك الندوات في مجلّة الليبي ومنها إلى عشرات المواقع وكان لها «أثر الفراشة» ممّا زاد تغطية المبادرة وتعميمها على عشرات آلاف المتابعين الذي بدأوا يهتمّون بأدب السجون الفلسطيني، ممّا جعل حروف مبدعينا الأسرى وكتاباتهم تحلّق عبر أسيجة السجون وقضبانها رغم أنف السجّان.

كتب الأسير حسام زهدي شاهين: «إن الإنتاج المعرفي لأي أسير بغض النظر عن الجنس الأدبي لهذا الانتاج يعد انتصاراً فعلياً على السجان في ذات اللحظة التي يُبعث فيها ككتاب تتداوله أيدي القراء، ولا أبالغ إذا ما اعتبرت شخصيا أن «رسائل إلى قمر» وغيرها من محاولات إنتاجي الأدبي والفكري بمثابة الجزء الحي مني الذي تسلل إلى الحرية رغماً عن أنف السجان، فشكراً للكتاب الذي تمكن من حسم المواجهة في معادلة الصراع لصالح الجهة المستضعفة فيزيائياً، والأقوى روحياً وفكرياً، وقبلة لكل الأيادي التي احتضنته، والعيون التي تصفحته بمحبة وحنان، فبالمحبة يقوى الأسير وينتصر، وفي الخذلان يضعف وينكسر!».

نشر إبداعات الأسرى، والكتابة حولها، شجّع الكثيرين من زملاء الأسر في الكتابة ونشر ما يكتبون، ولذا نشاهد في الآونة الأخيرة ظاهرة نشر محمودة لكتابات الأسر والأسرى، وكل إصدار يتبعه عرس ثقافي في السجن وخارجه، فالأسير يشعر بالحريّة ويشاركه زملاء الأسر فرحته بكلّ ما يُنشر حوله، فصارت مجلة «الليبي» ملازمة للأسرى في كلّ سجون الاحتلال، يتابعون من خلالها كلّ ما يُكتب ويُنشر حول زميلهم، عريس الحدث الثقافي»، وكذلك الأمر مع أهله الذين يتداولون كلّ ما يُكتب حوله وكأنّهم به حرًا طليقًا بينهم.

كلّ الشكر والتحايا من الحركة الأسيرة للكاتب فراس حج محمد ولمجلّة الليبي على ما يقومون به من أجل أسرانا وإيصال حروفهم التي كُتبت بالدم لكلّ حدب وصوب.

أين الكتّاب الفلسطينيّون المسجونون؟[1]

«15 نوفمبر من كل عام تطلق «منظمة القلم الدولية» حملتها التضامنية تحت عنوان «يوم الكاتب المسجون» والتي تسلط فيها الضوء على قضايا الكتاب المسجونين أو الذين يواجهون المحاكمة، وتدعو من خلالها إلى اتخاذ إجراءات دولية عاجلة للإفراج عنهم وحمايتهم. ترمز هذه القضايا التي نسلط الضوء عليها إلى أنماط التهديدات والاعتداءات التي غالبا ما يتعرض لها الكتاب والصحفيون في جميع أنحاء العالم نتيجة لممارستهم السلمية لحقهم في حرية التعبير».

تصدرت الفقرة السابقة الحملة الدولية التي تطلقها «منظمة القلم الدولية» (pen international) لمناصرة الكتاب المسجونين عبر العالم للعام الحالي 2021 تحت عنوان «يوم الكاتب المسجون 2021»، وأكدت مناصرتها لمجموعة من الكتاب حول العالم، واستهدفت في حملتها هؤلاء الكتّاب ميكل أوسوربو - الاثنين 15 نوفمبر، وصلاح الدين دميرطاش- الثلاثاء 16 نوفمبر، ورحيل داوت- الأربعاء 17 نوفمبر، قضية جماعية لـ 12 كاتبًا إريتريا- الخميس 18 نوفمبر، ومحمد الركن- الجمعة 19 نوفمبر. والركن المسجون لدى الإمارات العربية المتحدة هو الكاتب العربي الوحيد في هذه الحملة.

يوجد كثير من الكتاب المسجونين لدى الأنظمة العربية في كل بقاع الأرض العربية، ولا يخلو سجن عربي من كاتب أو شاعر أو صحفي، فقد تحولت بلاد العرب إلى مكان طبيعي يمتهن فيه الكاتب، ويتحول إما إلى مطرود من عمله أو منفي أو مسجون، وإما سيتحول إلى نعجة مدجنة يلتهمه النظام، ويحوله إلا بوق نفاق يومي، يبثّ ترهاته في الصحف والمجلات في تمجيد الدكتاتور العربي. وربما لجأ إلى المراوغة أو الصمت، وكلها حالات يتحمل النظام العربي أوزارها في حياة الكاتب العربي.

لعل ما يتعرض له الكاتب العربي تحديدا في «مسالخ الموت» العربية لهو كفيل

1. سأورد ترجمة إنجليزية للمقال بعد أسماء الكتاب الأسرى.

بأن تلتفت إليه «منظمة القلم الدولية» بحملة خاصة، للتعريف بهؤلاء «المنسيين» و«المنسيات» في السجون العربية، مع أن تلك الحملات إن حدثت لن تجد لها قبولا عند الأنظمة، وستضرب بها عرض الحائط. فالنظام العربي الدكتاتوري في أفعاله تلك وغيرها محفوظ بأجهزة أمن محمية من النظام الغربي، ولذلك فهي آمنة مطمئنة لن تراها إلا أمراً عابرا لا يستحق الوقوف عنده. علماً أنه لا تجرؤ أي منظمة غير حكومية على الوقوف معهم وتبني قضاياهم، لقد مات في السجون المصرية بدعوى مكافحة الإرهاب والمد الإخواني كثير من الكتاب وما زال بعضهم يعيش أوضاعا صعبة جدا داخل معتقلات النظام المصري. والصمت مطبق على أوضاعهم وأسمائهم، فلا أحد يتحدث عنهم بحجة أنهم مسجونون بتهم الانتماء إلى منظمة إرهابية محظورة، وبذلك يكون قد اجتمع على هؤلاء المسجونين شرّ النظام وشر هذه المنظمات وما تمتلكه من ماكينات إعلامية قادرة على شيطنتهم. وهذا ليس في مصر وحدها، وإن كان أكثر الدول العربية بروزا في هذا الجانب.

هذا ما يخص البلاد العربية والكتّاب العرب، أما في فلسطين المحتلة فالأمر فيها أكثر بشاعة، والكاتب ليس مسجونا فقط في سجون السلطة الفلسطينية التي تقمع بشراسة حرية التعبير، ومعها مجموعة من المثقفين الانتهازيين النفعيين الذين تحولوا إلى «نعاج» منافقة، يدافعون عن السلطة وأعمالها بحق الكتّاب، ولن تجد أي منظمة فلسطينية غير حكومية تدافع عن هؤلاء الكتاب أو تتبنى قضاياهم، لا اتحاد الكتاب الفلسطينيين ولا المؤسسات الحقوقية المحلية ولا يوجد حملات حقوقية يقودها مثقفون مستقلون، ناهيكم عن صمت وزارة الثقافة والإعلام الرسمي بطبيعة الحال، كونهما جزءا من السلطة الفلسطينية. وهذا الوضع نفسه بصورة أو بأخرى ما يحدث في غزة حيث السلطة في القطاع المحاصر تنشب أظافرها الحادة في أجساد الكتاب وأرواحهم، ويتم الاعتداء عليهم بالضرب أيضا، سواء بسواء كما يحدث في الضفة الغربية.

والأكثر قسوة في فلسطين المحتلة هو ما يحدث داخل سجون الاحتلال الصهيوني. إذ اتخذ الاحتلال منذ وجد إستراتيجية واضحة ضد الكتاب جميعا ممن ينخرطون في ثقافة المقاومة والدعوة إلى التحرير وحق تقرير المصير، ومحاربة الاحتلال والخلاص منه ومن شره. إنه ليس أمرا غريبا أن أقول إن جميع الكتاب الفلسطينيين قد مروا بتجربة الاعتقال في سجون الاحتلال

الصهيوني منذ عام 1948 وحتى اليوم، ومورست على الكتاب الفلسطينيين إجراءات أخرى إضافية كالإقامة الجبرية، والطرد من الوظيفة، والمنع من السفر، والإبعاد، ومصادرة الكتب، وتخريب المكتبات العامة والخاصة، والتفتيش على كتب المدارس ومعاقبة كل من يوجد لديه كتاب جعله الاحتلال على قائمته السوداء، وتقييد دخول الكتب إلى مناطق فلسطين المحتلة، ومنع إقامة الندوات الثقافية التي لا تتناسب وما تفكّر به السلطات أو الحاكم العسكري.

لعلّ «منظمة القلم الدولية» لا تعلم أن في سجون الاحتلال الصهيوني عشرات الكتاب حاليا ممن فرضت عليهم سلطات الاحتلال أحكاماً عالية، مئات السنين سيقضيها الكتاب خلف القضبان حتى بعد الموت إن حدث وماتوا في السجن، فلا بد من أن تقضي «الجثة» كامل المدة، فلا ينتهي الحكم بالموت. هل تعلم ذلك «منظمة القلم الدولية»؟

وهل تعلم أن هؤلاء الكتاب المسجونين ومعهم آلاف المسجونين الفلسطينيين محرومون من الحقوق الأساسية الإنسانية داخل السجن، إذ يتعرضون إلى الضرب بلا مبرر، وإلى مصادرة أغراضهم الشخصية، وكتبهم ودفاترهم وأقلامهم ومسودات مؤلفاتهم، ويتعرضون إلى العزل وإلى السجن دون محاكمة، تحت بند الملف السري، ليمضي فئة منهم أحكام سجن مفتوحة الزمن تحت بند «الاعتقال الإداري»؟

هل تعلم «منظمة القلم الدولية» أنه قد تم تدمير آلاف الكتب التي كتبها الكتاب داخل المعتقل، بمصادرتها ومنع إرجاعها إلى كتابها، بحجة أنها «أعمال إرهابية» خطيرة، تحرض على «العنف»؟ هل تعلم «منظمة القلم الدولية» أن هناك كاتبات في السجون الصهيونية، تعرضن للاعتقال بسبب كتاباتهن «التحريضية» كما تزعم سلطات الاحتلال، حدث هذا في القدس، وحدث في مناطق أخرى داخل مناطق الاحتلال الخاضعة للسلطات منذ عام 1948؟

هل تعلم «منظمة القلم الدولية» أن سلطات الاحتلال تفرض السجن على كل كاتب يرفض الخدمة العسكرية في صفوف ما يعرف بالجيش، ويعاقب بمدة سجن تصل إلى تسعة أشهر. حدث هذا مع الشاعر سميح القاسم ومع الشاعر مرزوق الحلبي والكاتب سعيد نفاع وأسامة ملحم وغيرهم كثير؟ وسيحدث مع كل كاتب يرفض هذا النوع من «التجنيد الإجباري».

هل تعلم «منظمة القلم الدولية» أن سلطات الاحتلال تقوم بهدم قرى كاملة، وتهجر أصحابها منها، ومن هؤلاء الكاتبة شيخة حليوى التي كانت تسكن في منطقة حيفا، وهدمت قريتها «ذيل العِرج» الواقعة في ضواحي مدينة حيفا. وها هي الآن تعيش خارج مسقط رأسها. وقريتها غير معترف بها. أتعلم «منظمة القلم الدولية» ماذا تعني سلطات الاحتلال بهذا المصطلح؟ يعني أنها قرى يجب أن تزال فهي غير شرعية، والسلطات لا توفر لها الماء والكهرباء، ولا تعترف بوجود سلطة إدارية لها (بلدية أو مجلس قروي).

هل تعلم «منظمة القلم الدولية» أن كل يوم يولد كاتب أو كاتبة داخل سجون الاحتلال ليروي حكاية اعتقاله وسجنه، بعد أن تخلت عنه القوانين الدولية والمحلية، وينتظر معجزة ليتم تحريره من حياة «البرزخ» الذي يعيش فيه؟ لا أمل لدى هؤلاء الكتّاب إلا ما يصنعونه على الورق، إنهم يعملون بنظرية «الإيهام بالحرية»، فهم يعتقدون أو يجعلون أنفسهم تعتقد أنهم عندما يكتبون فإنهم يمارسون فعل الحرية أو محاولة الانفلات من السجن والفرار خارج الغرفة الحديدية. إنهم يتدربون على التعايش مع الفراغ ليس أكثر في حقيقة الأمر، فالحرية هي مطلبهم «المسكوت عنه». فمن لهؤلاء الكتاب؟ ومن سيثير قضاياهم ليناصرهم زملاؤهم الكتاب عبر العالم؟

هل تعلم أخيراً «منظمة القلم الدولية» أن هناك كتابا فلسطينيين مسجونين في سجون الأنظمة العربية في السعودية وفي الإمارات العربية المتحدة أيضاً، وليس فقط الكاتب محمد الركن؟ ففي بطن الحوت هناك في السعودية أمضى الشاعر أشرف فيّاض فترة محكوميته القاسية، وفي سجون الإمارات يقبع الشاعر السبعيني رامز منصور، لا يُعرف عنه شيء، فهو مفقود، وربما قضى نحبه، فلا معلومات بشأن وضعه الصحي وحياته المهددة كل الوقت.

أما بعد كل ما سبق؛ فإنه ينبغي أن تعلم «منظمة القلم الدولية» أن معاناة الكاتب الفلسطيني معاناة مركبة، من السلطة الفلسطينية بشقيها بوصفها نظاما عربيا، ومن سلطات الاحتلال ومن الأنظمة العربية، ولا بد من أن تلتفت إلى هؤلاء الكتاب ومعاناتهم في هذه السجون الممتدة في أكثر من عشرين سجناً على أقلّ تقدير.

قائمة بالأسرى الكتّاب القابعين في سجون الاحتلال

أعددتُ هذه القائمة من «كتّاب السجن» لتكون نواة لمعجم خاص بهم، أتغيا إنجازه في المستقبل ليشمل إبداعاتهم، والإضاءة أكثر على أحوالهم الفكرية والشخصية، ونماذج من كتاباتهم. ولا أظن أن هذه القائمة نهائية، أو أنها شاملة واستقصائية، إلا أنني لم أدخر جهدا في سبيل حصر جميع أسماء الكتاب الأسرى والكاتبات الأسيرات في السجون الصهيونية، ولي في ذلك عدة أهداف، أجملها فيما يأتي:

أولاً: لفت الانتباه إلى أن الأسرى الفلسطينيين الذين يقبعون داخل السجون أصحاب فكر ومشروع إنساني كبير، وليسوا كما يروّج لهم الاحتلال بأنهم إرهابيون وقتلة.

ثانياً: ردّ على منظمة القلم الدولية (PEN) التي لم تحفل بالأسرى الفلسطينيين الكتّاب ضمن أنشطتها منذ تعرفت إلى نشاطات هذه المؤسسة، وهي تتجاهلهم سنويا في ذكرى يوم المسجون العالمي الذي يصادف الخامس عشر من شهر نوفمبر/ تشرين الثاني من كل عام، مهتمة بالسجناء السياسيين في السجون العربية وغير العربية.

ثالثاً: تحقيق نوع من «العدالة» البحثية والشمولية، فيما يخص الأسرى الكتّاب، فلا يستطيع باحث أن يكتب عن كل هذا الكم الهائل من الكتاب وما أنتجوه، فكتبت عن بعضهم، وبعضهم عرّفت فيه من خلال الأنشطة والتقارير الصحفية، وبقي الكثيرون الذين يجب أن يحضروا في الكتاب، فكان لا بد من محاولة استقصاء الأسماء ما وسعني ذلك، لعلها تساعد باحثا آخر يريد أن يكمل هذا الطريق في أحد مساربه. وتشير هذه الإحصائية إلى أن هناك (12) كاتبة فقط من بين العدد الكلي المُحصى؛ وهو (132)، وهذا باعتقادي أمر طبيعي، تحدثت فيه سابقاً، إلا أنه من منظور آخر فإنه بالنسبة لعدد الأسيرات إجمالا فإن النسبة ستكون مرتفعة جدا.

ويعود الفضل في انبثاق هذه الفكرة إلى ما قام به المحامي حسن عبادي الذي

كرّس زياراته للأسرى الكتّاب تحديدا للتواصل معهم إنسانيا وثقافيا، فعندما سألته بعد سنتين من المشروع عن العدد المحتمل للكتاب الأسرى، أجابني قد يتجاوز المئة. وها هم- بالفعل أكثر من مئة، بل إن العدد مرشّح للزيادة؛

نظرا لزيادة الاعتقالات بشكل كبير في هذا العام والعام الذي سبقه (2022-2023)، وارتفاع محكوميات الأسرى المبالغ فيها، إضافة إلى رغبة كثير من الأسرى الدخول إلى معمعة الكتابة بوصفها جزءا من المعترك النضالي مع الاحتلال، بالإضافة إلى ما تجده الأسيرات- تحديداً- من تشجيع للكتابة خلال الزيارات شبه المنتظمة للمحامي حسن عبادي، واستعداده لمتابعة ما يكتبنَ ونشره وإشهاره وتوزيع الإصدار والاحتفاء به.

وشمل مفهوم الكاتب كل أسيرة أو أسير مارس الكتابة بالمقال الصحفي، أو بالقصيدة المنفردة، أو بالرسالة المنشورة إعلاميا، أو تحرير الدراسات لأسرى آخرين، إضافة بطبيعة الحال إلى كل أسير أصدر كتاباً أو أعد كتاباً، أو أن لديه كتابا مخطوطاً ينتظر أن ينشره.

وفي هذا السياق أشكر كل من ساعدني، ولو للوصول إلى أسير كاتب واحد، وأخص بالذكر هنا عدا الصديق حسن عبادي، الناقد رائد الحواري الذي كتب كتابا كاملا بعنوان «إضاءات على رواية المعتقلين الأدباء في المعتقلات الإسرائيلية»، والصديق الكاتب وليد الهودلي، والشاعر الصديق جمعة الرفاعي.

تنبغي الإشارةُ إلى أنّ هذا الاستقصاء لحصر الأسماء، اشتمل على تاريخ الميلاد، وعلى مكان الإقامة، وتاريخ الاعتقال، ومدة الحكم. وكشف لي هذا العمل عن شحّ المعلومات الشخصية المتعلقة بالأسرى، فكثير منهم لم أتمكن من الحصول على تاريخ ميلاده بالضبط، وبعضهم لم يكن هناك أي مصدر للمعلومات عنهم، كما هو موضح بالقائمة.

كما أنني لاحظت كاتباً أسيراً يكتب تحت اسم مستعار؛ فما الذي يجعل أسيرا يكتب تحت اسم مستعار؟ سؤال حيرتني إجابته، ولا أجد لذلك سببا منطقيا معيّناً إلا أن يكون «كاتبة»، وحينذاك، فمن الممكن أن يكون للاعتبارات المتعلقة بالأديبات اللواتي كتبن تحت اسم مستعار وجاهتها هنا، وتتعلق بالنواحي الاجتماعية. أما أن يكون «كاتباً» فالأمر لا يندرج تحت أي سبب منطقي سوى أنه لا يريد أن يُعرف، ربما مقاومة لشهوة الشهرة أو محو الذات بالكلية بمقابل

الكتابة، أو ربما يكتب مادتين في المجلة ذاتها «مجلة حريتنا» واحدة باسم مستعار، والأخرى باسمه الحقيقي، أو لعله واحد من محرري المجلة.

لا أعتقد أن العامل الأمني هو الدافع لهذا الفعل، فما الذي يخاف منه الأسير الكاتب من فعل الكتابة ليتوارى خلف اسم مستعار؟ تبقى احتمالية واحدة؛ ربما أنه تابع لفصيل سياسي ليس على وفاق مع محرري مجلة حريتنا التابعين لفصيل آخر، فاختار الكتابة باسم مستعار تجنباً للحرج، مع أن مجلة حريتنا- كما رأيتها- من خلال تصفحي لأعدادها التسعة الصادرة حتى أول أيلول 2023 لا تفرق بين الأسرى، وتهتم بقضاياهم جميعاً.

الرقم	الاسم	سيرة ذاتية مختصرة
1	إبراهيم اغبارية	ولد 19 فبراير 1965، واعتقل بتاريخ 26 فبراير 1992، وحكم عليه بثلاث مؤبدات وستة عشر عاماً إضافية.
2	إبراهيم بيادسة	ولد بتاريخ: 3/7/ 1960، من مدينة باقة الغربية، اعتقل بتاريخ: 24/3/1986، وحكم عليه مدى الحياة.
3	إبراهيم حامد	ولد عام 1965، من قرية سلواد (رام الله) اعتقل عام 2006، يقضي حالياً حكماً بالسجن المؤبد 54 مرة.
4	أحمد بسيسي	ولد في 1 أغسطس 1979، واعتقل بتاريخ: 18 يناير 2004، وحكم عليه بخمس وعشرين سنة.
5	أحمد سعدات	ولد في 23 فبراير 1953 من مدينة البيرة، اعتقل بتاريخ: 14/3/2006، حكم بالسجن 30 عاماً.
6	أحمد العارضة	في الكتاب سيرة عنه
7	أحمد حج محمد	في الكتاب سيرة عنه
8	أحمد أبو جابر	من سكان كفر قاسم، تجاوز عمره 63 سنة، معتقل منذ 8/7/1986، وحكم عليه بالسجن المؤبد مدى الحياة، إضافة إلى 10 سنوات.
9	أسامة الأشقر	ولد بتاريخ 14/8/1982 من قرية صيدا (طولكرم). اعتقل بتاريخ: 14/11/2002، حكم بثماني مؤبدات وخمسين عاماً.
10	إسراء الجعابيص	في الكتاب سيرة عنها
11	إسلام جرار	ولد في عام 1973، من سكان بلدة برقين قضاء جنين، اعتقل بتاريخ 26/8/2002. وحكم عليه بتسع مؤبدات.
12	إسلام حامد	من مواليد القدس الشريف عام 1985، اعتقل بتاريخ 24/10/2015، وحكم بالسجن 21 عاماً.

13	أماني حشيم	ولد عام 1993، من بيت حنينا شرق القدس، اعتقلت بتاريخ 13 كانون الأول 2016، وحكم عليها بعشر سنوات و5000 شيكل غرامة.
14	أمجد عبيدي	ولد بتاريخ: 20/6/1968، من قرية زبوبا في محافظة جنين، اعتقل بتاريخ: 17/11/2003، وحكم عليه بثلاث وعشرين مؤبدا بالإضافة إلى 50 سنة إضافية.
15	أمجد عواد	ولد عام 1992، في قرية عورتا، قضاء نابلس، اعتقل بتاريخ: 10/4/2011، وحكم عليه بخمس مؤبدات.
16	أيمن سدر	ولد في بلدة أبو ديس قرب القدس، يوم الحادي عشر من أيار عام 1966، وذاعتقل بتاريخ: 13/5/1995، وحكم عليه بمؤبد وثلاثين عاماً إضافية.
17	أيمن الشرباتي	في الكتاب سيرة عنه.
18	باسم خندقجي	في الكتاب سيرة عنه.
19	بلال بلال	لم أتحصل أي معلومات عنه، سوى أنه من مدينة نابلس، ويكتب في مجلة «حريتنا».
20	تحرير أبو سرية	ولدت في نابلس عام 1993، واعتقلت بتاريخ: 20/8/2022، موقوفه، رهن التحقيق.
21	ثابت مرداوي	ولد بتاريخ: 21 يوليو 1976، (محافظة جنين)، واعتقل بتاريخ 11 أبريل 2002، حكم بواحد وعشرين مؤبدا وأربعين سنة إضافية.
22	ثائر حماد	ولد بتاريخ: 2 يوليو 1980 في بلدة سلواد، اعتقل بتاريخ: 2/10/2004، وحكم عليه بأحد عشر مؤبداً.
23	ثائر حنني	في الكتاب سيرة عنه
24	ثائر حلاحلة	ولد في بلدة خاراس بمحافظة الخليل بتاريخ 19/03/1979، أمضى أحد عشر عاما في الاعتقال الإداري بشكل متفرق، وكان خاض إضرابا عن الطعام عام 2012 استمر لمدة (78) يوما، ضد اعتقاله الإداري. للمرة الرابعة على التوالي، جددت محكمة عوفر العسكرية الثلاثاء 6/6/2023 قرار الاعتقال الاداري بحقه لمدة 3 أشهر جديدة.
25	ثامر سباعنة	ولد في الكويت عام 1976، من مدينة جنين، اعتقل: 16/10/2026، محكوم إدارياً.
26	جعفر أبو حنانة	ولدعام 1978 في بلدة عرابة شرق جنين، واعتقل بتاريخ 1/6/2004، وحكم عليه بالسجن المؤبد مدى الحياة.
27	جمال هندي	ولد عام 1969، من مدينة قلقيلية، معتقل منذ عام 2002، وحكم عليه بالسجن اثنتين وعشرين سنة.

28	جمال الهور	ولد في بلدة صوريف (الخليل) بتاريخ: 1974/5/24، اعتقل بتاريخ: 13/11/1997، وحكم عليه بخمسة مؤبدات وثماني عشرة سنة إضافية.
29	حسام الديك	وُلد الأسير حسام الديك عام 1986، في قرية كفر الديك قضاء سلفيت، محام مزاول في نقابة المحامين الفلسطينيين، اعتُقِل بتاريخ: 2021/2/2ً، وحكم عليه.....
30	حسام شاهين	في الكتاب سيرة عنه.
31	حسام شحادة	ولد عام 1974، من مخيم قلنديا (القدس)، اعتقل بتاريخ: 17/2/2002، وحكم عليه بالسجن المؤبّد (6) مرات.
32	حسن سلامة	ولد بتاريخ 1971/8/9م، في مدينة خان يونس، اعتقل بتاريخ/ 17/5/1996، وحكم عليه بـ (1175) عاماً.
33	خالد أبو عرفة	مواليد عام 1960، من مدينة القدس، اعتقل بتاريخ: 02 مايو، 2023، وتحول إلى الحكم الإداري لمدة 4 أشهر.
34	خليل أبو عرام	ولد في تاريخ 1 تشرين الثاني عام 1966، في مدينة يطا (الخليل)، اعتقل بتاريخ 31/10/2002، وحكم عليه الاحتلال بالسّجن المؤبد سبع مرات.
35	خيري سلامة	ولد عام 1981، من مدينة نابلس، اعتقل بتاريخ: 15/7/2003، وحكم عليه بالسجن المؤبّد مدى الحياة.
36	راتب حريبات	ولد في مدينة دورا (الخليل)، بتاريخ: 15 أكتوبر 1979، اعتقل في 27 تموز 2002، حكم عليه بالسّجن لمدة 22 عاماً.
37	رائد أبو حمدية	من القدس، ولد عام 1972، اعتقل بتاريخ: 3/2/1997، حكم بالسجن مدى الحياة.
38	رائد أبو ظاهر	من مدينة رام الله، ولد عام 1978، اعتقل بتاريخ: 16/9/2001، وحكم عليه مؤبد، بالإضافة إلى عشرين سنة.
39	رائد السعدي	ولد في قرية السيلة الحارثية قضاء جنين، في العشرين من فبراير لعام 1966، اعتقل بتاريخ: 28 أغسطس 1989، وحكم عليه بمؤبدين.
40	رائد الشافعي	في الكتاب سيرة عنه.
41	رائد عبد الجليل	ولد في نابلس عام 1983، واعتقل بتاريخ: 10/9/2002، وحكم عليه بالمؤبد أربع مرات بالإضافة إلى أربعين عاماً إضافية.
42	رامي نور	ولد عام 1979، من نابلس، اعتقل بتاريخ: 25/2/2002، وحكم بالسّجن المؤبد مرتين وخمسين سنة إضافية.
43	رجب الطحان	ولد عام 1968، من مدينة القدس، اعتقل بتاريخ 29/10/1998، حكم بالسجن مدى الحياة.

44	رغد الفني	من مدينة طولكرم، ولدت عام 1968، واعتقلت بتاريخ: 28/10/2022، وتحولت إلى الحكم الإداري.
45	روان أبو زيادة	ولدت عام 1994، من قرية بيتلو، قضاء رام الله، اعتقلت بتاريخ: 15/7/2015، وحكم عليها بتسع سنوات.
46	زكريا زبيدي	ولد عام 19/1/1975 في مُخيّم جنين، اعتقل بتاريخ: في 27 كانون الثاني 2019، وحكم عليه بالسجن المؤبّد، نجا من 4 محاولات اغتيال. عضو سابق في المجلس الثوري لحركة فتح، تم انتخابه في 4 كانون الأول 2016.
47	زياد زهران	لا يتوفر عنه معلومات سوى أنه كاتب مقالات في عدة مواقع إلكترونية، وفي صحيفة القدس.
48	سامح الشوبكي	ولد بتاريخ: 4/12/1980، من مدينة قلقيلية، اعتقل بتاريخ: 25 أكتوبر 2003، حكم بمؤبد وسبع عشرة سنة إضافية.
49	سامر محروم	في الكتاب سيرة عنه.
50	سائد سلامة	وُلد في بلدة جبل المُكبر بالقدس عام 1976، واعتقل بتاريخ 30 /3/2001، حكم بالسجن لمدة 24 عاماً.
51	سعيد ذياب	ولد عام 1981، من مدينة قلقيلية، اعتقل بتاريخ: 28/3/2007، وحكم بسبع وعشرين سنة.
52	سليم حجة	ولد في قرية برقة (نابلس) عام 1973، اعتقل بتاريخ: 17/4/2002، حكم بستة عشر مؤبداً وثلاثين سنة إضافية.
53	شادي أبو شخيدم	ولد عام 1980، من مدينة الخليل، اعتقل في 13/4/2002، وحكم عليه بالسجن المؤبد ست مرات بالإضافة إلى عشرين سنة إضافية.
54	شروق دويات	ولدت عام 1995، من بيت لحم، اعتقلت بتاريخ: 7/10/2015، وحكم عليها بالسجن ست عشرة سنة.
55	ضياء زكريا آغا	ولد بتاريخ: 19/4/1975، من خانيونس، اعتقل بتاريخ: 10/10/1992، وحكم عليه بتسع وتسعين سنة.
56	طارق يحيى	ولد عام 1995، من بلدة العرقة (جنين)، اعتقل بتاريخ: 8/10/2015، وحكم عليه بالسجن سبع عشرة سنة ونصف.
57	طارق مطر	ولد بتاريخ: 24/10/1989، من رام الله، واعتقل بتاريخ: 2/10/2019، وحكم عليه بالسجن أربع سنوات.
58	ظافر القدومي	ولد عام 1985، من قرية كفر قدوم، حكم عليه بالسجن المؤيد وثلاث سنوات إضافية.
59	ظافر ريماوي	من قرية بيت ريما شمال غرب رام الله، معتقل منذ 2002، ويقضي حكما بالسجن المؤبد.

60	عاصم البرغوثي	ولد عام 1990، من بلدة كوبر (شمال مدينة رام الله)، اعتقل بتاريخ: 8/1/2019، وحكم بالسجن المؤبد أربع مرات، وغرامة مالية تصل أربعة ملايين دولار.
61	عاهد أبو غلمي	ولد عام 1968 في قرية بيت فوريك قضاء نابلس، اعتقل بتاريخ: 13/3/2006، وحكم عليه بالسجن المؤبد بالإضافة إلى خمس سنوات إضافية.
62	عاهد النتشة	ولد عام 1981، من بلدة بيت حنينا (القدس)، اعتقل بتاريخ: 4/9/2001، وحكم عليه بالسجن 25 سنة.
63	عاهد نصاصرة	ولد عام 1981، من نابلس، اعتقل بتاريخ 25/5/2002، حكم بالسجن 29 عاماً
64	عبد الرحمن المقادمة	ولد عام 1987، من غزة، اعتقل بتاريخ: 25/8/2007. وحكم عليه بالسجن ثماني عشرة سنة.
65	عبد الرزاق فراج	ولد بتاريخ: 17/1/1963، من مدينة اللد المحتلة عام 1948، يسكن في رام الله، واعتقل بتاريخ: 27/9/2019، موقوف دون محاكمة.
66	عبد السلام إعمر	ولد عام 1978، من قلقيلية، اعتقل بتاريخ: 20/9/2013، وحكم بالسجن المؤبد.
67	عبد العظيم عبد الحق	ولد بتاريخ: 8/6/1967، من بلدة قصرة (نابلس)، اعتقل 15/11/2000، وحكم عليه بالسجن أربعة وثلاثين عاماً.
68	عبد الله البرغوثي	ولد في الكويت سنة 1972، اعتقل بتاريخ: 5/3/2003، وحكم عليه 67 مؤبداً.
69	عبد الله النحال	ولد عام 1985، من قطاع غزة، اعتقل بتاريخ: 3/9/2007، وحكم عليه بالسجن ثماني عشرة سنة.
70	عبد الناصر عيسى	ولد في مخيم بلاطة، شرق نابلس، معتقل منذ عام 1995، ويقضي حكما بالسجن مدى الحياة مرتين.
71	عثمان بلال	ولد عام 1975، من مدينة نابلس، اعتقل بتاريخ: 1/1/1995، وحكم بالسجن مدة 1485 عاماً.
72	عز الدين الحمامرة	ولد بتاريخ: 29/7/1978، من قرية حوسان غرب بيت لحم، واعتقل بتاريخ: 7/3/2004، وحكم عليه بالسجن المؤبد تسع مرات.
73	عزمي نفاع	ولد عام 1995، من جنين، اعتقل بتاريخ: 24/11/2015، وحكم عليه بالسجن عشرين عاماً.
74	علي السعدي	ولد بتاريخ: 12/1/ 1963، من مدينة جنين، اعتقل بتاريخ 11/4/ 2002، حكم بالسجن خمسة مؤبدات بالإضافة إلى خمسين سنة أخرى.

75	عمار الزبن	ولـد عـام 1977، مـن مدينـة نابلـس، اعتقـل بتاريـخ: 11/1/1998، وحكـم بالسـجن المؤبـد سـبعة وعشـرين مـرة.
76	عنان شلبي	في الكتاب سيرة عنه.
77	فدوى حمادة	ولدت عـام 1988، مـن مدينـة القدس، اعتقلت بتاريخ 12/8/2017، وحكم عليهـا بالسـجن عشـر سنوات.
78	فهد صوالحي	ولـد بتاريـخ 4/7/1981، مـن مخيـم بلاطـة، اعتقـل بتاريـخ 14/02/2003، وحكـم بالسـجن المؤبـد 7 مـرات، بالإضافـة إلـى 50 عامـاً.
79	قتيبة مسلم	في الكتاب سيرة عنه.
80	قسام شبلي	ولـد عـام 1999، مـن بلـدة كوبـر في محافظـة رام اللّه، اعتقـل بتاريـخ: 23/8/2019. لـم يصـدر بحقـه حكـم.
81	كفاح حطّاب	ولـد عـام 1960، مـن مدينـة طولكـرم. اعتقـل بتاريـخ: 4/6/2003، وحكـم عليـه بالسـجن مؤبّديـن.
82	كميل أبو حنيش	في الكتاب سيرة عنه.
83	ماهر الهشلمون	ولـد في الأردن بتاريـخ 10/3/1984، مـن مدينـة الخليـل، اعتقـل بتاريـخ: 10/11/2014، وحكـم عليـه بالسـجن مؤبـد مرتـين، وغرامـة مقدارهـا ثلاثـة ملايـين وربـع تقريبـاً، بديـلا عـن حكـم الإعـدام.
84	مجاهد شني	لاجئ مـن اللـد، مـن سـكان مخيـم الجلـزون قـرب رام اللّه، وُلِـد في 3/3/1999، معتقـل منـذ عـام 2021، ولا زال محكومـاً إداريـاً.
85	محمد الطوس	ولـد عـام 1956، مـن قريـة الجعبـة، قضـاء الخليـل، معتقـل منـذ 6/10/1985، ويقضـي حكمـا بالسـجن مـدى الحيـاة.
86	محمد اغبارية	ولـد بتاريـخ: 31/1/1968، مـن بلـدة المشيرفة قضاء أم الفحم، اعتقل بتاريـخ: 26/2/1992، وحكـم عليـه بالسـجن ثلاثـة مؤبـدات وسـتة عشـر عامـاً.
87	محمد دحنون	ولـد عـام 1979، مـن بلـدة عابـود، قضـاء رام اللّه، اعتقـل بتاريـخ: 2/5/2003، وحكم عليـه بالسـجن مؤبدين، وعشـرين سـنة إضافيـة.
88	محمد الحلبي	ولـد عـام 1978، مـن قطـاع غـزة، اعتقـل عـام 2016، وخضـع لـ (172) جلسـة محاكمـة حيـث صـدر بحقـه حكـم بالسـجن 12 عامـاً.
89	محمد رشدة	ولـد عـام 1989، مـن سـكان مخيـم شـعفاط في القـدس المحتلـة حكمـاً بالسـجن الفعلـي لمـدة 11 عامـاً.
90	محمد مرداوي	ولـد بتاريـخ: 4/ 6/ 1979، مـن مدينـة جنـين، واعتقـل بتاريـخ 17/8/1999، وحكـم بثمـانٍ وعشـرين سـنة.
91	محمد عرمان	ولـد عـام 1975 في قريـة خربثـا بنـي حـارث، قضـاء رام اللّه، اعتقـل بتاريـخ: 18/8/2002، وحكـم عليـه بالسـجن مـدة سـتة وثلاثـين مؤبـداً.

92	محمد قصقص	ولـد بتاريـخ: 3/10/1974، مـن قريـة عـين سـينيا (رام الله)، اعتقـل بتاريـخ: 11/1/2003،وحكـم عليـه بالسـجن مـدة خمـس وعشـرين سـنة.
93	محمد مقادمة	ولـد بتاريـخ 4/11/1979، مـن مخيـم البريـج بمحافظـة الوسـطى بقطـاع غـزة، اعتقـل بتاريخ 12/09/2001م، وحكـم بالسـجن واحـدا وعشـرين عامـا وعشـرة شـهور.
94	محمد يدك	ولـد عـام 1978، مـن سـكان نابلـس، اعتقـل بتاريـخ 8/4/2002، وحكـم بالسـجن المؤبـد.
95	محمود شريتح	ولـد بتاريخ: 13/3/1977، في الحـارة الشـرقية مـن بلـدة يطـا جنـوب محافظـة الخليـل، اعتقـل بتاريـخ: 17/10/2002، حكـم بالسـجن المؤبـد سـبع مـرات.
96	محمود عارضة	ولـد بتاريـخ: 8/11/1975، مـن بلـدة عرابـة قضـاء جنـين، اعتقـل بتاريـخ: 21/9/1996، حكـم بالسـجن المؤبـد بالإضافـة إلـى خمسـة عشـر عامـاً.
97	محمود عيسى	ولـد بتاريـخ: 21/5/1968، مـن بلـدة عناتـا قضـاء القـدس، اعتقـل بتاريـخ: 3/6/1993، وحكـم بالسـجن المؤبـد ثـلاث مـرات، بالإضافـة إلـى تسـع وأربعـين سـنة.
98	مراد أبو الرب	ولـد بتاريـخ: 5/6/1980، مـن قريـة جلبـون قضـاء مدينـة جنـين، اعتقل بتاريـخ: 31/8/2008، وحكـم عليـه بالسـجن المؤبـد أربـع مـرات.
99	مرح بكير	ولـدت بتاريـخ: 12/1/1999، مـن بيـت حنينـا- القـدس، اعتقلـت بتاريـخ: 12/10/2015، وحكـم عليهـا بالسـجن ثمانـي سـنوات ونصـف.
100	مروان أبو فارة	ولـد عـام 1992، مـن قريـة صوريـف (الخليـل)، اعتقـل بتاريـخ: 18/2022، ومحكـوم إداريـا.
101	مروان برغوثي	ولـد بتاريـخ: 6/6/1958، مـن قريـة كوبـر قضـاء رام الله، اعتقـل بتاريـخ: 15/4/2002، وحكـم عليـه بالسـجن خمسـة مؤبـدات.
102	مريم عرفات	ولـدت عـام 1993، مـن بلـدة سـعير قضـاء الخليـل، اعتقلـت بتاريـخ: 20/8/2022، موقوفـة رهـن التحقيـق.
103	مسلمة ثابت	ولـد عـام 1968، مـن بلـدة رامـين قضـاء طولكـرم، اعتقـل بتاريـخ: 6/4/2003، حكـم عليـه بالسّـجن لمـدة 25 عامـا.
104	معاذ اشتية	ولـد عـام 1990، مـن قريـة تـل (نابلـس)، اعتقـل بتاريـخ: 4/10/2022، ومحكـوم إدريـاً.
105	معاذ بلال	ولـد عـام 1971، مـن مدينـة نابلـس، اعتقـل بتاريـخ: 11/1/1998، وحكـم بالسـجن مـدة سـتة وعشـرين مؤبـداً، وسـبعة وعشـرين عامـاً.
106	معاذ الغزاوي	لا معلومات عنه، سوى أنه كتاب في مجلة حرّيتنا.

107	معتز الهيموني	ولد بتاريخ: 18/4/1981، من الخليل، واعتقل في بتاريخ: 25/4/2002، وحكم عليه بالسجن ستة مؤبدات وعشرين سنة إضافية.
108	ملك سلمان	ولدت عام 2000، من قرية بيت صفافا، اعتقلت بتاريخ: 9/2/2016، وحكم عليها بعشر سنوات.
109	معمر شحروري	ولد عام 1979، من مدينة طولكرم، اعتقل بتاريخ: 9/5/2002، وحكم بتسعة وعشرين مؤبدا، مضافاً إليها عشرون سنة أخرى.
110	مناضل طقز	ولد بتاريخ: 28/3/1992، من بلدة عتيل قضاء طولكرم، اعتقل بتاريخ: 26/10/2014، وحكم بالسجن ثلاث عشرة سنة.
111	منذر خلف	في الكتاب سيرة عنه.
112	منير مرعي	ولد عام 1980 في مدينة الزرقاء في الأردن، واعتقل بتاريخ: 2/4/2003، وحكم عليه بالسجن خمسة مؤبدات.
113	مهند شريم	ولد بتاريخ: 12/11/1975، من مدينة طولكرم، اعتقل بتاريخ: 8/9/2003، وحكم بالسجن تسعة وعشرين مؤبدا وعشرين سنة إضافية.
114	موسى الخولي	ولد عام 1984، من مخيم طولكرم، واعتقل بتاريخ: 18/1/2004، وحكم عليه بالسجن 23 عاماً.
115	ميسون جبالي	ولدت عام 1995، من بيت لحم، معتقلة منذ حزيران 2015، وحكم عليها بالسجن خمس عشرة سنة.
116	نادر صدقة	ولد عام 1977 من مدينة نابلس، اعتقل بتاريخ 17/8/2004، وحكم عليه بالسجن 6 مؤبدات.
117	ناصر شاويش	في الكتاب سيرة عنه.
118	ناصر عويس	ولد في مخيم بلاطة في 1/11/1970، واعتقل بتاريخ: 13/4/2002، وحكم عليه بالسجن المؤبد أربع عشرة مرة.
119	نضال زلوم	وُلد في مدينة رام الله عام 1964. اعتقل بتاريخ: 18/6/2014، وحَكم عليه بالسجن مدة مؤبدين وثلاثين سنة إضافية.
120	نور الأسير	اسم مستعار، يكتب في مجلة حريتنا- ورد له مادة في العدد التاسع من المجلة.
121	نورهان عواد	ولدت عام 1998، من مخيم قلنديا، اعتقلت بتاريخ: 23/11/2015، وحكم عليها بالسجن عشر سنوات وغرامة مالية مقدارها ثلاثون ألف شيقل.
122	هيثم جابر	في الكتاب سيرة عنه.
123	هيثم العنتري	ولد عام 1980، من بلدة دير شرف قضاء نابلس، اعتقل بتاريخ: 25/11/2002، وحكم عليه بالسجن المؤبد.
124	وائل أبو شخيدم	لا يتوفر عنه معلومات

125	وائل الجاغوب	وولد بتاريخ: 23/5/1976 من نابلس، اعتقل عام 2001، وحكم عليه بالسّجن مدى الحياة.
126	وجدي جودة	ولد عام 1977، من حي عراق التايه شرقي نابلس، اعتقل بتاريخ 4/8/2004، وحكم بالسجن لمدة 25 عاماً.
127	وسيم مليطات	ولد عام 1985، من بلدة بيت فوريك، قضاء نابلس، معتقل منذ عام 2002، وحكم عليه بالسجن المؤبد.
128	ولاء منجي	لا يتوفر عنها أية معلومات
129	وليد دقة	ولد بتاريخ: 18/7/1962 من باقة الغربيّة في فلسطين المحتلّة 1948. معتقل منذ عام 1986، حكم عليه بالإعدام في البداية، ثم خفف الحكم بالسجن 39 عاما.
130	ياسر أبو بكر	ولد عام 1968، من قرية رمانة، قضاء جنين، اعتقل بتاريخ: 10/4/2002. وحكم عليه بالسجن المؤبد ثلاث مرات، إضافة إلى أربعين سنة إضافية.
131	ياسر الشرباتي	ولد عام 1975، من مدينة الخليل، اعتقل بتاريخ: 16/2/2003، وحكم بالسجن المؤبد ثلاث مرات.
132	ياسين البكري	ولد عام 1981، من عكا، اعتقل بتاريخ: 15/8/2002، وحكم بالسجن المؤبد تسع مرات بالإضافة إلى ثلاثين سنة.
133	يحيى حج حمد	من بلدة روجيب، قضاء نابلس، اعتقل بتاريخ: 3/10/2015، وحكم عليه بالسجن المؤبد مرتين وثلاثين سنة إضافية.

Where are the imprisoned Palestinian writers*[1]?

Translated by Mohammed khumos/ Occupied Palestine (Nablus)

On November 15 of each year, PEN launches its solidarity campaign under the title "The Imprisoned Writer's Day", in which it sheds light on the cases of writers imprisoned or facing trial, and through which it calls for urgent international action to release and protect them. These cases symbolize --that We highlight-- the patterns of threats and attacks that writers and journalists around the world are often subjected to as a result of their peaceful practices of freedom expression."

The previous paragraph topped the international campaign launched by the "PEN International" to advocate for imprisoned writers around the world for the current year 2021 under the title "Prisoner Writer's Day 2021". It targeted in its campagine the writers "Selahattin Demirtas" on Tuesday 15 November - Tuesday 16 November, Rahil Daut - Wednesday 17 November, a collective case of 12 Eritrean writers - Thursday 18 November, and Mohamed Al-Roken - Friday 19 November. Al-Roken imprisoned in the United Arab Emirates is the only Arab writer in this campaign.

There are many writers imprisoned by Arab regimes in all parts of the Arab world, and there is no Arab prison without a writer, poet or journalist. The Arab countries have turned into a place where the writer is humiliated, and becomes either fired, exiled, or imprisoned or becomes a domesticated sheep devoured by the regime, then turned into nothing but a daily hypocrisy trumpet who broadcasts its nonsense in newspapers and magazines in glorifying the Arab dictator. In other cases he turns to prevarication or to silence. In all of which are cases that the Arab regime bears its burden in the life of the Arab writer.

1. Note: I am publishing this article to coincide with the International Day of Solidarity with the Palestinian People on November 29, 2021.

Perhaps what the Arab writer is exposed to especially in the Arab "slaughterhouses of death" is enough for the International PEN Organization to start a special campaign to introduce these "forgotten" people in Arab prisons, although these campaigns, if they happen, will not be acceptable to the Arab regimes, and will be completely ignored. The Arab dictatorial regime, in all its actions, is protected from the Western regime and so it is safe and reassuring, and this regime will consider these campaigns useless, passing matter and deserve nothing. Nevertheless, none of the governmental organization dares to stand with them and adopt their causes. Many writers died in Egyptian prisons under the pretext of combating terrorism and the Brotherhood's tide, and some of them are still living in very difficult conditions inside the prisons of the Egyptian regime. Silence is applied to their status and names, no one talks about them.

This is what concerns the Arab countries and Arab writers, but in occupied Palestine, the matter is more horrific, and the writer is not only imprisoned in the prisons of the Palestinian Authority, which brutally suppresses freedom of expression with the help of a number of opportunistic utilitarian intellectuals who turned into hypocritical "ewes", defending the authority and its actions against the writers. At the same time, none of the Palestinian non-governmental organization defending these writers or adopting their causes, neither the Palestinian Writers Union nor the local human rights institutions, or there are human rights campaigns led by independent intellectuals, not to mention the silence of the Ministry of Culture and the official media, because of being part of the Palestinian Authority. This situation is more or less the same as what is happening in Gaza, where the authority in the besieged strip sticks its sharp nails into the bodies and souls of writers, and they are attacked with beatings as well, just as it happens in the West Bank.

The cruelest thing in occupied Palestine is what is happening inside the prisons of the Zionist occupation. The occupation has taken a clear strategy against all writers who engage in the culture of resistance and call for liberation and the right of self-determination, and to fight against the occupation and get rid of it and its evil. As a result I can say that, all Palestinian writers have gone through the experience of detention in the prisons of the Zionist occupation since

1948 until today, and other additional measures were applied to Palestinian writers such as house arrest, dismissal from work, travel ban, deportation, confiscation of books, and sabotage of public and private libraries, inspecting school books, punishing anyone who has a book that the occupation has placed on its blacklist, restricting the entry of books into the occupied territories of Palestine, and preventing the holding of cultural seminars that do not fit what the authorities or the military ruler thinking.

Perhaps the International PEN does not know that there are currently dozens of writers in the prisons of the Zionist occupation on whom the occupation authorities have imposed high sentences. Hundreds of years will be spent by writers or even after death, if they happen to die in prison. The "corpse" must spend the full term, The sentence does not end with death. Does PEN know that?

Does the International PEN know that these imprisoned writers, along with thousands of Palestinian prisoners, are deprived of basic human rights inside prisons, as they are subjected to unjustified beatings, and to confiscation of their personal belongings, books, notebooks, pens and drafts of their writings, and are subjected to isolation and imprisonment without trial, under the title of the *secret file*, some of them are in open prison sentences time under the heading of "administrative detention"?

Does PEN know that thousands of books written by writers in prisons, have been destroyed, confiscated and prevented from mentioning its writers, under the pretext that they are serious "terrorist acts" that incite "violence"? Does the International PEN know that there are female writers in Zionist prisons who were arrested because of their "inciting" writings, as the occupation authorities claim, as it happened in Jerusalem, and it happened in other areas within the occupied areas under the authorities since 1948?

Does the International PEN know that the occupation authorities impose imprisonment on every writer who refuses military service in the ranks of the so-called army, and is punished with a prison term of up to nine months. This happened with the poet Samih al-Qasim, with the poet Marzouk al-Halabi, the writer Saeed Nafaa, Osama Melhem and many others? And it will happen to every

writer who refuses this kind of "compulsory conscription."

Does the International PEN know that the occupation authorities are demolishing entire villages and expelling their owners from them? Including the writer Sheikha Heliwa, who used to live in the Haifa area, and her village, Tail al-Araj, located on the outskirts of Haifa, was demolished. And now she lives outside her hometown. And her village is unrecognized. Does the International PEN know what the occupation authorities mean by this term "unrecognized" villages? It means that they are villages that must be removed as they are illegal, and the authorities do not provide them with water and electricity, and do not recognize the existence of an administrative authority for them (a municipality or a village council).

Does the International PEN know that every day a male or female writer is born inside the prisons of the occupation to tell the story of his arrest and imprisonment. After being abandoned by international and local laws, and waiting for a miracle to be liberated from the life of the "isthmus" in which he lives? These writers have no hope except what they make on paper, they work with the theory of "illusion of freedom", they believe or make themselves believe that when they write they are practicing the act of freedom or trying to escape from prison and escape outside the iron room. They are trained to live with emptiness no more than. In fact, freedom is their neglected demand. Who can support these writers? Who will raise their issues to be supported by their fellow writers around the world?

Finally, does the International PEN know that there are Palestinian writers imprisoned in the prisons of the Arab regimes in Saudi Arabia and the United Arab Emirates as well, not just the writer Muhammad Al-Roken? In the belly of the whale there in Saudi Arabia is the poet Ashraf Fayyad and in the Emirates the poet Ramez Mansour whom nobody know about his destiny, he is missing, or he may have died, so there is no information about his health condition and his threatened life.

After all, the International PEN Organization must know that the Palestinian writer's suffering is complex, from the Palestinian Authority, as an Arab regime, and from the occupation authorities

and Arab regimes, and it must pay attention to these writers and their suffering in these prisons, which extend to more than twenty prisons at least.

الفهرس

الإهـداء 7

تلخيص مفيد 9

مقدّمة الكاتبة صفاء أبو خضرة 10

الفصل الأول: الأسرى بين حرفين 15

التجربة الاعتقالية الفلسطينية في بعدها التوثيقي 16

إضاءات موغلة في الوضوح على الداخل السريّ 28

لماذا يصرّ الأعداء على أن يكون لديهم أسرى؟ 37

الأسرى الفلسطينيون، أين موقعهم؟ 41

استراتيجيات الخروج من النفق الكبير 44

المسكوت عنه في الكتابة عن الأسرى 51

اختلاف المعايير النقدية تبعاً لاختلاف التجربة الإنسانية 54

شيء عن أصدقائي الأسرى من الكتاب 58

الفصل الثاني: في العلاقة مع الأسرى 62

في رحاب مدينة الخليل 63

ليس بعد الأسرِ إلا فجر مجدٍ يتسامى 71

قصيدة تلفيت منزلنا 75

من واقع الأسرى الإنساني: نصوص 76

الفصل الثالث: إطلالات على نماذج من شعر الأسرى 84

إطلالة على التجربة الشعرية للأسير أحمد التلفيتي 85

قراءة في ديوان «أنانهم» للشاعر الأسير أحمد عارضة 91

الشعريّة في ديوان «خلل طفيف في السفرجل» 99

صورة الكاتب الضمنية في كتاب «العزيمة تربّي الأمل» 105

ملامح أسلوبية وموضوعية في ديوان «طقوس المرة الأولى» 110

«حروف من ذهب» في الميزان الوجداني والإبداعي 114

نعم من حقك أن تحلم يا أبا حمدي 118

دراسة في ديوان المتوكل طه «فضاء الأغنيات» 120
هيثم جابر ورسالتاه في الحبّ والحرب 125
هيثم جابر لم يبرح أماكنه في الحبّ والحرب 133
الفصل الرابع: إطلالات على نماذج من نشر الأسرى 137
مع كتاب أحمد الشويكي على «بوابة مطحنة الأعمار» 138
الأسئلة التي ما زالت بحاجة إلى إجابات 145
عموميات الالتزام المنهجي في كتاب «دراسات من الأسر» للأسير أمجد عواد 151
المعمار الفنّيّ في رواية «أنفاس امرأة مخذولة» 154
شعرية الحذف في سردية ثائر حنيني «تحيا حين تفنى» 165
السرد المقنّع بالرسالة لبناء سيرة ذاتيّة 172
حمزة يونس بين بطولتين 178
السّرّديّة ومحاولة تعريف: «ليس حلما» نموذجاً 183
المفارقات المتقابلة في كتاب رنين القيد 188
قراءات في رواية مريم/ مريام 193
الجهة السابعة ودلالات إغلاق البنية السردية 211
الوجه الآخر لكميل أبو حنيش 220
تقديم كتاب رائد حواري «إضاءات على إبداعات كميل أبو حنيش» 223
ورش الكتابة الإبداعية للأسيرات 225
الفصل الخامس: الحضور الجماهيري لأدب الأسرى 242
إصدارات وكتب 243
تقارير صحفية حول نشاطات الأسرى وإبداعاتهم 261
تقارير ندوة أسرى يكتبون 280
الفصل السادس: مبادرات لدعم الأسرى الكتّاب وإبداعاتهم 309
مركز أبو جهاد لشؤون الحركة الأسيرة شاهد إبداع وقضية 310
جهود حسن عبادي في نشر أدب الأسرى وتعميمه 314
مجلة الليبي «أنيستنا» في كلّ سجون الاحتلال 318
أين الكتّاب الفلسطينيّون المسجونون؟ 320
قائمة بالأسرى الكتاب القابعين في سجون الاحتلال 324
رسالة إلى منظمة القلم الدولية (PEN) Where are the imprisoned Palestinian writers? 335
الفهرس 340
جانب من سيرة ذاتية للمؤلف 342

جانب من سيرة ذاتية

فراس عمر حج محمد، كاتب فلسطيني مقيم في قرية تلفيت؛ إحدى قرى محافظة نابلس، ولد في (30/7/1973م)، حاصل على درجة الماجستير في الأدب الفلسطيني الحديث. نشر العديد من المقالات والقصائد والنصوص في مجالات النشر المختلفة؛ المواقع الإلكترونية، والصحف، والمجلات العربية، في فلسطين والوطن العربي، والمطبوعات العربية حول العالم، وفي كتب الاختيارات (الأنثولوجيات) الخاصة بالشعر الفلسطيني؛ ديوان «الفرقان- قصائد عن حرب غزة 2009»، وديوان «الشهيد- قصائد عن مجزرة كفر قاسم».

عضو مؤسس لمنتدى المنارة للثقافة والإبداع في مدينة نابلس، وعضو الهيئة الإدارية لجمعية الزيزفونة لتنمية ثقافة الطفل لعام واحد، ومحرر في مجلتيها (الزيزفونة الصغيرة، والزيزفونة الكبيرة)، وعضو اتحاد الكتاب والأدباء الفلسطينيين. ومسؤول مكتب فلسطين ضمن هيئة تحرير مجلة الليبي التي يصدرها مجلس النواب الليبي. عمل معلما لمدة تزيد عن (12) عاما، ومشرفا تربويا منذ عام (2008) وحتى الآن.

أصدر (29) كتاباً، وله أيضاً مجموعة من الكتب النقدية والشعرية والسردية المخطوطة والمعدة للنشر، وحرّر (12) كتاباً.

كتب عن هذه الكتب والنصوص الأدبية شعرية وسردية العديد من الكتّاب والنقاد العرب والفلسطينيين، وأجريت مع الكاتب عدة حوارات صحفية منشورة ولقاءات تلفزيونية وإذاعية. وشارك في العديد من الأنشطة الثقافية المحلية في فلسطين (مؤتمرات، وندوات، وأمسيات ومهرجانات شعرية، وحفلات توقيع الكتب ومناقشتها). وتم تكريم الكاتب مرات عديدة من مؤسسات فلسطينية وعربية.

اشترك في العديد من الأنشطة التربوية مع وزارة التربية والتعليم الفلسطينية في مجال التدريب وإعداد المواد التدريبية، وكان من ضمن فريق إعداد وتحرير الإصدار الثاني من مجلة القانون الدولي الإنساني التي كانت تصدرها وزارة

التربية والتعليم الفلسطينية من أجل تعريف طلاب الصف الحادي عشر بالقانون الدولي الإنساني، وعضو الفريق الوطني للتعليم الإلكتروني في فلسطين.

أشرف على مجموعة من كتب الأسرى قبل الطباعة، وراجع مجموعة من الكتب لمجموعة من الكتّاب الفلسطينيين.

الكتب المطبوعة:

- كتاب «رسائل إلى شهرزاد»، دار غراب للنّشر والتّوزيع، مصر، 2013
- كتاب «من طقوس القهوة المُرّة»، دار غُراب للنّشر والتّوزيع، مصر، 2013
- مجموعة «أناشيد وقصائد» (للفتيان والفتيات)، جمعيّة الزّيزفونة، فلسطين، 2014
- ديوان «أميرة الوجد»، جمعيّة الزّيزفونة، فلسطين، 2014
- دراسة «قراءة في كتاب قلب العقرب للشّاعر محمّد حلمي الرّيشة، ذلك المنتبه المختلف»، فلسطين، 2014.
- كتاب «دوائر العطش»، دار غراب للنّشر والتّوزيع. مصر، 2014
- ديوان «مزاج غزّة العاصف»، جمعيّة الزّيزفونة، فلسطين، 2015
- كتاب «ملامح من السّرد المعاصر- قراءات في القصّة القصيرة جدّاً- دار موزييك للتّرجمات والنّشر، الأردن، 2015
- ديوان «وأنتِ وحدكِ أغنية»، دار ليبرتي بوكس، القدس، بالتّعاون مع بيت الشّعر في فلسطين، 2015.
- كتاب «يوميّات كاتب يدعى X» (قصص وسرد -1)، دار الرقميّة، فلسطين، 2016.
- كتاب «كأنّها نصف الحقيقة» (قصص وسرد -2)، دار الرقميّة، فلسطين، 2016.
- كتاب «في ذكرى محمود درويش»، جمعيّة الزّيزفونة، فلسطين، 2016.
- ديوان «الحبّ أنْ»، دار الأمل، الأردن، 2017.
- كتاب «شهرزاد ما زالت تروي- مقالات في المرأة والإبداع النسائي»، دار الرقميّة، فلسطين، 2017.
- كتاب «ملامح من السرد المعاصر- قراءات في الرواية»، مكتبة كل شيء، حيفا، 2017.

- كتاب «ملامح من السرد المعاصر- قراءات في متنوع السرد»، مؤسسة أنصار الضاد، أم الفحم، 2019.
- ديوان «ما يشبه الرثاء»، دار طباق للنشر والتوزيع، رام الله، 2019.
- كتاب «بلاغة الصنعة الشعرية»، دار روافد للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.
- كتاب «نسوة في المدينة»، دار الرعاة وجسور الثقافية، رام وعمّان، 2020.
- كتاب «الإصحاح الأول لحرف الفاء- أسعدتِ صباحا يا سيّدتي»، دار الفاروق للنشر والتوزيع، نابلس، 2021.
- كتاب «لا شيء يعدل أن تكون حرا- على هامش كتاب نسوة في المدينة»، دار الفاروق للنشر والتوزيع، نابلس، 2021.
- كتاب «استعادة غسان كنفاني»، دار الرعاة وجسور الثقافية، رام الله وعمّان، 2021.
- كتاب «من قتل مدرّس التاريخ»، دار الفاروق للنشر والتوزيع، نابلس، 2021.
- ديوان «وشيء من سرد قليل»، وزارة الثقافة الفلسطينية، رام الله، 2021.
- ديوان «على حافّة الشعر: ثمّة عشقٌ وثمّة موت»، دار بدوي للنشر والتوزيع، ألمانيا، 2022.
- كتاب «في الوجه والمواجهة»، دار الرعاة وجسور الثقافية، رام الله وعمّان، 2023.
- كتاب «متلازمة ديسمبر»، دار بدوي للنشر والتوزيع، ألمانيا، 2023.
- كتاب «في رحاب اللغة العربية»، دار بدوي للنشر والتوزيع، ألمانيا، 2023
- كتاب «سرّ الجملة الاسمية»، دار الرقمية، القدس، 2023
- ديوان «في أعالي المعركة»، دار الفاروق للثقافة والنشر، نابلس، 2023.

تحرير الكتب:

- كتاب مؤتمر الزيزفونة الأوّل لأدب الأطفال، (نحو أدب أطفال فلسطيني وطني)، مع أ. شريف سمحان، جمعية الزيزفونة، رام الله، 2016.
- ديوان «اصعد إلى عليائك فيّ»، فاطمة نزّال، مكتبة كل شيء، حيفا، 2017.
- كتاب «في اقتفاء أثر الفراشة»، د. نبيل طنوس، طبعة ثانية لم تصدر.
- كتاب «إيفا شتال حمد- أممية لم تغادر التل»، بالاشتراك مع أ. حسن عبادي، حيفا، 2020.
- كتاب «لا تعجب زعترنا أخضر- قصائد»، بالاشتراك مع أ. حسن عبادي، حيفا، 2021.
- كتاب «الكتابة على ضوء شمعة»، بالاشتراك مع أ. حسن عبادي، دار الرعاة ودار جسور ثقافية، رام الله وعمّان، 2022.
- كتاب «وقفات مع الشعر الفلسطيني»، كميل أبو حنيش، وزارة الثقافة الفلسطينية، رام الله، 2021.
- كتاب «تحيا حين تفنى»، ثائر حنيني، دار الرعاة ودار جسور ثقافية، رام الله وعمّان، 2021.
- ديوان «أنانهم»، أحمد العارضة، دار طباق، رام الله، 2021.
- ديوان «العزيمة تربّي الأمل»، أماني حشيم، حيفا، 2022.
- ديوان «أنا سيّد المعنى»، ناصر الشاويش، حيفا، 2022.
- رواية «المعبد الغريب»، رائد الشافعي، دار الرعاة ودار جسور ثقافية، رام الله وعمّان، 2023.
- ديوان «تمرّد»، عبد العظيم عبد الحق، مخطوط.

إعداد (ناشرون فلسطينيون) بمناسبة يوم الأسير الفلسطيني

ناشرون فلسطينيون

ملحق حول كتاب تصدع الجدران – عن دور الأدب في مقاومة العتمة

مقالات، وتقارير صحفية وحوارات

مجموعة من الكتّاب

2026

بمناسبة يوم الأسير الفلسطيني 17 نيسان

فلسفة الكتابة في المعتقل وقراءة في سوسيولوجيا أدب الحرية

ناشرون فلسطينيون (رام الله- فلسطين)

يعتبر كتاب "**تصدع الجدران- عن دور الأدب في مقاومة العتمة**" للناقد والشاعر الفلسطيني فراس حج محمد، وثيقة نقدية وسياسية وفلسفية بالغة الأهمية في فهم ماهية الكتابة خلف القضبان، صدر الكتاب عام 2023 عن دار الرعاة للدراسات والنشر في رام الله وجسور ثقافية للنشر والتوزيع (رام الله، وعمّان)

إن هذا العمل البحثي التوثيقي والنقدي التحليلي لا يكتفي برصد النتاجات الأدبية للأسرى، بل يغوص في أعماق الكينونة الفلسطينية التي تجد في الحرف ملاذاً أخيراً لمواجهة محاولات المحو والإلغاء التي يمارسها الاحتلال، مقدماً دراسة شافية وافية حول أهمية الفعل الكتابي كأداة اشتباك يومي ومصيري، من خلال هذا الكتاب، يتبين أن المؤلف ينظر إلى كتابات الأسرى بوصفها شرخاً في جدار العتمة، ومحاولة واعية لاسترداد الزمان والمكان المسلوبين، حيث تتحول الورقة والقلم إلى معادلات موضوعية للحرية والحياة.

يطرح فراس حج محمد في كتابه تساؤلات جوهرية حول الجدوى والمغزى من الكتابة في ظل ظروف القهر المطلق، فالكتابة في السجن ليست ترفاً فكرياً أو هواية لتزجية الوقت، بل هي فعل وجودي بامتياز؛ فعندما يكتب الأسير، فإنه يعلن عن حضوره الإنساني في وجه نظام يسعى لتحويله إلى رقم مجرد من المشاعر والتاريخ، الكتابة هي الوسيلة التي يثبت من خلالها الأسير أنه موجود وحي ومكتمل، وأنه لم ينكسر أمام آلة القمع التي تحاول سلب إرادته.

تؤكد المقدمة التي وضعتها الكاتبة **صفاء أبو خضرة** للكتاب أن هذه الثورة الأدبية تمثل جيلاً بأكمله غير قابل للهزيمة، حيث يمسك الأسير بالقلم ليقول للعالم: أنا هنا، أنا أتألم، أنا أشتاق، وأنا أقاوم، إن الاعتراف بالمخاوف والأوجاع عبر الكتابة هو مواجهة صارمة وحادّة تخرج الكوابيس من مهجع الأمل، وتجعل من الكلمة جسراً يصل الروح بالجسد، والداخل المحاصر بالخارج الفسيح.

تتجاوز أهمية الكتابة في حياة الأسير حدود الإبداع الفني؛ لتصل إلى مرتبة الضرورة البيولوجية والنفسية، ويوضح المؤلف أن الكتابة تمثل للأسير استعادة الكينونة بالخروج من ضيق الزنزانة إلى رحابة المتخيل، حيث يتحول الأسير عبر كلماته إلى عصفور، بحر، غيمة، أو وردة على خد حبيبة، وبالكتابة يتم التواصل مع العالم، لكسر العزلة التي يفرضها السجان، فالكتابة تجعل الأسير يشعر بأن هناك من يقرأ حروفه ويحلل كلماته في الخارج، مما يمنحه إحساساً بالحياة المستمرة.

تمثل الكتابة أداة للصراع وفعل مقاومة بالدرجة الأولى، وهي بندقية الحبر التي تواصل المعركة التي بدأها الأسير قبل اعتقاله، وتجاوز الزمن للتغلب على مطحنة الأعمار والوقت الراكد في السجون، خاصة لذوي الأحكام العالية (المؤبدات) الذين يجدون في الكتابة وسيلة للقفز فوق السنوات الطويلة.

يشدد المؤلف على أن التوثيق بأنواعه علامة من علامات الشعب الحي الذي يستشعر عظمة فعله الحضاري، وفي سياق الحركة الأسيرة، يرى حج محمد أن التوثيق مر بمراحل عدة، عاكساً التحولات التاريخية والسياسية للقضية الفلسطينية منذ عام 1948، وإن السجون في فلسطين المحتلة هي في الحقيقة أربعة أنواع ورثها الاحتلال عن الانتداب البريطاني والعهد العثماني، وطور فيها وسائل تعذيب نفسية وفكرية ممنهجة.

نجح الأسرى عبر مئة عام من المواجهة في بناء تجربة اعتقالية غنية تعتمد على تراكم الخبرات، ويقسم الكتاب مظاهر التوثيق إلى مستويات عدة:

التوثيق السياسي: حيث أصبحت مجتمعات السجن صورة مصغرة عن المجتمع الفلسطيني بتنوعاته الأيديولوجية، وكان لكل فصيل برنامجه التثقيفي الصارم، وتوثق التحليلات السياسية في كراريس خاصة توزع على الأسرى، مما جعل المعتقل ركناً أساسياً في أي قرار وطني.

التوثيق الإداري: لضبط العمل التنظيمي وحل الخلافات وإجراء الانتخابات داخل السجن، وصدرت تعليمات إدارية ملزمة وثقت يوميات الحركة الأسيرة وتفاصيل تعامل المعتقلين مع بعضهم البعض.

الجلسات التثقيفية: شملت الجوانب الأدبية والدينية والتعليمية، وكانت توثق في محاضر خاصة تعكس التوجهات العقدية والفكرية لكل مرحلة.

إن انتقال جزء من هذه الوثائق إلى المكتبات الفلسطينية، مثل مكتبة الأسير في مكتبة بلدية نابلس ومركز أبو جهاد لشؤون الحركة الأسيرة بجامعة القدس، يمثل حفظاً لذاكرة نضالية مكتوبة بخط اليد وبمداد المعاناة.

يصنف فراس حج محمد كتابات الأسرى ضمن مفهوم كتابة المضطهدين، هؤلاء هم الكتاب الذين ينتجون أدبهم وهم خاضعون لسلطة قمعية تمارس ضدهم إساءة معاملة نظامية وجائرة. في السجن، لا يواجه الكاتب الاضطهاد كفكرة مجردة، بل كواقع مادي ملموس يتمثل في المداهمات، ومصادرة المخطوطات، والعزل الانفرادي، والحرمان من أدوات الكتابة البسيطة.

يرى المؤلف أن مسألة الاعتقال تومئ حتماً إلى التحكم بالجسد، ففي الفكر الصهيوني، يرتبط مفهوم الجسد الفلسطيني بالتدمير الكلي عبر الإبعاد، والاعتقال، أو

التحييد السلبي ليصبح جسداً غير فاعل، وبالتالي، فإن الكتابة تأتي كفعل استرداد لهذا الجسد؛ فالأسير الذي يكتب يرفض أن يكون أداة تخضع للأوامر الطغيانية، بل يمارس إنتاجاً فكرياً يخرجه من حالة الإقصاء من الإنسانية التي يسعى الاحتلال لفرضها.

يؤكد حج محمد أن الكتابة في السجن تطيح بكل شروط الإبداع التقليدية؛ فالأسير لا يحتاج إلى عزلة اختيارية أو طقوس إلهام، بل يكتب في قلب الضوضاء، ودون ضوء المصابيح المكتبية، وفي ظل انعدام الخصوصية، فالإلهام في السجن ليس وحياً بل اقتناص للحظة ممكنة قبل أن تدهم وحدات القمع الغرفة وتصادر الأوراق.

يبرز الكتاب تنوعاً هائلاً في النتاج الأدبي للأسرى، حيث لم يتركوا جنساً أدبياً إلا وطرقوه، محققين توازناً إبداعياً بين الكتابة الذاتية الوجدانية وبين قضايا الأرض والسياسة، وتمثل الرواية في السجن المشروع الكبير الذي يرمم فيه الأسير ذاكرته وهويته، ويحلل حج محمد نماذج سردية بارزة:

كميل أبو حنيش: في أعماله مثل مريم/ مريام والجهة السابعة، يغوص في جدلية الزمان والمكان، معتبراً السجن حالة برزخية بين الحياة والموت، ومستخدماً الكتابة وسيلة لفهم هذا العالم الوسطي المظلم.

باسم خندقجي: في مسك الكفاية ومحنة المهبولين، يستحضر التاريخ الفلسطيني والتاريخ العربي؛ ليبني سيرة سيدة الظلال الحرة، متجاوزاً لحظة السجن الراهنة إلى آفاق تاريخية أرحب.

عمار الزبن: في روايته الطريق إلى شارع يافا، يزاوج بين العمل النضالي الميداني والعمل الروائي، مفنداً رواية المحتل ومؤنسناً حياة المطارد الفلسطيني.

منذر مفلح: في سردية الخرزة، ينطلق من تفصيل مادي صغير (خرزة مسبحة) ليبني عليها عالماً فانتازياً يربط الماضي بالحاضر، مكسراً رتابة الزمن الاعتقالي.

أما الشعر فيحتل مساحة واسعة في الكتاب، حيث يحلل حج محمد تجارب شعراء أبدعوا وهم يرسفون في أغلالهم، ويتميز الشعر في السجن بكونه نبتاً أصيلاً نبت في أرض المعتقل وتغذى من عتمته، ومن هؤلاء الشعراء الذين توقف الكتاب عند تجاربهم:

أحمد عارضة: في ديوان أنانهم، يبرز دلالة العنوان المنحوت من الضمائر (أنا، نحن، هم)، عاكساً تداخل الذاتي بالجمعي والصراع المرير مع المحتل.

ناصر الشاويش: يستخدم الشعر لاستعادة قريته المهجرة قنير، معتبراً إخراج القصيدة من السجن انتصاراً للكلمة البندقية.

المتوكل طه: يبرز توظيف السخرية في فضاء الأغنيات كأداة للتعالي الروحي على السجان وأدواته القمعية.

ومن أجرأ الأطروحات التي قدمها فراس حج محمد في كتابه هي تسليطه الضوء على المسكوت عنه في كتابات الأسرى، ويرى المؤلف أن هناك تابوهات أشد حساسية من الثلاثي المعروف (الدين والجنس والسياسة)، وهي التابوهات المتعلقة بضعف الأسير وهشاشته الإنسانية.

يقول حج محمد إن الأسير غالباً ما يرتدي جلباب البطولة الفضفاض، فيتجنب الحديث عن لحظات انهزاميته أمام نفسه، أو شعوره بالملل القاتل، أو تساؤلاته الوجودية والروحية العميقة حول جدوى ما يحدث له، فالأسرى يميلون إلى الظهور بمظهر الصمود الأسطوري دائماً، بينما الكتابة الحقيقية يجب أن تغوص في الأوجاع

الإنسانية بكل صدق؛ الشوق للحبيبة، والندم على تفاصيل صغيرة ضاعت، والخوف من النسيان، والضعف الجسدي أمام المرض.

إن أنسنة قضية الأسرى عبر الأدب هي أقوى وسيلة لمخاطبة الضمير العالمي، وتحويل القضية من ملف أمني وسياسي إلى قضية حقوقية وإنسانية كبرى، فالقارئ يريد أن يلمس الإنسان الذي يتألم ويشتاق ويخاف، ومع ذلك يختار الصمود، وهذا ما يجعل هذا الأدب عالمياً في جوهره.

يخصص فراس حج محمد مساحة مهمة للحديث عن كتابات الأسيرات، معتبراً أنها تضيء عوالمَ مخفية لا يستطيع الكاتب الرجل الوصول إليها، خاصة فيما يتعلق بتفاصيل التعذيب الموجه ضد الأنوثة والتهديد بالاعتداء الجنسي، ومن الأسيرات التي تناولهن الكتاب:

أماني حشيم: في العزيمة تربي الأمل، تظهر كامرأة قوية ومثقفة ترد على يأس محمود درويش لتقول إن العزيمة هي التي تغذي الأمل وتجعله ممكناً.

مي الغصين: في حجر الفسيفساء، تبرز الزمان النفسي للسجن، حيث الزمان ليس عقارب ساعة بل هو شعور داخلي بالثقل والركود، وتحاول ترميم شظايا حياتها عبر سرد حميمي.

إسراء جعابيص: يمثل كتابها موجوعة ذروة الألم الإنساني والجسدي، حيث توثق الإهمال الطبي كعقوبة ممنهجة، مستخدمة الرسومات والخواطر لتقول إن جسدها المحترق ما زال ينبض بالثورة.

عائشة عودة: في أحلام بالحرية وثمناً للشمس، وثقت تفاصيل التحقيق القاسي، مؤكدة أن الكتابة هي وسيلة للتحرر من أثر التعذيب النفسي الذي يتركه الجلاد في الروح.

لم تقتصر إبداعات الأسرى على الجوانب الوجدانية، بل امتدت لتشمل البحوث المحكمة والدراسات السياسية والاجتماعية، ويبرز حج محمد تجربة الأسرى الذين حصلوا على شهادات عليا وهم خلف القضبان، محولين زنازينهم المظلمة إلى أكاديميات تنتج المعرفة، ومن هؤلاء يسلط الضوء على نموذج الأسير أمجد عواد، في كتابه "دراسات من الأسر"، إذ يقدم بحوثاً أكاديمية رصينة تتناول شأن الاحتلال، واليسار الفلسطيني، وصورة المرأة، ويرى حج محمد أن هذا النوع من الكتابة يثبت الكفاءة والمهنية للأسرى، وقدرتهم على الاشتباك المعرفي مع المحتل، مؤكداً أن العقل الفلسطيني لا يمكن اعتقاله أو عزله عن سياقات المعرفة العالمية.

يحلل الكتاب تجربة الأسير أحمد الشويكي في كتابه "على بوابة مطحنة الأعمار"، حيث دخل السجن طفلاً وخرج منه بعد عشرين عاماً، وتتميز كتابة الشويكي بتوظيف السخرية والفكاهة كتقنية سردية لمواجهة الواقع التراجيدي، فالسخرية عنده ليست للضحك المجرد، بل هي فعل نضالي يهدف إلى تجريد السجان من هيبته، وتخفيف وطأة الألم عن رفاق القيد، وهي استراتيجية بقاء تقوي الصمود النفسي في وجه مطحنة السنين.

لا يكتفي فراس حج محمد بتحليل النصوص، بل يرصد الحراك الثقافي الذي أحدثته هذه النصوص في الخارج، خاصة من خلال مبادرات المحامي حسن عبادي مثل "لكل أسير كتاب" و"من كل أسير كتاب"، هذه المبادرات خلقت جسراً بين الأسرى والمجتمع، وحولت إصدارات الأسرى إلى مادة للنقاش في الندوات العامة والروابط الثقافية مثل رابطة الكتاب الأردنيين وندوة اليوم السابع المقدسية، وتؤدي هذه النشاطات وظائف حيوية من أبرزها:

كسر العزلة: يشعر الأسير أن صوته مسموع وأن كلماته تخترق الجدران لتصل إلى القراء في العواصم العربية.

أنسنة الأسير: تحويله من ملف أمني أو رقم إحصائي إلى كاتب ومبدع يستحق الاحتفاء والتقدير.

الحفاظ على الوعي النضالي: توعية الأجيال الشابة بتجربة الأسرى وتضحياتهم بعيداً عن القوالب الجاهزة والشعارات الجوفاء.

تعكس كتابات الأسرى بدقة التحولات الكبرى في القضية الفلسطينية، فيلاحظ حج محمد ظهور جيل من الكتاب ولدوا إبداعياً داخل السجون، وهم الذين أمضوا عقوداً خلف القضبان ولم يعرفوا الخارج إلا من خلال ذكريات قديمة أو أخبار شحيحة، وتوثق أعمالهم مراحل مفصلية، أهمها:

مرحلة الانتفاضة الأولى والثانية: كما في روايات أسامة مغربي وعمار الزبن التي ترصد حياة المطاردين والبطولة الريفية، وكما في رواية "تحيا حين تفنى" لثائر حنيني التي تخلد سيرة الشهيد فادي حنيني ورفاقه.

مرحلة ما بعد أوسلو والارتباك السياسي: تظهر في بعض النصوص نبرة خيبة الأمل من الانقسام الفلسطيني، ومن تعثر المشروع الوطني، كما في كتابات حسام شاهين وقتيبة مسلم، مما يجعل هذا الأدب المرآة الصادقة للوجع الفلسطيني بمراراته كافة.

يطرح فراس حج محمد رؤية نقدية مغايرة للتعامل مع هذا الأدب، فهو يرفض تطبيق نظرية موت المؤلف على كتابات السجون، لأن النص هنا لا يمكن فصله عن سياقه المأساوي والظروف التي أنتجته، ولكي نفهم الكاتب الأسير، علينا أن نعرفه إنساناً أولاً، وأن ندرك أن نصه هو نطفة مهربة تحمل جينات المقاومة والبقاء.

يجب على الناقد، حسب حج محمد، أن يمتلك بصيرة نقدية خاصة تقدر جماليات التفاصيل الصغيرة التي قد يراها الكاتب الحر هامشية، مثل حركة نملة على جدار، أو بقعة ضوء متسللة من فتحة تهوية، أو صوت حمامة تهدل بعيداً، هذه الهامشيات

تصبح في السجن مركزية، وتعكس شدة الالتصاق بالحياة والتشبث بمفرداتها البسيطة.

يخلص كتاب تصدع الجدران إلى أن أدب الأسرى الفلسطينيين هو الركيزة الأساسية للأدب المقاوم المعاصر، إنه أدب الضرورة لا الاختيار، وأدب المواجهة لا الاستسلام. من خلال الحرف، ينجح الفلسطيني في تصدع الجدران المادية والمعنوية، محولاً عتمة الزنزانة إلى وهج مشاعل تضيء درب الحرية، ولذلك فإن الكتابة في حياة الأسير هي:

فعل بقاء: يرمم الروح المحطمة ويمنحها القدرة على الحلم بغدٍ أفضل.

وثيقة تاريخية: تسجل جرائم المحتل وبطولات المقاومين بعيداً عن التزييف.

انتصار أخلاقي: يثبت تفوق الضحية فكرياً وإنسانياً على الجلاد الذي لا يملك سوى أدوات القمع.

إن دعوة فراس حج محمد في نهاية كتابه هي دعوة للفعل؛ فليكتب كل أسير حكايته، وليقرأ الجميع تلك الكتابات، لأن في الكلمة الحرة تكمن بذور الحرية القادمة التي ستذيب في النهاية كل أقفال السجون لتصنع منها تمثالاً للحرية.

تقرير صحفي حول صدور الكتاب

صدر عن دار الرعاة للدراسات والنشر في رام الله ودار جسور ثقافية في عمان كتاب "تصدع الجدران- عن دور الأدب في مقاومة العتمة" للكاتب الفلسطيني فراس حج محمد. يقع الكتاب في (346) صفحة، واتخذ من لوحة للفنان الشاب الفلسطيني علاء حوشية غلافاً له.

قدمت للكتاب الكاتبة والروائية صفاء أبو خضرة، ومما جاء في مقدمتها "يطرح الشاعر والناقد "فراس حج محمد" الكثير من الأسئلة التي ربما في خضمّ المعمعة والضوضاء العالمية ما بين الحروب والعواصف والأمراض الوبائية والانقلابات السياسية لم تخطر لنا ببال"، وتضيف: "أسئلة في غاية الأهمية فيما يتصل بكتابة الأسرى: لماذا يكتبون؟ فهل الكتابة ترفٌ، كيفَ تكون ترفاً لمن هم خارج السجن وسط الفوضى العارمة والضوضاء والتشظي خلف لقمة العيش؟ وكيف تكون ترفاً للأسير وهو ينتظر إما حكماً مؤبداً وإما سنوات طويلة تجرفهُ معها كسيلٍ يجرف الماء والكلأ والحياة".

وفي قراءة نقدية للكتاب قدمها رائد الحواري يرى أن "الأسرى يعتبرون الأدب بمثابة الحرية، التحرر من الأسر، لما يضعون فيه من ذاتهم، من ألمهم ووجعهم، هذه الرؤية لم تأتِ من فراغ، بل من خلال مراقبة ومتابعة الناقد لما سمعه من الأسرى أنفسهم، فبعضهم قالوا عندما صدرت كتبهم: "نحن الآن أحرار" هذا عدا النشوة التي تصيبهم عندما يعلمون أن هناك من توقّف عند أدبهم بالبحث والقراءة والمناقشة".

يتألف الكتاب من ستة فصول جاء الفصل الأول تحت عنوان "الأسرى بين حرفين" ناقش من خلاله المؤلف التجربة الاعتقالية الفلسطينية في بعدها التوثيقي واستراتيجيات الخروج من النفق الكبير واختلاف المعايير النقدية في تناول تجارب

الأسرى الكتابية، ومواضيع أخرى ذات اتصال بالأسرى الفلسطينيين وقضية الأسرى. ويعرض الفصل الثاني جانبا من علاقة المؤلف بالأسرى الفلسطينيين، ويورد رسالة والرد عليها للأسير قتيبة مسلم ابن قريته تلفيت.

وفي الفصلين الثالث والرابع يقدم الكتاب قراءات متعددة لأدب الأسرى الفلسطينيين، منهم ما زال في الأسر، كالشاعر أحمد العارضة، وباسم خندقجي، وكميل أبو حنيش، وهيثم جابر، وشملت هذه القراءات الشعر والنثر، بأشكاله المتعددة، سواء الرواية والشعر والرسالة والأدب الشخصي.

ويخصص الفصل الخامس للحضور الجماهيري لأدب الأسرى من خلال عرض مجموعة من إصدارات الكتاب الأسرى، وتقارير صحفية للأنشطة المتعلقة بأدب الأسرى، سواء أكانت أنشطة محلية أو أنشطة عربية.

ويضيء الكتاب في فصله الأخير على المبادرات الداعمة لأدب الأسرى، فتوقف الكتاب عند جهود المحامي الحيفاوي حسن عبادي ومبادراته الكثيرة التي أدت إلى إخراج كثير من كتب الأسرى إلى النور، بالإضافة إلى التعريف بمركز أبو جهاد للحركة الأسيرة وجهوده في التوثيق لإبداعات الأسرى الفلسطينيين.

كما اشتمل الكتاب على قائمة بأسماء الكتاب الأسرى الذين ما زالوا في السجن في الفترة التي صدر فيها الكتاب، وبلغ عددهم (133) كاتبا وكاتبة، كما تضمن رسالة باللغتين العربية والإنجليزية لمنظمة القلم الدولية التي تتجاهل الكاتب الفلسطيني الأسير في يوم المسجون العالمي الذي يصادف (15 نوفمبر) من كل عام.

ندوة عبر الزوم لمناقشة أدب السجون في فلسطين

عقد التحالف الأوروبي لمناصرة أسرى فلسطين ندوة عبر تطبيق زوم تحت عنوان "**وقفة مع أدب الحريّة**"، وذلك يوم الأربعاء الموافق: 2024/12/11، شارك فيها وحضرها نخبة من المثقفين والمهتمين من فلسطين والوطن العربي والدول الأوروبية. وقد تولت إدارتها الدكتورة لينا الشخشير، رئيسة منتدى المنارة للثقافة والإبداع، وافتتحتها متحدّثة عن أدب الأسرى وأهميّته، وتناول النقاد له وضرورة الاهتمام به متمنية الحريّة القريبة للأسرى جميعاً.

ورحب منسّق التحالف د. خالد حمد بالحضور وشكرهم على جهودهم لإنجاح هذه الندوة، ومتحدثا عن الأسرى وقضيتهم، قائلاً: "لن ننسى آلاف الأسرى الإداريين والمرضى ومئات الأطفال والنساء المعتقلين. كما لا ننسى أهالي الأسرى وعلى رأسهم أهالي جثامين الشهداء المحتجزة لدى سلطات الاحتلال، وبعث تحيّة خاصة لأسرى قطاع غزة المحتجزين في سجون مخفية... وكل الدعم لأدباء السجون حتى يصل صوت الحريّة إلى كلّ مكان".

وافتتحت أعمال الندوة بقراءة نقدية قدمتها الروائية المقدسية ديمة السمان، تناولت فيها كتاب "**تصدّع الجدران- عن دور الأدب في مقاومة العتمة**" للكاتب فراس حج محمد، وأشارت إلى شموليّته وأهميّته وكونه مرجعيّة ولبنة أساسية يجب أن يُبنى عليها لتأسيس مكتبة تعنى بأدب السجون في فلسطين، كما أشارت إلى أهميّة ما ورد في نهاية الكتاب من إحصائية للكتّاب داخل السجون وصلت إلى (133) كاتبا وكاتبة، واعتبرته حجر أساس لمعجم يليق بأدب الحريّة.

وتناول الكاتب والإعلامي علي المرعبي- المدير العام لمؤسسة كل العرب في باريس- كتاب "**حروف على جدران الأمل**" الذي شارك فيه 36 أسير وأسيرة بنصوص شعرية ونثرية من إبداعاتهم. وتحدث المرعبي عن أهميّة جمع كتابات الأسرى في كتب من أجل

إيصال صوت الأسرى إلى العالم، وشكر كلّ من ساهم بإصدار هذا الكتاب، بدءا بالكتّاب الأسرى المشاركين، وكل من ساعد في إخراج النصوص من داخل السجون، ومن حرّر الكتاب. وتعهّد بنشر كلّ ما يصله من كتابات الأسرى على صفحات مجلة "**كل العرب**" الورقية الشهرية.

ومن الأردن تحدث عضو رابطة الكتّاب الأردنيين الروائي عبد السلام صالح عن أدب السجون وموضوعاته المتنوّعة وقيمته الأدبيّة، معرّفاً بمبادرة "**أسرى يكتبون**" التي ناقشت كثيرا من أعمال الأسرى الكتاب، وقد صدرت في كتاب تحت عنوان "ندوات أسرى يكتبون". وشارك في تلك الندوات في حينه نقّاد وكتاب من الوطن العربي بقراءات نقدية حول تلك الأعمال، وبمشاركة الأسير بكلمة يلقيها نيابة عنه أحد أفراد العائلة، كما تحدّث عن فكرة مؤتمر عربيّ حول أدب الحريّة في عمان تزامناً مع يوم الأسير القادم (2025/4/17).

وتوقف الكاتب والناقد فراس حج محمد عند كتابات الأسرى وعلاقته الشخصية بهم، وبأدبهم وإصداراتهم، وتناول كتاب "يوميات الزيارة والمزور– متنفّس عبر القضبان" للمحامي حسن عبادي، وأهميّته وبعده الإنساني ورسالته.

ومن الكتّاب الأسرى شارك في الندوة الأسيرة المحررة أماني حشيم (القدس) التي جرّبت الكتابة في السجن من خلال الحديث عن كتابها "العزيمة تربي الأمل"، ودور الكتابة خلف القضبان؛ كونها متنفّساً للأسير، ونافذة على الحريّة، والأسير المحرّر راتب حريبات (دورا/ الخليل) متحدثا عن كتابه "لماذا لا أرى الأبيض" المكتوب بجزئيه في السجن، وصدرا ومؤلفه ما زال قيد الاعتقال، وأشار إلى أهمية أدب الحريّة بالنسبة للأسير وضرورة أنسنة قضية الأسرى، وأشاد بدور التحالف الأوروبي لمناصرة أسرى فلسطين ودور المحامي الحيفاوي حسن عبادي في إخراج إصدارات الأسرى من خلف القضبان إلى النور مطلقاً عليه "سفير الأسرى".

وقبل اختتام الندوة فُتح المجال لمداخلات الحضور، فكان هناك مداخلات قصيرة لكل من: المحامية والكاتبة هبة بعيرات/ الولايات المتحدة، والكاتبة والإعلامية باسلة الصبيحي/ ألمانيا، والكاتب حسام الدلكي/ ألمانيا.

وفي الختام تحدث المحامي الحيفاوي حسن عبادي- عضو التحالف الأوروبي لمناصرة أسرى فلسطين- حول مصطلح "أدب الحرية"، وبأنّه يفضّله على المصطلح الشائع "أدب السجون"، شاكراً بدوره باسم التحالف مديرة الندوة والمشاركين آملاً بحريّة قريبة لكافّة أسرى فلسطين.

تصدع الجدران- عن دور الأدب في مقاومة العتمة*

حسن عبادي| حيفا- فلسطين المحتلة

ذات لقاء يوم 30 أيار 2021 مع الأسير معتز الهيموني في سجن عسقلان تعذّر على السجان فتح بوّابة الزنزانة فساعده معتز، واتفقنا على تجميع مفاتيح كلّ الزنازين حال تحرير كافّة أسرانا وصهرها دون رجعة، خلافاً لمفاتيح العودة.

وكم كنت سعيداً حين قرأت إهداء كتاب "تصدُّع الجُدران- عن دَور الأدب في مُقاومة العَتمة"[1] لصديقي فراس حج محمد "إلى تلك اللحظة من الزمن القادم، حيث إذابة كل مفاتيح وأقفال السجون لصنع تمثال حرية، كما يتراءى لصديقيّ حسن عبادي وجميل عمريّة".

قدّمت للكتاب الصديقة الكاتبة والروائية صفاء أبو خضرة، ومما جاء في مقدّمتها: "طرح الكاتب أسئلة في غاية الأهمية في هذا الكتاب فيما يتصل بكتابة الأسرى: لماذا يكتبون؟ فهل الكتابة ترفٌ، كيفَ تكون ترفاً لمن هم خارج السجن وسط الفوضى العارمة والضوضاء والتشظي خلف لقمة العيش؟ وكيف تكون ترفاً للأسير وهو ينتظر إما حكماً مؤبداً وإما سنوات طويلة تجرفهُ معها كسيلٍ يجرف الماء والكلأ والحياة".

يتألف الكتاب من ستة فصول؛

جاء الفصل الأول تحت عنوان "الأسرى بين حرفين" ناقش من خلاله التجربة الاعتقالية الفلسطينية في بعدها التوثيقي، فصِرنا بلد المليون أسير، وإضاءات موغلة في الوضوح على الداخل السرّي، ولماذا يصرّ الأعداء على أن يكون لديهم أسرى، والأسرى

---

* جاءت هذه القراءة في كتاب "احتمالات بيضاء- قراءات في أدب الحرية الفلسطيني"، الرعاة للدراسات والنشر، رام الله، وجسور ثقافية للنشر والتوزيع، عمان، 2025، (256- 261).

[1] إصدار دار الرعاة للدراسات والنشر وجسور ثقافية للنشر والتوزيع – عمانَ الأردن، ويقع في 346 صفحة، لوحة الغلاف: الفنان المقدسيّ علاء حوشية، تصميم: "مجد للتصميم والفنون"، حيفا.

الفلسطينيون وموقعهم فتولّدت ظاهرة "عمداء الأسرى" (يُطلق هذا اللقب المقيت على كلّ أسير أتم العشرين عاماً خلف القضبان وقد قارب عددهم ال 600 أسير)، واستراتيجيات الخروج من النفق الكبير، والمسكوت عنه في الكتابة عن الأسرى، فلم تعد عملية الكتابة بالنسبة للأسير ترفاً وتزجية للوقت بل أصبحت هي "المتنفّس" الذي يتنفّس فيها الكتّاب الأسرى هواء الحريّة بكلماتهم وكتبهم وضمن هذه المعادلة من التفاعل ولد مشروعاي لكلّ أسير كتاب ومن كلّ أسير كتاب، مشروعان ذوا اتجاهين: من الأسير إلى الخارج، ومن الخارج إلى الأسير بحيث يوظف هذا المشروع أثر الكتابة وأهميّتها في المساهمة في جعل قضايا الأسرى حيّةً وصار له أثر الفراشة. واختلاف المعايير النقدية في تناول تجارب الأسرى الكتابية، وتناول أصدقاءه الأسرى من الكتّاب: باسم خندقجي، وكميل أبو حنيش، وسامر محروم، وهيثم جابر.

ويعرض الفصل الثاني جانبا من علاقة الكاتب بالأسرى؛ مشاركته في فعاليّات يوم الأسير الفلسطيني عام 2021 ومشوار الخليل التي تضمّنت مقابلة في تلفزيون "هوانا TV" وحديثه عن الجانب الإبداعي لكتب الأسرى، وجولته في رحاب خليل الرحمن، ومشاركته في فعاليّة يوم الأسير وتقديمه لكتب الأسرى وتجاهل التلفزيون الرسمي لنا (أنا وفراس) رغم أنّ مشاركاتنا كانت محور اللقاء وأساسه، ومسرحيّة "رحم الخليل" من كتابة الأسير أيمن الشرباتي، ومقالته "شيء عن أصدقائي الأسرى من الكتّاب" وأثرها ومراسلاته مع الأسير قتيبة مسلم، وقصيدته "تلفيت منزلنا" المهداة إلى أسرى قريته وشهدائها ومناضليها وكتّابها، قصيدته "كان قبل اليوم ملحاً" التضامنيّة مع الأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال الذين يخوضون إضراباً عن الطعام، وكذلك قصائده "كالصباحات ابتساما" و"حتّى أعانقكم والأرض مسرحنا".

وفي الفصل الثالث والرابع يقدم إطلالات على نماذج من شعر الأسرى ونثرهم: فيتناول التجربة الشعرية للأسير أحمد التلفيتي، وقراءة ثاقبة ووارفة في ديوانين

للشاعر أحمد عارضة؛ ديوان "أنانهم" الذي شرّفني بتقديمه، ويصفه بأنّه أنضج ديوان شعري خارج من المعتقل ووصفه بشاعر "يجري ولا يجرى معه"! ووقفة مع الشعريّة في ديوان "خلل طفيف في السفرجل"، ويصل إلى نتيجة مفادها "لعلّه يشكّل علامة فارقة ليس في أدب السجون وحده، بل في الأدب المقاوم الفلسطيني بشكل عام... نجح في الإفلات من المباشرة والتقليدية إلى أفق من الشعرية الباذخة، فقدّم نصوصاً مقطّرة صافية، ممتعة في شعريّتها، ومرهفة في إحساسها، وبلاغيّة في تراكيبها، وانزياحاتها الفنية".

تناول صورة الكاتب الضمنيّة في كتاب "العزيمة تربّي الأمل" للأسيرة أماني حشيم التي شرّفتني بكتابة مقدّمته أيضاً، وملامح أسلوبية وموضوعية في ديوان "طقوس المرّة الأولى" للأسير باسم خندقجي، و"حروف من ذهب" في الميزان الوجداني والإبداعي للأسير قتيبة مسلم الذي شرّفني بكتابة تظهيره، ودراسة في ديوان المتوكل طه "فضاء الأغنيات"، وخصّ الأسير هيثم جابر بوقفتين: "هيثم جابر ورسالتاه في الحبّ والحرب"، و"هيثم جابر لم يبرح أماكنه في الحُبّ والحرب".

وكانت له وقفة مع كتاب الأسير أحمد الشويكي (الذي شرّفني كذلك بكتابة مقدّمةً) على "بوابة مطحنة الأعمار"، وأخرى مع رواية "العنّاب المرّ" للكاتب أسامة مغربي، ومقالة بعنوان "عموميات الالتزام المنهجي في كتاب "دراسات من الأسر" للأسير أمجد عواد وأشار "أضاف الكاتب إلى معمار المشهد الثقافي الاعتقالي صفة "الباحث" للأسير الكاتب"، والمعمار الفنّي في رواية "أنفاس امرأة مخذولة" للأسير باسم خندقجي، شعريّة الحذف في سرديّة الأسير ثائر حنيني "تحيا حين تفنى" وكان لي شرف كتابة مقدّمتها. تناول السرد المقنّع بالرسالة لبناء سيرة ذاتية حين كتب حول "رسائل إلى قمر" للأسير حسام زهدي شاهين، كما وتناول شهادة الأسير حمزة يونس في كتابه "الهروب من سجن

الرملة" فوجدها شهادة حية لصاحبها على ما عاناه في الوطن تحت الاحتلال وفي السجون وفي المنافي العربيّة أيضاً.

تناول الكاتب كتاب "ليس حلماً " للأسير سامر محروم بمقالة نقديّة تحمل عنوان "السردية ومحاولة تعريف" "ليس حلماً" نموذجاً، وكذلك المفارقة المتقابلة في كتاب "رنين القيد" للأسير عنان الشلبي حيث أشار إلى الضعف الإنساني للأسير الذي قابله بقوة لافتة في مواجهة السجانين.

ربطت الكاتب علاقة خاصّة بالأسير كميل أبو حنيش؛ كانت له قراءات في رواية مريم/ مريام، (أوّل إصدار لأسير أكتب مقدّمته)، حيث تطرّق إلى التعبير عن المحنة الشخصية في الرواية وشخصياتها وثنائيات الاسم واللغة والموت الذي يغيب الشخصيات، وتناول رواية أخرى لكميل "الجهة السابعة" ودلالات إغلاق البنية السرديّة، وكتاب "وقفات مع الشعر الفلسطيني الحديث" الذي قام بتحريره، وقام بتقديم كتاب رائد حواري "إضاءات على إبداعات كميل أبو حنيش".

وكان لكتابات الأسيرات الفلسطينيات نصيب؛ فتناول كتاب "حجر الفسيفساء" لمي الغصين، وكتاب "ترانيم اليمامة".

خصّص الكاتب الفصل الخامس للحضور الجماهيري لأدب الأسرى؛ عرض فيه إصدارات أسرى وحفلات إشهار بعضها، "للسجن مذاق آخر" و"رسائل كسرت القيد" للأسير أسامة الأشقر، "العزيمة تربّي الأمل" للأسيرة أماني حشيم، "دراسات من الأسر" للأسير أمجد عواد، "أسرى وحكايات" للأسير أيمن الشرباتي، "تحيا حين تفنى" للأسير ثائر حنيني، رواية "معبد الغريب" للأسير رائد الشافعي وحفل إشهاره في طولكرم تزامناً مع ذكرى النكبة، "حروف من ذهب" و"زنزانة وأكثر من حبيبة" للأسير قتيبة مسلم، "الجهة السابعة" و"جدلية الزمان والمكان في الشعر العربي" للأسير كميل أبو حنيش، رواية "سراج عشق خالد" للأسير معتز الهيموني، سرديّة "الخرزة" للأسير منذر مفلح،

ديوان "أنا سيّد المعنى" للأسير ناصر الشاويش وحفل إشهاره على أراضي قنّير المهجّرة تزامناً مع ذكرى النكبة، ديوان "زفرات في الحب والحرب" للأسير هيثم جابر، وكتاب "موجوعة" للأسيرة إسراء جعابيص، كما تناول كتاب "الكتابة على ضوء شمعة" الذي تناول طقوس الكتابة داخل المعتقلات الصهيونية.

تناول هذا الفصل أيضاً تقارير صحفية حول نشاطات الأسرى وإبداعاتهم؛ ومنها، على سبيل المثال، لا الحصر، أمسية قناديل الأسرى تضيء سماء مدينة نابلس التي عقدها منتدى المنارة للثقافة والإبداع لتكريم كتّاب نابلس الأسرى، حفل إطلاق "رسائل إلى قمر" في مركز يافا الثقافي في مخيّم بلاطة، ندوة عبر الزوم لمناقشة أدب الأسرى الفلسطينيين عقدها التحالف الأوروبي لمناصرة أسرى فلسطين، ندوة عقدها منتدى المنارة حول كتاب "ترانيم اليمامة"، حفل إشهار رواية "معبد الغريب" في جامعة خضوري، حفل إطلاق "موجوعة" للأسيرة إسراء جعابيص.

تناول الكاتب تقارير ندوات "أسرى يكتبون" لرابطة الكتّاب الأردنيين التي تشاركنا في كتابتها.

أمّا الفصل السادس والأخير فيضيء على مبادرات لدعم الأسرى الكتّاب وإبداعاتهم، فتطرّق الكاتب إلى مركز أبو جهاد لشؤون الحركة الأسيرة، شاهد إبداع وقضيّة، كما توقف الكاتب عند جهودي في نشر أدب الأسرى وتعميمه، ومبادراتي؛ مبادرة" لكلّ أسير كتاب" التي وصلت من خلالها آلاف الكتب للسجون، ومبادرة "من كلّ أسير كتاب" التي تُعنى بإيصال إصدارات الأسرى للعالم العربي والتشبيك بين أسرى يكتبون وبين أدباء خارج السجن، ومبادرة "أسرى يكتبون" مع رابطة الكتاب الأردنيين لمناقشة كتابات الأسرى، التي شجّعت مبادرات أخرى ولدت من رحمها، ومنها، على سبيل المثال، لا الحصر، "وتر النصر" للإعلاميّة قمر عبد الرحمن، فعاليّات منتدى المنارة الخاصة بالأسرى، أنشطة مركز يافا الثقافي/ مخيّم بلاطة التي تُعنى بشئون الأسرى، واستطعت،

كما جاء في الكتاب، الترويج لأدب الحرية وأن أجمع حولي كوكبة من الكتّاب والنّقّاد الّذين تولّوا مهمّة الحديث عن هذه الاصدارات في البلدان العربيّة واهتمام الإعلام الجزائري من خلال جهود خالد عز الدين.

وتناول الكاتب دور مجلة الليبي في دعم أدب السجون ووجّه في النهاية رسالة إلى منظّمة القلم الدولية.

أرفق الكاتب قائمة بالأسرى الكتّاب القابعين في سجون الاحتلال في الفترة التي صدر فيها الكتاب، وبلغ عددهم (133) كاتبا وكاتبة، مع نبذة مختصرة عن كلّ منهم.

ملاحظة لا بدّ منها: تواصل معي أسرى و/ أو أهالي أسرى يكتبون وأعربوا عن استيائهم من تجاهلهم وعدم ذكرهم في القائمة و/أو الكتاب: من خلال معرفتي بفراس واطّلاعي على قراءاته وكتاباته في السنوات الأخيرة، وجدته متابعاً نهماً لكلّ ما ينشره الأسرى، وكثيراً ما كان يتّصل بي مستفسراً عن كتاب أسير أو حتّى مخطوطة سمع بها، ولكن من خلال تواصلي معهم وجدت ظاهرة تعيسة ومؤلمة، وجدت أسرى قد بعثوا بمخطوطاتهم لمن وعدهم الاهتمام بنشرها و/ أو لناشر ودفعوا لهم مبالغ باهظة وأوهموهم أنّ كتابهم قد صدر خارج البلاد وانتظروا سنين لوصول نسخة موعودة لم تصل، وتبيّن لي أنّ البعض طبع نسخاً محدودة لا يتجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة وسلّمها لأهله، ومن أين لفراس أن يعلم حول هذا "الإصدار" الموهوم؟

رافقني الكاتب منذ سنوات في مشروعي التواصلي مع الأسرى الكتّاب، ووجدت الكتاب نوعاً من السيرة الذاتيّة، بما يتعلّق بجانب أدب الحريّة: علاقاته بأدب الحريّة وبأسرى كتّاب والكتابة حول أدبهم ودوره في تشجيعهم ومساندتهم ودعمهم (وأعلم علم اليقين أنّ كل ما قام به كان تطوعياً دون مقابل) رغم أنّه حاول جاهداً عدم إبراز دوره،

فقد قام بتحرير وتنقيح وتنضيد العديد من إصدارات الأسرى في السنوات الأخيرة وفضّل أن يبقى في الظلّ، وأحياناً رجاني عدم إعلام الأسير بدوره.

أخذني الكتاب لجولة جمعتني بأصدقائي الكتّاب الأسرى، فالتقيت في السنوات الأخيرة بغالبيّة من كتب عنهم وعن كتاباتهم، ورافقت الكثير من إصداراتهم التي جاء ذكرها في الكتاب، أعاد لي ذكريات وأمنيات وآمالاً، ممّا جعل قراءته مغايرة.

وجدت الكاتب يضع حجر الزاوية "Schnurgerüst" لدراسة أدب الحريّة الفلسطيني، فكلّ دارس أو باحث أو مهتم بأدب الحريّة يجد فيه ضالّته وبإمكانه الانطلاق منه، ويشكّل الكتاب لبِنة أساسيّة لمعجم موسوعيّ يُعنى بهذا الأدب.

الأسرى وأدبهم في كتاب "تصدع الجدران" للكاتب فراس حج محمد

رائد الحواري| فلسطين

موقع أدب الأسرى وأهميته:

من واجب الأسرى علينا الاهتمام بهم وبإنتاجهم الأدبي، من هنا تأتي أهمية الكتب التي تناولت أدب الأسرى، فهي تتناولهم كأدباء/كباحثين، ككتاب مبدعين، وليس كمجرمين أو إرهابيين. في هذا الكتاب "**تصدع الجدران- عن دور الأدب في مقاومة العتمة**" الصادر في رام الله وعمان عام 2023 عن دار الرعاة للدراسات والنشر وجسور للنشر والتوزيع- يرصد فيه الباحث والناقد فراس حج محمد مجموعة كبيرة من إنتاج الكتّاب والأدباء الأسرى.

وبذلك يعدّ الكتاب من أهم الكتب التي توثق أدب الأسرى وأعمالهم الأدبية والفكرية، فهناك جدول بأسماء الأسرى الأدباء وسنة الأسر وعدد سنوات الحكم، ومكان وسنة الولادة، إضافة إلى أن الناقد تناول أعمالهم الأدبية بقراءات موضوعية، مشيرا إلى أن أدب الأسرى لا يمكن أن نحكم عليه بعين الطريقة التي نحكم بها على إنتاج الآخرين، فهم يعيشون في ظروف استثنائية، ويخرجون أعمالهم بأكثر من طريقة، ما يجعل العمل غير متاح للمراجعة من قبلهم: "*لعل عملية الكتابة والقراءة لدى الأسرى تشبه إلى حد بعيد "تهريب النطف" لما فيها من إصرار على الحياة والتواصل والوجود، وعدم الاستسلام للظرف الحالي*" ص 53، فهذه الشاهدة كافية للقول إن عملية الكتابة وإخراجها للآخرين ليست عملية عادية، بل تُعد اختراقاً وتجاوزاً للجدران وللرقابة وللسجان، من هنا من المحتمل أن يكون العمل الأدبي فيه شيء من الهفوات إذا لم تتم مراجعته من مختصين.

فالأسرى يعتبرون الأدب بمثابة الحرية، التحرر من الأسر، لما يضعون فيه من ذاتهم، من ألمهم/ وجعهم: "*وليست الكتابة- إذا- نوعا من الترف، بل تكتسب الكتابة لديهم أهمية وجودية توازي أهمية الحرية ذاتها أو الحياة نفسها في مقاومة مظاهر الاضطهاد والتعالي*". ص 34، هذه الرؤية لم تأتِ من فراغ، بل من خلال مراقبة ومتابعة الناقد لما سمعه من الأسرى أنفسهم، فبعضهم قالوا عندما صدرت كتبهم: "نحن الآن أحرار" هذا عدا النشوة التي تصيبهم عندما يعلمون أن هناك من توقّف عند أدبهم بالبحث والقراءة والمناقشة، وهنا يستشهد فراس حج محمد في الندوات الشهرية التي تقيمها رابطة الكتاب الأردنيين كل شهر لمناقشة أحد الأعمال الأدبية للأسرى، ويشرف عليها المحامي "حسن عبادي" صاحب مبادرة لكل أسير كتاب الذي كان حضوره لافتا في كتاب "**تصدع الجدران**" فكان هذا التصدع للجدران بفضل ومساهمة "حسن عبادي" الذي لم يكتف بإيصال كتاب لكل أسيرٍ، بل ساهم في جعل كل أسير يكتب كتابا وأكثر.

ولكن هذا لا يعني أنه يهمل الناحية الإبداعية في أدب الأسرى، أو أنه لا يتعامل معه متجاوزا الفنيات والمقاييس الأدبية، لهذا يعتبر أدب الأسرى جزءاً أصيلاً من تركيبة وتكوّن الأدب الفلسطيني: "*إن الأدب الفلسطيني لا يفهم حق الفهم- من وجهة نظري- دون أن يكون الأدب الاعتقالي في بؤرة النقاش الأدبي الفلسطيني*" ص 36، بهذا الشكل يكون الباحث قد وضع/ أعطى الكتّاب الأسرى مكانة/ مساحة ليكونوا جزءا أصيلا من التركيبة الأدبية الفلسطينية التي ما زالت تناضل وتكتب وهي تحت نير الاحتلال الصهيوني.

وهنا نتوقف قليلا عند نظرة الباحث لدولة الاحتلال وكيف يصنفها: "*بل نركز في الخطاب على أنه كيان لا شرعي، وأن نكفّ عن مخاطبة قادته السياسيين باعتبارهم "وزراء أو رؤساء" بل صهيونيون، زعماء عصابات إجرامية، أيديهم ملطخة بالدماء منذ أكثر من قرن، ينتمون إلى فكر لا يمكن أن يكون بأي حال من الأحوال فكرا إنسانيا*

مقبولا للتصالح معه أو حتى الاختلاف معه على قاعدة حرية الرأي والتعبير، فهم قتلة ومحتلون" ص 45، هذه الرؤية لم تأت من فراغ، بل من خلال ممارسة الاحتلال وما يفعله يوميا بنا، فهناك قتل يومي، قتل بسفك الدماء، وقتل من خلال الحواجز، وقتل من خلال الاعتقال والأسر، وقتل من خلال المستوطنات، وقتل من خلال الاستيلاء على الأرض الفلسطينية، وقتل من خلال استبدال اسم فلسطين بـ (إسرائيل).

حضورالأم:

العديد من الأدباء والأسرى تناولوا في أعمالهم الأم، حتى أننا نجدها حاضرة في كل ما صدر من أدب، وهذا يعود لمكانتها ودورها، يقدم الباحث مشهداً عن "أم يوسف" التي توفيت قبل أن ترى أبنها الأسير حيث كانت تستعد لزيارة ابنها، لكن زوجها "*أبا يوسف يتفاجأ بعدم حركتها فكان هذا المشهد: "يصرخ بأعلى صوته يبكي، ينادي، يترك نفسه لتقول: "ابننا في انتظارك ليراك، قومي يا أم يوسف، لا تخيبي رجاء من يتشوق لرؤيتك*" ص 77، الموقف إنساني بامتياز ويشير إلى المعاناة التي يتعرض لها الأسرى وأهاليهم على يد السجان.

وهذا المشهد لم يكن الوحيد؛ فهناك العديد ممن فقدوا أمهاتهم دون أن يستطيعوا مشاهدتها أو رؤيتها، وهذا يعكس صورة الاحتلال العنصري وطريقته في التعامل مع الفلسطينيين.

القراءات النقدية:

الناقد فراس حج محمد يتناول أكثر من كاتب وكتاب في "**تصدع الجدران**" واللافت في قراءاته هذه، الموضوعية التي اتسمت بها، فهو يدخل إلى النص بحرَفية عالية مبينا جوانب القوة والضعف فيه، فعلى سبيل المثال عندما يتحدث عن التجربة الشعرية لـ "أحمد التلفيتي" في "ألفية حماس المسيرة والمصير" يقول: لم يسبق لأسير- حسب علمي-

أن وثق لحركته شعريا بهذا التفصيل البلاغي القائم على الارتباط والتمجيد وإعلاء الشأن... جاءت ألفية أحمد الحمساوية في ألفين وأربعمائة وخمسة وأربعين بيتا من الشعر الموزون والمقفى، وينظم هذه الأبيات قافية النون المكسورة ويركب فيها الشاعر بحر الكامل التام (أخو الرجز)" ص 85 و87، هذا التقييم الموضوعي يبين أن الأسرى الأدباء متألقون في كتاباتهم، كما أنهم منتمون لمبادئهم، وهذا العرض لديوان "ألفية حماس المسيرة والمصير" يحفز القارئ للتعرف مباشرة على العمل، فقد نوّه الناقد إلى ما في الديوان من ميزات تجعل القارئ يتقدم ليتعرف أكثر على هذا العمل الفريد في شكله ومضمونه.

وعندما يتناول ديوان "أنانهم" لـ "أحمد العارضة" يغوص في الديوان مبينا أن هناك علاقة بين العنوان والمتن: "*فقد نحت الاسم- أي صاغه- من ثلاث كلمات، وقد وزع تلك العناوين على ثلاثة أقسام في الديوان، فضم القسم الأول "أنا" تسع قصائد، واحدة منها بعنوان "أ ن ا" في حين جاء القسم الثاني "ن" مكونا من سبع قصائد، أما القسم الثالث "هم" فضم ستة قصائد، وبذلك يتكون الديوان من اثنتين وعشرين قصيدة التزم فيها الشاعر التفعيلة، وجاءت متنوعة على خمسة بحور شعرية*" ص 92، نلاحظ أن الشاعر يركز على ما في الديوان من بعد لغوي من خلال العنوان وما فيه من معاني: "أنانهم" وعلاقة ذلك بأقسام الديوان وما فيه من قصائد وطريقة كتابته للعناوين، بحيث يحثّ القارئ على التقدم من هذا الديوان والتعرف عليه مباشرة، وبهذا يكون فراس حج محمد قد قام بدوره كناقد في تعريف القارئ بجمالية الديوان محفزا إياه على التقدم منه؛ ليتعرف أكثر ليلمس جمالية الديوان وما فيه من تميز.

ولا يكتفي الناقد بتناول ما يكتبه الأسرى، بل يدخل إلى نفسية الأسرى أنفسهم، ويحللها تحليلا نفسيا، يتحدث عن الشاعر والقاص والروائي هيثم جابر متناولا أعماله الشعرية "الحب والحرب" التي جاءت بثلاثة دواوين بقوله: "*فهل للحرمان من المرأة أثر*

في مثل هذه الصورة وفي مثل هذه القصائد؟ فالشاعر وقد تخطى حاجز الخمسة والأربعين عاما لم يتزوج بعد، بمعنى أنه يشتاق ويتوق إلى النساء، فهل كان الشعر متنفسا غريزيا ليأتي بهذا العنفوان؟ أم جاء هذا الشعر نوعا من التحرر من أيديولوجيا الفصيل العقدية؟" ص 130، بهذا الشكل يتجاوز الناقد مسألة الأدب المجرد ليدخلنا إلى عالم الأسير وما يعانيه من فقدان/ حرمان للحياة العادية، السوية، وهو بهذا يجعلنا نشعر/ نحس/ نعلم أن هناك أدباء يقبعون في سجون الاحتلال وهم أدباء، متميزون ويحتاجوننا لنعمل على تحررهم من الأسر.

يتناول "فراس حج محمد" الشاعر والروائي الأسير باسم خندقجي من خلال رواية "أنفاس امرأة مخذولة" حيث يحللها بطريقة موضوعية بعيدا عن المجاملة، مشيرا إلى وجود خلل فني روائي يتمثل في: "*بقدر ما هذه اللغة خادمة للقص في إطارها العام إلا أنها أحيانا كانت تنساق نحو "اللغة الشعرية المجانية" الخالية من الهدف، بل تخللها عبارات مصوغة بتهويم كبير، لا يكاد القارئ يظفر منها بمعنى سوى أنها تراكيب استعارية لوصف حالة، وقع فيها كثير من الروائيين الذين جنحوا للغة الشعرية... ثمة فيض إنشائي ولغة بلا هدف في رواية باسم أيضاً*" ص 156، ما جاء في قراءة "فراس حج محمد" يعبر عن روح النقد الحقيقية، فـ "باسم خندقجي" كتب أكثر من رواية، وكان عليه أن يقدم ما يتفوق على كتاباته السابقة، لا أن يتراجع إلى الخلف، من هنا نوّه الناقد إلى وجود اللغة الشعرية التي لا تخدم النص الروائي وتهدم بنيته.

وينتقد قول "باسم عن هيمنة "محمود درويش" على الشعر: "*إن هذه السيطرة لدرويش على الشعر هي التي قضت قضاء لعله نهائي على الشاعر فيه، وتريد من الشعراء الآخرين، أن يكفوا عن الشعر، فدرويش "يكفينا كشاعر لمائة عام قادم" وإنه حكم متطرف، مع أن ملاحظة باسم صحيحة من باب آخر، في أن درويش كان السبب في إماتة كثير من الأصوات الشعرية المهمة التي لم يلتفت إليها.*

فهل لو كان هناك روائي بتأثير درويش على الجيل الحالي، وربما اللاحق، سنقول: إن ذلك الروائي سيكفينا لمائة عام قادمة؟ لو سلم الأدباء والنقاد بهذا الحكم لما وجد درويش نفسه شاعرا بعد المتنبي ولا وجد سارد بعد ماركيز أو نجيب محفوظ ولا وجد باسم نفسه روائيا له حضوره بعد العلامات الثلاث للرواية الفلسطينية، غسان كنفاني واميل حبيبي وجبرا إبراهيم جبرا، فأي سذاجة في هذا الرأي؟" ص 159.

اللافت في هذا المقطع أن الناقد يفند بصورة عقلية ومنطقية أقوالاً يعتبرها بعضهم مسلمات لا جدال فيها، وهذا يشير إلى تحرر الناقد من (التعاطف) مع النص وتناوله بشكل موضوعي ومحايد، وإلا لما استطاع تبيان الخلل في اعتماد أقوال في جنس أدبي معين ونفيها/ عزلها عن أجناس أخرى.

ويتناول سرية "حمزة يونس" "الهروب من سجن الرملة" بحيث يتجاوز الأدب إلى ما هو وطني، فيستنتج أن الهدف والغاية من هذه السيرة يكمن في: "*قدرة الفلسطيني على النضال حتى في أسوأ الظروف، ويبتكر الفلسطيني من لحظته خططه وتظهر عبقريته*" ص 180، فما كتبه "حمزة يونس" لم يكن لتمجيد الذات بقدر إعطاء/ تقديم تجربته للآخرين لتكون لهم دافعا ومحفزا ليفعلوا ويقوموا بدورهم الوطني، من هنا نجد الناقد يركز على حجم معاناة الفلسطيني من خلال اقتباس ما جاء في "الهروب من سجن الرملة": "*عار أن لا يتسع صدر الوطن العربي بمن فر إليه ليقاتل من أجله*" ص 181، بهذا يكون الناقد قد أشار إلى تخاذل الأنظمة الرسمية العربية في مساندة الفلسطيني، وكيف أنها عملت على محاصرته والتضييق عليه، كما يفعل الأعداء.

ويتناول الكتاب الشاعر والناقد والروائي كميل أبو حنيش في أكثر من موضع، فهناك وقفة مفصلة مع روايتيه "مريم/ مريام"، و"الجهة السابعة" وكتابه النقدي "وقفات مع الشعر الفلسطيني الحديث،" وهذا يعود إلى تعدد مواهب "كميل أبو حنيش" الإبداعية.

بعد هذه الوقفات النقدية يعرفنا الباحث على إصدارات الأسرى من أعمال أدبية، من خلال الندوات التي عقدت لمناقشة أو إشهار أعمالهم، وهي تعد تعريفا مختصرا ومختزلا لهذه الأعمال الأدبية، وجاءت كتقارير صحفية لتلك الندوات والفعاليات الأدبية.

ثورة أدبيّة تُصَدِّع الجدران... تكشف المستور... تضيء عتمة المكان

ديمة جمعة السمان

لم تكن الكتابة ترفا يوما... فما بالك عندما يخرج الحرف موجوعا مقهورا... يتمطّى على آهات ألم الحرمان من أبسط حقّ من حقوق الإنسان. الحق في الحرّيّة... حرّيّة الجسد والفكر. يخرج الحرف قويّا، يزلزل المكان، يصدّع جدران القهر والإذلال، يفرض نفسه، ويكشف المستور داخل زنازين عدو يتغنّى بالديمقراطيّة، والالتزام بحقوق الإنسان، التي كان قد تعهّد الاحتلال أن يلتزم بها أمام العالم أجمع، فخان العهد، وظلم وتجبّر تحت غطاء أمنه، الذي أصبح المشجب الذي يعلّق عليه كل تجاوزاته القانونيّة والإنسانية والأخلاقية.

كتاب "تصدّع الجدران"للشاعر والباحث والتّربوي فراس حج محمد، أجاب عن العديد من التّساؤلات التي تخطر على البال، وتتعثّر بإجابات قد لا تكون مقنعة للبعض أحيانا. أسئلة تتعلّق بدور الأدب في مقاومة عتمة السّجون: (داخل المعتقلات أو خارجها).

لفت نظري الإهداء، فقد أهدى كتابه لـ "لحظة الحرّية القادمة"في الزمن القادم. كلمات مطمئنة... تحمل مشاعر الأمل والتفاؤل، بزمن قريب تختفي فيه كل مظاهر الاحتلال، تذوب فيها مفاتيح وأقفال المعتقلات، تشكّل "تمثال الحرّية"... ويتحقّق الحلم. أتبعها بقصيدة ردّة فعل للشّاعر الخالد محمود درويش، يؤكّد فيها على قوّة الأسير النّفسية، وثباته وصموده الأسطوريّ أمام كلّ محاولات التّرويض والقهر.

ضمّ الكتاب ستّة فصول:

تناول الفصل الأوّل، والذي جاء تحت عنوان "الأسرى بين حرفين"عدّة مقالات هامة.

ابتدأه بمقدمة ثريّة تتحدث حول التّجربة الاعتقالية الفلسطينيّة في بعدها التّوثيقي، إذ اعتبر الكاتب التوثيق بأنواعه المختلفة، علامة من علامات الشّعب الحرّ،

الذي يستشعر عظمة ما يقوم به حاليّا من فعل حضاريّ، بالإضافة إلى ما قام به - سابقا- أسلافه الذين خلّفوا له إرثا عظيما. فلا توجد أمّة عظيمة دون أن يكون لها تاريخ موثق، متواصل من الأجداد إلى الأحفاد.

وقد ولدت ظاهرة المعتقلين الفلسطينيين في السّجون الصّهيونيّة، منذ ولادة الكيان الصهيوني الغاصب عام 1948، إذ ورثتها عن سلطة الانتداب، والتي بالأصل ورثتها عن فترة الحكم التركي العثماني لفلسطين. كلّها أصبحت تحت سلطة الاحتلال الصهيوني. فكان من المعتقلين: الإنسان البسيط العادي، والمثقف، والشاعر، والفنان، والمرأة، والطفل، وكبير السّن الخ. فاستحقت فلسطين لقب بلد المليون أسير. كما أفرزت التّجربة الاعتقالية الفلسطينيّة ظاهرة "عمداء الأسرى"، ويشمل هذا المصطلح كلّ أسير أتمّ العشرين عاما في السّجن. وقد قارب عددهم الـ 300 أسير. وهناك من استشهد نتيجة التّعذيب أو الاهمال الطّبي... الخ

مع العلم أنّه لا يتمّ التّعامل معهم كأسرى حرب، كما تنصّ عليه الاتّفاقات الدّولية ذات العلاقة، بل يتمّ التّعامل معهم كإرهابيين، وتطبّق عليهم قوانين "محاربة الإرهاب".

وقد ناضلت الحركة الأسيرة كثيرا قبل أن تحقّق إنجازات هامة، إلا أنّها ظلّت محل تهديد بسحبها، وهي خاضعة لمزاجيّة السّجان، ومرهونة بالحكومات المتعاقبة.

تحدّث الكاتب أيضا عن الكتابة الأدبيّة في المعتقل وعن أهمّيّتها التّوثيقيّة، خاصّة أنّها تتناول أدقّ التّفاصيل في هذا العالم السّرّيّ المرعب خلف قضبان السّجّان. كما وثّقت هذه الكتابات الحكايات الشّخصيّة لكلّ أسير كاتب.

فقد كتبوا المقال والقصيدة والقصّة والرّواية والشّهادات والمذكّرات اليوميّة التّسجيليّة، والخواطر والرّسائل...الخ، وكل جنس من هذه الأجناس الأدبيّة كان له هدف ورسالة، ولا شكّ أنّ هذه الكتابات أثرت المكتبة الفلسطينيّة بشقّيها: توثيق

تجربة الاعتقال داخل السجن، أو كتابة تقويميّة توثيقيّة عن مجمل التّجربة الاعتقالية بعد الخروج من المعتقل.

مع العلم أن الأسير لا يكتب من أجل المتعة، وليس من أجل تمضية وقت الفراغ، وليس نوعا من التّرف، بل تكتسب الكتابة للأسير أهمّيّة وجوديّة توازي أهمّيّة الحرّيّة ذاتها أو الحياة نفسها في مقاومة مظاهر الاضطهاد والتّعالي.

إذا، هي أداة من أدوات مقاومة الاضطهاد، مقاومة فرديّة إبداعيّة، لها آثارها في نفوس الكتّاب أنفسهم، فأنا أكتب، إذاً أنا موجود.

ومن هنا جاءت فكرة مشروع: لكل أسير كتاب للمحامي الحيفاوي حسن عبادي.إذ تم تشجيع الأسرى على الكتابة، وتم نشر كتاباتهم، التي كانت بمثابة الجسر الذي أوصلهم مع من هم خارج قضبان السّجّان.

وقد تطرّق الكاتب إلى موضوع في غاية الأهمية وهو: اختلاف المعايير النّقدية تبعا لاختلاف التّجربة الانسانيّة، فجاء في المقال:

"لا يصحّ أن أحاكم نقديّا كاتبا يكتب فوق "البرش" وبأدوات بسيطة، ويقتنص اللحظات، ويتحدّى الإجراءات التّعسفية، كما أحاكم كاتبا يكتب في مكتب فخم، وعلى حاسوب متطوّر، ويطلّ من مكتبه على حديقة مليئة بالورود، الخ من ترف.

أيّ عالمين مختلفين بين هذا وذاك؟ فالفرق شاسع، كاتب يعيش الكبت والتعسف والإذلال، يحاول أن يقاوم بروحه وبريشته، وآخر يغرق في البهجة والتّرف. لذلك على الناقد أن يكون موضوعيا، ولا يجوز أن يصف الكتابة التي تخرج من خلف القضبان على أنّها ركيكة وتافهة ومتواضعة، بل هي مهمّة وأكثر في الدّلالة على العوالم الداخليّة التي يرسمها الكاتب لنفسه من خلال لغة لها فعل حيويّ تمدّ الأسير بالقوّة والتحدّي".

على أمل أن يتمّ مراعاة ذلك من قبل النّقاد، وبالتالي يتمّ النّظر لكتابات الأسرى من بعد آخر، واقعي وإنساني، لإعطائه حقّه من الأهميّة، وبالتّالي احترام كل حرف يخرج من وراء القضبان،كونه يحمل في طيّاته دلالات لا يمكن تجاهلها.

وتطرّق الكاتب لعلاقته الحميمة مع بعض الكتّاب الأسرى من خلال قراءاته لكتاباتهم، إذ هم كُتّاب صنعتهم التّجربة، فكانوا حالة خاصة لها حضورها المميّز في المشهد الثّقافي الفلسطيني. ودعا المستوى الرّسمي إلى تكريمهم والاهتمام بهم والتّعريف بأدبهم.

الفصل الثاني جاء تحت عنوان: "في العلاقة مع الأسرى"، وقد احتوى على عدّة مقالات تحدّثت حول علاقته الحميمة مع بعض الأسرى وأسرهم، وعن النشاطات التي شارك الكاتب بها دعما وإسنادا للأسرى وحقوقهم.

رأيت هذا الفصل أشبه بالمذكرات الشخصية للكاتب فيما يتعلّق بالأحداث والمواقف التي تتعلّق ببعض الأسرى وعلاقته معهم من خلال كتاباتهم، ومن خلال بعض أفراد أسرهم، بالإضافة إلى المراسلات والمكالمات الهاتفية التي وطّدت علاقته معهم. وهو جانب مهم يؤنسن قضيّة الأسرى، ويطلع القارئ على جوانب أخرى للأسير ومعاناة أسرته.

مع العلم أن الكاتب حج محمد قام بتحرير عدد كبير من الكتابات التي خرجت من خلف القضبان، قبل دفعها إلى المطبعة للنشر، ممّا زاد ارتباطه مع الأسرى على المستوى النّفسي.

وجاء الفصل الثالث تحت عنوان: "إطلالات على نماذج من شعر الأسرى"، والفصل الرابع تحت عنوان: "إطلالات على نماذج من نثر الأسرى". وهي مقالات تحليليّة عميقة تناول بها الكتابات الشعرية والنثرية للكُتّاب الأسرى والأسرى المحرّرين من الجنسين.

وجاء الفصل الخامس تحت عنوان: "الحضور الجماهيري لأدب الأسرى":

عرض فيها الكاتب بعض القراءات المختصرة عن كتب وإصدارات بعض الأسرى، مع نبذة عن حياة كل كاتب، أشبه بالسيرة الذاتية المقتضبة.

كما شمل الفصل المذكور على بعض التّقارير الصّحفية حول النّدوات التي تناولت نشاطات الأسرى وإبداعاتهم، وتكريمهم بحضور المؤسّسات الرّسمية والأهلية والمهتمّين من الشّخصيات الوطنيّة والشّعبيّة.

أمّا الفصل السادس فقد جاء تحت عنوان: "مبادرات لدعم الأسرى الكتّاب وإبداعاتهم":

تطرّق الكاتب إلى مركز أبو جهاد لشؤون الحركة الأسيرة، وإلى أهدافه التي تتلخّص بجمع كل ما يخصّ الأسرى الفلسطينيّين، سواء أكانت متعلّقات شخصيّة، كالرّسائل الفرديّة والخاصّة، أم الرّسائل الجماعيّة والعامّة، والكرّاسات والمخطوطات والصّور واللوحات، وكل ما له علاقة بالمنتج الثقافي والفكري للأسرى. كما أنّه يهدف إلى توسيع نطاق البحث عن كل ما له صلة بتاريخ وماضي الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة الأسيرة، وتنفيذ مشروع الموسوعة السّرديّة التي تؤرّخ وتوثّق لمسيرة الحركة الوطنيّة الأسيرة.

كما تحدّث الكاتب عن مبادرة المحامي الحيفاوي حسن عبادي: "لكلّ أسير كتاب"، التي شجّعت مبادرات أخرى ولدت من رحمها.

واستطاع العبادي أن يروّج لأدب الأسرى الذي أطلق عليه "أدب الحرية"، وأن يجمع حوله كوكبة من الكتّاب والنّقّاد الّذين تولّوا مهمّة الحديث عن هذه الإصدارات في البلدان العربيّة.

ولم يكتف الكاتب بالتطرّق إلى الكتاب والصحفيين الأسرى الفلسطينيين، بل تحدّث عن منظمة القلم الدولية التي تطلق حملتها التضامنية في 15 نوفمبر من كل عام تحت

عنوان "يوم الكاتب المسجون"، تسلّط فيها الضوء على قضايا الكتاب المسجونين أو الذين يواجهون المحاكمة في جميع أنحاء العالم، نتيجة لممارستهم السّلميّة لحقّهم في حرّيّة التعبير. وتساءل في عنوان مقاله: أين الكتاب المسجونون؟ وكانت إشارة إلى تجاهل المنظمة المذكورة الأسرى الفلسطينيّين الكتّاب.

ومن خلال مقاله وصف مأساة وضع الكاتب داخل المعتقلات، وما يتعرض له من اضطهاد وتعذيب.

وقد بذل الكاتب مجهودا كبيرا من أجل إعداد قائمة بأسماء "كتّاب السجن"القابعين في سجون الاحتلال، لتكون نواة لمعجم خاص بهم، سيتم العمل على إنجازه في المستقبل ليشمل إبداعاتهم، والإضاءة أكثر على أحوالهم الفكريّة والشّخصيّة، ونماذج من كتاباتهم.

أولا: لفت الانتباه إلى أنّ الأسرى الفلسطينيين أصحاب فكر ومشروع إنساني كبير، وليسوا كما يروّج لهم الاحتلال بأنهم إرهابيون وقتلة.

ثانيا: ردّ على منظمة القلم الدولية (PEN) التي تتجاهل الأسير الفلسطيني ضمن أنشطتها، مع أنّها مهتمّة بالسجناء السياسيين في السجون العربية وغير العربية.

ثالثا: تحقيق نوع من العدالة البحثيّة والشّموليّة، فيما يخصّ الأسرى الكتّاب.

وتبع الأهداف المذكورة القائمة التي شملت 133 اسما من الكتّاب الأسرى في سجون الاحتلال. وقد أشار الكاتب أنّ القائمة ليست شاملة ولا نهائية، على الرغم من أنّه لم يدّخر جهدا في سبيل حصر جميع الأسماء.

وقد ختم كتابه برسالة ترجمها إلى اللغة الإنجليزية محمد خموس، موجّهة إلى منظّمة القلم الدّوليّة (PEN)، بعنوان: "أين الكتّاب الفلسطينيّون المسجونون"، أشار الكاتب فراس حج محمد من خلالها إلى تقصير المنظمة بحق الأسرى الفلسطينيين الكتّاب،

ووصف بشاعة ما يتعرّض له الأسير الفلسطيني. وتساءل من خلالها: من سيدعم الأسير الفلسطيني،الذي يواجه نوعين من القمع، داخل سجون الاحتلال و داخل سجون الأنظمة العربية المختلفة.

رسالة قويّة تضع منظمة القلم أمام مسؤولياتها الأخلاقية والإنسانيّة، تجاه من دفع ثمنا غاليا مقابل حريّة الفكر والكلمة.

تحقيق صحفي (1)

عن "أدب الأسرى" في المشهد الأدبيّ الفلسطينيّ

هذا جزء من تحقيق صحفي من إعداد الكاتب أوس يعقوب، نشر في موقع "ضفة ثالثة"، وشارك فيه الكاتب فراس حج محمد مع آخرين، ونشر على جزأين، نُشر الجزء الثاني بتاريخ: 18 سبتمبر 2024، ويمكن العودة إليه من خلال هذا الرابط: https://n9.cl/qb594

وفي هذا الجزء (الثاني والأخير) نقف على آراء كلّ من الشاعر والناقد فراس حج محمد، والروائيّة ديمة السّمّان، والشاعر والكاتب إياد شماسنة، والكاتبة والأسيرة المحرّرة منى قعدان.

بداية سألنا الشاعر والناقد فراس حج محمد، صاحب كتاب "تصدّع الجدران: عن دور الأدب في مقاومة العتمة"، عن تقييمه لـ "أدب الأسرى" في فلسطين، فأجابنا: ثمّة عوامل كثيرة ساهمت في تطوّر "أدب الأسرى" الفلسطينيّ، بشكلٍ لافت، وأنتج كثيرًا من الأسماء المميّزة على الصعيدين الموضوعيّ والفنّيّ، فهذا الأدب رافدٌ مهمّ من روافد الأدب المقاوم في كلّ مراحله، ولعلّ ظاهرة المؤبّدات في الحكم لها أثر سيّء على الأسير، إلّا أنّها منحته من باب آخر فرصة ليبني عالمًا موازيًا، بجغرافيّته وزمانه مع هذين الفضاءين السائلين خارج جدران السجن.

يضيف حج محمد: بعد هذا الكمّ الكبير من الإنتاجات المنوّعة شعرًا وسردًا على اختلاف أنواعه أستطيع أن أقول إنّنا أمام "أدب سجون" فلسطينيّ مزدهر رغمًا عن قساوة عالم السجن. إضافة إلى ذلك فإنّني أرى أنّه من الإنصاف أن تكون هناك معايير نقديّة نابعة من التجربة ذاتها، فلا يعقل أن أحكم على أدب كتب في ظلّ القسوة

والعتمة والتوجّس كالأدب الذي كتبه صاحبه في غرفة مكيّفة! وأطبق عليه المعايير ذاتها، إنّ في هذا ظلمًا للتجربة ذاتها وخصوصيّتها.

1) من خلال قراءاتك، كيف تقيم "أدب السجون" في فلسطين، لا سيما ونحن نعيش تجربة متميّزة للنضال الفلسطينيّ في سجون الاحتلال؟

ثمة عوامل كثيرة ساهمت في تطور أدب السجون الفلسطيني، بشكل لافت وأنتج كثيرا من الأسماء المميزة على الصعيدين الموضوعي والفني، فهذا الأدب رافد مهم من روافد الأدب المقاوم في كل مراحله، ولعلّ ظاهرة المؤبدات في الحكم، وما لها من أثر سيئ على الأسير إلا أنها منحته من باب آخر فرصة ليبني عالما موازيا، بجغرافيته وزمانه مع هذين الفضاءين السائلين خارج جدران السجن. بعد هذا الكم الكبير من الإنتاجات المنوعة شعرا وسردا على اختلاف أنواعه أستطيع أن أقول إننا أمام أدب سجون مزدهر رغما عن قساوة عالم السجن. إضافة إلى ذلك فإنني أرى أنه من الإنصاف أن يكون هناك معايير نقدية نابعة من التجربة ذاتها، فلا يعقل أن أحكم على أدب كتب في ظل القسوة والعتمة والتوجس كالأدب الذي كتبه صاحبه في غرفة مكيّفة! وأطبق عليه المعايير ذاتها، إن في هذا ظلماً للتجربة ذاتها وخصوصيتها.

2) كيف تنظر إلى حصول الكتّاب الأسرى على جوائز أدبيّة مرموقة، والتي كان آخرها حصول صاحب رواية "قناع بلون السماء" باسم خندقجي بـ"جائزة البوكر" لعام 2024، بتقديرك هل يستحقّون هذه الجوائز فنّيًّا؟

لا تجد إجماعا من أهل الصناعة الأدبية على أن فلانا من الكتاب يستحق أي جائزة، سواء أكان الفائز أسيرا أم لم يكن، فهذا النقاش يحتدم مع كل جائزة، محلية وعربية وعالمية، ابتداء من نوبل وانتهاء بأصغر جائزة تمنحها

رابطة أو مؤسسة وطنية. إنما لا بد من أن يكون الفائز بالجائزة يستحق أن يكون فائزا بأحد الاعتبارات التي تضعها لجان التحكيم، فعلى سبيل المثال يشكل فوز باسم خندقجي بالجائزة أمرا مهما من ناحيتين؛ أنه جاء في سياق الحرب على غزة، وأنه أدخل المجتمع الثقافي في صلب النقاش السياسي الأدبي، عدا أن الرواية بتقنياتها وحيلتها الفنية على الرغم مما واجهته من انتقادات تقدم اقتراحها الجمالي الذي يربط الأيديولوجي بالسياسي والتاريخي والإحالات الفنية، فحاول باسم أن يقول شيئا من خلال هذا الاقتراح الجمالي، فاجتهد ولكل رأيه بعد ذلك، المهم لديّ أنه جعلنا جميعا ندخل معمعة السؤال لنحرك ما ركد من المياه الآسنة، وهذا هدف آخر من أهداف الجوائز، وإن كان هدفا عرَضياً.

3) من أين يستقي الأسرى أحداث أعمالهم-ن الأدبيّة سواء كانت روايات أو نصوص أو قصائد؟

عالم الأسر عالم متشابك وثري، والسجن يصنع تجربة مميزة لها امتدادات متشعبة مع الذات أولا، لأنك تكون في مواجهة ذاتك بكل ما فيها من اضطراب وتحولات، ربما لن تفطن لهذه الذات إلا بفعل هذه التجربة، ثانيا امتدادات المكان الجديد المحصور بكل ما فيه من سجان متربص وزملاء سجن وزنزانة، والمحيط الخارجي حيث المجتمع والفصيل السياسي. هذه روافد تجعل الأسير يدرك الأشياء على نحو مختلف وخاص، وهذا ما يصنع تعددا في الحكاية، نظرا لاختلاف هذه التشابكات.

4) نتساءل أين أدب الأسيرات، وكيف تقيمه، ولماذا لا يتمّ الإشارة إلى أعمالهنّ في معظم كتابات النقّاد؟

الكاتبات أغلبهن محرومات من الإشارات النقدية، فحضورهن النقدي كأمثلة في كتب النقد قليلة، وهذا ينطبق على الأسيرات الكاتبات إلا إذا كان الحديث عن الأسيرات. عدا أن الأسيرات الكاتبات أقل عددا وإنتاجاً من الكتاب الأسرى، فالأسيرة تكتفي في أحيان كثيرة بإنتاج عمل أو عملين، وأغلبهن كتبن أعمالهن خارج السجن كالأسيرة عائشة عودة والأسيرة الدكتورة وداد البرغوثي على سبيل المثال. لكن هذه التجربة أنتجت كتبا مهمة على صعيد التوثيق للتجربة الاعتقالية، والإضاءة عليها من الداخل لأن ثمة أشياء لا يستطيع أحد كتابتها إلا الأسيرة ذاتها تعبيرا عن قضايا خاصة وجهة نظر مختلفة.

الأسرى ومعركة الوعي والكتابة

توجّه الصحفي علي النويشي إلى الكاتب فراس حج محمد بهذه الأسئلة من أجل تحقيق صحفي لمناقشة أدب السجون ورواية "قناع بلون السماء" للأسير الكاتب باسم خندقجي. شارك في هذا التحقيق كتاب ونقاد آخرون، ونشر في موقع الجزيرة نت بتاريخ: 2024/3/13*.

ما الهدف من تشجيع الأسرى الفلسطينيين على رواية قصصهم؟

تعد تجربة الاعتقال تجربة مهمة في حياة الكاتب، بل في حياة الإنسان بشكل عام، وهي ليست تجربة سياسية فقط، بل إنسانية، واجتماعية، لها بعد ثقافي. فعندما يكتب الأسير هذه التجربة فإنه يوثق لمرحلة مهمة من مراحل حياته الشخصية التي ستشكل مع حيوات آخرين وثيقة مهمة على حقبة من حقب النضال الفلسطيني الممتد منذ أكثر من قرن. فلا بد من أن يكتب الأسير قصته، ونشجعه جميعا على ذلك، لأن له قصة إنسانية مختلفة عن غيره. عدا أن ما يكتب يمكن اعتباره أدبا تسجيلياً مهماً.

ربما لا يختلف الأسرى في كثير من الخطوط العامة فيما يكتبون من لحظة الاعتقال والتنقل والمحاكمات والتحقيق والعيش داخل المعتقل نفسه، والعلاقة بين الأسرى أنفسهم، وعلاقة الخارج مع الداخل إلا أن هناك ما يخص الأسير نفسه، مشاعره، وعالمه الخارجي الذي يعيش معه داخل التجربة يجعل من تجربته تجربة فريدة غير مكررة، خاصة إذا كتب الأسير أدبا شخصيا ولم يذهب إلى العموميات كما كتب على سبيل المثال الروائي هيثم جابر وعنان الشلبي وأحمد الشويكي. فقد قدموا شهادات شخصية مهمة على هذا العالم.

* هذه الأسئلة من أجل تحقيق صحفي نشر في موقع الجزيرة نت، تحت عنوان ""تصدع الجدران".. ثورة أدبية للأسرى الفلسطينيين تصل للعالمية"، ويمكن الاطلاع عليه وقراءته من خلال هذا الرابط: https://aja.ws/fnu0oy

والأمر الثالث، فإن هذه التجارب بعمومها تساهم في رفد أدب المقاومة الفلسطينية لما تحمله من نفس في التحدي والمقاومة، وعليه فإنها تشكل ركنا أساسيا من هذا الأدب، وسيظل الأدب الفلسطيني ناقصا إذا لم يكن أدب الأسرى أحد روافده المهمة. هذا الأدب الذي يتشكل من ثلاث دوائر مهمة: أدب الداخل، وأدب الشتات، وأدب الأسرى.

هل كتابة الروايات وسيلة الأسرى للكفاح ضد الظلم؟

كل كتابة هي مقاومة، سواء أكانت لسياسي ومقاوم أو لأي كاتب آخر، فالكتابة لها هذه الأهمية في أنها أداة من أدوات المواجهة، وتكتسب الكتابة في الحالة الفلسطينية أهميتها من هذا الباب، ويتعمد الاحتلال التضييق على الكتاب لأن الكتابة خطيرة، وهم يدركون ذلك، ففي كتابي "تصدع الجدران- عن دور الأدب في مواجهة العتمة" أحصيت أكثر من 130 كاتبا وكاتبة داخل المعتقلات الصهيونية، يكتبون الأدب والمقالة والبحث، ويعانون من كافة أشكال الاضطهاد.

وفي تجربة خاصة عملتُ عليها مع المحامي حسن عبادي، جمعنا شهادات 36 أسيرا فلسطينيا تحدثوا عن طقوس الكتابة داخل المعتقلات، يظهر الأسرى في هذه الشهادات كيف أنهم يصارعون من أجل الكتابة، كما يصارعون من أجل القضية السياسية وبذات الدرجة التي يناضلون من أجل أن يعيشوا الحياة بحرية وكرامة.

ولأهمية الكتابة للأسرى، فإن تجربة الاعتقال، وخاصة عند ذوي الأحكام العالية من أمثال باسم خندقجي وكميل أبو حنيش وهيثم جابر وأحمد العارضة تحولت الكتابة إلى مشاريع ثقافية كاملة ومكتملة، وأتاحت لهم تجربة الاعتقال الطويلة فرصة كبيرة للتأمل والاشتغال على هذه المشاريع بحرفية وفنية عالية، على الرغم من تعرض مشاريعهم إلى المصادرة أو التدمير، وقد يتعرضون بسببها إلى إجراءات العزل الانفرادي والعقوبات الأخرى، كما حدث مع كثيرين منهم.

هل القصد مقاومة استخدام القوّة الغاشمة في قهر الإنسان، أم أن تجارب الأسر من الممكن أن تزيد وعي الأمّة العربية بطبيعة العدوّ، وتزيد قدرتها على مواجهته؟

أعتقد أن الأمة بمفكريها ومثقفيها ومتعلميها يدركون طبيعة هذا العدو، فلم يعد أحد يجهله، ومنذ زمن بعيد يكتب المفكرون، ويحللون العقلية الصهيونية الاستيطانية التحليلية القائمة على الأسطورة التوراتية، كعبد الوهاب المسيري وفهمي هويدي وإدوارد سعيد وآخرون كثيرون ممن أفاضوا واستفاضوا في هذه المهمات الجليلة، فالوعي الثقافي الفكري موجود، لكن للأسف لا يوازي هذا الوعي الجذري وعي سياسي حقيقي قائم على مقاومته ومواجهته، فالأنظمة العربية ليست على المستوى المطلوب في تحقيق الإرادة الشعبية والوعي الفكري في الحد من مخاطر الهجمة الصهيونية على الشعب الفلسطيني وثقافته ومثقفيه.

وبالطبع فإن كل هذه المشاريع الثقافية الكبيرة تتجه إلى مقاومة آليات البطش والتغول الصهيوني في العقل العربي والجغرافيا العربية، وهذه جهة مهمة تحرس الوعي العام للجماهير العربية من إمكانية التطبيع مع العدو، وإمكانية قبوله ليكون عنصرا متآلفاً في المنطقة العربية، ومكونا من مكوناتها الطبيعية، بل على العكس، سيظل المشروع الصهيوني جسما غريباً عن المنطقة مهما طال عمره.

ومع كل ذلك لا يمكن تحميل المثقف والكاتب والأسير مهمة النضال وحده، فالكتب ليس بإمكانها إخراج العدو من أرض احتلها، ولن ترجع شهيدا قضى نحبه، ولا أسيرا غاب في دياجير القهر، إنما لا بد من قوة تصارع قوة العدو. وإن كانت القوة وحدها لا تكفي فإن الفكر وحده لا يكفي، وإنما لا بد من السلاحين معاً إن أردنا التحرر.

هل نعتبر روايات الأسرى أعمالا أدبية فحسب. أم هي رسائل وشهادات وأحلام وتحليلات وتنبؤات للمستقبل؟

هناك أعمال كتابية للأسرى، تكمن أهميتها بما تحتويه من أفكار، فكثير من تلك الكتابات لا تحاكم بناء على الأصول الفنية والنقدية المتشددة في المعايير النقدية، بل ربما كانت الناحية الأدبية فيها ضعيفة، وقد عملتُ وحررت كتباً لأسرى، لم تكن عالية المستوى في قيمتها الأدبية إنما تكمن أهميتها من ناحية توثيقية، وخاصة تلك الأعمال التي تضيء على عالم الأسر الداخلي فيما يخص علاقة المعتقلين بعضهم ببعض تنظيميا، وعلاقة التنظيمات فيما بينها، هذا عالم مجهول للجمهور العربي، والكتابة فيه أمر بالغ الأهمية لأنه يقدم صورة عن النضال الفصائلي داخل المعتقلات.

ثمة كتب مهمة في هذا الجانب مما كتبه الأسير مروان البرغوثي وأحمد سعدات وعبد الناصر عيسى وآخرون لم تقتصر على تحليل اللحظة الراهنة بل تحمل تصوراتها السياسية للمستقبل فيما يخص العلاقة مع الآخر، أو شكل الدولة والكيان السياسي الفلسطيني القادم، ووجهات نظر فيما يخص المسائل المعقدة كالاستيطان والحدود والقدس، وغيرها، بالمجمل لم يترك الأسرى أمرا دون أن يبحثوه ويعطوه حقه من التحليل المعبأ بالرؤى والأحلام والأيديولوجيا أيضا، خاصة مشروع عبد الناصر عيسى الذي يتابعه منذ سنوات وأصدر عدة كتب منه تحت عنوان "وفق المصادر".

لقد طرحَ فراس حج محمد أسئلة في غاية الأهمية في هذا الكتاب فيما يتصل بكتابة الأسرى: لماذا يكتبون؟ فهل الكتابة ترفٌ، كيفَ تكون ترفاً لمن هم خارج السجن وسط الفوضى العارمة والضوضاء والتشظي خلف لقمة العيش؟ وكيف تكون ترفاً للأسير وهو ينتظر إما حكماً مؤبداً وإما سنوات طويلة تجرفهُ معها كسيلٍ يجرف الماء والكلأ والحياة.

نعم، الكتابة قد تكونُ كلّ شيء إلا ترفاً، فهي كينونة، وعجينة تشكلُ صاحبَها وتدبّ فيه الروح، في الكتابة وحدها يخرج الأسير من زنزانته، يتحول إلى ما يشاء، إلى عصفور، إلى بحر، إلى نهر، إلى غيمة، إلى وردة على خد الحبيبة. وفي الكتابة وحدها لن يشعر بالظمأ من هو على أهبة الأمل دوماً، ولذلك فقد أحصى الكاتب مجموعة كبيرة من الأسرى الكتّاب- ما زلوا في السجون الصهيونية- ختم بها كتابه تجاوز عددهم (130) أسيرا كاتباً.

وفي سؤال آخر، لا يقلّ أهمية عما قبلهُ: لماذا تصرّ إسرائيل أن يكون لديها أسرى؟

قد تكون الإجابة ساذجة جداً لو اكتفينا بالقول إنّ من أهمّ وسائل الهجوم التي يتبعها أيّ احتلال هي الاعتقال، أبداً غير صحيح... أما أن يكون الاعتقال ممنهجاً ولهُ قواعد وأيديولوجيات ومفاهيم وأبعاد، هنا وجبَ علينا الوقوف عند السؤال والتأمل في الإجابة، فكما سبق وسألت فيما إذا كنا أمام احتلال ذكي، قد تكون إجابتي «نعم»، والاعتراف بذلك لا يعيب، رغم رفضي القطعي وصفه بتلك الصفة التي لا أقصد أبداً فيها المديح، بقدر ما أقصد فيها التسلط والتجبّر.

صفاء أبو خضرة

ISBN 978 - 9923 - 802- 37- 3

9 789923 802373